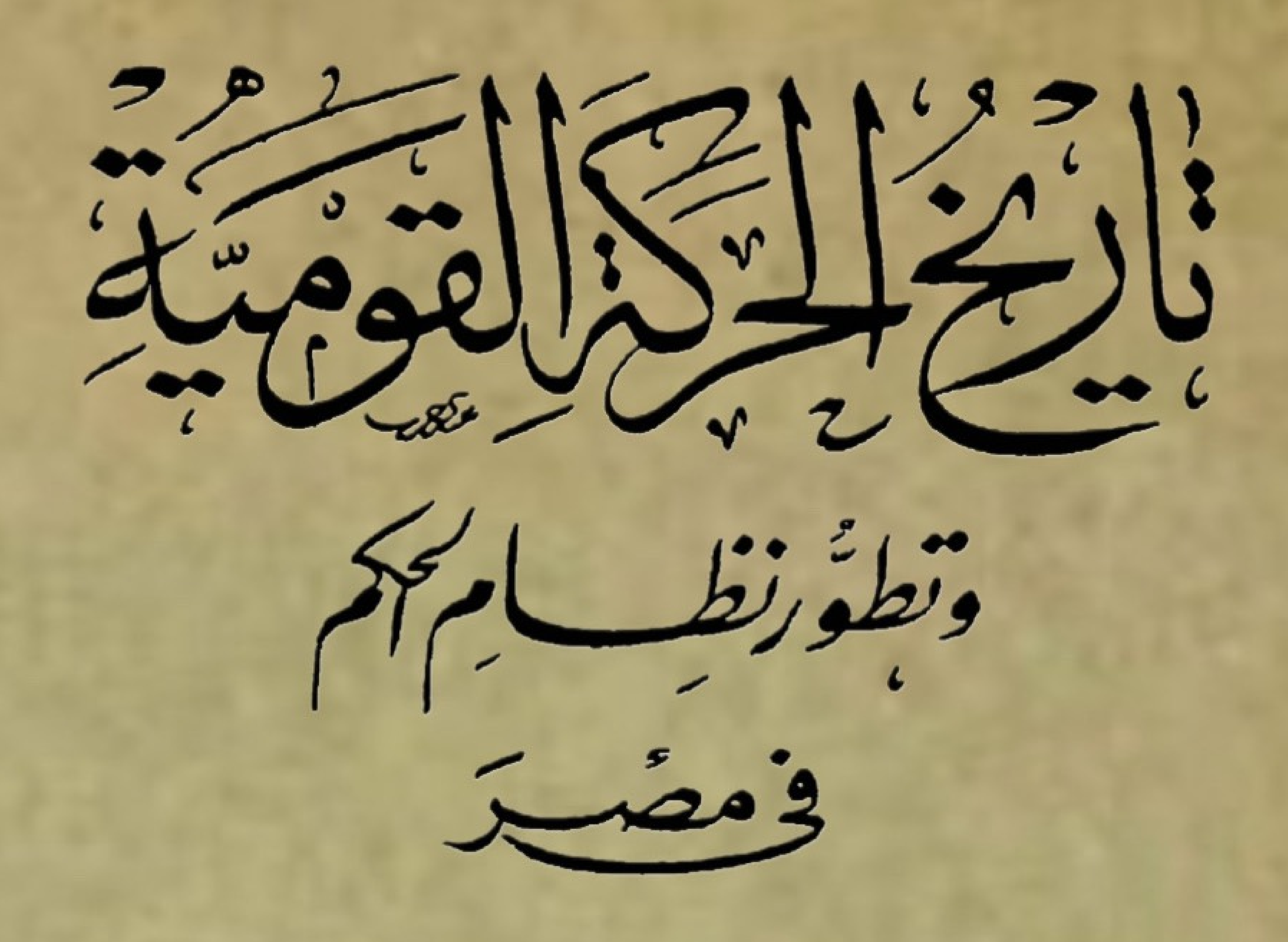


# تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر

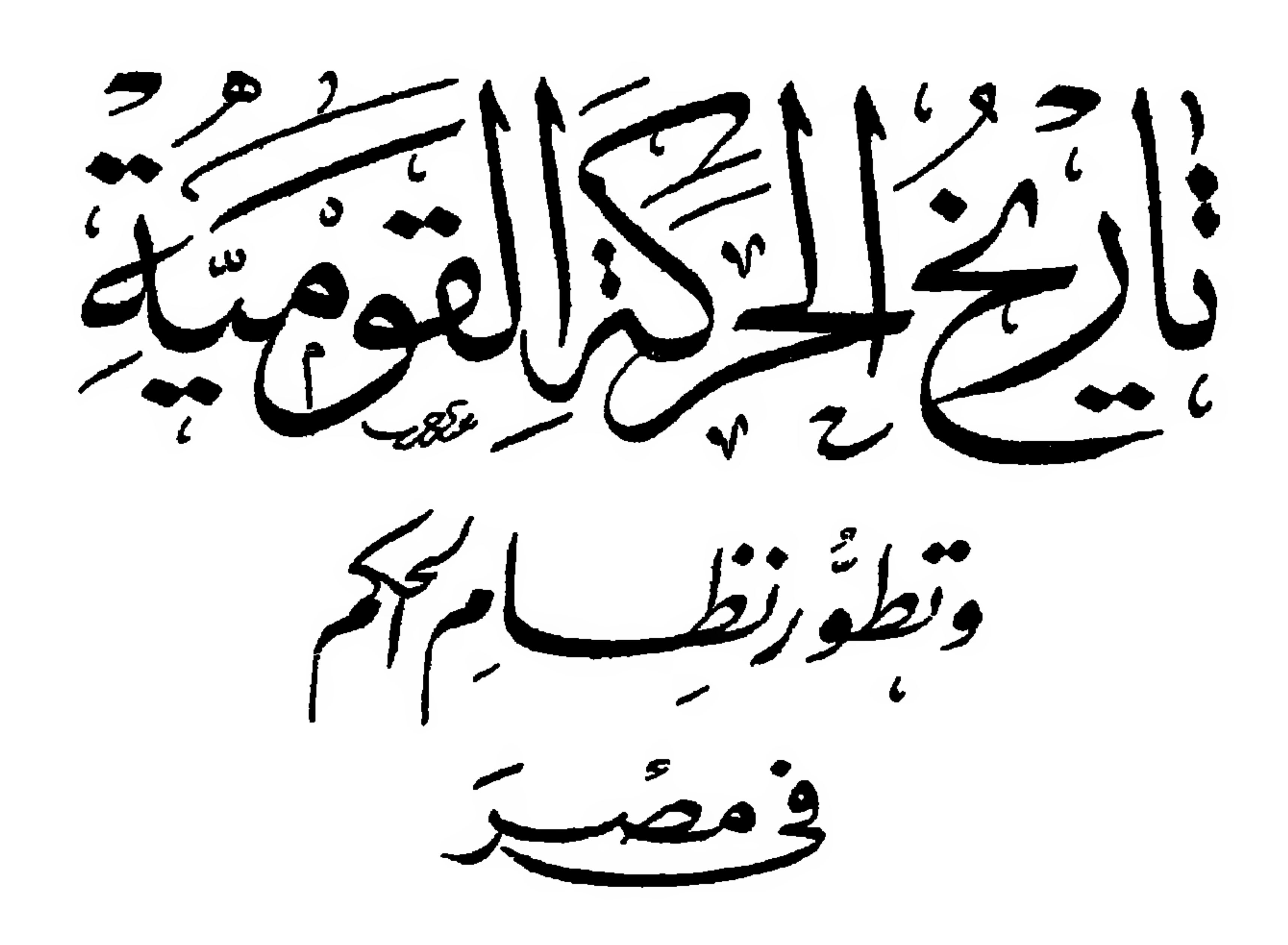
عبد الرحمن الرافعى بك

## الجزء الاول



الطبعه الاولى — ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر




عبد الرحمن الرافعي بك

## الجزء الاول



الطبعة الاولى — ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاتحة كل خير وتمام كل نعمة

# مقدمة

— ١ —

لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحتوى تاريخ الجهود التى بذلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها

تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات لجهاد الماضى ، وعبر لجهاد الحاضر ، وعظات لجهاد المستقبل ، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية الآباء للأبناء

وهذا كتاب دونت فيه تاريخ الحركة القومية المصرية ، أضع بين أيدى القراء الجزء الأول منه ، راجياً أن أتبعه بالأجزاء الباقية ، لأحقق أملاً تعلقت به نفسى ، وأتم عملاً شرعت فيه منذ سنين

— ٢ —

كان فى نيتى من سنوات عدة أن أضع تاريخاً لفقيد الوطن العظيم المغفور له « مصطفى كامل » على مثال كتاب « بول دشانل » عن « جمبتا » ، خدمةً للقضية الوطنية ، وأداءً لواجب الوفاء نحو من تلقيت عنه مبادىء الوطنية الأولى

أعددت مواد الكتاب وكتبت بعض فصوله ، لكن تاريخ مصطفى كامل باشا استتبع الكلام فى مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر ، والتطورات التى تعاقبت عليها ، فاستوقفنى هذا البحث ، وأخذت أعالج إدماجه فى الكتاب كفصل من فصوله فلم أستطع ، لتشعب الموضوع وانفساح مداه ، ورأيت الايجاز فيه لا يشفى غليلا ولا يؤدى الى الغاية التى أنشدها من وضع الكتاب ، فتغيرت وجهة نظرى فى العمل ، وتاقت نفسى الى دراسة أدوار الحركة القومية من بدء ظهورها الى اليوم ، فعزمت على تغيير برنامج الكتاب ، ووضعت له تبويبا يجعل تاريخ مصطفى كامل باشا جزءاً من أجزائه

إن مصطفى كامل يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية ، سبقته أدوار وتلته أخرى ، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرت على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها ، من أجل ذلك عزمت على أن أقرن دراسة هذا العصر بالعصور التى خلت من قبله ، والأدوار التى تلت من بعده ، فانما هى سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الأسمى

## — ٣ —

اعتزمت إذن أن أكتب عن تاريخ الحركة القومية فى مصر ، فترامت شقة البحث ، وتشعبت أمامى مسالك العمل ، وطويت أوراقى الاولى ، وشرعت أبحث مواضيع الكتاب من جديد ، فأخذت فى الرجوع الى الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، رجعت الى الحركة العرابية ، فاذا بها ترجع بأسبابها ومقدماتها الى حركة الاستياء من نظام الحكم القديم والى الحركة الفكرية والسياسية التى ظهرت على عهد اسماعيل ، وهذه الحركة الاخيرة لم تظهر فجأة ولم تكن الأولى فى تاريخ مصر القومى ، بل هى تطور جديد للروح

القومية التى بدأت تظهر فى البلاد أواخرَ القرن الثامن عشر ، فالى هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، فان هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جَذوة الروح القومية فى نفوس المصريين ، وهى أول صفحة من صفحات الجهاد الاهلى فى تاريخ مصر الحديث

— ٤ —

بدأ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الامة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومى محتفظاً بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الانجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التى جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها فى وادى النيل ، وهزيمتها فى (رشيد) و (الحماد)

فالحركة القومية المصرية يرجع ظهورها إلى مائة وثلاثين سنة ، من ذلك الحين وُلدت وظهرت ، ثم أخذت فى النمو والتطور شأن الكائن الحى ، وتعاقبت عليها الأدوار المختلفة ، فحيناً كانت تقوى ، وآونةً تضعُف ، وطوراً تشتد وتنشط ، وتارة تخمد وتفتر ، على أنها طوالَ هذه السنين سائرة فى الجملة إلى الأمام ، ولئن أصابتها أطوار تراجع ، من ضعفٍ أو فتنة ، فانها لا تلبث أن تعود إلى النشاط والتقدم ، مجددةً قواها ، منتفعةً من التجاريب ، طامحةً إلى المثل الأعلى

— ٥ —

يرجع بدء الحركة القومية إذن إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولإثبات هذه الحقيقة ودراستها على ضوء الوقائع التاريخية وبحث مقدماتها ونتائجها قد خصصت الجزءين الاول والثانى من الكتاب ، فمنهما تتألف الحلقة الأولى من سلسلة الحركة القومية

وثمتَ بحث آخر استتبعه تاريخ الحركة القومية وهو دراسة نُظُم الحكم التى تخللت أدوارها ، ذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت فى مختلف العصور والبلدان من الأسباب الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية ، كما أن لهذه الحركات أثراً فعالا فى تطور نظام الحكم ، بحيث تجد بينهما اتصالا طبيعياً يجعل الاشتراك فى بحثهما أمراً لا مندوحة عنه ، لذلك جعلت دراسة نُظُم الحكم فى مصر وتطورها قسما من أقسام الكتاب وأومأت اليها فى عنوانه

على هذا النحو شرعت فى بحث أقسام الكتاب ومواضيعه ، ومهّدت له بدراسة الحركات القومية فى أوروبا وأمريكا للوقوف على ما بها من حقائق وعظات ، وما بينها و بين حركتنا القومية من ملابسات ومشابهات ، ووضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً (١) فى تاريخ النهضات القومية فى بعض البلدان كمقدمة لدراسة الحركة القومية فى مصر

— ٦ —

ما هى الجهود التى بذلتها الأمة فى سبيل تحرير مصر من النير الاجنبي وفك قيود الاستبداد عنها وتقرير حقوق الشعب السياسية ؟ ما هى الجهود التى بذلتها والآلام التى احتملتها فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ؟ ما هى الحوادث التى ارتبطت بهذه الجهود أو وقعت خلالها وناصرتها أو عرقلتها ؟ ما هى الأدوار التى

(١) « الجمعيات الوطنية ، صحيفة من تاريخ النهضات القومية »

تطورت اليها الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ؟ ما هى نُظُم الحكم التى تعاقبت على البلاد فى خلال تلك الأدوار وما مبلغ أثرها فى تطور الحركة القومية ؟

هذا هو موضوع الكتاب وتلك هى المسائل التى بحثتها جهد المستطاع على هدى الحقائق التاريخية

— ٧ —

وبعد ، فلست مدعياً فى هذا الكتاب أننى وفيت الموضوع حقه وكفايته من الدرس والبحث ، فانى مقر بأن هذا التاريخ بعيد الأفق واسع المدى يحتاج إلى دراسة مستطيلة فى مباحث مستفيضة ومؤلفات عديدة ، وحسبك أن تلقى نظرة على ما لا يحصى من الكتب التى ظهرت ولا تزال تظهر الى اليوم فى تاريخ الانقلابات والحركات القومية فى مختلف البلدان لترى أن كتاباً واحداً لا يمكن أن يفى بتدوين صفحات الجهاد القومى

والآن أقدم لمواطنىّ الأعزاء الجزء الأول من الكتاب ، وأرجو من القارىء أن يتجاوز عما به من زلات القلم وهفوات الكتابة ، والله يعصمنا من الشطط والهوى ويلهمنا الصدق والاخلاص فى خدمة الوطن العزيز

أول يناير سنة ١٩٢٩ عبد الرحمن الرافعى

# اهداء الكتاب

إلى أخى العزيز المرحوم أمين بك الرافعى ، من فَقَدْتُهُ أحوجَ ما أكون إلى حبه وعَطفه ، إلى ذكراه المجيدة ، إلى رُوحه الطاهرة أهدى هذا الكتاب

أهديك يا أخى العزيز كتابى وقد حالَ الحوْل وانقضى العام على انتقالك إلى الرفيق الأعلى ، وكم كنت أرجو أن أهديه وأنت منى قريبٌ ، فى عالم الدنيا ، أمَّا وقد فرق الموت بينى و بينك فَلْتَتَقَبَّلْ رُوحُك الطاهرة هدية أخيك الحزين

اللهم بارىء تلك النفس العالية ، ومُرْسِلَها من نورك كوكباً إنسانياً ، ومُعيدَها إلى جوارك كوكباً أزلياً ، أدخِلْ عليها رَوْحاً من عندك ، وسلاماً منى ، ياقريبَ الدُّعاء ؟

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ عبد الرحمن الرافعى

# الفصل الاول

## نظام الحكم في عهد المماليك

يبدأ كتابنا بظهور الروح القومية المصريه فى أواخر القرن الثامن عشر وتطور نظام الحكم من ذلك الحين ، على أن من الواجب أن نقول كلمة عن نظام الحكم فى مصر قبل ذلك العصر ، أى فى عهد البكوات المماليك ،[1] لتكون تلك الكلمة بمثابة تمهيد لبيان التطور الذى طرأ من بعدُ على ذلك النظام

دخلت مصر فى حوزة الحكم العثمانى ابتداء من سنة ١٥١٧ (٩٢٣هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال سلطنة المماليك الشراكسة منها ، فاستتبع الفتح العثمانى وضع نظام جديد للحكم فى مصر وهو النظام الذى رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨

## من هو الواضع لهذا النظام

ان الفكرة السائدة فى هذا الصدد أن واضع هذا النظام هو السلطان سليم ، وهذه الفكرة تراها مبسوطة فى معظم كتب التاريخ ، وفى رحلات الافرنج الذين ساحوا فى مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ودونوا ما شاهدوه عن نظام الحكومة المصرية . لكن فريقاً من علماء الحملة الفرنسية الذين درسوا هذا النظام أثناء اقامتهم بمصر يذهبون الى أن السلطان سليمان هو الواضع له ، فالمسيو فوريبه Fourier سكرتير المجمع العلمى المصرى فى عهد نابليون يقول أن السلطان « سليمان » هو الواضع لنظم

---

(١) عبرنا عنهم بالبكوات المماليك تمييزاً لهم عن السلاطين المماليك الذين تألفت منهم الدولتان البحرية ، والبرجية (الشراكسة)

الحكم التى عرفت فى مصر من عهد الفتح العثمانى وان السلطان « سليم » لم يكن رجلا من رجال النظم والقوانين بل رجل حرب وكفاح، ولم يطل مقامه فى مصر طويلا حتى يضع نظام الحكم فيها ، وأن السلطان سليمان الذى سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها حتى لقب بالقانونى هو أيضا الواضع لنظم الحكم فى مصر ، لكن شهرة السلطان سليم فى الحرب وكون الفتح العثمانى تم على يده ودخوله فى مصر ظافراً كل ذلك جعل الناس يذهبون اليه هذه النظم تسامحاً وتجاوزاً (١). وقد أيد هذا الرأى كل من المسيو لانكرى Lancret (٢) والمسيو استيف Estève (٣) فى دراستهما لتلك النظم (٤)

ويقول استيف ان السلطان (سليم) لم يكد يشرع فى وضع نظام الادارة المصرية حتى عاجلته منيته

هذا هو رأى علماء الحملة الفرنسية . ولا يمكننا أن نقبل هذا الرأى على اطلاقه . بل يجب أن نرجع الى الوقائع التاريخية لنتبين مبلغه من الصحة . وهنا يجب أن نرجع الى المصادر العربية وبخاصة التى شهد أصحابها وقائع الفتح العثمانى أو عاشوا فى عهد الحكم التركى وأهم هذه المصادر تاريخ ابن اياس الذى أدرك الفتح العثمانى ومخطوطات ابن أبى السرور البكرى الذى عاش فى عهد الحكم التركى وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية (١٦٤٥ ميلادية)

فخلاصة ما ذكره ابن اياس فى تاريخه (٥) ان مدة اقامة السلطان سليم بمصر

---

(١) انظر كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte وهو مجموعة مباحث علماء الحملة الفرنسية الجزء الاول

(٢) من مهندسي الحملة الفرنسية (٣) مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في عهد الحملة الفرنسية

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادي عشر « ادارة مصر وحكومتها وضرائبها في عهد البكوات المماليك » بقلم لانكري والجزء الثاني عشر « النظام المالي لمصر » بقلم المسيو استيف

(٥) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن اياس المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور

ثمانية أشهر الا أياما قلائل ، وأنه كان متولى الامر فى مصر عين وزيره يونس باشا نائباً عنه ، وكان يلقب بنائب السلطنة ، وظل فى هذا المنصب فترة من الزمن مدة اقامة سليم فى مصر. لكن السلطان (سليم) قبل أن يغادر الديار المصرية بدا له أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة و يوسدها الى «خير بك» . وخير بك هذا هو أحد أمراء السلطان الغورى وكان نائبه فى حلب لما وقعت الحرب ، فخرج على سيده ، وانضم الى السلطان سليم وكان من عوامل انتصاره على الغورى ، فكافأه سليم على خيانته بتوليته نائباً عن السلطنة فى مصر وكان يلقب من عهد الغورى بملك الامراء فلازمه هذا اللقب بعد تعيينه نائب السلطنة . و يقول ابن اياس ان السلطان (سليم) لما رحل من مصر ترك بها من عسكره بالقاهرة نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبنادق نحو خمسمائة رام . وعين من أمراء جنده خير الدين باشا قائداً للحامية العسكرية وجعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل الى المدينة . وكان الامر والنهى لخير بك وسكن القلعة . لكن جنود الحامية ثاروا عليه غير مرة وكادوا يفتكون به . وذكر ابن اياس الفتن التي قامت بين الفريقين والتى شغلت جزءاً كبيراً من نيابة خير بك ومنها يتبين ان التنازع بين نائب السلطنة (الوالى) ورؤساء الجند قد ظهرت بوادره فى أوائل العصر العثمانى . وهذا ما كان يرمى اليه السلطان سليم من ايجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاء الفوضى فى البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية

وذكر ابن أبي السرور البكرى «ان السلطان (سليم) اختار من أمراء الجراكسة أربعين أميراً وجعل لكل منهم أربعين عثمانياً وأمر أن لا يكتبوا فى سفر ولا سواه غير حراسة الجسور وهم الذين يقال لهم الآن أمراء الجراكسة»(١)

يؤخذ من ذلك ان السلطان «سليم» قد وضع فعلا قاعدة النظام السياسى للحكومة ، وهى ايجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الاخرى . الأولى

---

(١) الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة لابن ابي السرور البكري

سلطة نائب السلطان ( الوالى ) والثانية سلطة رؤساء الجند . ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهى سلطة البكوات المماليك الذين رجع اليهم حكم مديريات القطر المصرى . فمن الحق اذن أن نقول بان السلطان ( سليم ) هو واضع نظام الحكم السياسى فى مصر من عهد الفتح العثمانى . أما النظم المالية والقضائية فهى فى مجموعها من وضع السلطان سليمان لانها احتاجت زمناً طويلا حتى استقرت قواعدها . ولم يكن لدى السلطان سليم من الوقت ما يجعله يقرر هذه النظم

## نظام الحكم السياسي

والآن فلنتكلم تفصيلا عن السلطات الثلاث التى كانت أساساً لنظام الحكم السياسى من عهد الفتح العثمانى

الوالى — فالسلطة الاولى هى سلطة الوالى العثمانى . ويلقب بالباشا ومقره القلعة . وهو نائب السلطان فى حكم البلاد . كان يمثله و يبلغ اوامره لرجال الحكومة و يراقب تنفيذها ، وله الرياسة على عمالها ، على ان سلطته محدودة مقيدة . ذلك أن السلطان ( سليم ) خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولاتها الى الاستقلال بها والخروج على حكومة الاستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة تنتهى ولايته بنهايتها مالم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى

رؤساء الجند — والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التى غادرها فى مصر بعد احتلالها . كانت الحامية العثمانية التى تركها السلطان سليم تتألف فى بدء الفتح العثمانى من نحو اثنى عشر ألفا وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة وامهات مدن القطر ومنتظمين فى ست فرق تسمى كل فرقة « وجاق » لكل وجاق اسم خاص . واليك بيان أسمائها

وجاق « المتفرقة » المؤلف من خيرة حرس السلطان ، ووجاق الانكشارية ويسمون بانستحفظان ( المستحفظين ) لما عهد اليهم فى حفظ الامن ، ووجاق العزب ، ووجاق الشاويشية ، ووجاق الهجانة ، ووجاق التفكجية ، وأضاف اليهم السلطان سليمان

وجاقا سابعا وهو وجاق الشراكسة

وكان لكل فرقة ضباط يسمون « الوجاقلية » نسبة الى وجاق . وهذه الكلمة سيرد ذكرها كثيراً فى فصول الكتاب . فكبيرهم يسمى « الاغا » أى رئيس الفرقة . ونائبه ويسمى الكخيا أو الكتخدا . واقدم الضباط ويسمى «باش اختيار» والدفتردار وهو مدير الشؤون المالية ، و الخازندار اى أمين الخزانة ، والروزنامجي أي حافظ السجلات

ومن اجتماع أولئك الضباط أو « الوجاقلية » يتألف مجلس شورى الباشا المسمى ( بالديوان )

ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى ادارة الحكومة ، لان الباشا ( الوالى) لا يستطيع أن يبرم أمرا الا بموافقة أعضائه ، واذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه الى أن يرفع الى الاستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة واشراف على سلطة الوالى

ولما مات السلطان السلطان سليم انشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ديوانين الاول الديوان الكبير ، والثاني الديوان الصغير فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق ( أغاواتها ، ودفترداريها وروزنامجيتها وأمير الحج وقاضى مصر ورؤساء المشايخ والاشراف ورؤساء المذاهب الاربعة . ولهذا الديوان سلطة البت فى شؤون الحكومة الرئيسية ، وله نقض أوامر الوالى ، ولا ينعقد الا نادراً بأمر الوالى

والديوان الصغير، أو الديوان فقط ، ويتألف من كتخدا ( نائب ) الباشا والدفتر دار . والروزنامجى ومندوب عن كل وجاق ، والاغا (الرئيس) وكبار الضباط من وجاق المتفرقة ووجاق الشاويشية و ينعقد كل يوم فى قصر الوالى و ينظر فيما تحتاج اليه البلاد . وكان الباشا يبلغ أمره للديوان الكبير والديوان الصغير بوساطة كتخدائه (نائبه ) وعليه تنفيذ قرارات الديوانين وكان يحضر جلساتهما من وراء ستار دون أن يشترك فى مداولاتهما

وقد صار وجاق الانكشارية مع الزمن أهم الوجاقات فكان رئيسه المسمى

( اغاة الانكشارية ) بمثابة القائد العام للحامية العسكرية [١] ومما يجدر ملاحظته أن الوجاقات بعد ان استقرت فى البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا فى عدادها فصار لها صبغة محلية وبخاصة بعد ان انصرفت تركيا فى عهد تقهقرها عن ارسال الجنود الى مصر، فسد المصريون على توالى السنين الفراغ الذى حدث فى صفوف الحامية العثمانية ، ومن بقى منها استوطنوا مصر واندمجت سلالاتهم فى أهلها ، ويلاحظ أيضاً ان عدد الوجاقات قد تناقص مع الزمن أو اندمج بعضها فى بعض . فقد كتب المسيو دى مايليه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر [٢] وأوائل الثامن عشر بياناً عن الوجاقات التى شاهدها فى ذلك العصر ، ووصفها كما رآها ، فقال انها خمس وجاقات وهى :

١ — وجاق المتفرقة ، وذلك أعرقها أصولا ، وان كان أقلها أهمية وعدده من ألف الى ألفين من الفرسان وهو مؤلف من حرس الباشا و بعض البكوات و بعض سراة التجار الذين يناصرون الباشا و ينتمون اليه . ومن بعض الأجناد الذين انفصلوا عن

---

(١) كلمة « انكشارية » مأخوذة من الكلمة التركية « يكي جرى » أي الجند الجديد . والكاف التركية تنطق نونا . والجيم المعطشة تنطق شيناً . وابن ابي السرور البكري يكتبها « ينكجرية » وكذلك الجبرتي . ويقول ابن ابي السرور في كتابه « الروضة المانوسه في أخبار مصر المحروسة » عن أصل كلمة « اغاة الينكجرية » ان السلطان سليم لما خرج من مصر « قرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا جعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل المدينة وهو الآن في زماننا يسمى « اغاة الينكجريه » وكتاب الروضة المانوسة تنتهي حوادثه سنة ١٠٥٥ هجرية ( توافق ١٦٤٥ ميلادية ) ففى هذا الزمن اذن كان رئيس وجاق الانكشارية أو « اغاة الينكجرية » هو قائد عموم الجند في مصر ثم صار أيضاً مع الزمن بمثابة محافظ القاهرة

(٢) في كتابه وصف مصر ـ رسائل المسيو دي مايليه De Maillet قنصل فرنسا في مصر سنة ١٦٩٢

الوجاقات الأخرى . ومعظم أفراد هذا الوجاق ليسوا من الجنود المدربين على القتال

٢ — وجاق العزب وهو من المشاة وعدده يتراوح من ثلاثة الى أربعة آلاف وهو دائم التنافس مع وجاق الانكشارية

٣ — وجاق الأسباهية وهم الفرسان وعددهم نحو ثلاثة آلاف وهذا الوجاق مستقل عن الباشا

٤ — وجاق الشاويشية وهو مؤلف من المشاة وعدده لا يتجاوز خمسمائة ويتبعهم كتيبتان من الجنود لا يتجاوز عددهم خمسمائة أيضاً ، منهم بعض النساء اللائى مات أزواجهن فى الخدمة العسكرية

٥ — وجاق الانكشارية وهم مستقلون عن الوالى ولهم فى القلعة معسكر منفصل عن قصره ، ولهذا الوجاق استقلال حتى عن السلطان ، وله نفوذ كبير وسلطته واسعة . وله أملاك فى مصر وينخرط فى سلكه كثير من التجار والأعيان ، وله عليهم اتاوات وعوائد يدفعونها له . ونظامه قريب الشبه بنظام طائفة « فرسان مالطه » (١)

ويقول الرحالة فانسليب (٢) Vansleb الذى جاء مصر سنة ١٦٧٢ أن الوجاقات السبع لم يبق منها الا خمس وعدد أسماءها بما لا يخرج عن رواية دى مايليه De Maillet وان وجاق الأسباهية يشمل ( الهجانة ) والتفكجية والشراكسة

المماليك — أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الوالى ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ الموازنة بين الاثنين وهى سلطة الامراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان فعينهم حكاما للمديريات ويسميهم الجبرتى « الامراء المصرية »

كانت البلاد مقسمة الى مديريات أو ( أقاليم ) تسمى كل مديرية « أقليما » أو

---

(١) انظر الكلام عن « فرسان مالطه » في الفصل الثانى

(٢) رحلة فانسليب في مصر سنة ١٦٧٢ـ١٦٧٣

«سنجقية» يحكم كلا منها حاكم يقال له «سنجق» أو بك يعينه ديوان مصر من بين أمراء المماليك

ان المماليك الذين أقرهم السلطان سليم حكاما لمديريات مصر هم بقايا الدولتين اللتين كان اليهما الحكم فى مصر على التعاقب نيفاً و٢٦٧ سنة ، فالاولى هى دولة المماليك البحرية ، وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها الذين كان التتار يغزون بلادهم فيقعون أسرى فى أيديهم أو يفرون من بلادهم فيتفرقون فى الاقطار و يباعون فى أسواق الرقيق ، وكان الملك الصالح نجم الدين الايوبى أحد سلاطين الدولة الايوبية قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته واتخذ منهم أمراء دولته وأسكنهم جزيرة الروضة بالنيل و بنى لهم قلعة وقصوراً بالقرب من المقياس وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه ، ولذلك سمى هؤلاء المماليك البحرية ، وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢

والثانية هى دولة المماليك البرجية ، وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز وسبب تسميتهم البرجية ان المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية عهد اليهم حماية القلاع والحصون وأسكنهم فى الابراج فسموا البرجية ويسميهم بعض المؤرخين ملوك الشراكسة نسبة الى أصلهم وهم الذين تولوا سلطنة مصر من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٧ وانقرضت دولتهم بالفتح العثماني

فالمماليك من بقايا هاتين الدولتين هم الذين أقرهم السلطان سليم على حكم مديريات القطر المصرى وجعل منهم السلطان سليمان ٢٤ بيكا أو سنجقاً تتألف منهم لادارة المحلية للبلاد . فمنهم حكام المديريات « السناجق » (١) ومنهم بعض كبار موظفى الحكومة وهم « الكخيا » (٢) أى نائب الوالى . و « الدفتردار » و وظيفته ادارة

---

(١) سموا سناجق لأنهم عند رفعهم الى هذه المرتبة كانوا يتسلمون بيرقا أو سنجقا شارة البكوية

(٢) الكخيا محرفة عن كلمة كتخدا ومعناها الوكيل أو النائب

الشؤون المالية وضبط الخرج والدخل و بيده سجلات ملكية الاراضى وهذه السجلات حجة الملكية وانتقالها . وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية

والروزنامجى ووظيفته ادارة الخراج[١] وضبط حساباته .

وأمير الحج و وظيفته مرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل سنويا الى الحرمين الشريفين

والخازندار (أمين الخزانة) وظيفته حمل الخراج سنويا الى الاستانة .

والقبودانات الثلاثة قباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية وكانت هذه الثغور على جانب عظيم من الاهمية لانها بمثابة أبواب مصر

ومنهم البكوات الخمس حكام مديريات جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان حكامها يسمون الكشاف[٢] وهم وكلاء البكوات فى حكم المديريات، والكشاف وان كانوا أقل مرتبة من «السناجق» الا أن سلطتهم واحدة

وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشوربجية وغيرهم من الوجاقلية (ضباط الفرق) يستشيره البيك أو الكاشف ، ولكن العمل جرى على غير ذلك ، فلم يكن ثمت دواوين ولا استشارة

---

(١) ضرائب الاطيان أو أموال الميري

(٢) كلمة كاشف مأخوذه من فعل كشف لان الاصل في وظيفة الكشاف أن يكشفوا أحوال المديريات ولما اتسعت سلطتهم وصار اليهم الحكم وأخذوا المديريات التزاما بقى الاسم القديم ملازما لهم وصار الكاشف يحكم المديرية أو حزء منها باسم البيك

فالكاشف هو بمثابة (المدير) اليوم اذا كان يحكم المديرية كلها وبمثابة وكيل المديرية أو مأمور المركز اذا كان يحكم حزءا منها

وكان تعيين الكتخدا وقباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية يصدر به رأساً مرسوم من السلطان أما باقى البكوات والسناجق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان . واذا خلا مركز أحد البكوات عين بدله من بين الكشاف

والظاهر ان عدد البكوات كان ينقص فى بعض الازمنة عن ٢٤ بيكا فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb الذى ساح فى مصر سنة ١٦٧٢ ان عدد البكوات كانوا بمصر فى ذلك العهد ١٦ بيكا ، ويقول المسيو سونينى Sonnini الذى ساح فى فى مصر سنة ١٧٧٧ ان عددهم نقص فى القرن الثامن عشر (١)

ويقول الجبرتى ان السناجق صاروا ٢٤ سنة ١١٣٥ هجرية (١٧٢٣ ميلادية) وانهم كانوا قبل ذلك اثنين وعشرين سنجقاً (٢)

## تطور هذا النظام وانفراد المماليك بالحكم

لم يستمر نظام الحكم السياسى كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثمانى ، ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم فى إدارة الحكومة ، بل تركت البلاد تتقسمها أهواء رؤساء الجند والولاة ، وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فاخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة. فنظام الحكم السياسى فى مصر قد تطور مع الزمن ، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب سلطة البكوات المماليك

حدث هذا التطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم . وساعدهم على ذلك ما صارت اليه السلطنة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شؤونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها. وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم فضعف شأنهم وتراجع نفوذهم فى حين ان المماليك احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الجند

(١) رحلة في مصر العليا والوجه البحري سنة ١٧٧٧ بقلم سونينى
(٢) الجبرتي الجزء الاول

والاتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج، واستمالوا الى جانبهم أفراد الحامية العسكرية اذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها واندمجوا فى أهلها واقتنوا الاملاك وتأثلوا فيها ، فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية . وكانت ادارة الحكومة المدنية والمالية بيد المماليك وإليهم توزيع الأعطية والأرزاق على الجنود . فصار هؤلاء تبعاً لهم بحكم الروابط المادية ثم صار رؤساء الوجاقات وأغلب ضباطها من المماليك ، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى أيديهم . واتصل ضباط الوجاقات وأفرادها بالمماليك بأواصر المصاهرة ولحمة القربى فأصبحوا ضمن حزبهم . ومن أهلهم وعشيرتهم وأتباعهم، بعد ان كانوا معدين لحربهم واخضاعهم . فتلاشت سلطة الولاة العثمانيين وعظم نفوذ البكوات المماليك واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التى كانت للسلاطين البحرية والشراكسة . وصار لرئيس المماليك الذى يختارونه زعيما لهم ويلقبونه « شيخ البلد » النفوذ الذى لا يعارض والكلمة التى لا ترد . وصارت «مشيخة البلد» بمثابة امارة مصر . وعبث المماليك بالولاة وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه. فاذا اجتمعوا على عزله أنفذوا اليه رسولا اسمه « أوده باشى »[1] (من ضباط الوجاقات) يذهب اليه حاملا قرار الديوان بعزله فيدخل الى مجلسه ويحييه بكل احترام ثم يثنى طرف السجادة التى يجلس عليها الباشا و يعلن اليه قرار العزل بقوله « إنزل يا باشا» فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كاحد الافراد لاحول له ولاطَوْل . وصارت القلعة فى خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشوات الذين كانت تعينهم تركيا ولاة لمصر . وأصبح الديوان مؤلفاً من الاربعة والعشرين بيكا الذين كانوا زعماء المماليك . وعبث المماليك أيضاً بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق لهم دفعه ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الانفاق على مصالح البلد

---

(١) اسمه عند العامة « ابو طبق » لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء كالقبعة ولها حافة تشبه الطبق

قال الرحالة فانسليب Vansleb يصف ما شاهده فى مصر سنة ١٦٧٢ من استئثار المماليك بالحكم :

« ان كلمة البكوات فى الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم أمراً ، وكانوا يملكون عزله »

وقال المستشرق مارسل Marcel « انحصر تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر الى آخره فى تعاقب الباشوات على ولايتها فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن يذكر فى حكومتها . فكان الواحد منهم يشترى منصب الولاية من ديوان الاستانة ويبقى شاغلا هذا المنصب عاما أو عامين ولا يستقر هذه المدة فى منصبه الا اذا ترك الامور للبكوات المماليك الذين كان منهم شيخ البلد وهو الحاكم الفعلى للبلاد . ويظل الباشا فى منصبه لاعمل له الا جمع المال واستصفاؤه من أهله بمختلف وسائل النهب الى أن يغادر منصبه وهو فى الغالب لا يخرج منه الا مسجوناً أو مطروداً أو منفياً أو مقتولا »

## موظفو الحكومة فى عهد المماليك

تتمثل السلطة الفعلية للحكومة فى «شيخ البلد» فهو كبير المماليك ورئيس الحكومة المحلية ، والباشا ( الوالى ) بجانبه لا حول له ولا قوة ، ويليه فى الأهمية أمير الحج ، ويليهما « الدفتردار » أو مدير الشؤون المالية ، فالروزنامجى وهو مدير ادارة الخراج ، فكتخدا الباشا وهو وكيل الوالى وكاتم أسراره ، ويلى هؤلاء البكوات حكام المديريات وأولهم حاكم جرجا وتمتد سلطته من المنيا لاسوان ، فباقى موظفى الحكومة الممتازين كالخزندار ، ومترجم الديوان

وأمين الضربخانه ( دار الضرب التى تسك فيها النقود )

وأغاوات ( رؤساء ) الوجاقات . والمعمارجى باشا .ووظيفته مباشرة بناء العمارات التابعة للحكومة وترميم القلاع

والقافله باشى ووظيفته التفتيش على القوافل القادمة الى مصر أو الصادرة عنها

وأمين الاحتساب أو المحتسب ووظيفته مراقبة الأسواق والتفتيش على الباعة والتجار لمنع وقوع الغش فى المعاملات

وأمين العنابر وهو مدير المخازن التابعة للحكومة التى تخزن فيها الغلال من الضرائب التى تؤخذ نوعا

وسردار جرجا وهو نائب البك حاكم جرجا

وقومندانات ( أعاوات ) القلاع

وولاة الشرطة الثلاثة فى القاهرة ومصر القديمة ووظيفتهم ادارة قوة الدرك وهى تشبه وظيفة حكمدار البوليس ويسمي الواحد منهم « الوالى »

وأفندية الروزنامة أى كتاب ادارة الخراج

## سياسة على بك الكبير

يتبين مما تقدم ان إدارة الحكومة العسكرية والمدنية كانت فى يد المماليك من أواخر القرن السابع عشر، وقد ساعدهم على الاستئثار بالحكم تقهقر السلطنة العثمانية وانصرافها الى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر فطمحت نفوسهم الى التخلص من تركيا والاستقلال بمصر. وظهرت هذه السياسة جهرة فى عهد على بك الملقب بالكبير. وهو مملوك وصل بقوة أشياعه واتباعه الى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ وطمحت نفسه الى الاستقلال بمصر. فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة واعلن استقلال مصر، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ ( ١١٨٣ هـ ) ، وعزل الوالى التركى ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه[1] ودانت له مصر بحريها وقبليها ، وكان من مماليكه واتباعه أحمد (باشا) الجزار ومحمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وحسن بك الجداوى وابراهيم بك ومراد

---

(١) يلاحظ على نقود علي بك الكبير انه منقوش عليها سنة ١١٨٣ هجرية وهى السنة التى جاهر فيها باستقلاله عن تركيا

بك وغيرهم ممن كانت لهم الادوار الكبيرة على مسرح الحوادث كما سيأتى ذكره فى فصول الكتاب

وكان على بك طموح النفس واسع المطامع . فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكه ( سلطان مصر وخاقان البحرين ) وأوفد محمدا بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها. لكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على على بك واتفق مع الباب العالى وعاد الى مصر ليستأثر بالحكم فيها. وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل على بك سنة ١٧٧٣ . وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت امارتها لمحمد بك أبى الذهب واستقر ( شيخا للبلد ) وكافأته تركيا بفرمان تثبيته فى مشيخة البلد وتوليته حكم مصر . وصار له الامر والنهى فى البلاد ورجعت تركيا الى ارسال الولاة كما كان الامر قديماً

غير أن الوالى كان محجوراً عليه مسلوبا حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالى الذى يرتضيه ، والامراء وقواد الجند وأعيان الدولة كافة مماليكه وأتباعه الى أن مات سنة ١٧٧٥ ( ١١٨٩ هجرية ) فخلفه فى مشيخة البلد ابراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك ، ثم وقعت فتنة بين المماليك تولى على اثرها اسماعيل بك مشيخة البلد لكنه لم يلبث فيها الا قليلا ثم خلعه ابراهيم بك ومراد بك وعادا الى اقتسام سلطة الحكم ثانية وكان ابراهيم بك شيخاً للبلد فكانت له الرياسة . ثم حاولت تركيا أن تسترجع سلطتها فى مصر فجردت سنة ١٧٨٦ حملة عسكرية بقيادة القبودان حسن باشا الجزائرلى انتهت بفرار ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد . وعاد اسماعيل بك الى مشيخة البلد . لكن نشوب الحرب بين الروسيا وتركيا صرفها عن الاستمرار فى محاربتهم . ورجع حسن باشا الى الاستانة ثم مات اسماعيل بك بالطاعون سنة ١٧٩١ ( ١٢٠٥ هـ ) وعادت السلطة الى ابراهيم بك ومراد بك وتلاشى بجانبهما نفوذ الوالى واستقر ابراهيم بك شيخا للبلد الى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨

وخلاصة ما تقدم ان مصر فى خلال العصر العثمانى كانت ولاية عثمانية تتنازع

الحكم فيها السلطات الثلاث التى تكلمنا عنها ، ثم آل الحكم فيها فى أواخر القرن السابع عشر الى البكوات المماليك، فصارت من جهة نظام الحكم السياسى أقرب ما تكون شبها بالممتلكات المستقلة التابعة الآن للامبراطورية البريطانية والمعروفة بالدومنيون، مع الفرق العظيم الذى تمتاز به المستعمرات الانجليزية بأنها تتمتع بحكم دستورى قائم على قاعدة سلطة الأمة . فالحاكم الانجليزى فى المستعمرات المستقلة ليس له نفوذ أكبر مما كان للوالى العثمانى فى مصر ، لكن سلطة الحكم فى تلك المستعمرات مستقرة على نظام نيابى يجعل للشعب الأمر والنهي فى شؤون البلاد الداخلية . أما مصر فكان زمام حكومتها إلى طائفة المماليك وفى أيديهم، وليس للشعب عليهم من نفوذ أو سلطان

## مظاهر الحكم فى ذلك العصر

### كما وصفها شهودها

بينا فيما تقدم القواعد العامة لنظام الحكم فى مصر . والآن نضع أمام القارىء صورة لبعض مظاهر ذلك الحكم نقلا عمن شاهدوها و وصفوها من شهود العيان

### كيف يعين الولاة

قال المسيو دى مايية De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٧٩٢ (١)

« أن مصر يحكمها أحد الباشوات يعينه السلطان ، ومدة ولايته سنة واحدة ويجوز تجديدها ، وجرت العادة أن تدوم ولايته ثلاث سنوات ، واستمر بعض الباشوات فى الولاية اربع سنوات والبعض لم يبق بها الا سنة أو سنتين . وولاية مصر من أهم ولايات السلطنة العثمانية ، ولذلك لايحصل عليها الباشوات الافى مقابل أتاوة من المال ، والباشا يدفع على الاقل من أربعمائة الى خمسمائة الف ريال قبل أن يصل الى القاهرة ، ولا يوفق الباشا الى تجديد مدة ولايته سنة أخرى دون أن يرسل

---

(١) في كتابه وصف مصر

للاستانة هدايا تربو على مائة الف ريال . وعلى الباشا أن يرسل الخراج السنوى الى الاستانة وقدره ستمائة الف ريال، وعليه أن يرسل هدايا من السكر والبن والارز والشراب والحلوى والغلال لا تقل قيمتها عن ستمائة الف ريال عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود فى مصر

وفى مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا فى الايرادات التى تخص السلطان فى مصر ويحصل منها كل سنة بعد سد نفقات الجند على أكثر من اثنى عشر مليون فرنك . والى الباشا تؤول تركات المتوفين بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية اذا وقع وباء فى البلاد »

## وصف استقبال الوالى

ترى فى الجبرتى وصف استقبال الولاة فى القرن الثامن عشر ومحصل ما ذكر ان الوالى كان يصل عن طريق النيل من رشيد أو الاسكندرية ويرسو فى بولاق فتذهب اليه الملاقاة لاستقباله ثم يصعد الى القلعة فى موكب حافل، وتضرب له المدافع عند قدومه . ولم يصف الجبرتى هذا الاحتفال تفصيلا لأن حضور الولاة واستقبالهم كان أمراً عادياً ومألوفاً فى ذلك العصر ، لكن كتاب الافرنج عنوا بوصفه وصفاً دقيقاً فى رحلاتهم

ذكر الرحالة الفرنسى سافارى Savary[1] ماشاهده فى استقبال الوالى فى المدة التى قضاها فى مصر من سنة ١٧٧٧ الى نهاية سنة ١٧٧٩ قال :

«عند ما يصل الباشا الجديد الى الاسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله ، فيرسل شيخ البلد ( رئيس المماليك ) وفداً من أذكى البكوات لاستقباله والحفاوة به ، فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة ، وفى خلال ذلك يتحسسونه ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ، ويتعرفون الامور التى جاء بها من

---

(١) في كتابه (رسائل عن مصر)

الاستانة . فاذا رأوا انه لايوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا الى شيخ البلد فى القاهرة فيعقد الديوان و يبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ، ثم يرسل الى الباب العالى بان الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول الى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين اذا هو أطلق له منصبه ، و يطلبون استدعاءه فلا يرفض الباب العالى لهم طلباً . أما اذا آنس الرسل من الباشا أن لا خيفة منه فانهم يدعونه الى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة فخمة وينحدرون فى معيته تحيط به المراكب المزينة بالاعلام وفيها الطبول والزمور ، فيتقدم الباشا هذا الاسطول مستقلا سفينة تختال فى سيرها ، وما صادفهم فى النيل من مراكب انحدر معهم وماج فى حشيتهم، الى أن يصلوا الى الحلى (ببولاق) وهناك ترسو المراكب وينفذ شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا فى الميناء أو يستقبله بنفسه ، فيهنئه أمراء المماليك بالقدوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ المدينة) مفاتيح القلعة و يدعوه الى الاقامة فيها . قال : وقد شاهدت بعينى وصول الباشا ودخوله المدينة فى موكبه وزينته ، رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة يسيرون صفين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف الى ستة آلاف فارس يسيرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة وشوار بهم الكبيرة ، فكان لهم منظر حربى يبعث الروعة فى النفوس ، و يلى هؤلاء « البكوات » مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من المماليك يمتطون صهوات الجياد العربية الاصيلة وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . رأيت أعنة خيول الامراء مرصعة باللؤلؤ والاحجار الكريمة وعلى خيولهم السروج تتلألأ من الذهب ، وكل بيك يسير فى موكب على هذه الصفة، فكانت مواكبهم مجتمعة غاية فى الرونق والفخامة يزينها جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، و يليهم الباشا يسير الهوينا وتتقدمه كوكبة من مائتى فارس وفرقة من الموسيقى وأمامه أربعة من الجياد يقودها أربعة من السواس وعليها غواشيها

موشاة بالذهب مرصعة بالاحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها فى أشعة الشمس . رأيت فى هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التى كانت تحيط بملوك آسيا وسلاطينها عند ما يبرزون للجماهير، و بدأ الموكب فى الساعة الثامنة صباحا واستمر الى الظهر ، وفى اليوم التالى جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات الى حضوره وجلس هو على منصة قد نصّت له امام شباك ، فكأنه السلطان على عرشه ، وتلا كخياه (وكيله) كتاب الباب العالى فطأطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره وتعهدوا بتنفيذ مالا يعارض امتيازاتهم

و بعد انفضاض الديوان أهدى الباشا الى شيخ البلد كرك ممور فاخراً ، وجواداً مطهماً ، وخلع على كل بيك قباءاً (قفطاناً) ، و بذلك تمت حفلة تنصيب الباشا

سلطة الوالى

قال المسيو سافارى يصف مدى سلطة الباشا بعد الاحتفال الفخم الذى دخل به المدينة :

« ان منصب الباشا هو فى الواقع نوع من أنواع النفى ، فهو لا يستطيع أن يخرج من القلعة إلا بأذن من شيخ البلد . وهو سجين يرى نفسه قد أحيط بمظاهر الابهة . ومن خلال هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التى يرسف فيها . فهو لا يد له فى شؤون الحكومة ، ومرتبه محدود بما يدخل من رسوم جمرك السويس والمتاجر التى ترد من البحر الاحمر . على أن البكوات يبذلون له اكثر من ذلك ، فالباشا الحاذق يستطيع بمهارته ودسائسه ان يستجلب عطف الحزب الغالب من المماليك فيدر عليه أخلاف الثروة، وللباشا منبع آخر للمال فأن المماليك الذين يعينهم الديوان سناجق يدفعون الى الباشا اتاوة لاقرار هذا التعيين ، واليه يؤول ميراث الملاك الذين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر فى مركزه ويجد منه الغنى فى سنوات قليلة ، لكنه فى حاجة الى الحذر الشديد فى كل ما يأتى وما يدع، لان أصغر هفوة توره موارد الحتف

وقد يحدث احياناً انه مع حذره ودهائه ينقلب عليه قصده وذلك اذا طغى بعض السناجق على الحزب الغالب من البكوات الذى ينتمى اليه الباشا فيسلبه السلطة ويرتفع الى مشيخة البلد، ومن ثم لا يكون الا أن يطرد الباشا فيخرج منها منؤوماً مدحوراً »

عزل الوالى

ذكر المسيو سافارى طريقة عزل الوالى ، وهي طريقة فى غاية السهولة والفوضى ، «يجتمع الديوان المؤلف من البكوات المماليك فاذا رأى عزل الوالى أنفذ اليه رسولا يلبس رداءاً اسود (ويسمى الاوده باشى) ، فيحمل قرار العزل ويذهب الى قاعة الاستقبال حيث يوجد الوالى فيدخل عليه ويطأطىء احتراماً له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا للوالى : انزل يا باشا (وقد ذكرها سافارى بنطقها العربى) ثم يخرج من المجلس، فعند ما تسمع هذه الكلمة يعلم الباشا أنه أصبح معزولا ويبدأ فى حزم أمتعته والتوجه إلى بولاق فى مدة لا تتجاوز أربعا وعشرين ساعة على أن ينتظر ما يؤمر به من الاستانة ، وفى حالة العزل لا يمس شخص الوالى المعزول بسوء ، ولكن يحدث أحياناً اذا كان للبكوات شكاوى على الوالى أن يحاسبوه حساباً شديداً عما وقع فى حوزته مدة ولايته من الاموال والهدايا ، وكثيراً ما يقتسمون ماجمعه قبل عزله ، وبعد أن يعزل الوالى يعين الديوان ( قائمقاما ) يتولى هـذا المنصب إلى أن يصل الباشا الجديد ، وهلم جرا »

انعقاد الديوان

قال المسيو دى مايليه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢ يصف انعقاد الديوان فى عصره : «ان مصر على فقدها سلاطينها قد استبقت شيئاً من الابهة التى كانت من مميزات السلطنة ، وقد شاهدت مراراً انعقاد الديوان بالقلعة ، وهـذا الديوان ينعقد مرتين كل اسبوع ( الاحد والثلاثاء ) ففى يوم انعقاده يغص الفناء الذى بين يدى قاعة الديوان – وتبلغ مساحته نصف حديقة التويلرى بباريس – بالفرسان

من اتباع البكوات وكبار الضباط راكبين جيادهم العربية المطهمة على سروج مغشاة بالذهب مموهة بالفضه مرصعة بالاحجار الكريمة . وان أبهة هذا المنظر لتبعث الاعجاب فى النفس . وقد سمعت فى مصر ان السلطان (سليم) منع انعقاد الديوان فى القاعة التى كان يجلس بها سلاطين مصر قبل الفتح العثمانى ، وذلك رجاة أن يقلل من أبهته والواقع أن الديوان لا ينعقد الآن فى قاعة سلاطين مصر ، ومع ذلك فديوان القاهرة أكثر أبهة من ديوان الاستانة وقد أتيح لى أن أشهد انعقاد الديوان بالقلعة فى جلسة غير اعتيادية ، وهو مالا يتيسر لاحد القناصل إلا نادراً . فدعيت الى حضور الديوان لاسأل عن شكاوى بعض التجار الافرنج الذين صودرت متاجرهم فى جمرك الاسكندرية فشكوا أمرهم الى السلطان فأمر بالفحص والتحقيق وطلب من قاضى العسكر (قاضى قضاة مصر) أن يقضى فى الشكوى . وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين . وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا صاح هذا الجمع بأن السلطان قد خدع وانه من الواجب رفع الحقيقة اليه، فهلع التجار الافرنج والتراجمة الذين حضروا الديوان من تعسف القوم وعدوانهم وارتعدت فرائصهم وظنوا أنه قضى عليهم . لكن الباشا كان حريصاً أن لا يمس أحد منا بسوء وكان متفقاً معى قبل الديوان على أن يكون الغرض من هذا كله تبرير مركزه أمام السلطان . وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها »

## نظام الملكية والضرائب

لم يكن النظام المالى فى مصر خيراً من النظام السياسى ، فقد اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لاراضى مصر وسار على هذا الاعتبار ابنه السلطان سليمان ، وبهذه النظرية كان صاحب الارض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، فاذا مات آلت أملاكه الى الحكومة ، غير ان لورثته ردها الى حوزتهم لقاء مبلغ معين تقدره أهواء الولاة ، على ان مزاعم السلاطين فى تملكهم رقبة الاراضى ما لبثت أن تلاشت مع الزمن تلقاء نفوذ المماليك فكانوا ينصرفون فى الاراضى على ما شاؤوا ويبسطون

أيديهم على ما يروق لهم منها ، فصار معظم أراضى مصر مقسمه بينهم وآلت اليهم بهذه الوسيلة ملكية ثلثى ما يزرع من الاراضى أو نحو ذلك أما الباقى فوزع بين الفلاحين والملتزمين والاوقاف

## أنواع الملاك

والفلاحون يملكون القدر اليسير من الاراضى ينتفعون بها ويتوارثونها ولهم أن يتصرفوا فيها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والاتاوات المفروضة عليها ، وهذه الضرائب والاتاوات تدفع للملتزمين . والملتزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى « التزاماً » ويتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه على أن يتكفلوا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب

## نظام الالتزام

وأصل نظام الالتزام أنه لما فسدت إدارة الحكومه انصرف الناس عن الزراعة وتعطلت الاعمال وهبطت قيمة الاراضى فانكسر الخراج وقلت الجبايه ، فعمد الحكام إلى طريقة ( الالتزام ) وهى تضمين الضرائب لأناس يتولون جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيما يغلونه من الاهالين ، وكانت الحكومة تعرض جباية الخراج بالمزايدة لمن يضمنه من ذوى النفوذ . فمن يقع عليه المزاد سمى « الملتزم » ويلتزم بضريبة بلد أو عدة بلاد عن سنة أو أزيد ، ويدفع للحكومه سلفاً مال سنة

والالتزام يقرر إما بالمزايدة كما تقدم وإما بالاتفاق على الثمن بين الملتزم وإدارة (الروزنامة) بالنيابة عن الحكومة ، فإذا تمت الصفقة أعطاه كبير المماليك المسمى شيخ البلد عهداً بذلك يسمى « تقسيطاً » أى عقد الالتزام ويصحبه أمر يسمى « [illegible] » وهو خطاب من الحكومه إلى أهل البلد الداخل فى التزام الملتزم تفرض عليهم أن يطيعوه ويؤدوا له الخراج ، ثم يكون له الحق أن يحصل من أصحاب الارض على المال الذى عجله للحكومة [illegible] مطور

الالتزام فبعد ان كان يعطى لسنة أو عدة سنوات جعلوا يعطونه للملتزمين مدى الحياة فلا ترجع البلاد إلى الحكومه إلا بعد وفاة الملتزم بها .

وإذا مات الملتزم فلورثته أن يستبقوا البلاد فى أيديهم إذا دفعوا الاتاوة للحكومة وإلا صارت حقاً لبيت المال ، وتوصل بعض الملتزمين إلى إبقاء الالتزام إرثاً لذرار يهم بما دفعوا للحكومه من هذه الاتاوة .

وللملتزمين سلطة مطلقة على الفلاحين فكانوا يعسفونهم ويسومونهم الظلم والجور ويفرضون على أملاكهم ما شاءت أهواؤهم من ضرائب واتاوات ، ولهم أن يبيعوا حق الالتزام لغيرهم من الملتزمين ، وإذا مات أحد الفلاحين بلا عقب آل ما يملكه الى الملتزم

ولهذا الملتزم أن ينتزع الأرض من يد الفلاح ويعطيها لفلاح آخر إذا ضاقت يده أو قصر فى دفع الضرائب ، ولما كانت الضرائب والاتاوات تجرى على أهواء الملتزمين فملكية الفلاحين كانت تحت رحمة هؤلاء ، وهناك نوع آخر من الأملاك يعرف بأطيان ( الوسية ) وجمعها « أواسى » وهى الأراضى التى تعطيها الحكومه للملتزمين منحة لمساعدتهم على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وإيواء المسافرين والموظفين وضيافتهم فى دائرة التزامهم ، وهذه الأطيان معفاة من كل ضريبة وعلى فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة للملتزم بلا أجر ولا جزاء

وعدا أطيان الأواسى توجد أطيان أخرى معفاة من الضرائب وهى أراضى الرزق جمع ( رزقة ) وهى التى كان ينعم بها السلاطين على بعض الناس يتصرفون فيها كيف شاؤا وهذه الأراضى معفاة من الضرائب ولذلك تسمى « أرض رزقة بلا مال » وكانت إدارة الروزنامة تعطى المنعم عليه بمثل هذه الأراضى « تقسيطاً » أو سند التمليك يخوله ملكها ملكاً مطلقاً والتصرف فيها

ويقول المسيو استيف[1] أن السلطان « سليم » لما فتح مصر وجد أطيان

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٢

الرزقة مخصصة لجهات البر فابقاها كما هى ولم يعطها للملتزمين وظلت فى أيدي مالكيها

يتبين مما تقدم أن نظام الملكية العقارية بالمعنى الصحيح لم يكن معروفا فى ذلك العصر، فملكية الفلاحين عرضة لان تنزع منهم فى كل وقت، وملكية الملتزمين كانت تحت رحمة البكوات المماليك بحيث كانت تنزع منهم اذا تصدى لهم من هم أوسع نفوذا وأعظم ناصراً وأقوى سلطاناً . ونظام الالتزام يشبه أن يكون كنظام الاقطاعات التى رزحت أوروبا تحت نيره القرون المتوالية

أما الوقف فيشمل الاملاك المحبوسة أصلا على المساجد وأعمال البر والخير، وقد انتشر الوقف فى العصر العثمانى لانه كان الوسيلة التى يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المماليك ، فعمدوا الى الوقف يحبسونه على جهة من جهات البر والاحسان ويجعلون لابنائهم أو من يوصون اليهم من ذى نسب أو صلة أو خدمة حق الانتفاع بالارض بعد وفاتهم فيجد الموقوف عليهم من ريعها غلة ثابتة لا تمتد اليها مطامع المماليك بالسلب والاغتصاب

هذه هى أنواع ملكية الاطيان فى ذلك العصر فلنبحث الآن عن أنواع الضرائب المفروضة عليها

## الضرائب

كانت الاراضى مثقلة بالضرائب والاتاوات ومعظمها واقع على كاهل الفلاحين، والمقرر أصلا من الضرائب ثلاثة أنواع

الاولى ضريبة الخراج وتسمى المال الميرى أو الميرى فقط وهي المخصصة أصلا للسلطان

والثانية ضريبة الكشوفية وهي مخصصة للبك أو الكاشف حاكم المديرية

والثالثة الفائض أو فائض الالتزام وهو ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء الميري والكشوفية . ومجموع هذه الضرائب الثلاث يسمى « المال الحر » وهو المقرر أصلا على الاطيان أو الضرائب القانونية ، يدفعها الفلاحون للملتزمين وهؤلاء يدفعون الميري والكشوفية وما بقى فهو لهم

لـكن الملتزمين لم يكتفوا بهذه الضرائب بل فرضوا على أطيان الفلاحين اتاوات أخرى ضربتها أهواؤهم ومطامعهم ، فمنها « المضاف » و « البرانى » ، والمضاف على نوعين المضاف القديم والمضاف المستجد، والبراني على نوعين البرانى القديم والبرانى الجديد . وهذه الضرائب يقدرها الملتزمون بحساب الظروف والاهواء

وللمتزمين سلطة مطلقة فى القرى الداخلة فى التزامهم ولـكل منهم فيها وكيل يسمى « قائممقام » ينوب عنهم، وهم الذين يعينون فيها مشايخ البلاد وهؤلاء هم وسطاء الملتزمين فى جباية الضرائب من الفلاحين ، أما البكوات المماليـك وكبار الملتزمين فلهم مع مشايخ البـلاد وكلاء يسمون «المباشرين » تمتـد سلطتهم على عدة قرى ومقاطعات ، وقد اختص الاقباط بهذه الوظائف وتحت سلطتهم الصيارف والـكتبة والمساحون فى القرى وكل أولئك يعينون بمعرفتهم وارشادهم و بأيديهم سجلات الضرائب

الـكشوفية والميرى

كان البكوات المماليك يتداولون حكم المديريات،والعادة أن يبقى البك فى المديرية لمدة سنة ، ووظيفتهم حفظ الامن وحسم المنازعات التى تنشأ بين القرى وحماية الفلاحين من سطوة العربان وحماية الملتزمين فى تحصيل الضرائب ليدفعوا لهم نصيبهم منها، ولكل بيك عدة كشاف أو وكلاء فى حكم المديرية أوجزء منها ،والبيك يقضى فى المديرية التى يحكمها ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يعود الى القاهرة خوفا أن تؤدى غيبته الى دس الدسائس من زملائه ومنافسيه من المماليك ، وفى أثناء اقامته بالقاهرة يقوم عنه بالامر كشافه الذين يجوبون انحاء المديرية لتحصيل الضرائب وضبط الامن ومعهم القوة الكافية من الجنود

فالـكشوفية هى نصيب البيك وكشافه من الضرائب على الاطيان ، يدفع معظمها الفلاحون ويدفع الملتزمون جزءاً منها ، أما الميرى فهو مخصص أصلا للسلطان وله ادارة مستقلة بتحصيله وضبط حسابه تعرف بالروزنامة يرأسها «الروزنامجى» الذى يعينه الباشا (الوالى) بناء على طلب الديوان ، و بعد تعيينه يصبح بحكم وظيفته عضواً بالديوان ، وتحت يديه جماعة من الـكتبة يسمون « الافنديه » أو أفندية الروزنامه

ومن بينهم يعين الروزنامجي ، فوظيفة الروزنامجي هى ادارة الخراج أو أموال الميرى ، وهي تقرب ان تكون كوظيفة مدير الاموال المقررة فى العصر الحاضر ، وفى يد الافندية سجلات الاراضي التى تدفع الميرى لمعرفة مقدار ما هو مفروض عليها وما يحصل منها وما يصرف على تحصيلها ومقدار ما يخلص بعد ذلك . والروزنامجى مسؤول عن حساب الميرى وعليه تقديم هذا الحساب كل سنة للوالى ( الباشا ) وللدفتردار ( مدير الشؤون المالية ) ولشيخ البلد (زعيم المماليك) وبعد ان يخلص صافى الميرى من حساب النفقات المختلفة يرسل الى الاستانة ، وهذا الصافى هو المعروف بالخزنة وهو من حق السلطان ويحمله الى الاستانة أحد البكوات المماليك ويسمى « خزنه دار » اى امين الخزنة وحرفت الى «خازندار» . وقد تناقص صافى الميرى بعد استئثار المماليك بحكم البلاد حتى انه فى بعض السنين لا يكاد يبقى منه شيء يذكر ، ذلك ان الميرى تؤخذ منه الاموال الآتية:

(اولا) نفقات الباشا والبكوات وجامكية العسكر اى عطاء الجنود والوجاقلية ونفقات المؤن والذخائر ورواتب افندية الروزنامة ومعاشات الارامل والايتام والمكفوفين

(ثانياً) ما يخرج للحرمين الشريفين

(ثالثاً) نفقات المحمل وامير الحج

(رابعاً) المصاريف الاخرى التى لا تدخل فى حساب كاصلاح الترع وتطهيرها وترميم القلاع ( ولم يكن يصرف فى ذلك شيء ) والانفاق على الازهر وصيانة المساجد والاضرحة وارزاق المشايخ ومصاريف مقياس النيـل وحفلة وفاء النيل وغير ذلك . وكانت تدبر كل هذه الاوضاع الحسابية بحيث لا يبقى من الميرى الا النذر اليسير يرسل الى الاستانة . وانقطع فعلا ارسال الخزنة فى عهد على بك الكبير ثم استؤنف ارسالها بطريقة غير منتظمة فى عهد مراد بك وابراهيم بك. وكان صافى مايرسل سنويا الى الاستانة فى عهدهما يبلغ ٢٦٤٫٥٥٠ فرنك[1] أي نحو ١٠٫٥٨٠ جنيها

---

(١) احصاء المسيو استيف مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحملة الفرنسية. كتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر

## الضرائب الاخرى
## ومقدار دخل الحكومة

كانت البيوت والمنازل معفاة من الضرائب لان الخراج فى الاصل مقرر على الاطيان . على ان الحكومة فرضت الضرائب غير العقارية والمكوس والاتاوات على الصناعات والمأكولات والمتاجر بما فى ذلك رسوم الجمارك وعلى الوكائل والسفن والقوافل وكذلك على الرؤوس وعلى الوظائف الرئيسية

وقد أحصى المسيو استيف دخل الحكومة السنوى فى اواخر عهد المماليك بمبلغ ١٠٦ ر١٩٩ ر٣١ فرنك اى ٤٦٧ ر٢٠٣ ر١ جنيه تقريبا ، وقدره الجنرال رينيه Reynier احد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه[1] بمبلغ يتراوح بين ٣٥ الى ٤٠ مليون فرنك فى السنة . و من ذلك يتبين انه مع اسراف حكومة المماليك فى المظالم وارهاق الاهلين بمختلف الاتاوات والضرائب فأن مقدار دخل الحكومة يدل على ما كانت عليه حالة البلاد الاقتصادية والماليـة من التأخر والفاقة . على انه من الواجب ان نعجل بالقول بأن حالة البلاد الاقتصادية والمالية قد ازدادت سواء فى عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام فى هذا الصدد بالفصل السادس من الجزء الثانى من هذا الكتاب

## النظام القضائي

بقى النظام القضائى فترة من الزمن كما كان قبل الفتح العثمانى ، فكان يتولى القضاء قضاة أربعة من المذاهب الاربعة يسمى كل منهم «قاضى القضاة» . الحنفى . والمالكى . والشافعي . والحنبلى . ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام وانما عين قاضياً

---

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

عثمانياً جعله « أميناً على قضاة مصر »(١)

ولكل من اولئك القضاة الاربعة أن يعين نوابه فى القضاء . ذكر ابن اياس ان ملك الامراء خير بك انقص عدد نواب القضاة فرسم لقاضى القضاة الشافعي بخمسة من النواب وقاضى القضاة الحنفى باربعة وقاضى القضاة المالكى بثلاثة وقاضى القضاة الحنبلى باثنين من غير زيادة على ذلك(٢)

ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام قضاء القضاة الاربعة وأمر بتنصيب قاض تركى من درجة « قاضى عسكر » يسمى « قاضى مصر » يرسلونه من الاستانة وهو بمثابة قاضى القضاة

قال ابن أبي السرور البكرى « ان أول من ولىقضاء مصر من « قضاة العسكر » مصطفى افندى الرومى (التركى) وانه استولى على قضاء مصر سنة ٩٢٩ هجرية فى المحرم منها بعد ان أرسل السلطان سليمان أمره الشريف لحاكم الديار المصرية بابطال القضاة الاربعة ، فنفذ أمره الشريف وجاء مصطفى افندى الى مصر وجعل له نوابا من الثلاثة المذاهب مالكى وشافعى وحنبلى »(٣)

---

(١) قال ابن أياس (الجزء الثالث) في حوادث سنة ٩٢٤ هجرية (١٥١٨ ميلادية انه لما تزايدت مظالم الجنود الاتراك في القاهرة « دخل جماعة من الناس الى القاضى الذي جعله ابن عثمان في المدرسة الصالحية أميناً على قضاة مصر . فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه الى بيت الامير قايتباي الدوادار واركبه وطلع به الي القلعه وأخبروا ملك الامراء خير بك بهذه الاحوال التي تصدر من العثمانية » وقال ما خلاصته ان خير بك وعد القاضى والامير قايتباي بالفحص والتحقيق

(٢) ابن أياس الجزء الثالث

(٣) كتاب الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة لابن ابى السرور البكري . وفى ابن أياس ان أول قاضى عسكر عينه السلطان سليمان هو القاضى جلبي وذلك سنة ٩٢٨ هجرية ، وروايته كما ترى تختلف ورواية ابن أبي السرور

واستمر قضاة العسكر يهبطون من الاستانة فى عهد الحكم التركى ، ولم ينازع المماليك الحكومة العثمانية فى هذه الناحية من السلطة ولم يتعرضوا لها لانهم لم يخشوا بأسا من قضاة الاستانة ولم يكن هؤلاء ينافسونهم النفوذ والجاه كما كان يفعل الولاة ، فتركهم المماليك وشأنهم . وكانت مراسيم التعيين تصدر من الاستانة لقاضى القضاة ولعدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساء محاكم يبلغون خمسة وثلاثين قاضيا[١] ومراسيم التعيين لا تصدر الا فى مقابل اتاوة من المال يدفعها طلاب مناصب القضاء لحكومة الاستانة ، و بعض هؤلاء القضاة كانوا زمنا ما أتراكا ، فكانوا يستعينون بالتراجمة ، ولذلك عمت الفوضى فى ادارة القضاء ، على ان مناصب القضاء خلا منصب قاضى القضاة قد آلت مع الزمن الى القضاة المصريين ، ذلك ان القضاة الاتراك الذين تصدر لهم مراسيم التعيين كانوا يتنازلون عن هذه المناصب لمن يطلبها من المصريين تلقاء جعل من المال . ثم صارت مراسيم التعيين تصدر رأسا للقضاة المصريين

كانت مناصب القضاء تباع وتشرى وتعرض فى سوق المساومة فترسو على من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن ان يصل النظام القضائى فى بلد من البلدان الى مثل هذا الدرك من التدهور ، فلا جرم كانت وظيفة القضاء فى ذلك العصر موضع الزراية فى نظر الجمهور والعلماء

وكان قاضى القضاة فى الغالب تركياً لا يعرف العربية فكان يتخذ ترجماناً يترجم له الاوراق وينقل أقوال الخصوم ، والترجمان على ذلك هو صاحب الحول والطول ، ومدة القاضى سنة واحدة أو سنتان متى جاء اجلها تعين حكومة الاستانة قاضيا آخر او تمد مدة القاضى القديم . ويجوز ان تمتد مدة قاضى القضاة بنزول القاضى الجديد

---

البكري في تاريخ التعيين واسم القاضي . على أننا نرجح رواية ابن أبي السرور لان كتابه خاص بالبحث في اسماء واخبار ولاة مصر وقضاتها في عهد الحكم العثماني (لغاية سنة ١٠٥٤ هجرية)

(١) تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

له عن مدته ببيعه اياها بالثمن عن تراض بينهما ، وبهذه المساومة يجوز ان تمتـد مدة قاضي القضاة الى اربع او خمس سنوات متعاقبة ، وله ان يعين من دونه من النواب ولمن يصدر له امر التعيين ان ينزل عنه لغيره . وغنى عن البيان ان هذا النظام كان مصدرا للجور وأكل اموال الناس بالباطل،ذلك ان القضاة الذين يشترون مناصبهم انما ينظرون اليها كوسيلة لابتزاز الاموال . فالفرق كبير جداً بين مكانة القضاة فى ذلك العصر ومكانتهم قبل الفتح العثمانى فان قضاة القضاة الاربعة كانوا موضع اجلال السلاطين كما انهم كانوا على جانب عظيم من العـلم والتقوى (١) . اما فى عهد الحـكم التركى فقد وصل النظام القضائى الى درجة لا نظير لها من الانحطاط ، لذلك كان كبار العلماء يتورعون عن تقلد مناصب القضاء ، اعتبر ذلك فى تراجم العلماء المعدودين الذين ذكرهم الجبرتى فى وفياته ، فانك لا ترى من بينهم عالمـا معدوداً تولى منصب القضاء فى مصر ، وهذا وحده دليل كاف على انحطاط منزلة القضاء فى عهد الحـكم التركى

ويحكم قاضي القضاة فى الخصومات التى تعرض عليـه فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، وله ان يعين نواباً فى خطط القاهرة فكان بها تسعة نواب وببولاق نائب وبمصر القديمة نائب ، وهؤلاء النواب يحكمون بين النـاس بالنيابة عن قاضى القضاة ويشترون منه مناصبهم بالمال واذا تغير قاضى القضاة أمكنهم ان ينالوا اذنا باقرارهم على مناصبهم نماء جعل يدفعونه للقاضى الجديد

ولم يكن للتقاضى رسوم معلومة ولا مرتب محدود . بل كان كل قاض يتقاضى فى كل دعوى ما يقدره من الاجر بحسبها وكما يقدر ، يدخل فى ذلك اجور الـكتبة او التراجمة ، واذا كان قاضى القضاة متورعا فانه لا يطلب اجراً معلوما بل يكتفى بما يعرضه ارباب القضايا وبذلك ينال احترام النـاس ومحبتهم ، وكان القضاة لقلة بضاعتهم من العلم يرجعون الى فتاوي العلماء للفصـل فى القضايا فكانت هذه الفتاوى تقـدم كمستندات فى الدعوي ، ولفتاوى العلماء قيمة فى نقض الاحكام بعد صدورها ، ومن ذلك جاءت كثرة الفتاوى فى ذلك العصر

---

(١) كانوا في الاغلب هم أئمة مذاهبهم علما وفقها واجتهادا وبصرا بالحكم

وكان القضاة بمصر متعددي المذاهب فمنهم الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى وكل قاض يحكم بحسب احكام مذهبه وبحسب القول الذى يختاره من اقوال المذهب، ولا ريب ان تعدد مذاهب القضاة وتعدد الاقوال فى كل مذهب من اسباب الفوضى فى الاحكام والمعاملات ، ذلك ان المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعاواهم امام مختلف المحاكم وبخاصة مع ما جرى عليه العمل من ان للمدعى الخيار فى أن يذهب الى أى قاض أراد جريا على بعض الاقوال . فكان المدعى يختار القاضى الذي يعرف عن مذهبه أو القول الذي يأخذ به من أقوال هذا المذهب ما يؤيد دعواه . وهذا النظام من شأنه أن يزعزع الثقة فى المعاملات، وقد ظل تعدد مذاهب القضاة فى مصر الى أن تخصص القضاء بمذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وذلك فى عهد محمد على باشا

ذكر الجبرتى طرفا من شكوى الناس من فساد النظام القضائى ، وكلامه وان كان منصرفا الى أوائل عصر محمد على الا أنه يتضمن وصف هذا النظام فى عهد البكوات المماليك ، وكيف كانت وظائف القضاء تباع وتشرى ، وكيف زادت الحالة سوءاً لما عادت السلطة للاتراك بعد انقراض حكم المماليك وانتهاء عصر الحملة الفرنسية . واليك ما ذكره الجبرتى ننقله لما فيه من تفصيل لبعض ما أجملناه وتوضيح للنظام القضائى فى عصر الحكم التركى كما وصفه شاهد عيان . قال

« فى يوم الخميس ( ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢٣١ ) [١] حصلت جمعية ببيت البكري وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر باطنى من صاحب الدولة ( محمد على باشا ) وتذاكروا ما يفعله قاضى العسكر من الجور والطمع فى أخذ أموال الناس والمحاصيل وذلك ان القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها فى أيام الامراء المصريين ( المماليك ) فلما استولى هؤلاء الاروام (الاتراك) على الممالك والقاضى منهم فحش أمرهم وزاد طمعهم وابتدعوا بدعا وابتكروا حيلا لسلب أموال الناس والايتام والارامل . وكلما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذي كان قبله

---

(١) يوافق ٢٠ مارس سنة ١٨١٦

أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه حتى فحش الامر وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بيك بل والباشا (محمد على) وصارت ذريعة وأمراً محتما لا يحتشمون منه ولا يراعون خليلا ولا كبيراً ولا جليلا

«وكان المعتاد القديم انه اذا ورد القاضى فى أول السنة التوتية التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضى • وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول ، وله شهريات على باقى المحاكم الخارجة كالصالحيــة و باب سعادة والخرق (باب الخلق) و باب الشعرية و باب زويله و باب الفتوح وطيلون وقناطر السباع و بولاق ومصر القـديمة ونحو ذلك ، وله عوائد واطلاقات وغلال من الميري . وليس له غير ذلك إلا معلوم الامضاء وهو خمسة أنصاف فضة • فاذا احتاج الناس فى قضاياهم ومواريثهم أحضروا شاهداً من المحـكمة القريبة منهم فيقضى فيها ما يقضيه ، و يعطونه أجرته • وهو يكتب التوثيق أو حجة المبايعة أو التوريث • و يجمع العدة من الاوراق فى كل جمعة أو شهر ثم يمضيها من القاضى و يدفع له معلوم الامضاء لاغير • وأما القضايا لمثل العلماء والامراء فبالمسامحة والاكرام (١)

«وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهنون فيه ، فلما تغيرت الاحوال وتحـكمت الاتراك وقضاتها ابتدعوا بدعاً شتى ، منها ابطال نواب المحاكم وابطال القضاة الثلاثة خلاف مذهب الحنفى وأن تـكون جميع الدعاوي بين يديه و يدي نائبه • و بعد الانفصال يأمرهم بالذهاب الى كتخداه (نائبه) ليدفع المحصول فيطلب منهم المقادير الخارجة عن المعقول • وذلك خلاف الرشوات الخفية • والمصالحات

---

(١) معنى ماتقدم أن دخل قاضي القضاة يتألف من الموارد الآتية : ١ـ مايدفعه له كل سنة موظفو المحكمة ٢ـ جعل شهري يدفعه له قضاة أخطاط العاصمة ٣ـ ماتؤديه له الحكومة من العوائد والغلال ٤ ـ رسوم الامضاء ٥ ـ الهدايا الاختيارية التي يقدمها له الاعيان والعلماء « بالمسامحة والاكرام » بعد الفصل في قضاياهم

السرية • وأضاف التقرير والقسمة لنفسه [١] • ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان في السابق . واذا دعى بعض الشهود لـكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة فلا يذهب الا بعد أن يأذن له القاضي و يصحبه بجوخدار (وكيل) ليباشر القضية ، وله نصيب أيضاً . وزاد طمع هؤلاء الجخدارية حتي لا يرضون بالقليل كما كانوا في أول الامر وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخاديمهم وصاروا عند المتولى لما انفتح لهم هـذا الباب

« واذا ضبطت تركة من التركات و بلغت مقداراً أخرجوا للقاضى العشر من ذلك ومعلوم الـكاتب والجوخدار والرسول ، ثم التجهيز والتـكفين والمصرف والديون وما بقي بعد ذلك يقسم بين الورثة . فيتفق ان الوارث واليتيم لا يبقى له شيء

« ويأخذ (القاضى) من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً و يأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاثة .[٢] وقد كان يصالح عليها بأدنى شيء والا اكراماً .

« وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القبانية والموازين وطلب تقاريرهم القديمة ومن أين تلقوها . وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر وفيها ما هو باسم النساء وليسوا أهلا لذلك . وجمع من هذا النوع مقداراً عظيما من المال ثم محاسبات نظار الاوقاف والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك . وقرر على نصارى الاقباط والاروام قدراً عظيما في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والـكنائس

« وما هو زائد الشناعة ايضاً أنه اذا ادعى مبطل على انسان دعوى لا أصل لها بأن قال ادعي عليه بكذا وكذا من مال وغيره كتب المقيد (كاتب المحـكمة) ذلك القول حقا كان أو باطلا معقولا أو غير معقول . ثم يظهر بطلان الدعوي أو صحـة

---

(١) اي اضاف لنفسه الرسوم التي تدفع على ذمة اثبات الوراثة وقسمة المواريث .

(٢) معناه ان القاضي كان يأخذ من الموظفين الجدد معلوم سنتين أو ثلاثة

بعضهافيطالبالخصم (المدعي عليه) بمحصول(رسوم) القدر الذىادعاه المدعى وسطره الكاتب يدفعه المدعى عليه للقاضى [١] على دور النصف الواحد أو يحبس عليهحق يوفيه . وذلك خلاف مايؤخذ من الخصم الآخر ،وحصـل نظير ذلك لبعض من هو ملتجىء لـكتخدا بك (نائب محمد على باشا) فحبس على المحصول فارسل الـكتخدا يترجى فى اطلاقه والمصالحة عن بعضه . فأبي،فعندذلك حنق الـكتخدا بيكوأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس

« ومن الزيادات فى نغمة الطانبور كتابة الاعلامات . وهو انه اذا حضر عند القاضي دعوى بقاصد من عنـد الـكتخدا أو الباشا (محمد على) ليقضى فيها وقضى فيها لاحد الخصمين طلب المقضى له اعلاماً بذلك الى الـكتخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد تقييداً واثباتاً،فعند ذلكلا يكتب له ذلكالاعلام الا بمالعسى لا يرضيه إلا ان يسلخ من جلده طاقا أو طاقين . وقد حكمت عليه الضرورة . وتابع الباشا أو الـكتخدا ملازم له ويستعجله ويساعد كتخدا القاضى عليه ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم . مع ان الفرنساوية الذين كانوالايتدينون بدين لمـا قلدوا الشيخ احمد العريشى القضاء بين المسلمين فى المحـكمة حددوا له حداً فى أخذ المحاصيـل لايتعداه بأن يأخذ على المائة اثنين فقط له منها جزء والـكتاب جزء

« فلما زاد الحال وتعدىالى أهل الدولة رتبواهذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى كتبوا عرضاً محضرا ذكروا فيه بعض هذه الاحداثات والتمسوا منولى الامر رفعها ويرجون من المراحم أن يجرى القاضى ويسلك فى الناس طريقاً من احدى الطرق الثلاث : اما الطريقة التى كان عليها القضاة فى زمن الامراء المصريين . واما

---

(١) أي ان المدعي عليه اذا حكم لصالحه يلزم معذلك بدفع رسوم الدعوى وهذا يخالفالقاعدة المشهورة ان المدعي اذا حكم برفضدعواه يلزمهو بمصاريفها ولا يلزم المدعي عليه بشيء منها .

الطريقة التي كانت فى زمن الفرنساوية . أو الطريقة التى كانت أيام مجيء الوزير [١] وهى الاقرب والاوفق وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور ، وتمموا العرض محضراً وأطلعوا عليه الباشا فأرسله الى القاضى فامتثل للامر وسجل بالسجل على مضض منه ولم تسعه المخالفة »[٢]

## نتائج نظام الحكم

### فى حالة مصر السياسية والعمرانية

كان لنظام الحكم الذي رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثمانى أسوأ الاثر فى حالتيها السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذى كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحا للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الامن بين ربوعها وتعنى بمرافقها ، فلا غرو ان اقترن نظام الحكم بعد الفتح العثمانى بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة فى عهد الدول الفاطمية والايوبية والبحرية والبرجية لرأيت ان البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة

### فى الحالة الاقتصادية

فقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك أمر الري وتوزيع المياه واقامة القناطر والجسور وحفظ الامن فجفت الترع ، وتلفت الاراضى ، وتعطلت الزراعة

---

(١) يوسف باشا ضيا الذي جاء عند جلاء الفرنسيين
(٢) الجبرتي الجزء الرابع

وفقد الامن ، وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر الى البلاد المجاورة

واضمحلت الصناعات والفنون التى كانت تزدان بها مصر فى سالف العصور ، بدأت فى الاضمحلال عقب الفتح العثمانى مباشرة بسبب اضطراب الاحوال وكثرة الفتن وفقد الامن واسراف الجنود العثمانية فى السلب والنهب ، أضف الى ذلك ان السلطان (سليم) بعد ان استقر له الامر فى القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين فى الفن والصناعة وتقلهم الى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سبباً فى نضوب معين الصناعة والفن فى البلاد . وتلاشت صناعات كانت عامرة . وفى ذلك يقول ابن اياس :

« ان السلطان سليم خرج من مصر ومعه الف جمل محملة من الذهب والفضة فضلا عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس،وأخذ من مصر من كل شىء أحسنه ، وذلك عدا ماغنمه وزراؤه من الاموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فانهم غنموا من النهب مالا يحصى ،و بطل من مصر نحو خمسين صنعة[1] »

وجاء الولاة والحكام المماليك الذين تركت لهم ادارة البلاد فكان حكمهم آفة على الصناعة والتجارة . وكانت مصادرتهم لاموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية فاختفت رؤوس الاموال من أيدى الاهالى وغلب عليهم الفقر وصار الشعب الى حالة محزنة من الضنك والفاقة

## فى الحالة الصحية

وفتكت بهم الامراض والاوبئة التى كانت تجتاح البلاد وتجتاح مئات الآلاف من الناس وتأخذهم أخذاً وبيلا ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن

(١) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن أياس

مقاومتها(١) وليس في البلاد طب ولا أطباء والناس متروكون لرحمة المنجمين والحلاقين

## في العلوم والآداب

وفشا الجهل في البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الازهر الذي كان قائماً قبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد . فكان الازهر هو المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم فى مصر ، وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والاوقاف ، لكنها كانت قليلة النفع ضعيفة الاثر فى تبديد ظلام الجهالة فى البلاد .

وذوت العلوم والآداب فى مصر بعد أن كانت زاهية زاهرة ، فقد ظلت الآداب العربية الى عهد السلاطين البحرية والبرجية ( الشراكسة ) حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل ، واليهم يرجع الفضل فى انقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق .

---

(١) في سنة ١٠٢٨هـ أصيبت مصر بطاعون جارف في زمن الوزير جعفر باشا لبث أربعة أشهر مات فيه ستمائة الف نفس . وفي سنة ١٠٣٥ أصيبت البلاد بوباء مات فيه ٣٠٠ الف نفس . وفي سنة ١٠٥٠ (١٦٤١ ميلادية) في زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسمع بمثله وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الوجه البحري كما قال ابن أبي السرور البكري . وحدث طاعون آخر في شياخة ذي الفقار بك سنة ١١٤٢ (١٧٢٩ ميلادية) وطاعون في شياخة عثمان بك، وفي سنة ١٢٠٥ ( ١٧٩١ ميلادية) أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون اسماعيل لانه وقع في عهد مشيخته كان يموت به في القاهرة زيادة عن الف نفس في اليوم ومات به اسماعيل بك ومعظم مماليكه وتغيرت الحكام في اليوم الواحد ثلاث مرات لموتهم ومات به من سكان القاهرة نحو ستين الفاً

فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والادباء والعلماء ، كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباته المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الأعشى ، والابشيهى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوى العظيم الذى يقال فيه انه أنحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجى (١) صاحب حلبة الكميت ، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الاعيان ، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ امام الحفاظ والمحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب الخطط ، والمكين بن العميد ، وابو الفداء (٢) المؤرخ الجغرافى المشهور صاحب تقويم البلدان ، والذهبى ، والنويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الادب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، وابن عقيل ، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والادب واللغة وهو آخر من ظهر فى ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ، وابن اياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى

وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق . كالامام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون

أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية

---

(١) نسبة الى نواج إحدى قرى مديرية الغربية

(٢) هو الملك المؤيد صاحب حماه ، ويلاحظ ان الدولة المصرية كانت فى ذلك العصر تضم سوريا الى أملاكها

وجمدت القرائح .وركدت حركة العلم ، ولا غرابة في ذلك فان القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للاستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة بل عاصمة العالم العربى كله ؛ وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ، وتقهقرت البلاد وساءت ادارتها فأثرت هذه الاسباب مجتمعة فى حالة العلوم والآداب وآلت الى الاضمحلال والتواء، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والايوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ،وتبددت خزائن الكتب التى يرجع انشاؤها الى عهد الفاطميين ولم يبق منها الا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الازهر التى كان بها الى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣،٠٠٠ مجلد

قال المرحوم على باشا مبارك يصف اهمال شأن المدارس فى مصر مدة ثلاث قرون متوالية .

« من ابتداء القرن التاسع الى القرن الثانى عشر (١) يعنى مدة ثلاثة قرون قد أهمل أمر المدارس وامتدت أيدى الاطماع الى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فاخذوا فى مفارقتها، وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية،وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات الى عمارتها ومرمتها ، فامتدت أيدي الناس والظلمة الى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة الى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الايام و بعضها زال بالكلية وصار زريبة أوحوشاً أو غير ذلك،ولله عاقبة الامور (٢) »

هذه صورة لما آلت اليه العلوم والآداب من الاضمحلال والتواء فى عهد الحكم

---

(١) وهذه المدة يقع معظمها في عهد الحكم العثماني
(٢) الخطط التوفيقية الجزء الاول

العثمانى ، من أجل ذلك قلما نبغ من عهد الفتح التركى شاعر أو عالم أو أديب ، ولا تكاد تعد فى هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجى . والسيد محمد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح جواهر القاموس ، وأصله من اليمن واستوطن مصر وتوفى بها . وعبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبى السرور البكرى الصديقى صاحب الروضة المأنوسة ، والصبان ، وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور . ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم والآداب ، واقتصر التدريس فى الازهر على العلوم الفقهية واللسانية و بطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم والتى كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة فى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، واعتزل الازهر النهضة العلمية الاوروبية الحديثة فبعدت الشقة بينه و بين التقدم العلمي القديم والحديث ، واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل و وضع الشروح والحواشى والتقارير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساساً لنهضة علمية صحيحة ، وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية وكان المجيدون من الكتاب والادباء لايتوخون فى كتابتهم الا تنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية ، واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفه وما الى ذلك ، وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون فى القهوات و يلقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس و ينشدونها على نغمات الربابة

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الاتراك والبكوات المماليك ، ومن الواجب أن نفرق بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية والبرجية ، فان عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة ، وعلى

ما كان يتخلله من المظالم فقد كان كثير من السلاطين ذوي علم وأدب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الاسلامية .

أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجهالة ، وكانوا هم والولاة الاتراك علة ما أصاب البلاد من التقهقر ، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات المماليك ظلوا على توالى السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، فان المعروف أن أفواج المماليك كانت ترد الى مصر من بلاد الشركس والقوقاز ، فالصلة التى كانت تربط المماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثمانى قد انقطعت مع الزمن ، أضف الى ذلك أن المماليك كان معروفا عنهم العقم وقلة النسل ، وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع فى جيل أو جيلين فكانوا يسدون النقص الذى يبدو فى صفوفهم بشراء أفواج الارقاء من أسواق الرقيق . واذا تأملت فى تراجم البكوات المماليك الذين ذكرهم الجبرتى فى تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية والبرجية بل هم مجلوبون من أسواق الرقيق ، وليس فيهم أحد لم يكن أصله مملوكا اشتراه أحد المماليك

والآن وقد انتهينا من الكلام على نتائج نظام الحكم فى ذلك العصر ، فلننتقل الى وصف الحالة فى مصر عند مجيء الحملة الفرنسية

## الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر

### عند مجيء الحملة الفرنسية

من الواجب أن ندرس الهيئة الاجتماعية التى كانت تتألف منها الامة المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، لان فى هذه الهيئة نبتت الفكرة الاولى للروح القومية فى مصر عند اصطدامها بالحملة الفرنسية

يبلغ عدد سكان مصر فى ذلك الحين ثلاثة ملايين ، ينقسمون الى حكام ومحكومين . فالمحكومون هم الشعب المصرى والحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم

البلاد وكان عدد المقاتلة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك[1] مابين مقدمين وامراء وكشاف وضباط وجاقات واجناد واتباع . وكان عددهم لا يزيد بالتناسل لانهم قليلو النسل كما قدمنا ، فكانوا يتممون نقصهم ويحفظون عددهم وعصبيتهم بالارقاء يشترونهم فتياناً وفتيات من الشركس الذين كانوا يباعون فى أسواق الرقيق بالاستانة فيعتنون بتربيتهم وكثيراً ما يعتقونهم فيصبحون أحراراً ولكنهم يحفظون عهد اسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيتهم ، فمن هؤلاء المماليك أحرارا أو أرقاء يتكون جيش المماليك فى مصر .

أما الشعب المصرى فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصرى القديم بالدم العربى ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكر حالة كل منها

## العلماء

فأولاها طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم فى ذلك العهد تأثير عظيم فى نفوس الامة وقيادة افكارها ، ولهم الزعامة الادبية والسياسية بين الجماهير ، واليهم يرجع تدبير الحركات التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر كما تراه مبسوطا فى فصول الكتاب

## الملاك والتجار

وطبقه الملاك والتجار ، وهي تشمل الحضريين سكان المدن والاقاليم ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار ، ويلحق بهذه الطبقة بعض « الوجاقلية » أى ضباط الفرق وكذلك « الافندية » كتاب الدواوين وغيرهم من سلالة العثمانيين الذين استوطنوا البلاد واقتنوا بها البيوت والاملاك وصاهروا أهلها

---

(١) تجد تفصيلا وافياً عن عدد المماليك في الفصل السابع

وناسبوهم فاندمجوا مع الزمن فى الشعب المصري وصاروا فى عداد افراده ، ويعد كثير من العلماء من طبقة الملاك بما كانوا يملكون من الدور والاراضى ، ومن الملاك طبقة الاعيان فى البنادر والاقاليم ، وفيهم فئة من كبار الاعيان عرفوا بسعة الثروة وبسطة الجاه وهم سلالة البيوت المصرية القديمة الذين احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الاتباع والاشياع والارقاء وما اقتنوه من الاملاك والضياع الواسعة التى كانت تعد بالقرى ، وسيرد أسماء بعضهم فى خلال فصول الكتاب ، وكانت لهم سطوة يرهبها الحكام المماليك فكانوا يتقونهم ويجاملونهم بالمداراة ويتركون لهم فى مناطقهم شبه استقلال ذاتى

أما التجار فكانوا يشغلون حيزا كبيراً فى المجتمع المصري، وكانوا أغنى طبقات الشعب، ذلك ان الزراع كانوا أكثر استهدافاً لمظالم الحكام وفداحة الضرائب التى تحرمهم ثمرة كدهم وتجعلهم فى حالة فقر مستمر ، والصناع كانوا عادة من الطبقات الفقيرة، لكن شأن التجار غير هذا الشأن فكانوا الى حد ما أحسن حالا وأرقى مستوى من الطبقات الاخرى ، ووصل بعضهم الى درجة عظيمة من الثراء والجاه وابتنوا القصور والوكالات ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجارى ، فغير خاف أن مركز مصر الجغرافى يجعل منها الملتقى الطبيعى للقارات الثلاث أفريقيا وآسيا واوروبا ، وكانت متاجر الهند لا تصل الى اوروبا إلا معرّجة بمصر ، فنالت مصر من هذه الوجهة مركزاً تجاريا ممتازاً وصارت تجارة الشرق بيدها ، وربحت منها المكاسب الطائلة ، لكنها بدأت تفقد هذا المركز الممتاز من يوم أن تم للرحالة البرتغالى فاسكو دي جاما الطواف حول القارة الافريقية واجتياز طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند ( سنة ١٤٩٧ — ١٤٩٨ ) فقد أخذت تجارة الهند تتحول من مصر الى طريق المحيط الاطلنطى فبدأت منزلة مصر التجارية تضمحل من أوائل القرن السادس عشر . وزاد فى اضمحلالها زوال الاستقلال عنها بدخولها فى حوزة الحكم العثمانى سنة ١٥١٧ ، وضياع أسطولها الذى كان لها فى عهد السلطنة المصرية ، وتقهقرها فى عهد الولاة العثمانيين

والبكوات المماليك . على أنها وان أصابها ما أصابها من التقهقر والاضمحلال كانت فى ذلك العهد سوقا للمتاجر الواردة اليها من الشرق والغرب ، فكانت ترفأ اليها السفن قادمة من أوروبا وسوريا والاناضول وثغور البحر الاحمر ، وتصل اليها قوافل التجارة من السودان والحبشة وبطن افريقية ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس . وكذلك كانت تصل اليها القوافل والسفن من فلسطين وسوريا وبلاد العرب . فكانت بكل ذلك ملتقى التجارة من سائر الاقطار ، تجيئها القوافل من السودان ودارفور حاملة العاج والتبر والصمغ العربى وريش النعام والتمر الهندى والجلود والرقيق والكحل وقرن الخرتيت والشب والنطرون، وتنقلب حاملة منسوجات مصر وحاصلاتها وحاصلات البلاد الاخرى التى تستوردها ، وكذلك تجيء القوافل من فزان و بلاد المغرب حاملة الاصواف والشيلان البيضاء والطرابيش والاحذية (البلغ) والاردية الصوفية المعروفة (بالبرانس) واغطية الصوف المعروفة بالاحرمة ، وزيت الزيتون ، والعسل والشمع والسمن . وتجلب من الهند ومن بلاد السلطنة العثمانية ( الاناضول وسوريا واليمن والحجاز) الحرير والبن والبهار وأنواع الطيب والعطور والتوابل والابازير والعقاقير والتبغ والخشب والصابون والزيت والشيلان الكشمير والفواكه . وتستورد من أوروبا الاجواخ والقطيفة والحرير والساتان والورق والجواهر والحلى والحديد والنحاس والخشب والرخام والزجاج والمرايا والخزف والصينى والاسلحة وغير ذلك . كما كانت تصدر الى أوروبا الارز والغلال و بعض المنسوجات القطنية التى كانت تصنع فى القاهرة والمحلة الكبرى ورشيد . وتصدر اليها كذلك الحاصلات والبضائع التى كانت ترد اليها من أفريقيا وآسيا وأهم هذه الاصناف البن الذي كان يرد لها من اليمن

قال المسيو جيرار Girard وكيل ادارة الرى فى عهد الحملة الفرنسية يصف مركز مصر التجارى فى أواخر القرن الثامن عشر :

« ان الحاصلات التى تنتجها أنحاء القطر المصرى تتبادلها المدن والقرى فتأخذ منها حد كفايتها ، وما فضل منها يصدر من مصر مع ما تنتجه الصناعة المصرية الى

الاقطار الافريقية وبعض البلاد الاوروبية ، فيباع فيها بثمنه أو بعوض منه بضائع من التجارة أو عروضها ، وقد كان لمركز مصر فضل كبير فى جعلها ملتقى ومستودعا للتجارة الخارجية »

وقد اجتذب هذا المركز التجارى عدداً من الجاليات الاجنبية سوادهم من الايطاليين وبخاصة سكان البندقية ( فينسيا ) والفرنسيين والاروام وكانوا يقيمون فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط

ثم كان لمصر جمارك فى ثغورها التجارية وهى القاهرة ، ومصر القديمة ، وبولاق ، والقصير ، والسويس ، ودمياط ، ورشيد ، والاسكندرية ، فاما جمرك القصير فكان متروكا لحكام الجهات القبلية ، وأما جمارك باقى الثغور فكانت مقسمة بين مراد بك وابراهيم بك ، فاختص مراد بك بجمارك القاهرة وبولاق ومصر القديمة . ورشيد . ودمياط ، والاسكندرية ، واختص ابراهيم بك بجمرك السويس وكان أكثر حركة وايراداً لان اليه ترد معظم بضائع الهند و بلاد العرب ، وكان ايراده وحده يعدل ايراد جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية جميعاً ، وكان ابراهيم بك يقيم من اتباعه عمالا يحصلون مكوس الجمرك بخلاف مراد بك فأنه أعطى جمارك الثغور التى كانت فى قسمته لاربعة « ملتزمين » وجعل على كل منهم خراجاً معيناً يؤدى اليه فى أوقاته و ينالون هم ايراد الجمارك لانفسهم و يتكفلون بمصاريف ادارتها كمرتبات الكتبة والعمال ، وكان ايراد جمارك القطر المصرى وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك (١) ( ١٢٠,٠٠٠ جنيه ) تحتسب فيها المصاريف وأرباح الملتزمين

## طبقة المزارعين « الفلاحين »

ومنهم يتكون الشطر الاكبر من الامة ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الجهل والفاقة وكانت الزراعة فى تقهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت للرى والصرف

---

( ١ ) كما يقدرها المسيو استيف في كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

تضمن استخدام مياه النيل وتوزيعها ، ولحرمان البلاد من حكومة عادلة توطد الامن وتصون حقوق الافراد . كانت الزراعات المعروفة فى مصر هى الحبوب وما اليها كالقمح والارز والذرة والشعير والفول والعدس والحمص ، والترمس ، والحلبة والحناء ، والزعفران ، والبرسيم ، والنيله ، والقنب (التيل) والكتان ، والبصل ، والسمسم ، والسلجم ، والقرطم ، والعصفر ، والخضر ، والفواكه والثمار كالبلح على اختلاف أنواعه والعنب والبطيخ والشمام والضميرى والموز والرمان والتين والبرتقال والليمون . وكان البلح — ولم يزل — أكثر فواكه مصر وفرة

وكان القطن يزرع فى بعض جهات الوجه البحري والصعيد، ذكر المسيو (جيرار) Girard فى رسالة له عن حالة الزراعة فى مصر عهدئذ أنه شاهد زراعة القطن فى الدلتا والوجه القبلى ، فقطن الوجه القبلى كان يزرع و يبقى قائماً على سوقه مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات ، ففى السنوات الثلاث الاولى يزرع بين شجيراته بعض الخضر وبخاصة البامية ، وفى السنوات السبع الباقية تبقى شجيرات القطن قائمة وحدها ، وقال عن قطن الدلتا انه كان يزرع سنويا وكان يروى ثلاث مرات فى السنة فى خلال خمسة أشهر. وقال ان محصول الفدان بجهة سمنود يغل قنطاراً ونصفاً أو قنطارين كل قنطار ١٢٠ رطلا وان ثمن القنطار ١٦ ريالا

وقال ان قطن الوجه القبلى كان ينسج فى مصانع الاقمشة فى القطر المصري[١] وذكر طريقة حليج القطن فقال انها غاية فى البساطة يتخذ لها اسطوانتان تدوران حول محورها متقابلتين،وهذه المشاهدات رآها جيرار فى خلال رحلاته فى الوجه البحري والقبلى سنة ١٧٩٩ وسنة ١٨٠٠ وأوائل سنة ١٨٠١

وغنى عن البيان ان هذا القطن كان من صنف رديء ، أما القطن الحديث فلم تدخل زراعته فى مصر الا فى عهد محمد على الكبير حوالى سنة ١٨٢٠

وكذلك كان يزرع قصب السكر ولكن بمقادير قليلة ذكر المسيو

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء ١٧

جيرار فى رسالته المتقـدمة ان زراعة القصب كانت كثيرة النفقات لا يقبل عليهـا إلا قليـل من الزراع وكانت منحصرة تقريباً فى مديرية جرجا بجهات فرشوط(١) واخميم وفيها مصانع السكر، وكان يزرع أيضاً فى مديرية اطفيح بمقادير كثيرة ويزرع القليل منه فى بعض بلاد الوجه البحرى ولـكنه لا يصنع منه السكر بل يباع كفاكهة ، وكانت مصر تصدر السكر لبعض بلاد السلطنة العثمانيـة ،ويزرع التبغ فى بعض جهات الصعيد ، و يزرع الورد بكميات وافرة فى الفيوم ومنـه يستقطر ماء الورد فى مدينة الفيوم والقاهرة

## الصناع والصناعات

لم تـكن البلاد تعرف الصناعات الـكبرى ، واقتصر الشأن فيها على الصناعات الصغرى ، وكان الصناع والعمال ينتظمون فى طوائف تشبه نقابات الصناع الحاليـة لـكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى (شيخ الطائفة) واليه النظر فى شؤونها ، ولمشايخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها و إما السلطة العليا فى القاهرة ، فكلما أرادت الحكومة النظر فى نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها من الفرض خاطبت فى ذلك مشيختها فيتولون توزيع الغرم المطلوب على أفراد الطائفة ، وكان لنظام الطوائف بعض المزايا فى ترقية شؤون الصناعة والصناع وتعليم المبتدئين منهم أسرار الصنعة ، فكان لـكل صناعة مدة تمرين يتدرب العمال خلالها على العمل فيها فاذا أراد الصبى المتعلم أن يصير «معلماً» أو «أوسطى» بعد حذقه الصنعة التى اختارها ذهب الى شيخ الطائفـة مصحوباً بمعلمه ويشهد له المعلم بأنه أتقن الصنعة ومهر فيها وعندئذ ينادى به الشيخ عضواً من أعضاء الطائفة

وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة الى فروع عدة (٢)

---

(١) فرشوط التابعة الآن لمديرية قنا

(٢) رجعنا في هذا التقسيم (مع شيء من التصرف) الى بحث المسيو جومار الذي شاهد صناعات مصر في ذلك العصر

فمنها الصناعات والمهن المتعلقة بالمواد الغذائية، كطحن القمح والذرة وخبزهما ، وضرب الارز وتبييضه وطحن البن واستفراخ البيض واستخراج السكر من القصب واعتصار الزيت من السمسم ومن بذر الكتان ومن القرطم والسلجم، وحرفة القصابة (الجزارة)، وتدميس الفول (المدمس) واستخراج الخل من البلح أو الزبيب، واستقطار ماء الورد والعرقى ، واشتيار العسل من خلايا النحل ، وصناعة الفطير والحلوى والمربات

والصناعات الخاصة بالملبس، وهي غزل القطن والكتان والصوف، كان يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية وينسجون منه الاقمشة الكتانية والصوفية والقطنية التى تكفى حاجة البلاد ، ونسج الاقمشة الحريرية وقد اشتهرت به مدن القاهرة والمحلة الكبرى ودمياط (واحتفظت بهذه الشهرة الى اليوم) وصناعة الفرو (الكورك) وصناعة اللباد ومنه كانت تصنع الطرابيش واللبد (جمع لبدة) ، وصناعة البسط المعروفة بالاكلة (جمع كليم)، وقلوع المراكب، ثم صناعة الاقمشة وقصرها وتبييضها، والتطريز، وكانت صناعته على جانب من الاتقان وكان المطرزون المصريون موضع اعجاب الافرنج ولا سيما تطريزهم الحرير والجوخ والموسلين وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة .

وكذلك العقادون فقد برعوا فى صناعة القيطان (الكردون) والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة ، ودباغة الجلود ، وصناعة الاحذية وسروج الخيل وكل ما تحتاجه دواب الركوب ، وصناعة خياطة الملابس للرجال والنساء

والصناعات المتعلقة بالعمران كضرب الطوب ونحت الاحجار وصنع الجير والجبس والمصيص ، والبناء ، وقطع البلاط ، وتركيبه ، وصناعة أوانى الزجاج ، وتنجيد الاثاث وصناعة الفخار والخزف . وصنع الشمع، والسبح (جمع سبحة) . وعمل أحجار الشبكات التى يدخن فيها وأنابيبها ، وصناعة الحصير، والمكاتل (القفف والغلقان) والنجارة ، وبناء السفن ، وصناعة البارود والجلل ، وصنع

الاسلحة واصلاحها ، وصناعة النحاس وتبييضه ، والحدادة والخراطة ، وكانت هذه الصناعة رائجة فى ذلك العصر رواجا عظيما وبخاصة فى استخدام قطع الاخشاب المخروطة فى عمل النوافذ والابواب والمشربيات ، وكان الخراطون أحذق صناع القطر المصرى ، وصناعتهم من أكثر الصناعات المصرية تقدماً ، ونبغ الكثير منهم فى خرط (الكهرمان) والعاج والتفنن فى اتقان أنابيب الشبكات التى كانت الوسيلة الوحيدة لتدخين التبغ

، ومن الصناعات الاخري الصياغة وتركيب الاحجار الكريمة ، وسك النقود ، ويدخل فى عداد الصناع السقاؤون وكان عددهم كبيراً جداً فى ذلك العهد لانهم يحملون ماء النيل الى جميع السكان فى القاهرة والبنادر ، والمكارون ، والحمالون ، والنوتية فى النيل

## المسلمون والاقباط

كان المسلمون والاقباط يشتركون على السواء فى احتمال ظلم الحكام وسوء الادارة، وشارك الاقباط اخوانهم المسلمين فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الاقباط فى الاعمال الحسابية والمالية فعهد اليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الاطيان والحاصلات ، فكانت لهم فى هذه الناحية من ادارة الحكومة سلطة مطلقة لا ينازعهم فيها منازع ، ذلك ان بأيدى الصيارفة سجلات الاطيان والضرائب فى القرى واليهم تقدير ماعلى كل ذى مال من الضريبة ومعرفة الاطيان المزروعة والبور أى مايؤخذ عنها الخراج وما لا يؤخذ ، و بيان من دفع من الفلاحين ومن لم يدفع ، وكانت سلطتهم فى هذا المجال مطلقة لارقابة عليها ، وما يثبتونه فى دفاترهم حجة لاجدال فيها ، و رؤساؤهم يسمون «المباشرين» وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم ، وكان هؤلاء المباشرون هم وكلاء المماليك وكبار

الملتزمين وقواما عليهم فى ادارة أملاكهم وتحصيل الضرائب من الاطيان الداخلة فى التزامهم ، فكان لهم نفوذ كبير فى ادارة الحكومة وسلطة لامنازع فيها فى القرى، ورئيسهم يسمى « كبير المباشرين » وله نفوذ عظيم يستمده من اتساع أعمال وظيفته وتفرعها فى الاقاليم وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصيارفة والكتبة والمساحين . ووصل بعضهم الى أرفع مراتب النفوذ والجاه ، كالمعلم رزق والمعلم ابراهيم الجوهرى وأخيه جرجس الجوهرى، فالمعلم رزق كان كاتب سر على بك الكبير ومدير حسابات الحكومة فى عهده وكان بمثابة مستشاره ومرجعه فى شؤون الدولة فكان له من النفوذ والسلطة مالم يتوافر لاحد من رجال الحكومة ، وقد خلفه فى نفوذه المعلم ابراهيم الجوهرى . ذكره الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) فقال عنه انه « رئيس الكتبة الاقباط بمصر وانه أدرك فى الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر مالم يسبق لمثله من أبناء جنسه » ، قال وأول ظهوره من أيام المعلم رزق كاتب على بك الكبير ، ولما مات على بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم ونما ذكره فى أيام محمد بك ابى الذهب ، فلما انقضت أيام محمد بك وترأس ابراهيم بك قلده جميع الامور ، فكان هو المشار اليه فى الكليات والجزئيات ، حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الايراد والمنصرف ، وجميع الكتبة والصيارف تحت يده واشارته ، وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يعزب عن ذهنه شيء من دقائق الامور »

وذكر الجبرتى ايضاً فى وفيات سنة ١٢٢٥ هجرية (١٨١٠ — ١٨١١ ميلادية) ترجمة المعلم جرجس الجوهري فقال «مات المعلم جرجس الجوهرى كبير المباشرين بالديار المصرية ، وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهرى ، ولما مات أخوه فى زمن رياسة الامراء المصرية ( المماليك ) تعين مكانه فى الرئاسة على المباشرين والكتبة ، وبيده حل الامور وربطها فى جميع الاقاليم المصرية ، نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وتقدم فى أيام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء ، وكذلك عند مجيء الوزير (يوسف باشا) والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندى

ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو [1] بجانب شريف افندى الدفتردار ( مدير الشؤون المالية ) ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ، ويراعون جانبه ويشاورونه فى الامور ، وكان عظيم النفس ، ويعطي العطايا ويفرق على جميع الاعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والارز والكساوى والبن ، ويعطي ويهب ، وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والازبكية وأنشأ داراً كبيرة وهي التى يسكنها الدفتردار الآن ويعمل فيها الباشا ( محمد على باشا ) وابنه ( ابراهيم باشا ) الآن الدواوين عند قنطرة الدكة ، وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم » هذا وقد بقى المعلم جرجس الجوهرى حافظا مكانته الى أيام محمد على باشا حيث ظهر المعلم غالى وتقرب الى محمد على فجعله فى مكانه وتوفى جرجس الجوهرى سنة ١٨١١

## التقسيمات الادارية

كانت مصر مقسمة من الوجهة الادارية الى ست عشرة مديرية تسمى كل منها « اقليما » أو سنجقية تسعة منها فى الوجه البحري وهى البحيرة ، ورشيد ، والغربية ، والمنوفية ، والمنصورة ، ودمياط ، والشرقية ، والقليوبية ، والجيزة ، والباقى فى مصر الوسطى ومصر العليـا وهي اطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، واسيوط ، وجرجا ، وقنا

وهذا التقسيم هو الذى كان معمولا به فى أواخر عهد البكوات المماليك، وكانت منفلوط واسنا زمنا ما كل منهما اقليما قائماً بذاته

## كلمة عن القاهرة وامهات مدن مصر

كانت القاهرة ولم تزل اكبر مدن القطر المصرى وعاصمته ومقر حكومته ، وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالا من الحسينية الى باب الحديد ، وجنوبا من القلعة الى

---

(١) والى مصر وسيأتي الكلام عنه في الفصل الخامس عشر من الجزء الثاني

باب عرب اليسار الى باب السيدة عائشة الى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب[1]، وشرقا من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية وغرباً من باب الحديد الى الازبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ،وكان موقع المدينة يبعد أكثر من الف متر عن شاطيء النيل وبينها و بينه مزارع

واذا أردت ان تعرف الفرق بين عمرانها فى ذلك العصر وحدوده فى العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة فى العصرين ، فجامع الظاهر مثلا وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مبانى القاهرة ، وكان باب الحديد نهاية حدود مبانى القاهرة من الشمال الغربى ، والازبكية والمبانى التى حولها نهاية العمران غرباً،والطريق بينها و بين بولاق مقفرة خالية من العمران ، لذلك كانت بولاق تعد من ضواحى العاصمة ، كما كانت مصر القديمة ايضاً، وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها الا مزارع وحدائق ، ولم يكن على شاطيء النيل سوى بعض مبان قليلة كقصر ابراهيم بك ( قصر العينى ) تجاه الروضة و بجواره بيت لمحمد كاشف الارناؤوطى وعن شماله بيت لمصطفى بك

وكانت بولاق مرفأ القاهرة فى الشمال ، ومصر القديمة مرفأها من الجنوب . فبولاق هي فرضة تجارة الوجه البحري ومصر القديمة فرضة تجارة الوجه القبلى، وكانت بولاق مقراً لجمرك القاهرة ، وصفها المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية فى رسالته عن تخطيط القاهرة ، ومما لفت نظره فيها كثرة وكائلها التجارية ووفرة الغلال التى كانت تكدس على ساحل النيل دون حراسة و بغير ان توضع فى مخازن ، قال المسيو جومار ان الثقة بين الناس فى مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن ثمت خوف من أن تمتد يد الى تلك الغلال[2] ،وهذا يدلك على أن الصدق والامانة كانا فى من فضائل الخلق المصرى

---

(١) على مقربة من مسجد السيدة زينب رضي الله عنها

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

وكانت شوارع القاهرة ضيقة كثيرة التعاريج واطولها هو الموصل بين باب الحسينية الى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستماية وأربعة عشر متراً ، ولم يكن بها سوى أربعة ميادين وهى ميدان قراميدان تحت القلعة ، وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه باب قراميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الازبكية ، ويسمى بركة الازبكية ، وعفت الميادين والرحاب والمتنزهات التى تكلم عنها المقريزى فى خططه كما درست قصور الخلفاء والسلاطين وما شيدوه من العمائر والمناظر والدواوين والمدارس ودور الكتب وغيرها من معالم الحضارة والعمران

وكان ميدان الازبكية (أو بركة الازبكية كما كانوا يسمونها ) أجمل الميادين الاربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الامراء والاعيان ، وفى أيام الفيضان يمتلىء بمياه النيل فيصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والليل ، وفى المساء توقد المصابيح من البيوت المطلة عليه فيكون منظر الميدان من أبهج المناظر ولا سيما فى الليالى المقمرة ، وقد نقل الجبرتى فى كتابه ما قاله الشيخ حسن العطار أحد أدباء ذلك العصر فى وصف ميدان الازبكية قال :

« وأما بركة الازبكية فهى مسكن الامراء وموطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوافرة الظلال ، العديمة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السرج والشموع ، فالانس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور »

فهذا الوصف يعطيك فكرة عما كانت عليه الازبكية فى ذلك العصر وانها كانت كما هى الآن مثابة الحظوظ والمسرات

وكان بالقاهرة كثير من الابنية المتخربة ولا غرو فقد تناقص عمرانها فى خلال حكم الولاة الاتراك والبكوات المماليك ، واستمر الهدم والتخريب فى عهد الحملة الفرنسية كما سيجىء بيانه ، وكانت مقسمة الى أثمان وأخطاط كل خط يحتوى

على شوارع والشوارع بها دروب وحارات وعطفات ،وأغلب الحارات والعطفات غير نافذة الا الى الدرب، فكانت المدينة أشبه بعدة قرى مجتمعة ، والدروب والعطفات والحارات عليها ( بوابات) كل بوابة تغلق عند العشاء وينام خلفها بواب يؤجر من أهلها ، ولا يتأخر أحد بعد العشاء وراء الحارة الا لضرورة ، ولم يكن للحكام أية فكرة فى العناية بأمر النظافة والصحة العامة فساءت حالة المدينة من هذه الجهة وشاعت فيها الامراض

وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر فى خلال العصور فان عظمتها القديمة قد تغلبت على عوامل الفناء وسوء الادارة ، فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبة بعد الاستانة ، وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات ، وبها كثير من الاسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن ( الوكائل ) التى تجلب اليها البضائع من مختلف الاقطار

و يبلغ عدد سكان القاهرة فى ذلك العصر حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وهذا الاحصاء مأخوذ عن تقدير الافرنج الذين كانوا يسكنون العاصمة قبيل الحملة الفرنسية وفيه بيان الطبقات التى يتألف منها هذا العدد كما يلى [١]

١٢٫٠٠٠ جهاديه ومماليك
٦٠٠٠ ملاك وفيهم العلماء
٤٠٠٠ تجار الجملة
٢٥٠٠٠ صناع ورؤساء حرف
٥٠٠٠ صغار التجار
٢٠٠٠ قهوجية وكان بالقاهرة ١٢٠٠ قهوة وفى بولاق ١٠٠ وفى مصر القديمة ٥٠

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر

٣٠٫٠٠٠ سقاءون وخدم وأتباع وسرارى وجواري

١٥٠٠٠ عمال وحمالون

١٢٦٠٠٠ نساء

٧٥٠٠٠ أطفال ذكور واناث

٣٠٠٫٠٠٠ المجموع

و يقول المسيو جومار Jomard (١) أن فى هذا العدد شيئاً من المبالغة لانه لم يكن مبنياً على احصاء فعلى ، ويقدر هو عدد سكان العاصمة بـ ٢٦٣٫٠٠٠ نسمه (٢) و يقدرهم الكولونيل جاكوتان Jacotin (٣) بـ ٢٥٣٫٢١٠ نسمة ، وكان أهم المدن بعد العاصمة الاسكندرية وعدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة ، و رشيد ١٣٠٠٠ نسمة ، ودمياط ٢٠٫٠٠٠ ، والمحلة الكبرى ١٧٫٥٠٠ وسمنود ٥٠٠٠ ، والمنصورة ٧٥٠٠ ، وقليوب ٤٥٠٠ ، و بلبيس ٣٠٠٠ ، ومنوف ٤٠٠٠ ، وطنطا ١٠٫٠٠٠ ، وأسيوط ١٢٫٠٠٠ ، وجرجا ٧٠٠٠ ، و بنى سويف ٥٠٠٠ ، ومدينة الفيوم ٥٠٠٠ ، وأطفيح ٤٠٠٠ ، والجيزة ٣٠٠٠ ، وقنا ٥٠٠٠ ، وادفو ٢٠٠٠ .

وهذا التعداد مأخوذ معظمه عن احصاء مهندسي الحملة الفرنسية

---

(١) أحد مهندسي الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) من مهندسي الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع

# الفصل الثانى

## تطور نظام الحكم

### فى عهد الحملة الفرنسية

تبدلت الحال غير الحال فى عهد الحملة الفرنسية وطرأ على نظام الحكم فى مصر تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية والاجتماعية .

قبل أن نتكلم عن هذه التغييرات يجمل بنا أن نقول كلمة عن الحملة الفرنسية ووقائعها لنقرن الاسباب بمسبباتها، ونصل النتائج بمقدماتها .

### أسباب الحملة الفرنسية

الحملة الفرنسية هى دور من أدوار التنازع الذى قام بين فرنسا وانجلترا على الفتح والاستعمار ، ذلك التنازع الذى يرجع عهده الى القرن السابع عشر ، واستمر خلال القرن الثامن عشر ، ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية.

ان الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم فى فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية واعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢ .

تألبت الدول الملكية فى أوروبا على الجمهورية الفرنسية وائتمرت بها للقضاء على الثورة وقتلها فى مهدها قبل أن يطغى تيارها ، ولما دخلت انجلترا فى الميدان كانت هى روح التحالف وقوام تلك المؤامرة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين الى سنة ١٧٩٥ فلما جاءت سنة ١٧٩٦ زحفت الجنود الفرنسية على شمال ايطاليا بقيادة

نابليون بونابارت (١) فظهرت عبقرية ذلك القائد العظيم فى ميادين القتال بما أحرزه

---

(١) ولد نابليون بونابارت في مدينـة اجاكسيو Ajaccio عاصمة جزيرة قرشقه ( كورسكا ) في ١٥ اغسطس سنة ١٧٩٦ واسم ابيه كارلو ماريادى بونابارته Carlo Maria di Buanaparte وهو من اسرة اصلها ايطالى ، وكانت جزيرة كورسكا تابعة لجمهورية جنوى واستولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨ اى قبـل ولادة نابليون بسنة ، فهو ايطالى الاصل فرنسى المولد ، والجبرتى يسميه ( بونابارته ) ، وهذه التسمية تنطبق كما ترى على النطق الايطالى لاسمه واسم والده ، وقد عرف في مصر بهذا الاسم ، ولم يذكره الجبرتى باسم نابليون قط ، لانه الى ذلك العهد كان يعرف بالجنرال بونابارت . ولم يغلب عليه اسم نابليون الا من يوم ان نودي به امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ثم صار هذا الاسم علماً له في التاريخ

تلقى نابليون دروسه الاولى في مدرسة اجاكسيو ثم التحق بمدرسة بريين Brienne الحربية بفرنسا ، وكانت مخايل الذكاء والنبوغ تبدو عليه في صباه ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ وانتظم في سلك المدفعية وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥ والتحق بالجيش ، ولما شبت الثورة الفرنسية انضم اليها وبعد ان اعلنت فرنسا الحرب على النمسـا ثم على انجلترا وهولانده واسبانيا تحرج مركز فرنسا واحاط بها الاعداء من كل جانب ، واحتل الانجليز سنة ١٧٩٣ طولون ميناء فرنسا البحرية على البحر الابيض المتوسط فظهر نبوغ نابليون الحربى في حصار طولون وكان له الفضل في استرجاعها ، وعهدت اليه الحـكومة بمهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية واخماد فتنة الخارجين عليها سنة ١٧٩٥ فاخمد الفتنة وانقذ الجمعية الوطنية ، ثم عينته الحـكومة قائداً للجيش الفرنسى في حرب ايطاليا سنة ١٧٩٦ فظهرت فيها عبقريته الحربية ، وبعد انتهاء الحملة على على ايطاليا اعقبتها الحملة على مصر كما ترى في سياق الـكلام ، وبعد ان عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩ قلب نظام الحكم في فرنسا ونودي به قنصلا اول ثم امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ، وساق جيوشه على اوربا فغلبها على امرها الى ان

من الانتصارات الساحقة على الجيوش النمسوية فى « حروب ايطاليا » ، تجلت مواهبه الحربيـة وبهر القواد القدماء بخططه الحـديثة وابتكاراته العظيمة ، وذاع صيته فى الآفاق بما ناله من الفوز فى وقائع عديدة أهمها واقعة منتنوت Montenotte ( ابريل سنة ١٧٩٦ ) ، ولودى Lodi ( مايو ) ، وكاستجليون Castiglione ( أغسطس ) ، وأركول Arcole (١٥ — ١٧ نوفمبر ) وريفولى Rivoli (١٤ يناير سنة ١٧٩٧)[1] وفتح مملـكة البيمونت Biemont ، واكتسح سهول لومبارديا ، ودانت له ايطاليـا وظل يتـابع انتصاراته حتى تهدد فينا عاصمة النمسا ، فاضطرت الى طلب الصلح وعقدت واياه هدنة ليوبن فى ١٨ ابريل سـنة ١٧٩٧ وأملى عليها شروط الصلح فى كامبوفورميو Compo Formio ( ١٧ اكتوبر سـنة ١٧٩٧ ) فخرجت فرنسا من الحرب وقد تملـكت بلاد البلجيك وماينس Mavence ، وامتدت حدودها الى نهر الرين وبسطت نفوذها فى ربوع ايطاليـا ، وامتـدت سلطتها الى شواطئ بحر الادرياتيك واستولت على الجزائر الايونية Ioniennes ، وأصبح لها المقام الاسمى فى القارة الاوروبية، كل ذلك بفضل الانتصارات التى أحرزها نابليون وهو بعد لم يتجاوز الثامنة والعشرين

فازت فرنسا على الحلفاء فى القـارة الاوروبية ، لـكن انجلترا التى كانت أقوى الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافى وسيادتها فى البحار بمأمن

---

اخذ نجمه في الافول وانتهت حروبه بهزيمته في واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ووقوعه اسيراً في يد الانجليز ، فنفوه الي سنت هيلين وبقي في هـذه الجزيرة النائيه بالاقيانوس يعانى غصص النفى وإدبار الدهر الي ان مات بها سنة ١٨٢١

(١) اسر نابليون من الجيوش النمسوية في تلك الوقائع ١٥٠،٠٠٠ اسير وغنم منهم ١٧٠ راية و ٥٥٠ مدفعاً من مدافع الحصار و ٦٠٠ مدفع من مدافع الميدان ، عدا السفن الحربية التي استولى عليها

من ضربات نابليون وانتصاراته ، ففكر فى ميدان حرب يقهر فيه انجلترا ، فوجد ان مصر هى ذلك الميدان

اتجهت أطماع نابليون الى فتح مصر عقب انتصاراته فى حروب ايطاليا ، وحدثته نفسه أن يعد المعدات ويمهد الطريق لانفاذ حملة كبيرة تخترق البحر الابيض المتوسط وتحتل مصر فتتخذها قاعدة عسكرية تصل منها الى الاملاك الانجليزية فى الهند ، وهو مشروع بعيـد المدى كثير العقبات يكاد يكون أقرب الى الامانى والاحلام ، ولا غرو فان انتصارات نابليون فى ايطاليا قد مكّنت له فى الارض وطيرت ذكره فى الخافقين وجعلته يطمح الى انتصارات أعظم وفتوحات أكبر ، فاتجهت آماله الى الشرق موطن الفتوحات العظيمة ، ولعل مقامه فى ايطاليا موطن يوليوس قيصر ، وعلى مقربة من مقدونية موطن الاسكندر قد أوحى اليه أن يقلد قيصر الرومانى والاسكندر المقدونى فى فتوحاتهما الواسعة . فاختـار مصر ليجعلها ميـداناً لانتصارات جديدة واجتذبته عظمة مصر القديمة ، فخيل له أن يشيد على ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش فى صـدره من الآمال الكبار ويصل منها الى ضرب انجلترا عدوة فرنسا اللدود فى ذلك الحين ، فالحملة الفرنسية كما ترى هى دور من أدوار التنازع بين فرنـسا وانجلترا

اختمرت الفكرة فى ذهن نابليون وهو بعـد فى ايطاليا ، وأخذ يكد فكره ويعد الوسائل لتحقيق مشروعه العظيم ، فوجه عنايته الى كل ما يمهد له سبيل الحملة على مصر ، فرأى أن يضمن لفرنسا السيادة على البحر الابيض المتوسط ليتخذه سبيله الى مصر ويجعله «بحيرة فرنسية» كما يقول فى مذكراته ، وتحقيقاً لهذه الغاية استولى على اسطول جمهورية البندقية وضمه الى اسطول فرنسا واستولى على انكونا وسيطر على جنوا . واحتل كورفو والجزر الاخرى من الجزائر الايونية ليتخذها قاعدة بحرية لفرنسا فى البحر الابيض ، وطمح الى الاستيلاء على جزيرة مالطه للغرض نفســه ،

وأفضى الى حكومة الديركتوار [١] وهو بعد فى ايطاليا بمشروعه فى الحملة على مصر فكتب اليها من ميلان بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ أى قبل عقد صلح كامبوفورميو بشهرين و بعد احتلاله الجزائر الايونيه يقول :

« ان المواقع التى نحتلها على شواطئ البحر الابيض المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر ، والآن يجب علينا أن نرقب تطورات السلطنة العثمانية التى أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا إما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من اسلابها ، ويمكننا أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها فى الاقيانوس الاعظم ، فاذا كانت نازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح فى مفاوضات « ليل » فلنتجاوز عنه ولنحتل مصر فسيكون لنا فيها الطريق المفضى الى الهند ويسهل علينا أن ننشىء بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم ، واذا أردنا أن نهاجم انجلترا فلنهاجمها فى مصر »

وكتب الى المسيو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية رسالة بهذا المعنى

وكان يفوه فى بعض المواطن بتصريحات تنم عما يجيش فى صدره من المشروعات والآمال ، قال يخاطب جنوده فى باسانو [٢] Bassano يوم ١٠ مارس سنة ١٧٩٧

« ان أعلام فرنسا تخفق لاول مرة على ضفاف الادرياتيك على مقربة من مقدونية القديمة التى نبت فيها الاسكندر واتجه منها الى الشرق ، وان مهمة كبيرة تنتظركم فلم تنته بعد مأموريتكم ، وان عليكم أن تعاقبوا سكان تلك الجزيرة الخبثاء (يعنى الانجليز) الذين لم تصبهم حروب القارة بسوء وظلوا يهزأون لمصائبها»

---

(١) يطلق اسم حكومة الديركتوار (الادارة) على الحكومة التى تأسست فى فرنسا على نظام دستور سنة ١٧٩٥ وتجد تفصيل هذا النظام فى كتابنا (الجمعيات الوطنية) ص٨٠ وقد بقيت قائمة الى ان اسقطها نابليون بعد عودته من مصر سنة ١٧٩٩ وحل محلها نظام القنصلية حيث صار نابليون فيها القنصل الاول

(٢) بلدة فى ولاية البندقية (فنيسيا) على نهر البرنتا

وقال فى سبتمبر سنة ١٧٩٧ مخاطباً رجال أسطول الاميرال برويس Brueys

« أيها الرفقاء . عند ما ننتهى من اخضاع القارة سنجتمع بكم لنحصل على حرية البحار ، و بدونكم لا نستطيع أن نحمل مجد فرنسا إلا فى مكان ضيق من القارة ، أما بكم فسنجتاز البحار وننشر عظمة الوطن فى البلاد النائية »

ففى ايطاليا اذن فكر نابليون فى مشروع الحملة على مصر ، واختمرت الفكرة فى ذهنه قبل أن يعود الى فرنسا ، وكانت موضع دراسته وأبحاثه ومطالعاته ، ففى أثناء مفاوضات الصلح التى انتهت بمعاهدة كامبوفورميو كان يستحضر من مكتبة ميلان جميع الكتب الخاصة بالشرق ، ويكبّ على مطالعة كل ماله علاقة بالديار المصرية فى دور كتب ميلان و بولونى وفلورانس

وقد لوحظ على معظم تلك الكتب بعد ردها ان بها اشارات وملاحظات بقلم نابليون على ماورد فيها خاصاً بمصر ، واستقدم كذلك من فرنسا بعض وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وأخذ يراجعها و يدرسها ، وكان فى خلال المفاوضات شديد الاهتمام بان يصل الى اعتراف النمسا بتملك فرنسا للجزائر الايونية تحقيقاً لبرنامجه ، ونجح فى مسعاه واعترفت النمسا فى المعاهدة بان هذه الجزائر أصبحت ملكا لفرنسا

## فكرة الحملة الفرنسية فى خلال العصور

رجع نابليون الى باريس عقب امضاء معاهدة الصلح،واحتفلت فرنسا باستقبال قائدها العظيم وأخذ يتابع فكرة الحملة على مصر ، وأكب على محفوظات وزارة الخارجية والبحرية يطالع الوثائق الخاصة بالقطر المصرى والاغارة عليه .

ان فكرة الحملة الفرنسية على مصر لم تنبت فى رأس نابليون وحده بل كانت تتردد فى الاذهان فى مختلف العصور

## فى عهد لويس التاسع

فنى القرن الثالث عشر تملكت هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع ملك فرنسا مدفوعا اليها بعامل الدين ، وجرد فعلا جيشاً جراراً بقصد الاغارة على مصر فى حملة عرفت فى التاريخ بالحرب الصليبية السابعة ونزل لويس التاسع الى دمياط سنة ١٢٤٩ فى نحو خمسين الفاً من المقاتلة فملكها ثم زحف على المنصورة واشتبك مع جيش المسلمين فى معركة كبيرة عرفت بواقعة المنصورة (سنة ١٢٥٠) انتهت بهزيمة الفرنسيين وقتل منهم نحو ٣٠ الفاً وغرق كثير منهم فى النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن بالمنصورة فى دار ابن لقمان التى لا تزال باقية الى الآن ، ثم افتدى لويس نفسه وبقية جنوده بمبلغ عشرة ملايين فرنك وخرج من دمياط مهزوما وانتهت تلك الحملة بالخيبة والفشل

## فى عهد لويس الرابع عشر

ثم تجددت الفكرة فى القرن السابع عشر إذ نصح الفيلسوف الالمانى الشهير ليبنتز Leibniz الى الملك لويس الرابع عشر أن يغزو مصر، ذلك ان فرنسا كانت فى ذلك الحين على أهبة الزحف على هولاندا بسبب ما بينهما من التنافس على السيادة ، فقدم ليبنتز الى لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ تقريراً يرغب اليه العدول عن الزحف على هولاندا ويشير عليه بالزحف على مصر بحجة ان امتلاك فرنسا للقطر المصري يؤدى الى استحواذها على متاجر الهند وبذلك يتوصل لويس السابع عشر الى هزيمة الهولانديين الذين كانوا يصرّفون زمام التجارة الهندية فى ذلك العصر

قال ليبنتز فى تقريره الى لويس الرابع عشر (١) « انكم لا تهزمون الهولنديين

---

(١) بقى هذا التقرير محفوظا في مكتبة هانوفر الى سنة ١٨٠٣ حيث عثر عليه الجنرال مورتيه قائد جنود الاحتلال في هانوفر فبعث به الي نابليون حيث كان (قنصلا أول)

فى عقر دارهم ، فانكم لا تستطيعون تخطى السدود التى تحيط ببلادهم ، واذا أعلنتم عليهم الحرب فان أوروبا تنضم الى جانبهم ، لكن مصر هى الميدان الذى تضربونهم فيه فهناك تجدون الطريق الحقيقى لتجارة الهند ، وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة وانتزاعها من يد الهولنديين وتضمنون بسط سلطان فرنسا وسيادتها فى بلاد المشرق الى ماشاء الله ، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها ، وهنالك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الاعجاب بكم »

ولم يكد ليبنتز يقدم تقريره حتى كانت الجيوش الفرنسية قد أغارت على الحدود الهولندية ، على ان لويس الرابع عشر لم يفتنه التفكير فى الحملة على مصر ، لكنه رغب عنها لما رآه وقتئذ من ان الزحف عليها يفقد فرنسا صداقة تركيا أو على الاقل حيدتها ويحملها على الانضمام الى الدول الاوروبية المعادية لها ، وكانت تركيا فى ذلك العصر لم تزل مرهوبة الجانب يحسب لصداقتها وعداوتها حساب كبير

## فى عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر

وفى خلال القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة فى فرنسا وترددت فى تقاريرهم ومذكراتهم ، ذلك حين أخذت الدولة العثمانية فى الاضمحلال وطمعت الروسيا والنمسا فى أملاكها ففكروا فى أن تشترك فرنسا فى اقتسام أسلاب تركيا وأن تكون مصر نصيبها من ولايات السلطنة العثمانية

ففى عهد لويس الخامس عشر كان الدوق دى شوازل De Choiseul كبير وزرائه من أنصار فكرة احتلال فرنسا لمصر ، لكنه فى الوقت نفسه كان متبعاً خطة فرنسا القديمة فى المسألة الشرقية وهى مصادقة تركيا وموالاتها ، فكان يطمع فى أن تحتل فرنسا مصر عن طريق المفاوضة مع تركيا والاتفاق معها ولم يكن يرى غضاضة على تركيا فى هذا التنازل لان الحكومة العثمانية لم يبق لها فى مصر سلطة فعلية فى ذلك الحين

كتب المسيو تاليران Talleyrand فى هذا الصدد يقول «ان الدوق دى شوازل

الذى يعد بين رجال السياسة فى القرن الثامن عشر أبعدهم نظراً وأقوامهم فكراً كان يسعى سنة ١٧٦٩ (١) فى أن تتنازل تركيا لفرنسا بطريق المفاوضات السياسة عن مصر لتستعيض بها من مستعمراتها فى أمريكا وتجد فى حاصلاتها وتجارتها ما يغنيها عن تلك المستعمرات(٢)» لكن الفكرة لم تخرج الى حيزالتنفيذ ولم يفاتح شوازل تركيا يوماً فى هذا الصدد ، وظل المشروع أملا يهجس فى صدره إلى أن سقطت وزارته سنة ١٧٧٠

ثم تجددت الفكرة فى عهد لويس السادس عشر(٣)، ذلك حين كان سفير فرنسا فى الاستانة الكونت سان بريست Saint Priest من أشد انصار الفكرة فكتب عنها عدة مذكرات الى وزارة الخارجية الفرنسية

وكان التنافس التجارى بين فرنسا وانجلترا قد بدأ يتجه الى الديار المصرية لمحاولة كل منهما احتكار متاجر الهند عن طريق مصر والاستغناء بها عن طريق راس الرجاء الصالح ، فلفت هذا التنافس انظار فريق من رجال السياسة وأخذوا يبحثون عن الوسائل الفعالة لتوطيد مركز فرنسا التجاري فى مصر ، وقد ظهر رجلان اتجهت مساعيهما الى تحقيق فكرة الدوق دى شوازل وهما الكونت سان بريست والبارون دي توت De Tott

تولى سان بريست سفارة فرنسا فى الاستانة سنة ١٧٦٨ وأقام بها نحو ستة عشر عاما (٤) يرقب شؤون السلطنة العثمانية ويشهد أعراض اضمحلالها ويتنبأ بقرب تفككها واقتسام أسلابها ، فهو بحكم مركزه السياسى كان كثير الاهتمام بمصير مصر

---

(١) اي عقب نشوب الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨

(٢) تقرير تاليران الذي تلاه بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٧٩٧ عن المزايا التى تعود على فرنسا من مستعمرات جديدة

(٣) تولى عقب وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

(٤) انتهت سفارته سنة ١٧٨٤

وتطور الاحوال فيها ، فكتب الى حكومته غير مرة يرغب اليها احتلالها ، أما البارون دى توت فهو نبيل من سلالة اسرة من المجر استوطن فرنسا وأخلص لها فأوفدته الى تركيا ولما عاد منها سنة ١٧٧٦ قدم تقريرا الى الحكومة الفرنسية بسط فيه رأيه فى حالة تركيا وانتهى الى انه لا سبيل إلى الحيلوله دون تفككها ونصح الى الحكومة الفرنسية أن تحتل مصر لتوطيد تجارة فرنسا فى الشرق

كان من نتائج هذه الفكرة أن أوفدت الحكومة الفرنسية البارون دي توت الى ثغور السلطنة العثمانية بقصد التفتيش على مراكز التجارة الفرنسية فيها والغرض الحقيقى هو درس سواحل مصر ومواقعها ومشروع احتلالها

بدأ توت رحلته سنة ١٧٧٧ (١) وكان يرافقه ضابط فى البحرية يدعى سونينى له كتاب عن مصر (٢) ولما عاد من رحلته قدم الى الحكومة تقريرا بين فيه مزايا مشروع احتلال مصر وسهولة انفاذه

لكن الحكومة الفرنسية انصرفت عن هذا المشروع لدخولها فى الحرب المعروفة بحرب استقلال امريكا سنة ١٧٧٨ فطوى المشروع مؤقتاً وظلت فرنسا ترقب تطور المسألة الشرقية دون أن تقدم فيها على عمل يتهدد كيان السلطنة العثمانية

ولما انتهت سفارة سان بريست وعاد من الاستانة قدم تقريراً جديداً الى حكومته عاد فيه الى تأييد فكرته القديمة وهى احتلال مصر ونصح حكومته بان تحقق هذه الفكرة قائلا انها تكسب فرنسا مركزاً ممتازاً فى العالم

وكذلك قدم المسيو مور « Mure » الذى كان قنصل فرنسا فى

---

(١) تجد وصف رحلته في مصر في الجزء الرابع من كتابه المسمي «مذكرات البارون دي توت عن الترك والتتار »

Memoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

(٢) سياحة في مصر العليا والوجه البحري للمسيو سونينى Sonnini سنة ١٧٧٧

الاسكندرية تقريراً الى وزارة الخارجية سنة ١٧٨٣ تنبأ فيه بقرب تفكك السلطنة العثمانية ونصح بضرورة احتلال مصر فجاء مؤيداً لتقارير دى سان بريست والبارون دى توت ، على أن الكونت فرجين Vergennes وزير خارجية فرنسا فى ذلك العهد لم يوافق على الفكرة وكان يعتقد أن السلطنة العثمانية لم تكن وشيكة الانحلال بالسرعة التى يومىء اليها سان بريست فى تقاريره ، فضلا عن انه كان مؤيداً لسياسة فرنسا القديمة نحو تركيا وهى سياسة الصداقة والود ، ولذلك أعرض عن فكرة الاشتراك فى اقتسام تركيا وعلى العكس عارض فيها وأخذ فى مساعدة تركيا على الاحتفاظ بكيانها وأوفد اليها بعثة من الضباط والمهندسين لتقوية جيشها واسطولها وثغورها . على أن وزارة الخارجية الفرنسية أخذت تعنى بتنشيط تجارة فرنسا فى مصر والشرق وسعت لدى حكومة الاستانة من جهة ولدى البكوات المماليك من جهة اخرى لحماية المتاجر الفرنسية فى مصر ووقايتها من عبث الحكام المماليك ، وسعت كذلك لضمان مرور متاجرها من أوروبا والهند عن طريق مصر ، لكن تصرفات الحكام المماليك حيال التجار من سائر الاجناس وفرضهم الاتاوات المختلفة على متاجرهم جعل التجار الفرنسيين يشكون الى حكومتهم سوء معاملتهم .

وقفت الحكومة الفرنسية وقفة المتردد حيال مصر والمسألة الشرقية وبخاصة بعد أن تولى الكونت مونتموران Montmorin وزارة الخارجية ، ذلك حين بدأت أحوال الحكومة الملكية تضطرب لارتباك شؤونها المالية وظهور أعراض الثورة الفرنسية فانصرفت عن نية الفتح والاستعمار

ولما قامت الثورة وسقطت الملكية انصرفت حكومة الثورة اضطراراً الى الدفاع عن كيان فرنسا فى وجه الدول الملكية المتحالفة واخماد الفتن الداخلية ، على أن التجار الفرنسيين فى مصر ما فتئوا يرفعون شكاواهم الى حكومتهم الجديدة من سوء معاملة الحكام المماليك ويطلبون اليها العناية بشأنهم ، فأصغت الى شكواهم وعينت المسيو شارل مجالون Magallon قنصلا عاما لفرنسا فى مصر سنة ١٧٩٣ ، والمسيو

مجالون هذا تاجر فرنسى من سكان مرسيليا رحل الى مصر وأقام بها نيفاً وثلاثين سنة مشتغلا بالتجارة فاكتسب خبرة واسعة فى الشؤون المصرية ، وكان من انصار احتلال فرنسا لمصر ، فلما عينته الحكومة الفرنسية قنصلا عاما لها أخذ يرسل الى وزارة الخارجية التقارير والمذكرات أبان فيها عبث الحكام المماليك بمصالح التجار الفرنسيين فى مصر وصرح بان هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة حيالهم ، ورغب الى حكومته أن تعمل على احتلال مصر ونوه بما تناله فرنسا من المزايا السياسية والاقتصادية من استثمار مواردها ومد سلطانها الى البحر الاحمر وتهديد انجلترا فى الهند

مهد مجالون بتقاريره الافكار لمشروع الحملة الفرنسية ، وذهب الى فرنسا سنة ١٧٩٧ وأخذ يدعو رجال الدولة الى تحقيق هذا المشروع و بين لهم سهولة انفاذه وقدم لوزارة الخارجية تقريرا حديداً فى هذا الصدد ، وكان المسيو تاليران Talleyrand السياسى الشهير قد تولى وزارة الخارجية الفرنسية فاقتنع بآراء مجالون وأخذ يدافع عنها، والتقى فى هذه الفكرة مع نابليون بونابارت ، وقدم عنها تقريراً الى حكومة الديركتوار استندفيه الى تقرير المسيو مجالون ونصح فيه الى الحكومة انفاذ الحملة

من هذه الخلاصة الوجيزة يتبين كيف تطورت فكرة الحملة الفرنسية على مصر فى خلال العصور الى أن نفذت على يد نابليون بونابارت

## نابليون وانفاذ الحملة
## وموقف انجلترا

فاتح نابليون حكومة الديركتوار فى انفاذ الحملة على مصر ودافع عنها وأوضح لها المزايا التى تعود منها على فرنسا ، وكانت حكومة الديركتوار تفضل غزو انجلترا فى جزيرتها ، وقد قررت فعلا تأليف جيش أسمته « جيش انجلترا » واختارت نابليون لقيادته ، وكانت راغبة عن الحملة على مصر لعدة أسباب ، منها أن هذه الحملة ستكون عرضة للاصطدام بالاسطول الانجليزي فى طريقها الى مصر وانها ستثير غضب الحكومة

العثمانية وتفقد فرنسا صداقة تركيا القديمة ، وتحمل الروسيا على التدخل فى المسألة الشرقية ، كما أنها تبعد عن فرنسا جيشاً من خيرة جيوشها قد تكون فى حاجة اليه اذا تجدد القتال بينها و بين أعدائها فى القارة الاوروبية

لكن نابليون كان معارضاً فى مشروع غزو انجلترا مقتنعاً باستحالة نجاحه لعظم استعداد الانجليز فى الدفاع عن جزيرتهم وحشدهم الاساطيل فى البحار المجاورة لها ، وكان يرى ان انصراف انجلترا الى رد غزوة فرنسا يصرفها عن جمع قواتها فى البحر الابيض المتوسط، و بذلك تستطيع العمارة الفرنسية أن تسلك سبيلها الى سواحل مصر ، وكانت وجهة نظره أن الحملة الفرنسية اذا دهمت مصر سهل عليها فتحها وانشاء مستعمرة فيها فى مدة لا تتجاوز بضعة أشهر وان فرنسا تجنى مزايا كبيرة من توطيد قدمها فى مصر لانها بطبيعة موقعها الجغرافى مركز الاتصال بين الشرق والغرب وملتقى المتاجر التى تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وافريقية، وانه بانشاء قناة تصل مياه البحر الاحمر بالبحر الابيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل الى البحر الاحمر وتهاجم أملاك الانجليز فى الهند ، وعلى كل حال تستطيع فرنسا أن تنشىء فى مصر مستعمرة ترسل اليها متاجرها ومصنوعاتها وتتحول اليها تجارة الهند والشرق وتكون طريقاً لها إلى أوروبا بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح ، فتصبح مصر مستودعا لمتاجر العالم ، وتعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات وتكون فى الوقت نفسه قاعدة لضرب انجلترا فى الهند و بسط سيادة فرنسا فى البحر الابيض المتوسط ، وقد أشاد نابليون فى حججه للحكومة بعظمة مصر القديمة وقال أنها أخصب بلاد العالم وأنها كانت اهراء الغلال للعالم القديم ، وفى الامكان ترقية زراعتها وغرس الحاصلات الامريكية بها واعادة منزلتها القديمة اذا وجدت بها حكومة حديثة وادارة صالحة ، وفى مذكرات نابليون التى أملاها فى منفاه بسانت هيلين أنه حين عزم على انفاذ مشروع الحملة على القطر المصرى كان يقصد انشاء دولة شرقية كبيرة و ينوى بعد توطيد مركزه فى مصر أن يغزو الهند وكان يقدر لوصوله اليها شهر مارس سنة ١٨٠٠

اقتنعت حكومة الديركتوار بحجج نابليون ، وكانت شخصيته وانتصاراته فى

ايطاليا أكبر مؤيدله فى وجهة نظره ، وأخيرا قررت الحكومة فى ٥ مارس سنة ١٧٩٨ انفاذ الحملة، وتكتمت أمر المشروع حتى لا يتسرب خبره الى الحكومة الانجليزية ، وتمت معدات الحملة دون أن يعلم أحد فى فرنسا وجهتها الا نابليون ورؤساء حكومة الديركتوار والمسيو تاليران وزير الشؤون الخارجية، وتولى المسيو مرلين Merlin الذى كان رئيساً للديركتوار كتابة العهود والقرارات بخط يده ، وكتبت القرارات بعبارات عامة لا يفهم منها غرض الحملة ، ويؤخذ من ظاهرها أن الغرض منها تحصين شواطىء فرنسا على البحر الابيض المتوسط

ومع ذلك بقيت هذه القرارات فى طى الكتمان ، وظل المشروع سراً مكتوماً حتى عن القواد الذين اختارهم نابليون لمرافقته ، وبالغت الحكومة فى كتمان وجهة الحملة حتى انها أطلقت على الجيش الذي أعدته لها اسم « الجناح الايسر لجيش انجلترا » لتوهم الحكومة الانجليزية أنها مصممة على غزوها فى جزيرتها

ولما أوشكت معدات الحملة أن تتم أصدرت حكومة الديركتوار قرارها بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٧٩٨ بتسمية الجيش المعد لها « جيش الشرق » واسندت قيادته الى الجنرال نابليون بونابارت وأصدرت فى اليوم نفسه قراراً عهدت اليه فيه بالحملة على مصر ، وبينت فى مقدمة القرار اسباب الحملة بقولها « ان حكومة الديركتوار لما رأته من أن البكوات المماليك الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالانجليز بأمتن الروابط وجعلوا أنفسهم تحت مطلق تصرفهم، وانهم يرتكبون الاعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين ويضطهدونهم وينهبون أموالهم ويعتدون على أرواحهم، ولما كان من واجب الحكومة أن تقتص من أعداء الجمهورية اينما وجدوا ، واذ كانت الطريقة المنطوية على الغدر التى استولت بها انجلترا على رأس الرجاء الصالح قد جعلت وصول السفن الفرنسية الى الهند محفوفا بالمصاعب فى الطريق المعتادة ، فمن المهم فتح

طريق جديدة لقوات الجمهورية للوصول الى الهند »[1]

هــذه خلاصة ما ذكرته حكومة الديركتوار فى اسباب الحملة ، ومنه يتبين أن التنازع بين انجلترا وفرنسا هو المحرك الاول للحملة الفرنسية وأن الغرض النهائى منها كان الوصول الى الهند ، وعهدت الحـكومة فى قرارها الى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية التى تحت قيادته الى مصر والاستيلاء عليها، وطرد الانجليز من جميع البـلاد الشرقية التى يستطيع الوصول اليها، وهدم المراكز التجارية التى لهم فى البحر الاحمر ، وعهدت اليـه حفر برزخ السويس واتخاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية الفرنسية امتلاك البحر الاحمر »[2] وقررت الحـكومة عدم نشر هذا القرار أو طبعه حتى يبقى فى طى الـكتمان وظل نابليون بونابارت يصدر أوامره الخاصة بالحملة على مصر باسم بونابارت القائد العام (لجيش انجلترا)

ظنت انجلترا ان فرنسا عقدت عزمها على غزوها فى جزيرتها وأنها أعدت لهذا الغرض اسطولها فى الاقيانوس وان استعداداتها فى ثغور البحر الابيض المتوسط كان الغرض منها امداد ذلك الاسطول عن طريق بوغاز جبل طارق، فعهدت الى الاميرال اللورد سان فنسان Saint Vincent مراقبة بوغاز جبل طارق وتعقب اسطول فرنسا فى الاقيانوس ومواصلة حصار اسطول اسبانيا فى قادس وعهد اللورد سان فنسان الى الاميرال نلسن Nelson بأن يتجول فى البحر الابيض المتوسط لمراقبـة حركات الاسطول الفرنسى به

فكرة انجلترا كانت اذن متجهة فى ذلك الحين الى توقع الحملة على جزيرتها

## معدات الحملة

### ووقائعها الاولى

أخذ نابليون عقب قرار الحـكومة يعد معدات الحملة ويبذل فى سبيل ذلك

---

(١) و (٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٤٩٥

ما أوتى من المقدرة وقوة التنظيم ، فاختار معظم جنوده من « جيش ايطاليا » الذى خاض به المعارك وأحرز به الانتصارات العظيمة وضم اليهم بعض كتائب من جيش الرين ، وبلغ عدد من تألفت منهم الحملة ٣٦٫٠٠٠ مقاتل [1] ، ووقع اختيار نابليون على صفوة القواد الذين ظهرت كفايتهم وخبرتهم وتجلت مواهبهم فى حروب ايطاليا وحروب الرين أمثال برتييه Berthier وكافريللى Caffarelli ، وكليبر Kleber ، ورينيه Reynier ، وديزيه Dessix ، ودوجا Dugua وفوبوا Vaubois

---

(١) جاء في تقرير وزير الحربيـة الفرنسية الى حكومة الديركتوار المؤرخ ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ احصاء دقيق لجيش الحملة بعد اقلاعه يؤيد الاحصاء الذي ذكرناه ،ومنه يتبين أن عدده ٣٦٫٨٢٦ مقاتلا،وهذا التقرير نشره القومندان دي لاجونكيير في كتابه ( حملة مصر ) نقلا عن وثائق وزارة الحربيةالفرنسية، ويؤيده كذلك احصاء المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة وشاهد عيان لوقائعها فقد ذكر في كتابه ( تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ) ان جيش الحملة كان مؤلفاً من ٣٦٫٠٠٠ مقاتل،وهذا العدد يختلف عن أحصاء نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين فنابليون يقول أن عدد جيش الحملة هو ٣٢٫٣٠٠ مقاتل ، وفي اعتقادنا أن احصاء نابليون في مذكراته لا يمكن أن يكون موضع الدقة لان المعروف أن نابليون أملى مذكراته عن مصر في سانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاما من وقوع الحوادث التي كتب عنها مذكراته ، ولم يكن تحت يده الوثائق التي يمكن الرجوع اليها في ضبط الارقام ، هذا فضلا عن أن نابليون كان يميل في بعض المواطن الى ذكر احصاءات عن جيشه أقل من العدد الحقيقي ، وربما كان الدافع له على ذلك التباهي بكفاءة جيشه وبعبقريته الحربية ، وقد ذكر المسيو مارتان في كتابه أن نابليون في تقريره الى حكومة الدركتوار عن واقعة شبراخيت يقول أنه كان يقاتل قوات أكثر منه عدداً مع أن الواقع كما يقول مارتان أن قوى المماليك كانت أقل عددا من الجيش الفرنسي

وبون Bon ، ولان Lannes ، وMurat ومورا ، وبليار Belliard

واختار الجنرال كافاريللى Caffarelli رئيساً لفرقة المهندسين ، والجنرال دومارتن Dommartin لقيادة المدفعية ، والجنرال برتييه Berthier الذى كان رئيساً لأركان حرب الجيش الفرنسى بايطاليا رئيساً لأركان حرب الحملة ، وعهد بالادارة الصحية للحملة الى الطبيبين الشهيرين لارّى Larrey كبير الجراحين وديجنت Desgenette كبير أطباء الحملة ، وعهد الى القوميسير سوسى Sucy بادارة مهمات الجيش، والى القوميسير لروا Le Roy بادارة مهمات البحرية ، وجهز الحملة بمطبعة عربية وأخرى فرنسية واخرى يونانية

واصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها فى الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وطبقات الارض والحيوان والنباتات وفن المعمار وهندسة الرى والقناطر والجسور والميكانيكا، وطائفة من رجال الفنون من المصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين ، فبلغ عدد هؤلاء ١٤٦ عضواً ما بين عالم وأديب ومهندس ومثال تتألف منهم لجنة العلوم والفنون(١) التى كان لها شأن يذكر فى تاريخ الحملة كما سيجيء بيانه ، وجهزهم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضية ، وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم ممن تشار اليهم بالبنان فى فرنسا أمثال مونج Monge العالم الرياضى ، وبرتوليه Berthollet العالم الكيميائى. وهما اللذان عهد اليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة ، وفوربيه ، ودلوميو ، وجوفروا سان هيلير ، وغيرهم ممن سنأتى على ذكرهم ونتكلم عن أشخاصهم عند الكلام على المجمع العلمى (٢)

---

(١) نشرنا في قسم الوثائق فروع هذه اللجنة وأسما أعضاء كل فرع منها

(٢) انظر الفصل الرابع

قال المسيو تيبرس [١] « إن نوابغ فرنسا فى الحروب والعلوم والفنون قد صحبوا نابليون فى الحملة وجذبتهم اليها ثقتهم فى قائدها الفتى العظيم وركبوا البحر دون أن يعرفوا الى أى جهة يقصدون »

اجتمعت العمارة الفرنسية المعدة لنقل الحملة فى « طولون » وفى ثغور « جنوا » و « أجاكسيو » و « سيفيتافكيا » وعددها نحو ثلثمائة سفينة يحرسها أسطول الفيس أميرال برويس Brueys المؤلف من ٥٥ سفينة حربية [٢]

أقلعت العمارة من طولون يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وانضم اليها باقى السفن القادمة من جنوا وأجاكسيو وسفيتافكيا ، وجرت كلها تمخر عباب البحر ورست بجزيرة مالطه يوم ٩ يونيو وكانت هذه الجزيرة يحكمها من عهد شارلكان طائفة من الرهبان يعرفون بفرسان القديس حنا الاورشليمى ثم عرفوا بعد ذلك (بفرسان مالطه)، وكان موقعها على جانب كبير من الاهمية الحربية ،فاحتلها نابليون بعد دفاع ضعيف واحتل حصونها ومعاقلها ونظم حكومتها وترك بها قوة من ثلاثة آلاف جندى بقيادة الجنرال فوبوا Vaubois لتوطيد سلطة فرنسا فى الجزيرة والدفاع عنها اذا ما أراد الانجليز احتلالها ، وقد استعاض نابليون من هذه القوة بجزء من الجنود المالطيين الذين ضمهم الى جيشه وساروا معه الى مصر وألف منهم (الكتيبة المالطية) وكان عددهم نحو الالفين

---

(١) في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر

(٢) منها ١٣ بارجة كبيرة احداها السفينة « اوريان » (الشرق) وسلاحها ١٢٠ مدفعاً وهي سفينة الاميرال التى أقلته وأقلت نابليون القائد العام وأركان حربه وياورانه وبعض العلماء ، والاثنتاعشرة بارجة الاخرى يتراوح سلاح كل منها بين ٨٠ و ٧٤ مدفعاً ، وخمس فرقاطات كبيرة سلاح كل منها أربعون مدفعا، وثلاث أخرى سلاح كل منها ٣٦ مدفعا ، وسفينتان أخريان من نوع البريق، وسفينتان كبيرتان ، وست فرقاطات غير مسلحة، والباقي من المراكب الخفيفة المسلحة بالمدافع

أقلعت العمارة من مياه مالطة يوم ١٩ يونيه ووصلت تجاه الاسكندرية يوم أول يوليه (١٧ محرم سنة ١٢١٣) أى بعد شهر ونصف من اقلاعها من طولون

***

أخذ جنود الحملة ينزلون غرب لاسكندرية ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (١٨ محرم سنة ١٢١٣) وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم، وبعد ان ثبّت نابليون قدمه فى الاسكندرية أخذ يزحف على القاهرة بطريق دمنهور

كان أمام الجيش الفرنسى طريقان يسلكهما من الاسكندرية الى القاهرة يلتقيان فى الرحمانية على النيل ، الاول من الاسكندرية الى رشيد براً على ساحل البحر ومن رشيد الى القاهرة على شاطىء النيل ، والثانى من الاسكندرية الى الرحمانية بطريق دمنهور مخترقا جهات كانت فى ذلك العهد صحراء قاحلة ثم من الرحمانية الى القاهرة على البر الغربى للنيل ، وكان الطريق الاخير أقصر من الاول (١) وان كان أكثر مشقة فآثره نابليون ليصل الى القاهرة بأسرع ما يمكن، فأمر جنوده بالزحف بطريق دمنهور وفى الوقت نفسه كلف الجنرال دوجا بان يحتل رشيد ويتقدم الى الرحمانية ليلتقى هناك بالجيش القادم من طريق دمنهور

وفى مساء ٣ يوليه سنة ١٧٩٨ — غداة نزول الجنود بالاسكندرية — بدأت طلائع الجيش تتحرك نحو «البيضاء» (٢)، وتبعتها بقية الفرق المعدة للزحف على القاهرة، فغادرت الاسكندرية فى الايام التالية قاصدة دمنهور ومر الجيش بالبيضاء

---

(١) الطريق الاول يسير من الاسكندرية الى رشيد ماراً بأبو قير وكانت بحيرة «أبوقير» تتصل بالبحر ببوغاز اسمه المعدية لابد أن تجتازه الجنود في سيرها فكان هذا البوغاز يعطل سير الجنود

(٢) البيضاء بلدة صغيرة تابعة الآن لمركز كفر الدوار على الشاطىء الغربي لترعة المحمودية ، وتنطق «البيضا»

والعكريشه[1] والكريون[2] وبركة غطاس[3] محاذيا الترعة المعروفة وقتئذ بخليج الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) والتي كانت في ذلك الوقت جافة لان النيل لم يكن يمدها بمائه إلا في زمن الفيضان ، فلاقى الجنود عناء كبيرا من القيظ والعطش ، ولم يكن في تلك الجهات من الماء سوى مياه الآبار ومع ذلك فقد غوّر الاهالى معظم الآبار التي في الطريق وأتلفوها

تلاقت الفرق في دمنهور يوم ٧ يوليه ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم تحرك نابليون وأركان حربه من الاسكندرية فبلغ دمنهور في صباح اليوم التالى ، ثم غادر الجيش دمنهور ليلة ١٠ يوليه قاصداً الى الرحمانيـة ، فبلغها يوم ١٠ واحتلها في ذلك اليوم .

أما الجنرال دوجا فقـد سار من الاسكندرية الى رشيد فاحتلها يوم ٦ يوليه ثم سار منها الى الرحمانية وانضم بفرقته الى باقى قوات الجيش

التقى مراد بك بالجيش الفرنسي بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ (٢٩ محرم سنة ١٢١٣ ) فهزمه نابليون واضطره الى التقهقر ، فانثنى مراد راجعاً الى القاهرة استعداداً للمعركة الفاصلة فالتقى الجيشان في «امبابه» ، وهنالك على مقربة من الاهرام هزم جيش مراد بك في معركة فاصلة كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية وهي المعركة المعروفة عند المصريين بواقعة امبابه وعند الفرنسيين بواقعة الاهرام[4] (٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ — ٧ صفر سنة ١٢١٣ )

---

(١) و (٢) و (٣) العكريشه والكريون من بلاد مركز كفر الدوار الآن وبركة غطاس بمركز أبو حمص

(٤) ان تسمية الواقعة بواقعة امبابه أقرب الى الحقيقة لانها وقعت حول قرية امبابه ولكن الفرنسيين أسموها واقعة الاهرام تفخيما لها وتخليدا لاسمها في التاريخ ، وقد ورد اسمها في يوميات الجنرال كليبر بانها واقعة « امبابه » أو « الاهرام » ولكن الاسم الذي صار علما لها في التاريخ هو معركة الاهرام ، ولذلك سميناها باسمها التاريخي

فرّ مراد بك بالبقية الباقيـة من فلول جيشه المهزوم الى الجيزة ، أما ابراهيم بك الذي كان مرابطاً بالبر الشرقي من النيل فانه لمـا رأى الهزيمة قد حلت بصاحبه غادر القاهرة ومعه من تبعه من مماليك ومصريين ويبلغ عددهم نحو الف وخمسمائة واصطحب معه أبا بكر باشا الوالى التركى وانسحبوا جميعاً قاصدين بلبيس ، وخلت العاصمة من قوة الدفاع ، وصارت وجهاً لوجه امام الجيش الفرنسى

## سياسة نابليون ازاء الشعب

### وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره

لم تـكن مهمة نابليون فى مصر حربية فحسب ، بل كان مفروضاً عليه أن يواجه أمة شرقية ذات حضارة قديمة تختلف اختلافا كبيراً عن الشعوب الاوروبية التى عرفها وخالطها ودرس عاداتها وطباعها وأخلاقها

كان مطلوبا منه أن يواجه الامة المصرية ، يحكمها البكوات المماليك الذين استبدوا بادارة شؤونها السنين الطوال ، وعلى رأس حكومتها وال عثمانى يمثل تبعية البـلاد الاسمية لسلطان تركيا دون أن يكون له نفوذ فعلى بجانب سلطة المماليك ، فكان من المفروض على نابليون أن يرسم لنفسه سياسة يتبعها حيال هذه العناصر المشتبكة فى أرض الفراعنة

ان الغرض الذي كان يرمى اليه هو توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وتحقيقاً لهذا الغرض رأى أن خير سياسة يتبعها ازاء مصر أن يجامل تركيا بقـدر المستطاع وأن يجتذب اليه قلوب الشعب ويتحبب الى الاهالى بافهامهم انه انما جاء لمحاربة طائفة المماليك الغرباء عن البـلاد الذين يستنزفون ثروة مصر ويظلمون أهلها ، وأنه يرمى الى إنشاء «حكومة أهلية» يكون النفوذ فيها للمصريين ، هذه هى الخطة السياسية التى رسمها نابليون وجعلها أساساً لمشروعه العظيم وهو تأسيس دولة عربيـة فى مصر تساعده على تحقيق آماله وأطماعه فى الشرق والغرب

ظهرت هذه الخطة فى منشوراته و بياناته الأولى للمصريين ومفاوضاته لزعمائهم ومسلكه حيالهم وفى النظم الحكومية التى أسسها فى مصر

أمر نابليون عند ما احتل الاسكندرية باذاعة أول منشور له باللغة العربية الى أهل البلاد ، أوضح فيه أغراضه من الحملة الفرنسية وضمنه نداء الى الشعب يدعوهم فيه الى الاطمئنان على مصيرهم ،ويعدهم بأن تكون حكومة البلاد فى أيديهم

كتب نابليون هذا المنشور يوم ٢٧ يونيهسنة ١٧٩٨ علىظهر البارجة (أوريان) أى قبل أن ترسو العمارة بعدة أيام ، وصاغه فىقالبه العربى جماعة المستشرقين والتراجمة الذين أحضرهم معه وبخاصة المسيو فانتور والمسيو مارسل، وطبع على ظهر البارجة بالمطبعة العربية التى جاء بها ، وقد أمر بطبع المنشور قبل رسو العمارة ، فكان أول وثيقة عربية طبعت علىهذه المطبعة ، وأمر قبل مغادرته الاسكندرية أن تنقل المطبعة العربية والمطبعتان اليونانية والفرنسية من البارجة ( أوريان) الى منزل قنصل البندقية بالاسكندرية ، وأن تهيأ هذه المطابع بحيث تكون معدة للعمل فى ثمان وأربعين ساعة وأن يطبع على المطبعة العربية أربعة آلاف نسخة من المنشور عدا ماطبع منه على ظهر البارجة (أوريان)، وأمر كذلك بالافراج عن البحارة الترك والعرب والمغاربة الذين فك اسارهم فى مالطة (١) وأحضرهم معه على ظهر العمارة الفرنسية وسمح

---

(١) هم البحارة المسلمون الذين كانت تأسرهم سفن مالطة في جولاتها في البحر الابيض ويعتبر فرسان مالطة أن أسرهم واجب ديني،وكانوا يقضون عليهم بالسجن على ظهر السفن الحربية ويجبرونهم على الاشغال الشاقة فيقضون بقية عمرهم في هذا الشقاء ، فلما احتل نابليون مالطة أمر باطلاق سراح هؤلاء الاسرى وكان عددهم نحو السبعماية وأحضرهم معه الى الاسكندرية وسمح لهم بالذهاب أنى شاؤا حفظوا للفرنسيين هذا الجميل ، وكان غرض نابليون من اطلاق سراحهم أن يظهر للبلاد الاسلامية مبلغ عطفه على المسلمين

واليك ما كتبه الجبرتي عن أولئك الاسرى وعن منشور نابليون الي

لهم بالذهاب أنى شاؤا ومع كل منهم عدد من المنشورات لتفريقها فى أنحاء البلاد

ان تاريخ هـذا المنشور هو ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ و ١٤ مسيدور من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية ، أى ان نابليون بادر باذاعة هذا المنشور يوم احتل ثغر الاسكندرية، وكان المنشور معداً ومطبوعاً على المطبعة العربية قبل رسو العمارة الفرنسية ، وهـذا يدلك على مبلغ اهتمامه بتبليغ المصريين مقاصده من الحملة ورغبته فى اكتساب قلوبهم

واليك صورة المنشور ننقله هنا كما هو وارد فى الجبرتى مع مقارنته بالاصل الفرنسى

## منشور نابليون الى المصريين

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه ، من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية [1] ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرت ، يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد

---

المصريين« كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخا الي البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لها ، ووصل هـذا المكتوب مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة الى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ، ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات »

(١) هذه العبارة ليست واردة في الاصل الفرنسي ،وانما وردت في النسخة العربية التي وزعت في البلادوالواردة في الجبرتى ،ولعلها عنوانللنسخة العربية للمنشور،أما الاصل الفرنسي فيبتدأ بالعبارة الآتية «المعسكر العام بالاسكندرية في ١٤ مسيدور من السنة السادسة الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هجرية ، بونابرت

السناجق[1] الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازة[2] والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذي لا يوجد فى كرة الارض كلها ، فاما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم انى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين أنني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الارض المصرية

---

عضو المجمع العلمي الاهلي والقائد العام » وكلمة التسوية يقصد منها المساواة ، ومعروف ان الحرية والمساواة شعار للجمهورية الفرنسية ، والسرعسكر كلمة تركية معناها رئيس العسكر أو القائد العام ، والمنشور كما يراه القارىء مملوء بالاغلاط والعبارات العربية الركيكة ، أما أصله الفرنسي فبليغ وهو منشور في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢٣ ، ولم نشأ أن نعربه عن الاصل لان الصيغة العربية التي نشرت في البلاد والواردة من الجبرتي أصبحت وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها فنقلناها كما هي

(١) حكام المديريات جمع سنجق ، راجع الفصل الاول.

(٢) الابازه من شعوب القوقاز وفي الاصل الفرنسي للمنشور « المجلوبون من جورجيا والقوقاز » وجورجيا من بلاد القوقاز واقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين

التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور [١] وبذلك يصلح حال الامة كلها ، وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان [٢] الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك

أيها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية وأعيان البلد، قولوا لامتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون [٣] واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى روميه الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا [٤] الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردوا منها الكواللريه [٥] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين

---

(١) في الاصل الفرنسي « سيتولون الحكم » Juoverneront

(٢) الترع

(٣) في الاصل الفرنسي « محبون للمسلمين المخلصين »
Que nous sommes amis des vrais musulmans

(٤) يشير الى الحملة الفرنسية التي زحفت على روما أثناء حرب ايطاليا وطردت البابا من روما

(٥) الكو الريه أو الكفاليريه مأخوذة من الكلمة الفرنسية Chevaliers وهم طائفة دينية كانت تعرف بفرسان القديس حنا الاورشلمي وقدتولوا حكم مالطة من عهد شارلكان ، وصار اسمهم « فرسان مالطة » فلما رست العمارة الفرنسية بمالطة في طريقها الي مصر احتلها الفرنسيون وانقضي حكم فرسان مالطة واستولي الفرنسيون على ما بالجزيرة من استحكامات ومهمات وذخائر وتحف ثمينة ومجوهرات مما كان يهدى الي الطائفة من أنحاء العالم وقد احضر نابليون معه الي مصر الكثير من هذه النفائس لينتفع بثمنها

لحضرة السلطان العثمانى واعداء أعدائه أدام الله ملكه[١] ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم

طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنـا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم

طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب ، لـكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعـد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر

المادة الاولى جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات [٢] عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عنـدها وكلاء كيما يعرف المشار اليـه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى واحمر

المادة الثانية كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار

المادة الثالثة كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة — المشايخ[٣] فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها

المادة الخامسة — الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل أحـد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئناً ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله

---

(١) ترجمة الاصل الفرنسى هكذا : ألسنا نحن الذين كنا على الدوام في خلال العصور أصدقاء السلطان العثمانى أدام الله ملكه

(٢) في الاصل الفرنسي ثلاثة فراسخ

(٣) المقصود هنا مشايخ البلاد وكانوا بمثابة العمد الآن

سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى ، أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية . تحريراً بمعسكر اسكندرية فى ١٣[١] شهر مسيدور من اقامة الجمهور الفرنساوي يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية »

***

هذا هو المنشور الذى أذاعه نابليون فى مصر وأوضح فيه السياسة التى عزم على اتباعها، فهو أولا أراد أن يفهم المصريين انه انما جاء ليحارب المماليك دون سواهم عقابا لهم على معاملتهم الفرنسيين بالاذلال والاحتقار واعتدائهم على التجار واساءتهم الى أهل البلاد بالمظالم التى يرتكبونها ، وأظهر من جهة أخرى انه يحترم شعور الأهالى ويحترم الاسلام ونبيه الكريم والقرآن العظيم ، وأشاد بعظمة مصر القديمة ونوّه بما كان لها فى العصور الماضية من حضارة وعمران ، كل ذلك ليستميل اليه قلوب المصريين

ووضع فى منشوره أساس حكومة أهلية يدير شؤونها « العلماء والفضلاء و بذلك تصلح حال الامة كلها »

ان فكرة انشاء حكومة أهلية من المصريين هى أظهر مافى المنشور من الوعود التى أراد أن يجتذب بها قلوب المصريين ، والواقع ان نابليون فى هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها و يوجه خطابه الى المصريين و يعدهم بان يكونوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد .

على انه لايفوتنا القول بان منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وانذار المصريين باستهدافهم لاشد أنواع الاذى.

---

(١) الواقع انه ١٤ مسيدور وربما كان رقم ١٣ خطأ من الجبرتي في النقل ، وحقيقة التاريخ الهجري ١٨ محرم

اذا هم لم يذعنوا للحكم الفرنسي ، لان انذار القرى باحراقها بالنار اذا هى خرجت على الجنود الفرنسية أمر لايتفق والقواعد الانسانية فى معاملة الشعوب ، ولم نر فى منشورات نابليون للايطاليين أثناء حروب ايطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارىء فى خلال الفصول القادمة ان الفرنسيين قد استعملوا طريقة احراق القرى فى كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا أن نفهم من هـذا ان نابليون كان ينظر الى الامة المصرية بغير العين التى ينظر بها الى الامم الاوروبية ، وانه مع رغبته فى اظهار الود نحو المصريين فانه أعقب هذه الرغبة بتهديدهم بهذا الانذار الرهيب ، وهـذا وحده كاف ليصرفهم عن الاطمئنان لوعود نابليون . وقد أورد ريبو فى كتابه (١) منشور نابليون وحذف منه هذه المادة وأشار اليها اشارة مبهمة ، ولعله تعمد حذفها ليكتم عن القارىء مبلغ مافيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والانسانية

## المفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب

### غداة معركة الاهرام

قام المصريون بقسطهم فى الدفاع عن البـلاد كما تراه مفصلا فى الفصل الخامس والفصول التى تليه ، لـكنهم غلبوا على أمرهم وأصبحت القاهرة بعـد واقعة الاهرام مفتحة الابواب امام الجيش المغـير ، فساد فيها الذعر وعم أهلها الفزع والاضطراب لتوقعهم المكاره واحتمال العنت والاذي عند دخول الفرنسيين المدينة ، وكان رؤساء المماليك قد فروا تاركين العاصمة بلا دفاع ، فأخذ علماؤها وأعيانها يفكرون فى الخطة التى يتبعونها حيال هـذه الكارثة لتخفيف مصاب التسليم بالامر الواقع ، شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها

ففى صباح يوم الاحد ٢٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (غداة معركة الاهرام) اجتمع فى

---

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

الازهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فى الامر ، وكان الجيش الفرنسى لم يزل بالبر الغربى للنيل ولم يدخل المدينة بعد ، فاتفق رأيهم على أن يبعثوا برسالة الى الفرنسيين يستفهمون فيها عن قصدهم وينتظرون ما يكون جوابهم، فقام رسولان يحملان الرسالة الى معسكر الجيش الفرنسى بالجيزة (١) ثم عادا فاخبرا انهما قابلا القائد العام وأعطياه الرسالة وقرأها عليه ترجمانه ، فقال على لسان الترجمان « وأين عظماؤكم ومشايخكم ولم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة » وطمأنهم وبش فى وجوههم فقالوا نريد أمانا منكم ، فقال أرسلنا لكم كتابا سابقاً (٢) ، فطلبوا وثيقة أخرى لاجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم رسالة أخرى هذا مضمونها كما جاء في الجبرتى :

« من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر ، اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ماحضرنا إلا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون

---

(١) اتخذ نابليون قصر مراد بك في الجيزة معسكراً للقيادة العامة يصدر منه الاوامر الى أن انتقل الى القاهرة يوم ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨

(٢) يقصد المنشور الذي أذاعه في الاسكندرية ووصلت منه عدة نسخ الى القاهرة قبل معركة الاهرام، ولعله يقصد كذلك بيانا آخر نشره عقب معركة الاهرام لم يرد ذكره في الجبرتى وقد ورد نصه في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨١٨

« من معسكر الجيزة في ٤ ترميدور (٢٢ يوليه ) الى أهل القاهرة :

« انى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعاً بعدم مقاومتي ، انى جئت لابادة جيش المماليك وحماية التجارة وأهالي البلاد الاصليين ، فليطمئن الخائفون وليرجع الفارون الى بيوتهم، وليستمر الاهالي على اقامة الشعائر الدينية كالمعتاد ، اطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم واطمئنوا على دينكم الذي أحترمه ، ولما كان من غرضي أن لا يختل الامن وأن يسود النظام فسيتألف ( ديوان ) من سبعة أعضاء يجتمعون فى الازهر يتصل منهم اثنان بقومندان الموقع ويتخصص أربعة بالمحافظة على الراحة والنظام وتدبير شؤون البوليس »

لفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بمايستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ونحن فى طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالقطر المصرى ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين »

ثم قالوا للرسولين « لابد أن يحضر الينا المشايخ والشوربجية لنرتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص من العقلاء يدبرون الامور » ورجع الرسولان بهذا الجواب الى القاهرة فاطمأن النـاس وركب وفد مؤلف من الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ( من العلمـاء ) الى الجيزة فتلقاهم نابليون بالترحاب وسألهم « هل أنتم كبار المشايخ » فاجابوه ان المشايخ الـكبار قد غادروا المدينـة خوفا من الاحتـلال فكلفهم بأن يكتبوا لهم بالحضور لتأسيس الديوان « لاجل راحتكم و راحة الرعيـة واجراء الشريعة »، فاستكتبوه عدة مكاتبات بالحضور والامان ، ثم عادوا من معسكر الجيزة بعد العشاء وحضروا الى مصر واطمأن برجوعهم الناس وكانوا فى وجل وخوف لغيابهم ، وأرسلوا الامان الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والمشايخ ومن انضم اليهم من الفارين من ناحية المطرية ، أما السيد عمر مكرم نقيب الاشراف فانه لم يحضر وهاجر الى سوريا صحبة أبي بكر باشا الوالى وابراهيم بك

هذه خلاصة ما رواه الجبرتى عن مفاوضة نابليون لزعماء الشعب غداة معركة الاهرام ، ويجدر بنا أن نذكر رواية المراجع الفرنسية عن هذه المفاوضات ونقارن بينها وبين رواية الجبرتى

يقول ريبو[1] أن مراد بك أمر قبل واقعة الاهرام باعتقال التجار الفرنسيين فى القاهرة وكان ينوى قتلهم لولا تدخل المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فاكتفى باعتقالهم[2] وفي غداة واقعة الاهرام قابل المسيو بودوف Baudeuf أحد التجار الفرنسين

---

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) يقول الجبرتى في هذا الصدد « طلب الامراء (المماليك) التجار من

فى القاهرة مصطفى بك (نائب الوالى) ومعه جماعة من التجار الاجانب وطلبوا منه أن يتوجه لمقابلة نابليون بالجيزة وعرضوا وساطتهم لديه، وجاء ترجمان من المعسكر الفرنسى، فسار مصطفى بك مصحوباً بوفد وقابل نابليون وعرض عليه تسليم المدينة فى مقابل عهد منه بحماية الارواح والأموال وطمأنينة السكان ، فصارحه نابليون بأن أول أغراضه المحافظة على سعادة الشعب المصرى واحترام شعائره الدينية وأمواله، وانتهت المقابلة وكانت على صفاء، وبعد انتهائها سار الجنرال ديبوى Dupuy على رأس طليعة من الجنود لاحتلال المدينة ، وفى اليوم التالى (٢٣ يوليه) دخل الجيش المدينة على أثر تلك الطليعة ، وفي أثناء عبور الجنود النيل استدعى نابليون بعض علماء الجامع الازهر وأغا الانكشارية (المحافظ) لمقابلته بمعسكره بالجيزة وناولهم منشوره إلى سكان القاهرة . فهذه الرواية تختلف فى بعض وقائعها عن رواية الجبرتى وان كانت تتفق فى جوهرها ، على أن رواية الجبرتي فى هذا الصدد أدعى للثقة لانها رواية شاهد عيان لحوادث ذلك العصر كان يدون معظم مشاهداته فى حينها ، أما رواية ريبو فقد دونت عقب وقوع تلك الحوادث بمدة طويلة ، وليس يخلو هذا التدوين من خطأ أو تحريف ، وقد رجعنا الى مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى منفاه بسانت هيلين فوجدناه يروى عن هذه المفاوضة أن ترجماناً من قبله ذهب غداة معركة الاهرام لمقابلة علماء الازهر ومشايخه، وأن هؤلاء تولوا زمام الحكومة بعد المعركة واجتمعوا ليتشاوروا فاتفقوا رأيا على التسليم ، فذهب وفد من المشايخ على رأسه كخيا الباشا (نائبه) وقابلوا نابليون بالجيزة ، وهذه الرواية كما ترى أقرب الى رواية الجبرتى ولا تنافيها ، والذى يفهم من تقارب الروايتين أن نابليون أرسل ترجمانه لمقابلة العلماء باعتبارهم زعماء الشعب ، ولمقابلة الوالى باعتباره نائب السلطان (وكان نابليون كثير الاهتمام باستبقاء علاقات الود مع سلطان تركيا) فقابل الترجمان العلماء الذين كانوا

---

الافرنج فحبسوا بعضهم بالقلعة وبعضهم بأماكن الامراء وصاروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها »

بالازهر ، ولم يقابل الوالى لانه ارتحل عقب معركة الاهرام إلى سور ياصحبة ابراهيم بك رئيس المماليك ، ولا بد أن يكون الترجمان قابل مصطفى بك ( نائب الوالى ) فذهب الرسولان اللذان أشار اليهما الجبرتى ولما عادا وسمع العلماء حديثهما مع نابليون ارسلوا وفداً منهم لمقابلته فقابلوه وجرى بينهم الحديث الذى رواه الجبرتى

وترى من خلال المناقشة التى دارت بين نابليون والمشايخ أن أول ما فكر فيه هو تأسيس ( الديوان ) من كبار العلماء والاعيان « لتدبير الامور والنظر فى راحة الرعية واجراء الشريعة » اى انه فاوضهم فى فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين

فلنبحث اذن تفصيلا فى نظم الحكومة التى أسسها نابليون تنفيذاً لهذه الفكرة وما استتبعها من تأسيس الهيئات واللجان الاخرى

# الفصل الثالث

## نُظُم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر

### ديوان القاهرة — دواوين الاقاليم — الديوان العام — المجمع العلمى

### ١

### ديوان القاهرة

انتقل نابليون من معسكره بالجيزة وعبر النيل ودخل القاهرة يوم ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨ (١) مصحوبا بضباطه وأركان حربه ، ونزل بقصر محمد بك الألفى بالازبكية وشرع فى تأسيس الديوان

### تأليف الديوان

يؤخذ من رواية الجبرتى فى تأسيس الديوان أنه بعد أن استقر نابليون فى القاهرة أمر باستدعاء المشايخ والوجاقلية عنـد قائمقام صارى عسكر « فلما استقر بهم

(١) ذكر « ريبو » فى كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية أن دخول نابليون القاهرة كان يوم ٢٥ يوليه . والصحيح ماذكره القومندان دى لاجونكيير فى كتابه ( حملة مصر ) أن دخوله كان يوم ٢٤ يوليه ، وهى الرواية التى اعتمدناها ، لانها مؤيدة بالوثائق الرسمية ، وذلك أن نابليون أرسل عقب دخوله القاهرة الى حكومة الديركتوار تقريراً عن واقعتى شبراخيت والاهرام ، وتاريخ هذا التقرير ٢٤ يوليه كما هو ثابت فى مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقه رقم ٢٨٣٤ ، وكذلك الامر الذى أصدره باعداد المستشفيات والوارد فى مراسلاته ( وثيقـة رقم ٢٨٣٥ ) صـدر فى القاهرة بتاريخ ٢٤ يوليـه ، فالوثائق الرسمية تدل على ان نابليون دخل القاهرة يوم ٢٤ يوليه لا ٢٥ ، والجبرتى يقول ان نابليون عدى الى القاهرة يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ وهذا يوافق ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨ ، فرواية الجبرتى كما ترى صحيحه تؤيدها الوثائق الاصلية

الجلوس حاطبوهم وتشاوروا معهم فى انتخاب عشرة من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ احمد العريشي ، والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد الدواخلى »

ومفهوم رواية الجبرتى أن المشايخ والوجاقلية هم الذين اختاروا أعضاء الديوان ، أى ان هذا الديوان تألف بطريقة تشبه طريقة الانتخاب ذى الدرجتين ، وهو يمثل فى تأليفه المصريين الأصليين من أهالى البلاد ، وان عدد أعضاء الديوان عشرة ، لكن اذا رجعنا الى النص الفرنسى للأمر الذى أصدره نابليون بتأليف الديوان (١) نجده يختلف ورواية الجبرتى فى بعض النقط ومنها عدد الاعضاء وبيان أسمائهم

وهذا نص الأمر نثبته هنا المقابلة بينه وبين ما ذكره الجبرتى

« معسكر القاهرة فى ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية ( ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨ )

« بونابارت عضو المجمع العلمى الأهلى (٢) والقائد العام للجيش يأمر بما يأتى :

( أولا ) تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء

( ثانياً ) يتألف هذا الديوان من المشايخ . السادات : والشرقاوى ، والصاوى والبكرى ، والفيومى ، والعريشي ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الاشراف ، ومحمد الامير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم فى الساعة الخامسة مساء فى منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وأن يختاروا سكرتيراً ( كاتم سر )

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٧

(٢) يريد المجمع العلمى الفرنسى الذى كان نابليون عضواً به منذ ديسمبر سنة ١٧٩٧ ، وكان يفتخر بعضويته فيه كما نراه من تقديم عضويته بالمجمع على رتبة القائد العام فى أوامره

من غير الاعضاء ، ويعينوا اثنين من الـكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية .
ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الاغوات ( رؤساء الجند ) لادارة البوليس، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الاسواق وتموين المدينة، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها الى فرسخين منها
( ثالثاً ) يجتمع الديوان كل يوم من الظهر ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس
( رابعاً ) يقام على باب الديوان حرس فرنسي وآخر تركى
( خامساً ) على الجنرال برتييه Berthier ( رئيس أركان الحرب ) وقومندان المدينة (الجنرال ديبوي) أن يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء ما يلزم لاعضائه ولكى يأخذا عليهم عهداً ألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش »
فهذا الأمر كما ترى ينص على أن الديوان مؤلف من تسعة أعضاء لا من عشرة كما رواه الجبرتى ، وأن هؤلاء الاعضاء هم السادات ، والشرقاوى ، والصاوي ، والبكري ، والفيومى ، والعريشى ، والسرسى ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، ومحمد الامير ، فهناك اذن اختلاف بين رواية الجبرتى وأمر نابليون فى عدد الاعضاء وفى أسمائهم ، فان فى أمر نابليون ثلاثة لم يرد ذكرهم فى رواية الجبرتى وهم السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ محمد الامير ، ونعتقد ان السبب في ذلك أن هؤلاء الثلاثة قد اختارهم المشايخ والوجاقلية يوم اجتماعهم وأصدر نابليون أمره باقرارهم أعضاء للديوان ، لكنهم لم يقبلوا العضوية إما لرفضهم الاشتراك فى مهزلة الحكم مع الفرنسيين أو لأي سبب آخر ، ولذلك لم ترد أسماؤهم في رواية الجبرتى ، يؤيد ذلك أن السيد عمر مكرم كان من بين الاشخاص الذين لم يرضوا البقاء فى القاهرة عند دخول الفرنسيين فيها فانه خرج منها والتقى بابراهيم بك وأبى بكر باشا الوالى وارتحل معهما الى بلبيس ثم الى سوريا ، ولم يعد الا بعد احتلال الفرنسيين يافا كما سيجىء بيانه في الفصل الثانى من الجزء الثانى ، والظاهر أنه وقع الاختيار عليه ليكون عضواً بالديوان دون أن يعلم نابليون بنيته في الرحيل الى سوريا ، فلما تحقق

رحيله خلا محله في العضوية كما خلا محل السادات والامير، فتعين بدل هؤلاء الثلاثة الدمنهوري ، والشبراخيتى ، والدواخلي الذين وردت أسماؤهم في رواية الجبرتى ، والمعروف عن الشيخ السادات أنه لم يكن عضواً فى هـذا الديوان ولا فى الديوان الذى تألف في أواخر دسمبر سنة ١٧٩٨ ، مع ان السادات كان من كبار العلماء فى ذلك الحين وكان له من النفوذ والجاه مالم يكن لأحد من أعضاء الديوان ، فيظهر لنا أنه لم يقبل عضوية الديوان مع صدور أمر نابليون باعتماد عضويته ، ولعله تورع عن قبول هذه العضوية لانها لا تتناسب مع مقامه فى البلاد ، على أنه كان مع ذلك موضع احترام نابليون ، اعتبر ذلك فيما أمر به من تعيينه على رأس لجنة عهد اليها فحص شكاوى الافراد من مصادرة أموالهم ، وهذه اللجنة مؤلفة من الشيخ السادات وللسيو روستى قنصل النمسا والجنرال جونو[١] وقد زاره نابليون في بيته وكان يحترمه احتراماً عظيما ، وذكر الجبرتي عن موقفه حيال الفرنسيين « أنه لما قدمت الفرنساوية الى الديار المصرية لم يتعرضوا له فى شيء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته ، وقبلوا شفاعته وتردد اليه كبيرهم وأعاظمهم[٢] »

على ان نابليون مع احترامه له لم يطمئن يوماً اليه ، وقد اتهمه بزعامة ثورة القاهرة كما سيجيء بيانه فى موضعه[٣] ثم اضطهده الفرنسيون اضطهاداً شديداً فى عهد كليبر ثم فى عهد منو كما تراه مفصلا فى الفصل التاسع من الجزء الثانى ، فالسادات اذن مع انتخابه عضواً بالديوان لم يقبل هذه العضوية أنفة وتورعاً

بقى أن نعرف السبب فيما ذكره الجبرتى أن عدد أعضاء الديوان عشرة مع ان أمر التأسيس ينص أنهم تسعة ، وأن منهم المهدى مع انه لم يذكر فى الامر ، ويظهر

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩٣ ، وليس في المراجع الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة انعقدت أو عملت عملاما، ولعل السادت لم يقبل أيضاً عضوية تلك اللجنة

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

(٣) انظر الفصل الثالث عشر

ان الجبرتى ذكر الشيخ محمد المهدى باعتباره عضواً من الاعضاء فصاروا على روايته عشرة أعضاء ، وهذا خطأ فى رواية الجبرتى ، والصحيح انهم تسعة أعضاء لا عشرة ، أما الشيخ المهدى فلم يكن عضواً بالديوان وانما كان سكرتيراً له ، وكان أمر نابليون يقضى بأن يعين الاعضاء سكرتيراً للديوان « من غير الاعضاء » فوقع الاختيار على الشيخ محمد المهدى ، فهو لم يكن من الاعضاء التسعة ، وعذر الجبرتى فى هذا الخطأ ان الشيخ المهدي وان لم يكن عضواً بالديوان الا أنه كان له من النفوذ فى الديوان وفى غير الديوان أكثر مما كان للاعضاء فقد ذكر الجبرتي عن نفوذه فى ذلك العصر أن الفرنسيين أحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه فى دولتهم مدة اقامتهم بمصر وعلي يده تقضى عندهم حوائج الناس وقضاياهم ، وكانت أوامره نافذة عند ولاة أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ، ولما رتبوا الديوان كان هو المشار اليه فيه والموظفون فى الديوان من دونه واذا ركب حفوا به ومشوا حوله و بين يديه وفى أيديهم العصى يوسعون له الطريق (١) ، فالمهدي كان اذن السكرتير العام المعين للديوان ، ومن ذلك كانت له الرياسة على موظفى الديوان « واذا ركب يمشون حوله » كما يقول الجبرتي ، لكنه لم يكن عضواً به

ولا يفوتنا هنا ان نذكر ان المهدي صار بعد ذلك عضواً فى الديوان الذي تأسس فى دسمبر سنة ١٧٩٨ على نظام آخر كما سيأتى بيانه فى الفصل الاول من الجزء الثاني

اختصاص الديوان

قضى أمر نابليون « باسناد حكومة القاهرة الى الديوان » أي أن السلطة المدنية للحكومة كانت من اختصاصه بوجه عام ، لكن لا يعزب عن الذهن أنه لم تكن له سلطة قطعية في أي من الامور ، بل كان المرجع الاعلى للسلطة العسكرية الممثلة في جيش نابليون .

ويقضي الامر الصادر بتأسيس الديوان ان للاعضاء حق اختيار رئيس من

---

(١) الجبرتي الجزء الثالث

بينهم وتعيين سكرتير ( كاتم السر ) من غير الاعضاء ، وسكرتيرين مترجمين اثنين يعرفان الفرنسية والعربية ، وللديوان صوت مسموع في تعيين كبار الموظفين ، فقد ذكر الجبرتي انهم عينوا محمد المسلماني أغات مستحفظان [1] ( محافظ المدينة ) وعلى أغا الشعراوي والي « رئيس » الشرطة وحسن محرم « امين احتساب » وذلك باشارة أعضاء الديوان ، وقال الجبرتي ان الفرنسيين كانوا معارضين في تقليد هذه المناصب لاولئك الاشخاص لانهم من جنس المماليك ، لكن اعضاء الديوان أقنعوهم بان هؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لايتجاسرون على الظلم ، وبان السوقة لايخافون الامنهم ، فاقتنع الفرنسيون بهذه الحجة ، ويقول « ريبو [2] » ان هذا التعيين كان بنصيحة المسيو ماجالون Magallon قنصل فرنسا في مصر والمسيو فانتور Venture كبير تراجمة نابليون و بودوف Baudeuf التاجر الفرنسي بالقاهرة ، ومعنى ذلك انهم وافقوا أعضاء الديوان على رأيهم وأيدوه لدى نابليون

ويقضي الامر بان من حق الديوان تعيين اثنين من الاغاوات ( رؤساء الجند ) لادارة البوليس ، وتعيين لجنة من ثلاثة اشخاص يتولون الاشراف على الاسواق وملاحظة تموين المدينة ، وهي وظيفة المحتسب القديمة ، ولجنة أخرى تتولى دفن الموتى في القاهرة وما حولها ، واصدر نابليون أمراً آخر في ٢٨ يوليه سنة ١٧٩٨ [3] بان يعين الديوان « اغا » ( رئيسا ) للانكشارية لكل من بولاق ومصر القديمة يكونان تابعين لاغا القاهرة ، وان يعين « اغا » ( رئيسا ) يتولى ادارة الشرطة في النيل وأمر بان يكون هذا الاغا تحت رآسة الكونتراميرال بيري Perrée الذي عهد اليه بشؤون الملاحة النهرية

فتعيين رؤساء الموظفين يدخل اذن في خصائص الديوان ، على أن هؤلاء الموظفين كانوا تابعين للرؤساء الفرنسيين ومجردين من كل سلطة

---

(١) وكان يسمى « الاغا » فقط

(٢) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٦٧

وقد احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان ، فعهد نابليون الى المسيو بوسليج ادارة الشؤون المالية للحكومة ، و يقول عنه الجبرتى (مدير الحدود ) و يعبرعنه بالروزنامجي أي مدير الروزنامه، وعينوا برتلمي الرومى[١] كتخدا مستحفظان ( وكيل المحافظ ) ، وقسموا القاهرة و بولاق ومصر القديمة الى عشرة اخطاط عينوا لكل خط حاكما ( قومندانا ) فرنسياً

ويقول الجبرتى انهم عينوا أحد الافرنج أمين البحرين ( مدير الجمارك ) وآخر « أغاالرسالة » أى مديرالبريد، وفى مراسلات نابليون[٢] ان نابليون عهد الى المسيو سوسي مدير مهمات الجيش ان ينظم مكاتب البريد فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط والرحمانية والمنصورة ومنوف والمحلة الكبرى، على أن يتولى إدارة البريد مدير يتصل بالجيش، وجاء فى تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة ( ١٨٠٠ ) ان مدير البريد فى مصر وقتئذ هو المسيو مونتيكو Monticault

## نظام الديوان

يجتمع الديوان ظهر كل يوم ويبقى من الاعضاء ثلاثة على الدوام فى دار المجلس ويقوم على حراسة الديوان حرس فرنسي وآخر تركى

وقد ابلغ نابليون نص الامر القاضى بتأسيس الديوان الى الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي وأصدر اليه التعليمات الآتية :

« يجب أن تعنى أولا بأن تستكتب أعضاء الديوان رسالة الى أمير الحج بالحضور بالحجاج فى أمان ، وأن يكتبوا الى زعماء العرب بالاخلاد الى السكينة والكف عن محاربة الفرنسيين وان يصدروا منشورا الى الشعب يدعونه الى الطمانينة ويبينون له مقاصدنا الحسنة نحو الاهالى »

واصدر امره فى ٢٧ يوليه بتعيين الادجودان جنرال بوفوازان Beauvoisins

---

(١) سيأتى الكلام عنه في الفصل الثالث عشر

(٢) الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٣٩ و ٢٩٤٠

قوميسيرا لدى الديوان وعهد اليه حضور جلساته على الدوام وأن يرفع اليه عقب كل جلسة كل ما يدور فيها ، وكان نابليون حريصاً على تتبع مداولات الديوان حتى فى اثناء تغيبه عن العاصمة ، فأنه لما ارتحل عن القاهرة لتعقب جيش ابراهيم بك ببلبيس أصدر أمره الى الجنرال دبزيه Desaix بأن ينوب عنه فى شؤون القيادة وكلفه بأن يتلقى من بوفوازان تقارير يومية عن جلسات الديوان[1] ولما أوفد نابليون بوفوازان فى مهمة لدى الجزار عُين بدله المسيو تاليان Tallien قوميسيرا لدى الديوان (٣١ اغسطس سنة ١٧٩٨)، ويؤخذ من أمر نابليون القاضي بهذا التعيين أن مهمة القوميسير هي التجسس على الاعضاء فان نابليون يقول فى أمره[2] « على الستويان[3] تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسعى فى معرفة أخلاق أعضائه ومبلغ الثقة التى يمكننا أن نوليهم اياها ، وعليه أن يبلغنى كل يوم بالشكاوى التى ترفع الى الديوان والمسائل التى يبحث فيها والطلبات التى يبديها »

هذه هي الاوامر والعهود الخاصة بتأسيس الديوان و بيان اختصاصاته ، ومنها يتبين أن سلطته لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وأن هذه السلطة لم تكن الا استشارية ومقيدة بتعهد الاعضاء أن لا يعملوا شيئا ما ضد مصلحة الجيش فضلا عن أنهم كانوا يعملون و يتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة المستمرة

وقد جعل مقر الديوان ببيت قائد اغا بالاز بكية قرب الرويعى[4] وسكن به رئيس الديوان ، وتداول المجلس فى جلسته الاولى فى الوسائل اللازمة لاعادة الامن والنظام الى المدينة

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٩٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠٧

(٣) كلمة ستويان مأخوذة من الفرنسية Citoyen ومعناها «مواطن» وهي من مصطلحات الثورة الفرنسية ، وتؤدي معنى كلمة « مسيو » الحالية

(٤) يبتديء شارع الرويعي من أول شارع البكرية وينتهى لشارع وجه البركة ، وجامع الرويعى بأوله، ويقول العلامة على باشا مبارك في الخطط التوفيقية

— ٢ —

## دواوين الاقاليم

عمم نابليون نظام الديوان فى مديريات القطر المصرى فأصدر فى ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ الامر الاتى (١) :

أولا — يتألف فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان من سبعة أعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويعرضون عليه كل الشكاوى التى تصل اليهم ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض ، وعليهم مراقبة الاشخاص السيء السيرة ومعاقبتهم والاستعانة على ذلك بالقوات التى تحت أمرة القواد الفرنسيين ، وارشاد الاهالى الى ما تقتضيه مصلحتهم

ثانياً — يعين فى كل مديرية أغا (رئيس) الانكشارية يتصل دائما بالقومندان الفرنسى ، ويكون تحت امرته قوة مسلحة من ستين رجلا من الاهالى يحافظ بهم على النظام والامن والسكينة

ثالثاً — يعين فى كل مديرية «مباشر» لجباية أموال الميرى والضرائب وايراد أملاك المماليك التى صارت ملكا للجمهورية ويكون تحت رئاسته العمال الذين يحتاجهم العمل

رابعاً — يعين بجانب هذا المباشر وكيل فرنسى للمخابرة مع مدير المالية ومراقبة تنفيذ الاوامر التى يصدرها وتكون من اختصاص الادارة المالية

وأرسل نابليون صورة هذا الامر الى قواد الجيش الفرنسى الذين تولوا حكم المديريات فى عهد الحملة الفرنسية

---

عن جامع الرويعي أنه بالقرب من جامع البكري انشأه السيد أحمد الرويعي رئيس تجار مصر فى القرن التاسع ، وأما قائد أغا فهو من مماليك محمد بك أبي الذهب وكان أغات مستحفظان (محافظ القاهرة) سنة ١١٩٨ هجرية

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٥٨

## الديوان العام

أراد نابليون أن يستنير بآراء أعيان العاصمة والاقاليم فى المسائل التى تفرعت عن النظام الجديد ، ففى ٤ ستمبر سنة ١٧٩٨ دعاهم الى الاجتماع فى جمعية عامة تمثل أعيان البلاد ليستشيرها فى النظام النهائى للدواوين التى أسسها وفى ادارة الحكومة ووضع نظامها الادارى والمالى والقضائى ، وحدد لانعقاد هذه الجمعية بالقاهرة يوم أول اكتوبر ثم عدل الميعاد الى ٥ ا كتوبر وسميت هذه الجمعية « الديوان العام » تمييز لها عن ديوان القاهرة

توخى نابليون اختيار هؤلاء الاعيان من « الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالى ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين »(١)

احتوت هذه الجمعية العامة مندوبين من القاهرة ومن الاسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجيزة ، واطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وكان مندوبو كل مديرية مؤلفين من ثلاثة من العلماء ، وثلاثة من التجار ، وثلاثة من الاهالى (مشايخ البلاد ورؤساء العربان ) وكان مندوبو القاهرة فى الديوان العام ثلاثة أمثال كل مديرية ولكل من الشرقية والمنوفية الضعف

### رسالة نابليون فى الغرض من الديوان

أصدر نابليون أمره الى العالمين مونج Monge وبرتوليه Berthollet عضوى المجمع العلمي بالاشتراك فى جلسات « الديوان العام » على أن يكون لهما صفة « قوميسيرين » لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة على الاعضاء ، وتلقيا منه تعليماته فى رسالة قال فيها (٢)

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٣٨

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٢٣

« ان الغرض من عقد « الديوان العام » هو تعويد الاعيـان المصريين نُظُم المجالس الشورية والحكم ، فقولوا لهم إنى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهيـة ، وما يفكرون فى عمله اذا كان لهم حق الفتح الذى حزناه فى ميدان القتال

« اطلبوا من الديوان العام أن يبدى رأيه فى المسائل الآتية :

أولا — ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس « الديوان » فى المديريات وما هو المرتب الذى يجب تحديده للاعضاء

ثانياً — ماهو النظام الذى يجب وضعه للقضاء المدنى والجنائى

ثالثاً — ماهو التشريع الذى يكفل ضبط المواريث ومحو أنواع الشكاوى والاجحاف الموجودة فى النظام الحالى

رابعاً — ماهى الاصلاحات والاقتراحات التى يراها الديوان لاثبـات ملـكية العقارات وفرض الضرائب

« ويجب أن تفهموا الاعضاء باننا لا نقصد إلا توفيرالسعادة والرفاهية للبلاد التى تشكو من سوء نظام الضرائب الحالى كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا للديوان نظامه الداخلي كما يأتى ، أن ينتخب الاعضاء رئيساً له ، ونائب رئيس ، وسكرتيرين مترجمين اثنين ، وثلاثة مراقبين ، وأن يكون ذلك بطريقة الاقتراع و بكل مظاهر الانتخاب، وعليكم أن تتتبعوا المناقشات وتدونوا أسماء الاعضاء الذين يمتازون عن زملائهم فى الديوان سواء بنفوذهم أو بكفايتهم »

من هذه الرسالة نعرف بيـان المسائل الاربع التى عرضها نابليون على الديوان العام لاخذ رأيه فيها ، وقد رجعنا الى الجبرتى فوجدناه قد أوجز كثيراً فى الكلام عن الديوان العام ومداولاته ولذلك اعتمدنا على المراجع الفرنسية لانها فى هذا الصدد أوفى وأدق بياناً ، قال الجبرتى فى بيان المسائل الاربع المطروحة عليه « ولما تكامل الجمع شرع القاضى ملطى فى قراءة المنشور ، وتعداد مابه من الشروط مسطور ، وذكر

من ذلك أشياء منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية ، وحجج العقارات ، وأمر المواريث ، وتناقشوا فى ذلك حصة من الزمن ، وكتب هذه الاربعة أشياء أرباب ديوان الخاصة (أعضاء الديوان) يدبرون رأيهم فى ذلك وينظرون المناسب والاحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية ثم يعرضون مادبروه يوم الخميس »

## اجتماع الديوان العام وقراراته

فى أوائل شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ حضر الى القاهرة نواب الاقاليم الذين دعوا الى حضور الديوان العام ، ففى يوم الجمعة ٥ اكتوبر سنة ١٧٩٨ (٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢١٣) نبه عليهم وعلى نواب القاهرة من المشايخ والاعيان والتجار بالحضور الى الديوان العام فى اليوم التالى (السبت) بدار محكمة القضايا ببيت مرزوق بك بحارة عابدين ، لكن الديوان لم ينعقد بهذا المكان وأعيد التنبيه على الاعضاء بالاجتماع بدار ديوان القاهرة وهو بيت قائد أغا بالازبكية

ذهب الاعضاء الى دار الديوان وحضر الاجتماع المسيو مونج والمسيو برتوليه منتدبين من قبل نابليون لافتتاح الديوان والاتصال بالاعضاء وعرض أفكار الحكومة ومشروعاتها عليهم لاخذ رأيهم فيها

## خطبة الافتتاح

ولما استقر بالاعضاء المقام شرع القاضى ماطى رئيس محكمة القضايا فى قراءة (فرمان الشروط) وقام كبير المندوبين (مونج) وناول الترجمان خطبة الافتتاح وتليت مترجمة الى اللغة العربية ، ننقل هنا خلاصتها كما وردت فى الجبرتى لان هذه الخلاصة هى التى تليت بالديوان

«ان قطر مصر هو المركز الوحيد[1] ، وانه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه

---

(١) ترجمة الاصل الفرنسى . . . « ان مصر بلاد لا نظير لها » وفي الترجمة الواردة في الجبرتي بعض عبارات ركيكة أبقيناها لانها وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها

المتاجر من البلاد البعيدة ، وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الامم فى تملكه ، فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن ، إلا أن دولة الترك شددت فى خرابه لانها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس الا القدر اليسير وصار الناس لاجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لانفسهم من سوء ظلمهم ، ثم ان طائفة الفرنساوية بعد ماتمهد أمرهم و بعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه واراحة أهلها من تغلب هـذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة ، فقدموا وحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة ، وان غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجانها التى دثرت ، فيصير لها طريقان طريق الى البحر الاسود(١) وطريق الى البحر الاحمر فيزداد خصبها و ريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن ، فالمناسب من أهلها ترك الشغب واخلاص المودة ، وان هذه الطوائف المحضرة من الاقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لانهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر (نابليون) من ذلك مايليق صنعه »(٢)

هذا هو الخطاب الذى افتتح به « الديوان العام » ، والمتأمل فيـه يرى نابليون يشيد بعظمة مصر القديمة ومركزها الممتاز فى العـالم و يعترف بان مصر كانت معلمة الأمم وحاملة لواء الحضارة والعرفان ، وجميل أن يصدر هذا الاعتراف من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب ، على ان هـذه اللهجة من شأنها أن تبعث فى نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح العزة القومية فتحدو بهم الى التطلع لاحياء عظمة مصر القديمة وتصرفهم عن الاذعان لحكم الفرنسيين وغير الفرنسيين ، والواقع ان مصر لم تذعن للحملة الفرنسية كما سيراه القارىء فيما يلي

---

(١) كذا فى الجبرتي ، والصحيح البحر الابيض كما جاء فى الاصل الفرنسي

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

وفى خطاب نابليون اشارة الى طمع الدول فى مصر ، وتصريح بما اقترن به الحكم التركى فى مصر من الظلم والخراب ، وهذا الوصف لا يخالف الحقيقة فى شىء ، ولكن الامر الذى يلفت النظر ان نابليون فى خطابه هذا قد خالف خطته القديمة في مجاملة تركيا والتظاهر بالمودة للسلطان العثمانى فجاهر لاول مرة فى خطاب رسمي علنى بعدائه لتركيا ، والسبب فى تغيير خطته بالنسبة لتلك الدولة أنها اتحدت مع انجلترا والروسيا لمحاربة فرنسا واخراج جنودها من مصر وأعلن الباب العالى الحرب على فرنسا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم ير نابليون بداً من أن يجاهر بعدائه للاتراك ويصارح المصريين بالطعن فى تركيا ويذكرهم بما اتصف به حكمها من الظلم والجهل والغباوة ليصرفهم عن التعلق بها ، على أن المصريين كانوا يرون ان تركيا تعمل وقتئذ بمساعدة حلفائها على اجلاء الفرنسيين من مصر ، وجلاؤهم عنها يؤدى الى ترك البلاد لاهلها ، وقد حققت الايام صحة هذا النظر لان محمد على لم يحقق استقلال مصر الا بعد طرد الفرنسيين ثم الانجليز من البلاد

## رآسة الديوان العام

كتب الجبرتى ما يأتى فى وصف انتخاب رئيس الديوان العام ننقله لانه كمحضر جلسة أو مضبطة لما دار بشأن انتخاب الرئيس « قال الترجمان ، نريد منكم يا مشايخ ان تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيساً عليكم ممتثلين أمره واشارته ، فقال بعض الحاضرين « الشيخ الشرقاوى » فقال نو نو ( لا لا ) وانما ذلك يكون بالقرعة ، فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى ، فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس ، فلما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم فى الذهاب »

فانتخاب الرئيس كان اذن بالاقتراع السرى كما يحصل فى المجالس النيابية ، ومن كلام الجبرتى يتبين أن طريقة الاقتراع السري لم تكن مألوفة للأعضاء ، وانهم أرادوا انتخاب الشرقاوى رئيساً بالتصويت العلنى ولكن الترجمان نبههم الى أن

يكون الانتخاب سرياً ، ومن أظرف ما فى أسلوب الجبرتى أنه ذكر ما دار بالجلسة حرفياً حتى كلمة( نو نو) وهذا يدلك على دقته فى الوصف والرواية

## قرارات الديوان

من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية في الامور التى عرضت عليه، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه

ان خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الاعضاء مقصور على الاجابة عما يسألون عنه من النُظُم المراد وضعها و يكون لنابليون القول الفصل فيما « يليق صنعه » وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التى تعرض على الديوان تدرس فى الوقت نفسه فى لجنة ألفها نابليون برآسته وبعضوية مدير مهمات الجيش[١] ومدير الشؤون المالية[٢] وكبير المباشرين[٣] وأمر بأن تنعقد هـذه اللجنة يومياً وتقرر القرارات النهائية فيما يتداول فيه « الديوان »

فقرارات الديوان كانت أشبه « برغبات » تعرض على اللجنة التى ألفها نابليون ولهذه اللجنة القول الفصل

(المسألة الأولى) — نظام مجالس الديوان

لم يقل الجبرتى شيئاً عما قرره الديوان فى المسألة الاولى وهي (ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس « الديوان » في المديريات )

---

(١) المسيو سوسي Sucy (٢) المسيو بوسليج

(٣) هو المعلم جرجس الجوهرى الذى كان كبير المباشرين في عهد المماليك فأبقاه نابليون في منصبه ، وتجد في مراسلات نابليون الجزء الرابع أمر نابليون بتعيينه كبيراً للمباشرين ( وثيقة رقم ٢٨٩٥ )

ويقول دى لا جونكيير (١) أن رأي الديوان العام في هـذا النظام أن يكون لكل من الاسكندرية ودمياط ورشيد « ديوان » مؤلف من ١٢ الى ١٥ عضواً وذلك نظراً لأهمية هـذه الثغور ، أما باقى المديريات فيكون بكل منها ديوانان أو ثلاثة أو أربعة « دواوين » ينعقد كل ديوان فى بندر من البنادر المهمة فيها ، ويوفد كل ديوان ثلاثة مندوبين لتمثيله فى الديوان العام بالقاهرة

وقد عرض هذا الرأي على نابليون فعدل فيه بعض التعديل وقرر بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أن يكون نظام الديوان كما يأتي :

أن يكون الديوان العام مؤلفاً من ٢٥ عضواً منهم تسعة عن القاهرة وواحد عن كل مديرية من المديريات الست عشرة التى كان يتألف منها القطر المصرى ، ويكون للديوان اثنان من السكرتيرين المترجمين واثنان من الحجاب و ١٠ من الحراس، ويكون ثلث أعضاء الديوان العام من مشايخ البلاد وثلثهم من التجار والثلث من العلماء ، ويجتمع كلما دعاه القائد العام الى الاجتماع ، ويختار من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخصوصى الذي يجتمع باستمرار في القاهرة (٢) ، ويكون فى كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والائمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع ، وهؤلاء يعينهم قومندان المديرية ، ويكون لديوان القاهرة الرآسة على دواوين المديريات، ولكل ديوان فى مديريته الرآسة والاشراف على القضاة ومشايخ البلاد

---

(١) كتاب حملة مصر . الجزء الثالث

(٢) لم ينفذ هذا التعديل لقيام ثورة القاهرة وابطال الديوان كما تراه في الفصل الثالث عشر من هذا الجزء ، ولما أعيد الديوان في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ أدخل نابليون في نظامه تعديلا آخر كما تراه في الفصل الاول من الجزء الثاني

(المسألة الثانية)— النظام القضائى المدنى والجنائى

رأى الديوان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه وأن لايتغير شيء من ترتيب المحاكم ونظامها ، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضى التى تدفع للقضاة وموظفى المحاكم ، وطلب أيضا أن يكون تعيين القضاة فى كل مديرية من حقوق « الدواوين » المؤلفة بها

هذا ماورد فى المراجع الفرنسية ، واليك ما قاله الجبرتى فى هذا الصدد :

« واستهل شهر جمادى الاولى بيوم الخميس الموعود سنة ١٢١٣ (١) واجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستأصلوه فى الجملة ، فأما أمر المحاكم والقضايا فالاولى ابقاؤها على ترتيبها ونظامها ، وعرفوهم عن كيفية ذلك ، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد ، فاستحسنوا ذلك الا أنهم قالوا يحتاج ضبط المحاصيل وتقريرها الى أمر لا يتعداه القضاة ولا نوابهم ، فقرروا ذلك وهو انه اذا كان عشرة آلاف فما دونها يكون على كل الف ثلاثون نصفاً ، واذا كان المبلغ مائة يكون على الالف خمسة عشر ، فأن زاد على ذلك فعشرة ، واتفقوا على تقرير القضاة والنواب على ذلك »

( المسألة الثالثة ) — التشريع الخاص بالمواريث

تباحث الديوان العام في نظام التوريث ، فسئل العلماء من الاعضاء عن قسمة المواريث ، فقالوا انها تقسم بحسب القواعد الشرعية في تقسيم الميراث ، فسألهم القاضي ملطي عن مصدر تلك القواعد ، فقالوا من القرآن الكريم وتلوا بعض آيات المواريث ، فقال المندوبان الفرنسيان ان لهم في تقسيم المواريث قواعد أخرى ، ويظهر أن الجدال فى هذه المسألة قد طال ، فتداخل ميخائيل كحيل أحد أعضاء الديوان وأيد وجهة نظر العلماء وقال نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون ، فطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تقسيم المواريث طبقاً لاحكام الشريعة

---

(١) ١١ اكتوبر سنة ١٧٩٨

الغراء ومراجعها من الآيات، فوعدوا بتقديم هذا البيان بجلسة أخرى ، وفعلا قدموه بالجلسة التالية ، وفيه فروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك فأقرهم نابليون على نظام التوريث الشرعي

ويقول الجبرتي فى هذا الصدد « في يوم الاحد ٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ — ١٣ اكتوبر سنة ١٧٩٨ — اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فيه ، فذكروا أمر المواريث فقال ملطي يا مشايخ اخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريث ، فأخبروه بفروض المواريث الشرعية ، فقال ومن أين لكم ذلك ، فقالوا من القرآن ، وتلوا عليه بعض ايات المواريث فقال الافرنج نحن عندنا لا نورث الولد ونورث البنت ، ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم لان الولد أقدر على الكسب من البنت، فقال ميخائيل كحيل الشامى، وهو من أهل الديوان أيضاً ، نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها ، فسايروهم و وعدوهم بذلك وانفضوا ، وفي يوم الاثنين عملوا لهم ديواناً وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وقصص الورثة والآيات القرآنية المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك »

المسألة الرابعة — تسجيل عقود الملكية والضرائب العقارية

كان نابليون قبل أن ينعقد الديوان العام قد فكر في ابتكار الوسائل والنظم لزيادة ما يجبى من الاهالي من الاموال والضرائب المختلفة ، ومن هذه الوسائل أنه وضع نظاما جديداً لاثبات الملكية على قاعدة تسجيل مستندات التمليك في مقابل رسوم تدفع للتسجيل ، وقد مهد لهذا النظام بانشاء محاكم جديدة تسمى « المحاكم التجارية » ويسميها الجبرتي « محكمة القضايا » أو « محكمة النظام »

صدر أمر نابليون في ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بانشاء هذه المحاكم فى كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط و رشيد، وتختص بالفصل فى المنازعات التجارية والمدنية، ويختار أعضاؤها من التجار على اختلاف جنسياتهم يعينهم القائد العام لمدة ثلاث

سنوات ، وقد ألفت محكمة القاهرة من ستة أعضاء من تجار المسلمين وستة من الاقباط برياسة القاضي القبطي ملطى ، وحدد الامر رسوم التقاضي باثنين في المائة من قيمة المنازعات التى تطرح أمام المحاكم

وأصدر نابليون أمراً آخر في ١٦ سبتمبر سنه ١٧٩٨ بانشاء ادارة لتسجيل مستندات التمليك [1] ، وأمر بأن يقدم جميع ملاك العقارات حجج تمليكهم القديمة والجديدة لتسجيلها في مقابل رسوم ٢ فى المائة من قيمة العقارات يدفعها الملاك أجمعون.

واليك خلاصة الامر « ينشأ فى عاصمة كل مديرية مكتب لتسجيل جميع سندات التمليك والعقود ويدفع عن التسجيل رسم نسبي طبقاً للأئحة الرسوم، [2] ولا يعترف بالملكية الا للعقود والسندات المسجلة ، واذا لم تسجل تصادر الملكية لجانب الجمهورية ، وعلى جميع الملاك أن يسجلوا سندات ملكيتهم فى مدى ثلاثين يوماً من نشر هذا الامر [3] ، واذا لم يتم التسجيل فى هذه المدة يدفع الملاك ضعف الرسم المقرر للتسجيل ، واذا انقضى شهر آخر ولم يقع التسجيل تصادر الملكية لجانب الجمهورية ( الفرنسية )،ومن الآن فصاعداً يجب تسجيل عقود البيع والبدل والتنازل والهبة فى مدى عشرة أيام من تحرير العقد والا يعتبر باطلا ، وكذلك يجب تسجيل الوصايا في مدة ثلاثة أشهر على الاكثر من وفاة الموصي ، وتسجيل عقود التخارج والقسمة بين الورثة فى مدة عشرة أيام من تاريخ تحريرها ، و يحصل التسجيل بقيد ملخص العقود فى دفاتر تعدها ادارة التسجيلات لهذا الغرض»

ضج الاهالى من هذه الرسوم لانها كانت أشبه بضريبة جديدة لم يكونوا

---

( ١ ) سميت هذه الادارة « مصلحة التسجيلات وادارة أملاك الحكومة» وجعل مقرها في بيت مرزوق بك بعابدين وأعلن عنها في جريدة ( كوريبه دليجبت ) بالعدد الصادر في ٢٥ ڤاندميير من السنة السادسة للجمهورية ( ٧ أكتوبر سنه ١٧٩٨ )

( ٢ ) قدر الرسم في اللائحة با ثنين في المائة عن معظم المعاملات

( ٣ ) بالنسبة لسكان القاهرة وشهرين بالنسبة لسكان الاقاليم

يدفعونها من قبل ، والواقع أن نابليون كان يرمى من وضع هـذا النظام الى ابتكار وسيلة جديدة لجمع المال من الاهالى

وفرض كذلك ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصنائع فسخط الصناع وأصحاب الحرف من هذه الغرامات

واليك ماقاله الجبرتى عن محكمة القضايا ونظام التسجيل

« وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر سموه محكمة القضايا ، وكتبوا فى شأن ذلك طوماراً ( منشوراً ) وشرطوا فيه شروطاً ورتبوا فيه ستة أنفار من القبط وستة أنفار من تجار المسلمين ، وجعلوا قاضيه الكبير ملطى القبطى الذى كان كاتباً عند أيوب بك الدفتردار ، وفوضوا اليهم القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى ، وجعلوا لذلك الديوان ( المحكمة ) قواعد وأركانا من البدع السيئة ، وكتبوا نسخاً فى مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد، وشرطوا ضمنه شروطا ، ومن ضمن تلك الشروط شروط أخرى بتعبيرات سخيفة يفهم منهـا المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربيـة ، ومحصله التحايل على أخذ الاموال كقولهم بأن أصحاب الاملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم ( مستنداتهم ) الشاهدة لهم بالتمليك ، فاذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع او الانتقال لهم بالارث لا يكتفى بذلك ، بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات ، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه ، فان وجد تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الاشهاد بعد ثبوته وقبوله قدراً آخر ، ويأخذ بذلك تصحيحا ، ويكتب له بعد ذلك تمكين، وينظر بعد ذلك فى قيمته، ويدفع على كل مائة اثنين ، فان لم يكن له حجة أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فانها تضبط لديوان الجمهور ( الجمهورية ) وتصير من حقوقهم [1] »

ولا شك أن مثل هذا النظام يؤدي بالناس فى ذلك العهد الي العنت والارهاق

---

( ١ ) الجبرتي جزء ٣

وكثيراً ما يفضى الى ضياع الملكية ومصادرتها لجانب الحكومة ، لان الملكية قد تنشأ عن الميراث وقد يتعذر إحضار الشهود عليها فتصادر وتسلب من صاحبها ، ولم يسمع فى أى نظام من نظم التسجيلات العقارية أن يسرى على العقود القديمة ، لان القوانين لاتسرى على الماضى ، وليس مما تسيغه العدالة اعتبار أن عدم اثبات الملكية بالطرق التى يفرضها النظام الجديد يؤدي إلى مصادرتها وضمها للحكومة ، فالغرض من وضع هذا النظام هو كما يقول الجبرتى « التحايل على أخذ الاموال »

وضع نابليون هذا النظام قبل انعقاد الديوان العام ، فلما اجتمع الديوان للمباحثة فيه أبدى الاعضاء استياءهم منه واعترض المشايخ على إكراه جميع الملاك على تقديم مستندات تمليكهم القديمة لتسجيلها ، وقالوا اذا كان الغرض وضع ضريبة على الاملاك فلتفرض على العقارات نفسها ، وقد وافقهم نابليون على اعتراضهم ، وكانت موافقته بنصيحة المسيو بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، فانه أشار على نابليون فى تقرير قدمه فى هذا الصدد باجابة الديوان الى طلبه وأوضح فى تقريره بانه يتعذر تسجيل مستندات التمليك القديمة عن البيوت والمنازل لان معظمها بناها ملاكها وليس بأيديهم حجج بها ، ولان اجراء التحقيق عن مصدر الملكية لكل منزل عمل شاق لايمكن أن يؤدى الى نتيجة ، ولا يمكن أن يتم فى الثلاثين يوماً المحددة لتقديم الحجج وتسجيلها ، وقد ذكر فى تقريره انعدد منازل القاهرة و بولاق ومصر القديمة فى ذلك الحين زهاء مائة الف منزل وعدد الملاك من خمسين الى ستين الف مالك ، واستنتج فى تقريره استحالة تنفيذ مشروع التسجيل ، فاستعاض الفرنسيون عن هذا المشروع بفرض ضريبة على العقارات ذاتها

وخلاصة هذه الضريبة انهم قسموا المبانى الى أنواع وكل نوع الى درجات لكل نوع ضريبة تقدر بحسب درجاته كما تراه فى البيان الآتى (١)

---

(١) نقلنا هذا البيان عن الامر الذي أصدره نابليون في ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٨ والمنشور في جريدة كوريه دليجبت

| | الدرجة الاولى | | الثانية | | الثالثة | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| الوكائل | ١٨ | ريال | ٩ | ريالات | ٤ | ريالات |
| الحمامات | ١٥ | » | ١٠ | » | ٥ | » |
| معاصر الزيت | ٨ | » | ٤ | » | ١ | » |
| معاصر السمسم | ٣ | » | ١ | » | ١ | » |
| طواحين الغلال | ٢ | » | ١ | » | ٠ | » |
| الاحواش | ٢ | » | ١ | » | ٠ | » |
| الحوانيت | ٢ | » | ١ | » | ½ | » |
| القهوات | ٢ | » | ١ | » | ½ | » |
| الجباسات | ٢ | » | ١ | » | ٠ | » |
| البيوت والغرف | ٨ | » | ٤ | » | ٢ | » |

وقرروا على بيوت الدرجة الرابعة ربع ريال

ويقضي الامر بان تدفع الضريبة في السنة على قسطين وبأن يعين مدير الشؤون المالية المهندسين لتقسيم المبانى والعمارات الى الدرجات التى تناسبها ، وبان تعمم هذه الضريبة فى الاسكندرية ورشيد وفوه ودمياط مع انقاصها في هذه المدن الى النصف ، وعدا ذلك تؤخذ رسوم تتراوح بين ٢ و ٥ فى المائة عن العقود الجديدة في المبايعات وعقود نقل الملكية والتنازل عنها والتصرفات والايجارات والمداينات والهبات وعقود الزواج ، ورسوم اخرى محددة عن التوكيلات وجوازات السفر وشهادات الميلاد واثبات الوفيات والتركات والاشهادات وغير ذلك ، أصدر نابليون أمره بهذه الضرائب الجديدة دون أن ينتظر رأى الديوان فيها وصدر الامر والديوان منعقد فى جلسته الاخيرة

واليك ما قاله الجبرتي في هذا الصدد « وفى يوم السبت ١٠ جمادى الاولى ( ٢٠ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ) عملوا ( عقدوا ) الديوان واحضروا قائمة مقررات الاملاك والعقار ، فجعلوا على الاعلى ( الدرجة الاولى ) ثمانية ( ريالات ) فرانسه ، والاوسط

ستة ، والادنى ثلاثة ، وما كان اجرته اقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، واما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين واربعين (ريالا) بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم والصقوها بالمفارق والطرق ، وارسلوا منها نسخا للاعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم اشخاص لتمييز الاعلى من الادنى، وشرعوا في الضبط والاحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط اسماء اربابها »

ورواية الجبرتى فيما يتعلق بقيمة الضرائب تختلف كما ترى عن نص الأمر الذى اصدره نابليون فى صددها ، ولعل سبب الاختلاف ان المنشورات التى اصدرها الفرنسيون بهذه الضرائب والصقوها بالمفارق والطرق واطلع عليها الجبرتى قد حوت من الضرائب اكثر مما فرضه نابليون فى أمره

وظاهر من رواية الجبرتى انه لم تحصل مناقشة في الديوان بشأن هذه الضريبة وقيمتها لان الفرنسيين كانوا مصممين على فرضها فلم يسمحوا بمناقشة فيها ووضعوا الديوان امام الامر الواقع

كان تقرير هذه الضرائب الفادحة من أهم الاسباب التى نفرت المصريين من حكم الفرنسيين، لان هذه الضرائب على فداحتها قد عمت الاغنياء والفقراء ، ولم يكن أصحاب الدكاكين والحوانيت يدفعون ضريبة عقارية فى عهد المماليك فعظم استياؤهم واشتد سخطهم وهم أغلبية السكان ، وتجاوز الاستياء الى الاغنياء لأن الضرائب الجديدة أثقلت العبء على الملاك وفرضت عليهم أموالا لم يكونوا يغرمونها فى عهد المماليك ، فكانت فداحة تلك الضرائب من أكبر العوامل التي أدت الى ثورة القاهرة

انفض الديوان العام يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ( ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ) دون ان يستطيع تخفيف فداحة الضرائب التي استحدثها الفرنسيون، لذلك لم يكد ينفض حتى شبت نار الثورة فى القاهرة كما تراه فى الفصل الثالث عشر

والآن وقد انتهينا من الكلام عن الديوان العام فلنتكلم عن المجمع العلمي وقد أفردنا له الفصل الآتى

# الفصل الرابع

## المجمع العلمى

### معهد للعلوم ومجلس استشارى للحكومة

أسس نابليون بجانب الديوان مجلساً له صبغة علميــة وله علاقة بادارة الحكومة وهو (المجمع العلمى المصرى) Institut d'Egypte اختــار لعضويته خلاصة أعضاء « بعثة العلوم والفنون » التى صحبها معه الى مصر وتكلمنا عنها فى الفصل الثانى (ص ٧٩)

تضم هــذه البعثة علماء الحملة الفرنسية ورجال الفن فيها ، وقد كانوا منتظمين فروعاً بحسب العلوم والاعمال التى انقطعوا لهــا أو توفروا عليها ، والى القارىء بيان هذه الفروع : الرياضة والهندسة ، الفلك ، الميكانيكا ، الكيمياء ، طبقات الارض والمعادن ، النباتات ، حيــاة الحيوان ، الطب والجراحة ، الصيدلة ، الاقتصاد السياسى ، الآثار القديمة ، هندسة المعمار ، التصوير ، الرسم ، هندسة الرى والطرق والجسور ، الهندسة الجغرافية ، الهنــدسة البحرية والميكانيكية ، النقش ، الحفر ، الادب ، الموسيقى ، طلبة مدرسة الهندسة العالية ، الترجمة ، الطباعة العربية والفرنسية

فلمــا جاء أعضاء البعثة الى الاسكندرية صحبة الحملة بقوا فيها بلا عمل حتى انتهت الحركات الحربية ودخل نابليون القاهرة ، فاعتزم بعد موقعة الاهرام الانتفاع بمواهب أولئك العلمــاء والفنيين وتمكينهم من العمل فى النواحى التى تخصصوا لها ، فاستدعاهم الى القاهرة وفكر فى انشاء «المجمع العلمى المصرى» على مثال المجمع العلمى الفرنسى الذى كان هو عضواً فيه[١] ، وانتخبه من نوابغ البعثة وضم اليهم نخبة من كبار القواد والضباط ممن لهم باع فى العلوم

---

(١) أنشىء المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٧٩٥ وانتخب نابليون عضواً به في ديسمبر سنة ١٧٩٧

عزم نابليون على انشاء هـذا المجمع عقب انتهائه من مطاردة ابرهيم بك الى سوريا وعقب وصول نبأ كارثة العمارة الفرنسية في موقعة «أبو قير» ، وعهد الى سبعة من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء مونج Monge وبرتوليه Berthollet وجوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire وكوستاز Costaz والطبيب ديجنت Desgenettes والجنرالين كافريللي Caffarelli وأندريوسي Andreossi

ثم أصدر أمره بانشاء هذا المجمع في ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ [١] وضمنه الغرض من انشائه وبيان اختصاصاته ، وهـذا الامر يتألف من ست وعشرين مادة تتلخص فيما يلي :

الغرض من المجمع — يتألف فى مدينة القاهرة مجمع للعلوم والفنون الغرض منه (١) تقدم العلوم والمعارف فى مصر (٢) دراسة المسـائل والابحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الابحاث (٣) ابداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشيره فيها

أقسام المجمع — يتألف المجمع من أربعة أقسـام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون .

ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضواً

انعقاد المجمع — يجتمع المجلس مرتين فى الشهر ، ويجوز لقواد الجيش الفرنسي وضباطه أن يحضروا جلساته

مكتب المجمع — ينتخب المجلس بين اعضائه هيئة مكتب المجلس وتتألف من الرئيس ، ونائب الرئيس ، ويعاد انتخابهما كل ثلاثة اشهر ، وسكرتير دائم ، ومدير يعاد انتخابه كل سنة ، وأمين دائم لمـكتب المجلس ومترجم عربى ويجوز أن يكون من الاعضاء

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٨٣

ابحاث المجمع — ينشر المجلس مجموعة أبحاثه كل ثلاثة أشهر ، وتشمل هـذه المجموعة مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التى يؤلفها لدرس المسائل التى تعرضها عليه الحكومة

يقرر المجلس اعطاء جائزتين كل سنتين الاولى لأهم بحث خاص بتقدم الحضارة والمدنية في مصر ، والثانية لأهم بحث خاص بتقدم الصناعة ، وتتألف لتوزيع الجائزتين لجنة تنتخب بالاقتراع مؤلفة من خمسة أعضاء يدرسون الابحاث المقدمة فى المسابقة ويقررون البحث الذي يستحق الجائزة ، وتطبع الابحاث التى اجيزت في مجموعة المجلس وكذلك الابحاث التى لم تنل الجائزة متى رأت اللجنة انها جديرة بالنشر

## أعضاء المجمع العلمى

قلنا أن نابليون اختار لعضوية المجمع العلمي خلاصة أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صحبهم معه حين مجيئه الى مصر ، وانتظم هو معهم فى سلك المجمع ، فصار مؤلفاً من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام

قسم الرياضات ـ مونج Monge ، نابليون بونابارت ، فورييه Fourier ، كوستاز Costaz ، نوي Nouet ، كينو Quesnot ، لوبير Le Père ، جيرار Girard ، لروا Le Roy ، الجنرال اندريوسى Andreossi ، ساي Say ، مالوس Malus

قسم الطبيعيات ـ برتوليه Berthollet ، دولوميو Dolomieu ، كونتي Conté ، جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire ، ديكوتيل Descotils ، سافيني Savigny ، ديبوا Dubois ، ديجينت Desgenettes ، شامبي Champy ، دليل Delile

قسم الاقتصاد السياسي ـ الجنرال كافاريلي Caffarelli ، جلوتييه Gloutier ، سوسى Sucy مدير مهمات الجيش ، سولكوسكي Sulkowsky ، تاليان Tallien ، بوسليج Poussielgue

قسم الآداب والفنون — برسفال دجرانميزون Perseval De Grandmaison عضو الاكاديمى الفرنسية ، فانتور Venture ، نورى Norry ، دوترتر Duterire ، فيفان دينون Vivant Denon ، ريجل Rigel ، ردوتي Redouté ، القسيس رفائيل دموناخيس Raphael de Monachis

وقد تغير بعض اعضاء المجمع العلمي وحل محلهم غيرهم ، وهذه هى التغييرات التى حدثت مدة وجود نابليون فى مصر

قسم الرياضيات — عين المهندس لانكري Lancret بدلا من ساى الذى قتل فى الحملة على سوريا

قسم الطبيعيات — عين الدكتور لارى Larrey رئيس الجراحين بدلا من ديبوا واضيف عضو جديد وهو بوشان Beauchamps

قسم الاقتصاد السياسى — عين كورانسز Corrancez بدلا من الجنرال كافاريلى الذى قتل فى حصار عكا ، وبوريين Bourrienne سكرتير نابليون الخاص بدلا من سوسى

قسم الآداب والفنون — عين المهندس المعمارى لوبير Lepère بدلا من نورى ، وعين ريبول Ripault أمين مكتبة المجمع بدلا من فانتور ، واضيف اليهم الرسام ريجو Rigo

## دار المجمع العلمى

اختار نابليون قصر حسن كاشف شركس بالناصرية مقراً للمجمع العلمي ، وألحق به القصور المجاورة له التي ابتناها المماليك وخصصها لسكن اعضاء المجمع و بعثة العلوم والفنون كقصر قاسم بك[1] ، و بيت ابراهيم كتخدا السنارى ، و بيت أمير الحج المعروف بأبي يوسف

---

(١) مكان قصر قاسم بك الآن عمارة الاوقاف الكائنة بشارع الكومي ، جاء

كانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المماليك بالقاهرة ( ومكانها الآن المدرسة السنية بالناصرية ) ، وصفها الجبرتي خلال كلامه عن حسن كاشف فقال « انه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيس الى الديار المصرية فسكنها الفلكيون والمدبرون وأهل الحكمة والمهندسون ( اعضاء المجمع العلمي ) فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور لكون عسكرهم لم يسكنوا بها » وذكرها المسيو جوفروا سان هيلير أحد كبار أعضاء المجمع العلمى فى رسائله المنشورة بكتابه (رسائل من مصر) ، وظاهر مما كتبه عنها انها كانت غاية فى الفخامة ، فقد كتب بتاريخ ٣٠ اغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة الى العلامة كوفييه Cuvier يقول فيها

« عدت من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات ( قصر حسن كاشف وقصر قاسم بك ) و بيتين من بيوت الاغنياء ، وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون ، وفيها من أسباب الفخامة ما لا يقل عن اللوفر ، وانا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما فى اللوفر ، و بجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة الغراس ، وقد خصصناها للزراعة والنبات ، أما قاعة جلسات المجمع فانها مزدانه بأجمل ما في قصور المماليك من الاثاث »

وباسم حسن كاشف سميت الحارة المعروفة الآن بحارة حسن الكاشف الواقعة بجوار المدرسة السنية ، وتنتهى هذه الحارة قريباً من دار ابراهيم كتخدا السنارى[١] التى خصصها اعضاء المجمع العلمى للرسم والتصوير والباقية الى اليوم ، وسميت الحارة التى بها هذه الدار حارة مونج Monge تخليداً لاسم المسيو مونج الذى كان رئيساً للمجمع العلمى فى عهد بونابارت

---

في كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر أن بيت قاسم بك كان يسكنه أعضاء لجنة العلوم والفنون وانه مجاور لقصر حسن كاشف الذي كان مقراً للمجمع العلمي

(١) هو وكيل مراد بك ولذلك سمى ( كتخدا ) وسناري نسبة الى سنار بتشديد النون وهي بلدة بالسودان على النيل الازرق

وقد انشأ المسيو جلياردو بك سنة ١٩١٧ في دار ابراهيم كتخدا السنارى متحفا أسماه ( متحف بونابارت ) وبقى هذا البيت الى الآن كما بناه صاحبه ابراهيم كتخدا السنارى وهو مثال قائم لبيوت المماليك ، وقد أدخلته لجنة حفظ الآثار العربية ضمن الآثار التى تعنى بها وتحافظ عليها ، وصرحت للمسيو جلياردو بك بأن ينشىء به متحفه وهو يحوى كثيراً من الصور والخرائط والطرف والآثار والكتب والمستندات والوثائق والمخطوطات عن عهد الحملة الفرنسية فى مصر ، وقد زرت هذا المتحف غير مرة واطلعني المسيو جلياردو بك على ما جمعه فيه من النفائس وأذن لى بأن أنقل بعض الصور التى يزين بها متحفه و بعض الوثائق التى جمعها (١)

## طائفة من أعضاء المجمع العلمى

### ولجنة العلوم والفنون

نذكر هنا طرفا من حياة بعض من اشتهروا أو ترددت أسماؤهم فى فصول الكتاب من أعضاء المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون ليكون لدينا فكرة عامة عن أشخاصهم

## علماء الرياضيات والمهندسون

### مونج

سنة ١٧٤٦ — ١٨١٨

هو جاسبار مونج Gaspard Monge أكبر علماء الرياضيات بفرنسا فى ذلك العصر ، وله فيها شهرة عالمية ، وهو مؤسس الهندسة الوصفية وأحد مؤسسى مدرسة الهندسة بفرنسا وأحد أساتذتها المشهورين ، وعضو بالمجمع العلمى بفرنسا ، تقلد زمنا وزارة الحربية فى عهد الجمعية التشريعية ، وقد تلقى عليه نابليون علوم الطبيعة

---

(١) توفى المسيو جلياردو بك سنة ١٩٢٧

فى مدرسة باريس الحربيــة ، وكان موضع احترامه واجلاله ، ووقع عليــه الاختيار لرآسة المجمع العــلمي بمصر ، وكان هو روح أبحاث المجمع العلمية ، ولما عاد الى فرنسا رجع الى التدريس فى مدرسة الهندسة و بذل جهداً كبيراً في جمع أبحاث علماء الحملة الفرنسية ، وعينه نابليون فى عهــد الامبراطورية عضواً بمجلس الشيوخ ، ومنحه لقب « كونت بيلوز » تذكاراً لاعماله وأبحاثه فى مصر ، وله مؤلفات ومذكرات عديدة فى العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة ، و باسمه سميت ( حارة مونج ) بالناصرية بجوار المدرسة السنية الآن

## كوستاز « Costaz »

١٨٤٢ — ١٧٧٦

من علماء الرياضيات وعضو بالمجمع العلمي الفرنسى ، كان مدرسا بمدرسة الهندسة العالية ( السنترال ) بفرنسا حينما اختاره نابليون لعضوية لجنة العلوم والفنون ، و بعد انتهاء الحملة عاد الي فرنسا وعين سنة ١٨١٣ مديراً عاما لادارة الرى والقناطر والجسور بفرنسا ومنح لقب بارون

## لوبير « Le Père »

١٨٤١ — ١٧٦٣

هو كبير مهندسى الرى والطرق والجسور فى عهد الحملة الفرنسية ، وواضع التقرير المشهور عن ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط ، عهد اليه نابليون أن يدرس هذا المشروع فقضى عامين في فحصه ودراسته ، وعاونه فيه بعض مهندسي الحملة ، وقدم به تقريراً الى نابليون بعد مغادرته مصر ( وكان « قنصلا أول » ) ، وتصميم المشروع كما وضعه المسيو لوبير أن تحفر ترعة من السويس الى البحيرات المرة ويعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين (١) الى أن يتلاقى مع بحر مويس

---

(١) هو الخليج الذى حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب

بقرب بوباسط (١) ومن بحر مويس الى فرع دمياط ، ومنه الى الترعة الفرعونية ، ومنها الى فرع رشيد ، ومنه الى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية ، وقد حبذ المسيو لوبير كذلك فكرة وصل البحرين رأسا بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز (٢) (الطينه) على البحر الابيض ومدينة السويس على البحر الاحمر ، غير أنه اعتقد خطأ ان البحر الاحمر يعلو عن سطح البحر الابيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر مشروعه في كتاب « تخطيط مصر » الجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين وتخطيط الجهات التى ينفذ فيها المشروع ونفقات انفاذه ، ويقع هذا البحث فى أكثر من ثلثمائة صفحة وهو من أجل الابحاث التي وضعها علماء الحملة الفرنسية ، والمسيو لوبير هو الذى تولى اصلاح بناء المقياس بالروضة وكتب له الديوان لمناسبة عمله كتاب شكر نشرناه في قسم الوثائق التاريخية ، وله بحث مستفيض عن مقياس الروضة نشر في كتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر .

## جراتيان لوبير « Gratien Le Père »

هو أخو المسيو لوبير المتقدم ذكره وهو من مهندسى الحملة الفرنسية ، شارك أخاه فى بعض أبحاثه ، وله بحث خاص مستفيض فى تخطيط مدينة الاسكندرية نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر ، وبحث آخر فى بحيرات مصر وصحاريها

---

رضي الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الاحمر يبدأ من مصر القديمة حيث يبتدىء خليج مصر اليوم حتى القاهرة ومنها الى المطرية ومنها الى العباسة ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة التي كانت تخرج من فرع النيل البيلوزي القديم وتسير بمحاذاة وادي الطميلات ثم تنثني جنوبا فتخترق البحيرات المرة ثم تصب في البحر الاحمر

(١) قرب الزقازيق

(٢) شرق الموضع الذي به بورسعيد الآن

نشر في الجزء السادس عشر ، وقد رسم لو بير الكبير خريطة الاسكندرية الحديثة ورسم المسيو جراتيان لو بير خريطة الاسكندرية القديمة وكلتاهما مطبوعة فى مصور كتاب تخطيط مصر

## جيرار « Girard »

١٧٦٥ — ١٨٣٦

زميل المسيو لو بير كبير المهندسين ووكيله في ادارة أعمال الرى ، درس ترع القطر المصرى ، وله رسالة بديعة عن حالة مصر الزراعيــة والصناعية والتجارية نشرت فى كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر وانتخب عضواً فى المجمع العلمي الفرنسى

## جومار

١٧٧٧ — ١٨٦٢

هو المسيو ادم فرنسوا جومار Edme François Jomard ولد سنة ١٧٧٧ وتعلم الهندسة فى مدرسة القناطر والجسور ثم فى مدرسة الهنــدسة ، وجاء الى مصر ضمن المهندسين الجغرافيين من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وله فى مصر أبحاث جغرافية وأثرية على جانب كبير من القيمة ، وقد اشترك فى رسم خريطة مصر ، وعاد الى فرنسا سنة ١٨٠١ بعد مقتل الجنرال كليبر ، واشترك من سنة ١٨٠٣ فى وضع كتاب (تخطيط مصر) وكان عضواً من أهم أعضاء اللجنة التى ألفتها الحكومة للعمل فى وضع هذا الكتاب الجليل ، وتولى تنظيم العمل بعد وفاة المسيو لانكرى وقضى سبعة عشر عاماً مشتغلا فى اظهار الكتاب ، وله فيــه أبحاث ممتعة هندسية وجغرافية وأثرية شغلت عدة أجزاء من الكتاب ، ومن أهمها بحث مستفيض عن تخطيط القاهرة القديمة والحديثة نشر فى الجزء التاسع عشر منه ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى مكافأة له على أبحاثه فى الآثار المصرية ، واشترك فى انشاء الجمعية الجغرافية بفرنسا ، وكان من يوم أن عاد من مصر لا يألو جهداً فى دراسة الابحاث العلمية الخاصة

بها ، وفى سنة ١٨٢٦ تولى رآسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي الكبير الى فرنسا لتلقى العلوم فى مدارسها فأمد تلاميذ هذه البعثة والبعثات التى تلتها برعايته العلمية والادبية ، وقد أنجبت هذه البعثات طائفة من علماء مصر الذين كان لهم فضل كبير فى نهضتها ، وكان للمسيو جومار مكانة كبيرة عند محمد علي باشا وكذلك عند سعيد باشا ، وأنعم عليه بلقب بك فكان يعرف فى مصر باسم « جومار بك » وأنعم عليه كذلك بالوسام المجيدى ، ولما أعيد انشاء المجمع العلمى المصرى أسندت اليه رياسته الفخرية سنة ١٨٦١ فكان صلة الاتصال الباقية بين المجمع العلمى المصرى القديم وبين الحديث ، وظل مكباً على أبحاثه العلمية الى أن توفى سنة ١٨٦٢ وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود فى فرنسا من كبار علماء الجغرافية والآثار القديمة

## فوريه « Fourier »

١٧٦٨ — ١٨٣٠

من علماء الرياضيات ، كان مدرساً فى مدرسة الهندسة قبل انتظامه فى سلك لجنة العلوم والفنون ، وانتخب سكرتيراً دائماً للمجمع العلمى ، وتولى رآسة الادارة القضائية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وله أبحاث ممتعة فى كتاب تخطيط مصر وهو واضع مقدمة الكتاب ، أنعم عليه نابليون برتبة بارون وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١٦ ثم عضواً باكاديمية الآداب سنة ١٨٢٧ وأقيم له تمثال فى بلدة أوكسير Auxerre مسقط رأسه

## لانكرى « Lancret »

١٧٧٤ — ١٨٠٧

من علماء الرياضيات ومن مهندسى القناطر والجسور ومن علماء الآثار ، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلى وتخطيطها نشرت فى كتاب تخطيط مصر. وله بحث جغرافى عن الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة نشر فى الجزء الاول

من كتاب تخطيط مصر ، وتولى ادارة العمل لتأليف الكتاب بعد وفاة كونتى سنة ١٨٠٥ ومات هو سنة ١٨٠٧

## كورانسز « Corrancez »

من خريجى مدرسة الهندسة العاليـة (السنترال) ، انتخب عضواً فى المجمع العلمى المصرى خلفاً للجنرال كافريلى ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١١ وله كتاب فى تاريخ الوهابية من بدء ظهورها الى سنة ١٨٠٩

## جالوا « Jallois »

١٨٤٢ — ١٧٧٦

مهندس رى تخرج فى مدرسة الهندسة بفرنسا ، ومنقب فى الآثار ، وله «يوميات» عن الحملة ، وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت فى كتاب تخطيط مصر

## دفيلييه « De Villiers »

١٨٥٥ — ١٧٨٠

مهندس قناطر ورى وآثار ، وله يوميات [1] دون فيها ماشاهده فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، نشرها حفيده البارون مارك دى فيلييه ، وكان جالوا ودفيلييه متلازمين فى أبحاثهما الاثرية ، وأبحاثهما المشتركة منشورة فى كتاب تخطيط مصر

## الكولونل جاكوتان « Jacotin »

١٨٢٧ — ١٧٦٥

هو من المهندسين الجغرافيين الذين جاءوا مع الحملة وقد تولى رآستهم بعد مقتل كبيرهم المسيو تستفيود فى ثورة القاهرة ، وعهد اليه نابليون فى وضع خريطة مصر العامة

---

(١) يوميات وذكريات عن حملة مصر ( ١٧٩٨ — ١٨٠١ )

فاشترك في تخطيطها مع المهندسين الجغرافيين ومهندسي الري في عهد الحملة الفرنسية ، وهي عبارة عن مجموعة خرائط كبيرة مفصلة طبعت في مصورات كتاب تخطيط مصر وقد تم وضعها بعد انسحاب الفرنسيين من مصر وقدمت الى نابوليون ( وكان قنصلا أول ) في شهر ا كتوبر سنة ١٨٠٣ فأمر بطبعها على نفقة الحكومة الفرنسية واستدعى ذلك جهداً كبيراً لاعداد معدات الحفر والطبع وتدوين أسماء البلاد والمواقع باللغة الفرنسية والعربية ،والى الكولونل جاكوتان يرجع الفضل في إخراج هذه الخريطة ولذلك نسبت اليه وسميت ( خريطة جاكوتان ) وهي مؤلفة من ٤٧ خريطة كبيرة طوبوغرافية غاية في الدقة والتفصيل منها ٤٢ خاصة بمصر وخمس بالاقاليم السورية التي فتحها نابليون وثلاث خرائط أخرى جغرافية عن مصر وخريطة أخرى عامة تجمع الخرائط الطوبوغرافية

وللكولونل جاكوتان بحثان جغرافيان جليلان في كتاب تخطيط مصر الاول عن تخطيط خريطة القطر المصرى نشر في الجزء السابع عشر ، والثاني عن مساحة القطر المصرى نشر في الجزء الثامن عشر ،وقد عين وهو في مصر عضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة

## ديبوا ايمى Dubois Aymé

من مهندسى الحملة الفرنسية ،له بحث جغرافي مستفيض عن فروع النيل القديمة نشر في الجزء الثامن من كتاب تخطيط مصر ، وله خريطة دقيقة عن تخطيط هذه الفروع

## نوى « Nouet »

## ١٧٤٠ — ١٨١١

من علماء الفلك ويعتبر أكبر علماء الحملة الفرنسية في الفلك والميقات ، نشرت أبحاثه الفلكية الخاصة بمصر في كتاب تخطيط مصر الجزء الاول ، وعلى بياناته اعتمد مهندسو الحملة في وضع المصورات التي رسموها في مصر

نورى Norry

١٧٥٦ — ١٨٣٢

مهندس معمارى ، عينه نابليون رئيس مكتب الفنون ، وعاد الى فرنسا فى خلال الحملة لاعتلال صحته نخلفه فى المجمع العلمى المصرى المهندس المعمارى لو بير ، وله بحث مستفيض عن عمود السوارى نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ، وله رسالة عن الحملة الفرنسية (١) وله رسوم عديدة فى كتاب تخطيط مصر

لو بير Lepère

١٧٦٢ — ١٨٤٤

مهندس معمارى وهو الذى خلف نورى فى المجمع العلمى وله رسوم كثيرة فى كتاب تخطيط مصر

## علماء الطبيعيات

برتوليه Berthollet

١٧٤٨ — ١٨٢٢

عالم من كبار علماء الكيمياء ، يضارع فى شهرته الكيميائى الشهير لافوازيه ويليه فى المنزلة ، وهو صديق حميم للمسيو مونج ، وقد اشتركا معا فى تأسيس مدرسة الهندسة بباريس ، واليهما عهد نابليون اختيار علماء الحملة الفرنسية ، وكان من أعضاء المجمع العلمى الفرنسي قبل حضوره الى مصر صحبة نابليون ، و بعد رجوعه الى فرنسا دأب على ابحاثه وا كتشافاته فى الكيمياء وله فيها نظريات و اكتشافات وابحاث ومؤلفات جعلته فى عداد كبار علماء الكيمياء

---

(١) تاريخ حملة مصر .وهي رسالة وجيزة طبعت سنة ١٧٩٩ بباريس اذ عاد اليها قبل انتهاء الحملة

## جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire

١٧٧٢ — ١٨٤٤

هو أتيين جوفروا سان هيلير، عالم كبير فى التاريخ الطبيعى ومن أساتذة حياة الحيوان فى معهد التاريخ الطبيعى بباريس ، وزميل كوفييه Cuvier ولامارك Lamark فى العلوم الطبيعية ، وله ابحاث مستفيضة ورسوم عديدة فى حيوانات مصر وحشراتها واسماكها ، عين بعد عودته من مصر استاذا لعلم الحيوان فى السوربون علاوة على تدريسه فى معهد التاريخ الطبيعى ، وانتخب عضوا بالمجمع العلمى الفرنسى وله شهرة عالمية فى التاريخ الطبيعى ، وله رسائل عن مشاهداته فى مصر جمعت وطبعت سنة ١٩٠١ باسم ( رسائل من مصر )

## سافينى Savigny

١٧٧٧ — ١٨٥١

عالم فى التاريخ الطبيعى ومساعد لجوفروا فى ابحاثه بمصر ، درس حيوانات مصر وطيورها وحشراتها ونباتها ، وله فيها ابحاث مستفيضة ورسوم عديدة غاية فى الدقة طبعت فى كتاب (تخطيط مصر) وانتخب عضوا بالمجمع العلمى الفرنسي سنة ١٨٢١ ، وضحى ببصره فى سبيل بحوثه ورسومه

## دولوميو Dolomieu

١٧٥٠ — ١٨٠٢

من علماء طبقات الارض والمعادن ، كان استاذا فى مدرسة المناجم وعضوا بالمجمع العلمى الفرنسى قبل مجيئه الى مصر ، عاد الى فرنسا اثناء الحملة لمرض اصابه ، وانكسرت به السفينة التى تقله وجنحت على شاطىء (تارنت )جنوب ايطاليا فأسر وألقى فى السجن و بقى سجينا الى أن انتصر نابليون فى معركة مارنجو سنة ١٨٠١ فجعل اطلاق سراحه من شروط الصلح ، ولـكن صحته ساءت من أثر السجن فلم

يعش بعد خروجه طويلا ، وكتب فى السجن رسالة فى فلسفة علم المعادن وهى من أهم مؤلفاته

## دليل Delile

١٧٧٨ — ١٨٥٠

هو العالم دليل المشهور فى علم النبات ، وله فى النباتات المصرية كتاب يرجع اليه العلماء ،عين مديراً لحديقة النباتات فى القاهرة ( فى عهد منو) واشترك فى وضع كتاب تخطيط مصر ، وتولى التدريس فى كلية العلوم بمونبلييه بفرنسا ، وهو أول من درس نباتات مصر فى العصر الحديث وله فيها رسوم بديعة ، واكمل عمله من بعده العلماء فى عصر محمد على

## كونتى Conté

١٧٥٥ — ١٨٠٥

عالم كيميائى وميكانيكي ومبتكر لطائفة من المخترعات الميكانيكية ، استخدم المناطيد فى حروب الثورة الفرنسية قبل مجيئه الى مصر وعين قومندانا لكتيبة الطيران ومديراً لمدرسة الطيران فى مودون Meudon ،ولما جاء الى مصر أسس عدة مصانع تولى ادارتها،وانشأ طواحين الهواء فى القاهرة ، وأنشأ مصنعا ميكانيكيا ، وعهد اليه نابليون صب أحرف الطباعة وكان يعتمد عليه كثيراً فى استثمار موارد مصر الطبيعية لاستيفاء حاجات الجيش وبخاصة بعد تحطيم العمارة الفرنسية فى واقعة (أبوقير)، وقد شرع فى صنع منطاد يطير فى القاهرة ، لكنه لم يوفق فى طيرانه ، وروى الجبرتي حكاية هذا المنطاد وما صار اليه من الفشل ، وشبهه بالطيارة التى يعملها الفراشون فى المواسم والافراح ، قال فى هذا الصدد

« وفى عشرين جمادى الثانية سنة ١٢١٣ (١) كتبوا (٢) عدة أوراق مطبوعة

---

(١) يوافق ٢٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨ (٢) الفرنسيون

والصقوها بالاسواق مضمونها انه فى يوم الجمعة حادى عشرينه قصدنا أن نطير مركبا ببركة ( ميدان ) الازبكية فى الهواء بحيلة فرنساويه ، فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم ، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبة،وكنت بجملتهم ، فرأيت قماشاً على هيئة الاوية على عمود قائم ، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثال دائرة الغربال ، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الادهان ، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة، وهى مشدودة ببكر وأحبال ، وأطراف الاحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها ، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها الى ذلك القماش وملأه ، فانتفخ وصار مثل الكرة ، وطلب الدخان الصعود الى مركزه فلم يجد منفذا ، فجذبها معه الى العلو ، فجذبوها بتلك الاحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الارض ، فقطعوا تلك الاحبال ، فصعدت الى الجو مع الهواء ، ومشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة ، وسقط أيضاً ذلك القرش ، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الاوراق المبصومة ، فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة لكشف الاخبار وارسال المراسلات، بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح ...» (١)

وقد أعاد المسيو كونتى تجربة المنطاد لكنه أخفق في تجربته الثانية،قال الجبرتى فى هذا الصدد « وفي يوم الاربعاء ٩ شعبان سنة ١٢١٣ (٢) كتبوا أوراقا بتطيير طيارة ببركة الازبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها ، وصعدت الى الاعلى ومرت الى أن وصلت تلال البرقية وسقطت،

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث
(٢) يوافق ١٦ يناير سنة ١٧٩٩

ولو ساعدها الريح وغابت عن الاعين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة بزعمهم[1] »

ولما رجع كونتي الى فرنسا بذل جهداً كبيرا فى اخراج كتاب تخطيط مصر وهو الذى تولى اعداد معدات طبع خرائطه و رسومه ومصوراته العديدة

## شامپي « Champy »

عالم في الكيمياء ومدير مصنع البارود الذي أنشأه الفرنسيون في الروضة ، و بعد انتهاء الحملة عين في فرنسا مديراً لمصانع البارود بها ومات سنة ١٨١٦

وابنه شامپي الصغير كان يعاونه فى مصر ومات بها بالطاعون سنة ١٨٠١

## ديكوتيل « Descotils »

١٧٧٣ — ١٨١٥

عالم فى الكيمياء عين بعد الحملة الفرنسية كبيراً لمهندسى المناجم بفرنسا

## روزيير « Rozière »

مهندس مناجم له أبحاث مستفيضة عن أحجار مصر ومعادنها وجيولوجيتها نشرت في كتاب تخطيط مصر وقد رسم أحجارها وصخورها ومعادنها

# الاقتصاديون

## بوسليج « Poussielgue »

ولد فى باريس سنة ١٧٦٤ وتقلد بعض المناصب المالية فى عهد الثورة الفرنسية وكان قوميسيراً للايرادات سنة ١٧٩٤ وفى سنة ١٧٩٥ عين سكرتيرا للوزير فيبول Faypoult ، وجاء الى مصر ضمن الحملة الفرنسية مراقباً لنفقات الجيش،وعهد اليه نابليون ادارة الشؤون المالية ، وكان يثنى عليه ، لكنه غضب عليه بعد عودته الى

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

فرنسا لما اطلع على رسائله الى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته ، ولما عاد الى فرنسا أهمله نابليون ، ويسميه الجبرتى بوسليك مدير الحدود ويعبر عنه بالروزنامجي

## استيف « Esteve »

مدير خزانة الحملة أولا ثم مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية وقد درس مالية الحكومة فى عهد المماليك وكتب عنها بحثا مستفيضاً فى كتاب تخطيط مصر

## تاليان « Tallien »

١٧٦٧ — ١٨٢٠

هو أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية وخصم روبسبير الشهير ومثير غبار الحملة التى انتهت باسقاطه فى الجمعية الوطنية (١) وانتظم فى سلك أعضاء لجنة العلوم والفنون وعهد اليه نابليون وقتا ما بمهمة مندوب ( قوميسير ) لدى الديوان ، فكان بمثابة جاسوس على أعضائه ، لكنه لم يكن موضع ثقة نابليون ولا احترامه ، وغادر مصر فى عهد الجنرال منو وفقد بعد عودته الى فرنسا مكانته السياسية

# القواد والضباط

## كافريللى « Caffarelli »

هو الجنرال كافريللى ،من اسرة ايطالية استوطنت فرنسا فى عهد لويس الثالث عشر ، وهو من أكفأ قواد الجيش الفرنسى واغزرهم علما ، ضرب بسهم وافر فى الفلسفة والتشريع ، وقاتل فى حروب الثورة الفرنسية وفقد احدى قدميه فى حصار ما يانس Mayence سنة ١٧٩٥ فجاء مصر بقدم واحدة ، ولذلك يسميه الجبرتى « كفرلى المسمى بأبي خشبة » وقد اختاره نابليون رئيساً لفرقة المهندسين فى الجيش،وهو مركز

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا الجمعيات الوطنية ص ٦٥

يتطلب كفاية فنية كبيرة وهو من افراد الحملة القلائل الذين تكلم عنهم الجبرتي بالاسم ، واليك ماقاله في صدده : « ومن جملة من انتقل من الدرب الاحمر الى الازبكية كفرلى المسمى بأبي خشبه ، وهو يمشى بها بدون معين ، ويصعد الدرج ويهبطمنها أسرع من الصحيح ، ويركب الفرس ويرمحه . . . وهو على هذه الحالة ، وكان من جملة المشار اليهم فيهم والمدبر لأمور القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به عناية عظيمة واهتمام زائد »[١] وقد قتل فى حصار عكا كما سيجيء بيانه فى الفصل الثاني من الجزء الثانى

## الجنرال اندريوسى « Andreossi »

١٧٦١ — ١٨٢٨

من القواد ومن رجال السياسة معاً ، وله أبحاث ورحلات جغرافية فيمصر أهمها رحلاته الى بحيرة المنزلة ووادى النطرون ، وقد كتب عنها أبحاثاً تلاها في المجمع العلمى ونشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر والثانى عشر

عاد الى فرنسا مع نابليون وعاونه على قلب نظام الديركتوار وعينه بعد معاهدة (أميان)سفيراً لفرنسا في لندن ثم في فيينا ثم في الاستانة حيث بقي بهاالىسنة ١٨١٤ وانتخب عضواً في أكاديمية العلوم (المجمع العلمى) وفي مجلس النواب

## هوراس ساى « Horace Say »

رئيس أركان حرب فرقة الهندسة ، كان أستاذاً لفن الاستحكامات في مدرسة الهندسة بفرنسا ، وهو أخو جان باتست ساى العالم الاقتصادى المشهور ، ومن أكفأ ضباط الجيش الفرنسى وأكثرهم علماً ، وله عدة رسائل فيالمجمع العلمى المصرى عن الحالة الاقتصادية والطوبوغرافية في مصر ، قتل في حصار عكا

---

(١) الجبرتي الجزء الثالث

## مالوس « Malus »

١٧٧٥ — ١٨١٢

عالم فى الطبيعيات وضابط كبير في الجيش الفرنسي ، تلقى العلوم فى مدارس الهندسة بفرنسا وانتظم في سلك فرقة الهندسة بالجيش ، وجاء الى مصر ضمن هـذه الفرقة ، وكان صديقاً للجنرال كافريللي وتلميذاً للعلامة مونج ومعدودا من أعضاء المجمع العلمي المصرى النابهين ، ولما عاد من مصر ظل في فرقة الهندسة مع اشتغاله بالابحاث الطبيعية ، وله فيها رسائل ومؤلفات عظيمة القيمة ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١١ بقسم الطبيعيات ، وله يوميات (١) عن الحملة الفرنسية نشرت سنة ١٨٩٢ تحوى وقائع الحملة الى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وله عدا ذلك « أفـكار » ضمنها خواطره فى مصر

## الاطباء والجراحون

### ديجنت « Desgenttes »

١٧٦٢ — ١٨٣٧

كبير أطباء الحملة الفرنسية فى ايطاليا وفي مصر ، وله عدة ابحاث طبية عن مصر ، وله كتاب قيم اسمه « التاريخ الطبي لجيش الشرق » ، وقد وضع فى مصر رسالة فى مرض الجـدري طبعها فى المطبعة العربية التى احضرها الفرنسيون وأهداها الى أعضاء الديوان وهى الرسالة التى يشير اليها الجبرتى بقوله :

« وفى شعبان سنة ١٢١٥ أرسل رئيس الاطباء الفرنساوى نسخا من رسالة ألفها فى علاج الجدرى لارباب الديوان لـكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها

---

(١) يوميات مالوس « Agenda de Malus »

الناس ويستعملوا ما أشار اليه فيها من العلاجات لهذا الداء المضال ، فقبلوا منه ذلك وأرسلوا له جوابا شكراً له على ذلك ، وهي رسالة لا بأس بها في بابها » (١)

وله احصاءات دورية عن وفيات القاهرة في مدة الحملة الفرنسية نشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء السادس عشر ، ومنح بعد الحملة لقب بارون وعين كبير اطباء الانفاليد

## لارّى « Larrey »

### ١٧٦٦ — ١٨٤٢

كبير جراحى الحملة الفرنسية وله شهرة عالمية في الطب والجراحة ، وظل بعد الحملة كبير جراحى الجيش الفرنسى في عهد نابليون وكان موضع ثقته وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى وبأكاديمية الطب ، وأنعم عليه نابليون برتبة بارون فصار يعرف بالبارون لاري ، وهو من كبار الاساتذة فى العلوم الطبية ، عين كبيرا لجراحى مستشفى الانفاليد ، وله مؤلفات عظيمة في الطب والجراحة منها كتاب خاص بمصر نشر سنة ١٨٠٣

وله في كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر ابحاث مستفيضة عن الامراض الخاصة بمصر

## ديبوا « Dubois »

### ١٧٥٦ — ١٨٣٧

من نوابغ الاطباء فى الجراحة وبخاصة الولادة ، ولم يطل مكثه في مصر أمداً

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث . وجاء في كتاب ( التاريخ الطبى لجيش الشرق ) لمؤلفه الدكتور ديجنت أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته في الجدري الي الديوان و ٥٠ نسخة الى الست نفيسة المرادية

لمرضه فعاد الى فرنسا وخلفه فى المجمع العلمى الجراح لاري وصار ديبوا طبيب نابليون الخاص .

## الادباء والمترجمون والفنانون

### فيفان دينون « Vivant Denon »

### ١٧٤٧ — ١٨٢٧

كاتب وفنان ، صحب نابليون في حملة مصر وعاد بمجموعة نفيسة من الصور التى رسمها ، وله في رحلته بمصر كتاب نفيس « رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت » نشر بعد عودته من مصر وطبع لاول مرة سنة ١٨٠٢ وأهداه الى نابليون وكان اذ ذاك « قنصلا أول »

وأهمية هذا الكتاب راجعة الى المصور الكبير الملحق به و يتضمن رسوماً عظيمة القيمة عن مصر والآثار المصرية جعلت لكتابه مكانة كبيرة وترجم الى الانجليزية والالمانية ·

وقد رسم فى كتابه بعض معارك الحملة الفرنسية التي شهدها ورسمها أثناء وقوعها

وكان دينون من المولعين بالفنون الجميلة وتولى في عهد امبراطورية نابليون ادارة المتاحف وانتخب عضواً في المجمع العلمى الفرنسى

### فانتور « Venture »

هو المستشرق فانتور أكبر أعضاء المجمع العلمى سنا وكبير تراجمة الحملة الفرنسية ومستشار نابليون ومرجعه في المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين ، قضى نحو أربعين سنة فى بلاد الشرق وكان قبل حضوره لمصر ترجماناً لسفارة فرنسا فى الاستانة ، ثم مترجماً للحكومة الفرنسية فى اللغات الشرقية ومدرساً للتركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ومن تلاميذه المسيو مارسل والمسيو جوبير وسيأتي ذكرهما ، مات بالدسنطاريا فى الحملة على سوريا ونعاه نابليون الى الديوان ، وذكره الجبرتى في كتابه

القائل عنه « ان فانتوره هذا ترجمان سارى عسكر وكان لبيباً متبحراً يعرف اللغات فتركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى »

## مارسل « Marcel »

١٧٧٦ — ١٨٥٤

هو المستشرق مارسل مدير المطبعة الفرنسية والعربية التي أحضرها نابليون الى مصر، وقد درس اللغة العربية واشترك في تأليف كتاب تخطيط مصر وكتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية ، وله رسالة عن المارستان الكبير بالقاهرة ويسميه الناصرى نسبة للملك الناصر محمد بن قلاون الذي أتم بناءه ، وله أبحاث مستفيضة عن مقياس الروضة وعن الآثار العربية بمصر وما عليها من الخطوط الكوفية منشورة فى الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكان في خلال الحملة الفرنسية مديراً للمطبعة الاهلية التى أنشأها نابليون وعضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة ، وعين بعد عودته من مصر مديراً للمطبعة الاهلية بفرنسا

## جوبير « Jaubert »

١٧٧٩ — ١٨٤٧

اختاره نابليون كبيرا لتراجمة الحملة الفرنسية بعد وفاة المستشرق فانتور ، وله بحث عن العرب وقبائلهم فى مصر منشور في الجزء السادس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وعين بعد الحملة مدرساً للتركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم مدرساً للفارسية في الكوليج دى فرنس ثم ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية

## برسفال دجرنميزون Perseval De Grandmaison

١٧٥٩ — ١٨٣٤

عضو بالاكاديمية الفرنسية ، عين وقتاً ما فى عهد الحملة الفرنسية مديراً لجمرك

السويس وغادر مصر ضمن من صحبوا نابليون فى عودته الى فرنسا

## رفائيل

قسيس شرقى عين « ترجماناً أول » للديوان و بعد الحملة عين مدرساً للعربية الدارجة فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس

## فيلوتو « Villoteau »

١٧٥٩ — ١٨٣٩

موسيقى فنان، برع في فنون الموسيقى علماً وعملا ودرس فى مصر الموسيقى المصرية القديمة والحديثة والموسيقى الشرقية في مختلف بلاد الشرق ، وله فى ذلك أبحاث مستفيضة شغلت بعض الجزء السادس ومعظم الجزء الثالث عشروكل الجزء الرابع عشر من كتاب تخطيط مصر

## ريجو « Rigo »

هو الرسام ريجو، ويسميه الجبرتى « أريجو » وهو الذى عهد اليه نابليون باقامة أقواس النصر والاعمدة في ميدان الازبكية احتفالا بعيد الجمهورية سنة ١٧٩٨ ورسم الرسوم الفنية على قواعدها ، وعهد اليه نابليون أيضا برسم رجالات مصر في ذلك العصر على اختلاف مراكزهم وأزيائهم ، وترى هذه الرسوم فى كتاب (تخطيط مصر)

## ردوتيه « Redouté »

مصوّر فى التاريخ الطبيعى واخو المصور المشهور « ردوتيه» الملقب بمصور الزهور، رسم معظم حيوانات مصر وأسماكها ، وتزين رسومه البديعة كتاب ( تخطيط مصر )

## دوترتر « Dutertre »

١٧٥٣ — ١٨٤٢

رسم معظم أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وترى صور النابهين منهم فى كتاب

« يوميات » المسيو دفيلييه De Villiers المتقدم ذكره وله رسوم عديدة عن الآثار المصرية القديمة في كتاب (تخطيط مصر)

## أعمال المجمع العلمى

هي المسائل التى بحثتها هيئة المجمع وكذلك أعمال أعضائه جماعة أو فرادى فى المدة التى انقضت بين تأسيس المجمع ورحيل الفرنسيين ، وهى الاعمال التى نستعرضها فى هذا البيان

كانت أولى جلسات المجمع العلمى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) ، فاجتمع الاعضاء وانتخبوا المسيو مونج العالم الرياضى رئيساً للمجمع ، ونابليون بونابارت نائب الرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً ، وكوستاز نائب السكرتير ، وعرض نابليون على المجمع فى هذه الجلسة درس المسائل الآتية

أولا — ماهى الوسائل التى يمكن اتباعها لتدبير مواد الوقود اللازمة لافران الجيش

وقد أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه وكافاريلى ومونج وساى

ثانياً — هل يوجد وسيلة يمكن اتباعها فى مصر لاستبدال حشيشة الدينار فى صنع البيرة

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، وديجنيت وجلوتييه

ثالثاً — ماهى الوسائل الناجعة لترشيح وتبريد ماء النيل

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، ومونج ، وفانتور

المسألة الرابعة — ما هو الانفع للبلاد بحسب الحالة الراهنة فى مصر طواحين الماء أم طواحين الهواء ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندريوسى ، وكافاريلى ، وكوستاز ، ومالوس ، وساى

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩١

المسألة الخامسة — هل فى مصر مواد أولية لصنع البارود وما هى هذه المواد ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندريوسى ، وبرتوليه ، ومالوس ؛ ومونج ، وفانتور

المسألة السادسة — ما هى حالة التشريع والقضاء المدنى والجنائى فى مصر ؟ وحالة التعليم ؟ وما هى الاصلاحات التى يمكن ادخالها على هذه النظم ويرغبها أهالى البلاد

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من كوستاز ، وسولكوسلى ، وسوسى ، وتالياز

وعرضت على المجلس فى جلسات متعاقبة مسائل أخرى فنية لدراستها ، كالوسائل التى يجب اتخاذها لزراعة العنب فى مصر ، ودرس طريقة زراعة القمح فى مصر ومقارنتها بطريقة زراعته فى أوروبا ، وتموين القلعة بمياه النيل والتذرع الى ذلك باصلاح قناطر السباع ، وحفر الآبار فى الصحراء ، والاستفادة من المواد المتخلفة من مدينة القاهرة وسائر مدن القطر المصرى ، وانشاء مرصد ، وبحث هزات الابرة المغناطيسية فى مصر

وبحث نابليون كذلك في امكان جلب الاخشاب من الحبشة بطريق النيل لصناعة السفن فى مصر

وكان أعضاء المجمع العلمى وبعثة العلوم والفنون لا يدخرون وسعاً فى متابعة جهودهم العلمية فى مختلف الفروع والفنون ، فأنشأوا فى المجمع مكتبة تحوى أنفس الكتب التى أحضروها من فرنسا أو جمعوها من خزائن الكتب فى القاهرة ، وأنشأوا به معملا للطبيعة والكيمياء جهزوه بالآلات والادوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأخذوا يجوبون البلاد ، فاكتشفوا الآثار وأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسموا خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها ، وبحثوا فى طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن المصرية ، ودرسوا مياه النيل وطميه وطبقات الارض ، وجابوا واحاتها وبحيراتها

## الطباعة

وأنشأوا بالقاهرة مطبعة عربية وفرنسية وهى التى أحضرها نابليون الى مصر بعد أن جمع لها الاحرف الفرنسية والعربية واليونانية من باريس واستكمل لها الاحرف العربية من مطبعة البروباجندا بروما ، وعهد بادارتها الى المسيو مارسل المستشرق أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وجعل للمستشرق فانتور الاشراف على مطبوعاتها [١] وكانت تسمى ( مطبعة جيش الشرق ) ولما نقلت من الاسكندرية الى القاهرة أمر بتسميتها ( المطبعة الاهلية ) واتخذ لها دار عثمان بك الاشقر بالازبكية على مقربة من بيت الالفى الذى سكنه نابليون ، ثم نقلت الى الجيزه أثناء ثورة القاهرة الثانية ، ثم الى القلعة الى أن حلا الفرنسيون عن مصر ، وفى هذه المطبعة كانت تطبع منشورات نابليون بالعربية وجريدة الكوريبه دليجبت ، والديكاد ، و بعض المطبوعات العربية والفرنسية

وكان للفرنسيين مطبعة أخرى خاصة حروفها افرنجية فقط لصاحبها المسيو مارك أوريل Marc Aurel طبعت الاعداد الاولى من جريدة ( كوريبه دليجبت ) الى أن نقلت المطبعة الرسمية من الاسكندرية الى القاهرة ، ولما عاد مارك أوريل الى فرنسا فى خلال الحملة باع مطبعته الى الحكومة

و ( المطبعة الاهلية ) هى أول مطبعة أنشئت فى مصر فى العصر الحديث ، وقد أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم عن البلاد ، ولم تعد الطباعة الى مصر الا فى عهد محمد علي الكبير

---

(١) ورد في أمر نابليون الرقيم ١٤ يناير سنة ١٧٩٩ المنشور في ( مراسلات نابليون ) الجزء الخامس انه جعل المسيو فانتور مفتشاً للمطبعة بحيث لا يطبع فيها شيء الا بأمره

## الصحافة

وأنشأوا جريدتين فرنسيتين احداهما سياسية والاخرى علميـة ، فالاولى هى جريدة « كوريبه دليجبت » Courrier de l'Egypte (الجوائب المصرية) وهى جريدة سياسية تصـدر بالفرنسية كل أربعة أيام فى أربع صفحات من القطع الصغير ، طبع منها بمطبعة مارك أوريل الثلاثون عدداً الاولى ، ثم طبع باقى ما ظهر منها فى المطبعة «الاهلية» وصدر منها ١١٨ عدداً ، ظهر العدد الاول منها فى ١٢ فركتيدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٩ أغسطس سنة ١٧٩٨) والاخـير فى يونيه سنة ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين عن البلاد ، وتولى تحرير الاعداد الاولى المسيو كوستاز Costaz أحـد أعضاء المجمع العلمى ، ثم فوريبه سكرتير المجمع ثم ديجنت Desgenettes كبير أطباء الحملة ، وكانت هذه الجريدة هى الصحيفة شبه الرسمية للحملة الفرنسية

وجريدة « لاديكاد اجيبسين » La Decade Egyptienne (العشرية المصرية) تصدر مرة كل عشرة أيام ، وهى جريدة علمية اقتصادية تنشر أبحاث المجمع العلمى ومناقشات أعضائه ، صدر العـدد الاول منها فى ١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ وتولى تحريرها وادارتها الدكتور ديجنت وكانت تطبع فى المطبعة الاهلية[١]

## الاعمال الصحية

وأنشأوا محاجر صحية فى القاهرة (بجزيرة بولاق) والاسكندرية ودمياط ورشيد [٢]

---

(١) عزم الجنرال منو في أواخر عهد الحملة الفرنسية على اصـدار جريدة عربية باسم « التنبيه » لـكنها لم تظهر ولم يحقق عزمه كما تراه في الفصل الحادى عشر من الجزء الثانى من الـكتاب

(٢) ذكر الجبرتى محجر القاهرة بقوله « ان الفرنسيس عمـلوا (كرنتيله) بجزيرة بولاق وبنوا هناك بناء يحجزون به القادمين من السفار أياما معدودة

وأمر نابليون بانشاء مستشفى عسكرى فى قصر مراد بك بالجيزه ثم عدل عنه ونقل المستشفى الى قصر ابراهيم بك تجاه الروضة (مكان مدرسة الطب الآن) ، لكن هذا المستشفى كان خاصاً بالجنود الفرنسية، وأنشأ عدة مستشفيات أخرى عسكرية خاصة بالجنود أيضاً ، وفكر فى انشاء مستشفى للوطنيين ، وألف لهذا الغرض لجنة من الجنرال كافريللى والطبيبين ديجنيت ولارى والعالمين مونج وبرتوليه والمسيو دور Daure مدير مهمات الجيش لفحص هذا المشروع، فأخذت اللجنة تدرس المشروع وبحثت حالة المستشفى الذى كان بالقاهرة قبل الحملة الفرنسية وهو المسمى بالمارستان الكبير المنصورى الذى أسسه الملك المنصور قلاون وأتمه ابنه الملك الناصر سنة ٧١٠ هجرية (١٣١٠ ميلادية) وأجرى عليه سلاطين مصر الاوقاف والهبات من عهد انشائه ، وكان فى عهده الاول مستشفى كبيراً من أعظم المستشفيات شأنا وكان يلحق به مدرسة لتخريج الاطباء فى مصر ، ولكن حالته اضمحلت فى عهد الحكم العثمانى والبكوات المماليك حتى آل أمره الى التدهور والتلف ، وقد زاره الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية مصحوبا بالشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان وقدم تقريراً الى نابليون (١) عن سوء حالته وسوء حالة المرضى الذين كانوا يعالجون به، وأشار بانشاء مستشفى جديد فى بيت عثمان بك الطنبورجى ببركة الفيل ، واقترح كذلك انشاء مدرسة للطب تلحق بالمستشفى ، لكن المشروع لم ينفذ شيء منه فى عهد الحملة الفرنسية

ومما تجب الاشارة اليه أنه كان بالقاهرة مستشفيات أخرى موجودة من قبل مجيء الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو جومار أحد مهندسى الحملة فى بحثه الممتع عن تخطيط القاهرة(٢) انه كان بالقاهرة مستشفى للنساء أنشأه الامير عبد الرحمن كتخدا

---

كل جهة من الجهات القبلية والبحرية » وذكر الدكتور لارى كبير جراحى الحملة أنهم أنشأوا محجرا آخر في جزيرة الروضة خاصا بالوباء

(١) في ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

بالقرب من شارع تحت الربع ، وكان به ٢٦ من المريضات، وكان يطلق عليه اسم (تكية) ، وقد تكلم العلامة علي باشا مبارك عن هذه التكية فى خططه التوفيقية وقال ان الظاهر انها تكية الجلشانية[1] ويقول المسيو جومار أيضاً انه كان بالقاهرة تكايا أخرى للمرضى وهى تكية الحبانية وتكية الاعجام بشارع الصليبة، وقد زار هذه التكية و رأى بها ١٦ مريضاً ، وتكية بشارع سوق السلاح ، وأخرى بشارع قيسون

و يدخل فى الاعمال الصحية التى أجراها الفرنسيون ماقرروه من انشاء لجنة لادارة الشؤون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة و بولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها

## أعمال اخرى

ومما عمله أعضاء المجمع العلمى أنهم أنشأوا طواحين الهواء[2] ، احداها فى جزيرة الروضة والثانية بباب الحديد على التل المجاور لقنطرة الليمون

وفى ذلك يقول الجبرتى « ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون ، وجعلوا في أعلاه طاحوناً تدور فى الهواء عجيبة وتطحن الارادب من البر وهي بأربعة أحجار وطاحوناً أخرى بالروضة تجاه مساطب النشاب » وظاهر من عبارة الجبرتى انه لم يكن رأى طواحين الهواء من قبل فظن أن الفرنسيين استحدثوها ، على أن طواحين الهواء لم تكن ابتكاراً من الفرنسيين بل كانت موجودة فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيوسان جنيس Saint Genis أحد مهندسي الحملة[3] أنهم وجدوا بالاسكندرية على شاطيء البحر فى شبه جزيرة راس التين طاحوناً تدار بالهواء بثمانى أجنحة ، ووصف المهندس جراتيان لو بير Gratien Le Père زميل المسيو سان جنيس هذه الطاحون وتراها مرسومة بخريطة الاسكندرية الملحقة بكتاب تخطيط مصر ، ويقول المسيو جيرار

---

(١) الخطط التوفيقيه الجزء الاول

(٢) انشأها المسيو كونتى Conté

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس

Girard أحد مهندسى الحملة انه كان بالاسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء (١)

وأصلحوا دار الصناعة (الترسانة) التى أنشأها مراد بك فى الجيزة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية ، وعني باصلاحها المسيو كونتى والمسيو شامبي Champy وولده

وانشأوا مصنعاً للبارود فى جزيرة الروضة وعهدوا بادارته للمسيو شامبي يعاونه فيه ابنه الذى مات بالطاعون

وانشأوا مصنعاً للجوخ وآخر لصنع القبعات وآخر لصناعة البيرة وآخر لدبغ الجلود .

وأنشأوا مصنعاً ميكانيكياً ومصنعاً للنجارة زارهما الجبرتى ووصفهما بقوله :

« وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات والاخشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم، ومكانا آخر للحدادين بنوا فيه كوانين عظاما وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلا كثيراً بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة ، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والخارط ، وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلاوزات الحديدية العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالاقلام المتينة الجافية ، وعليها حق صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الامكنة صناع الامور الدقيقة (الميكانيكيون) مثل البركارات (البراجل) وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك »

وأصلحوا بناء المقياس مما أصابه حين القتال من العطب ، تولى المسيو لوبير « Le Père » كبير مهندسى الرى فى عهد الحملة ترميمه ، وجعلوا للمقياس باباً

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر

خارجياً نقشوا فيه بالعربية والفرنسية مايشير الى هذا الترميم الذي تم فى عهد الجنرال منو، وقد أرسل الديوان كتاب شكر للجنرال منو وآخر للمسيو لو بير، ونجد نص الكتاب الاخير فى قسم الوثائق التاريخية نقلناه عن كتاب تخطيط مصر، وقد ذكر الجبرتى اصلاح بناء المقياس فى حوادث سنة ١٢١٥ هجرية فقال فى هذا الصدد « ومنها انهم غيروا معالم المقياس و بدلوا أوضاعه ، وهدموا قبته العالية ، والقصر البديع الشاهق ، والقاعة التى بها عمود المقياس ، و بنوها على شكل آخر لا بأس به ، لكنه لم يتم وهى على ذلك باقية الى الآن ، ورفعوا قاعة العامود العليا ذراعاً ، وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الاربع قراريط الذراع »

وأقاموا جسرا من المراكب من القصر العيني الى الروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة الى الجيزة تم وضعه فى أثناء الحملة على سوريا ، وكانوا معجبين بجمال جزيرة الروضه وحسن موقعها حتى فكر نابليون في أن يجعلها مقراً للجالية الفرنسية وينشىء فيها مدينة فرنسية ، لكن مشروعه لم ينفذ ، وكذلك وضع الجنرال ( منو ) تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن فكرته لم تخرج عن حيز الآمال

واصلحوا شارع الفجالة وكانت أرضه من قبل يعسر المرور بها فمهدوه وجعلوه ممتداً من باب الحديد الى باب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب

ومهدوا طريقا مستقيما غرسوا على جانبيه الاشجار من الازبكية الى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه الى بولاق رأسا ويتفرع بقرب بولاق الى فرعين الاول الى طريق ابى العلا والثانى الى التبانه وساحل النيل

ومدوا الطريق بين باب الحديد و باب العدوى الى جهة المذبح خارج الحسينية وصار الطريق ممهداً بين الازبكية وقبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادليه

وانشأوا منتدى للتنزه ( كازينو ) سموه «التيفولى» تشبها بنظيره بباريس انشأوه بالازبكية ، وسماه الجبرتى « دار الخلاعة » ووصفها بقوله « واحدثوا بغيط النوبى المجاور للازبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة

فى أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليه قدراً مخصوصا يدفعه أو يكون مأذونا و بيده ورقة »

واقاموا مسرحا لتمثيل الروايات ، ثم انشاؤه فى عهد الجنرال منو وهو الذي سماه الجبرتي « كمرى » ( يريد كميدى Comedie ) وصفه بقوله « وفى شعبان سنة ١٢١٥ كمل المكان الذي أنشأوه بالازبكية عند المكان المعروف بباب الهواء ، وهو المسمى في لغتهم بالكمرى ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلي والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل أحد اليه الا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة »

وخلاصة ما تقدم أن أعضاء المجمع العلمى قد بذلوا جهودا كبيرة فى خدمة العلم والفن ، وكانوا دائمى النشاط مجدين فى أعمالهم مثابرين فى ابحاثهم ، فكان المجمع العلمى من اعظم المجامع العلمية قدرا وأكثرهم ثمرة

كتب المسيو جوفروا سان هيلير — وكان من أعضائه النابهين — فى رسالته الى الى العلامة كوفييه Cuvier يقول

« ان المجمع العلمى المصرى في نشاط دائم ، واني أوكد ان جلساته تعادل بالاقل جلسات المجمع العلمى الفرنسى فى أعمالها وثمراتها ، وقد قررنا بناء على اقتراح زميلنا بونابارت ( نابليون ) أن نرسل الى مجمعكم محاضر جلساتنا ، فهل لكم أن تقرروا ازاءنا مثل هذا القرار و بذلك تقفوننا على تطور حركة العلوم فى اوروبا (١)

يتبين من تشكيل المجمع العلمى ومن المسائل التى بحثها والاعمال التى عملها أنه معهد العلوم والفنون ومجلس استشارى فنى مؤلف من أعضاء اخصائيين لدرس المسائل والمشروعات التى تعرضها عليه الحكومة ، فهو فى الشق الآخير من مهمته شبيه بالمجلس الاقتصادى التى أنشأته الحكومة المصرية سنة ١٩٢٣ الا انه يزيد في اختصاصه انه يتناول

---

(١) رسالة جوفروا سان هيلير الى كوفييه بتاريخ ٢٠ اكتوبر سنة ١٧٩٨ الواردة فى كتاب ( رسائل من مصر )

عدا المسائل الاقتصادية والمالية المسائل الخاصة بالتشريع ، وهو عدا ذلك معهد أو أكاديمية للعلوم والفنون

ولا شك أن فكرة تأسيس هذا المجمع العلمي هي فكرة جليلة تدل على عبقرية نابليون ونبوغه فى التنظيم والانشاء كنبوغه فى الحروب ، وتدل ايضاً على قوة عزيمته وعلو همته ، لانه أسس هذا المجلس بعد أن وصلته أنباء الكارثة التى حطمت عمارته في معركة ( أبو قير ) وقطعت كل صلة بينه و بين فرنسا وجملته هو وجيشه محصورين فى الديار المصرية ، ومع هول هذه الكارثة وعظم آثارها وما ضربت به نفوس الفرنسيين من اليأس فأنه قابلها بالجلد والصبر وأسس المجمع العلمى ليجد من خبرة أعضائه وكفاءتهم ما يجعله يكتفى بموارد البلاد الطبيعية ، وأخذ يقيم النظم في مصر كأنه باق فيها الى ما شاء الله

واذا نظرنا الى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد نفع البلاد بآثاره واعماله ، وتعد مذكرات اعضائه نواة للابحاث العلمية الخاصة بمصر ، فلا غرو أن يكون المجمع العلمى هو الاثر الوحيد الباقى من آثار الحملة الفرنسية ، ويكفي أن نمعن النظر في اعمال اعضاء المجمع وابحاثهم المنشورة في كتاب (تخطيط مصر) لتقدر مبلغ ما قاموا به من الاعمال وما يستحقونه من الاعجاب والثناء

وقد انتهى العهد الاول من المجمع العلمى بعد رحيل الفرنسيين ، ثم اعيد انشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية ، وانتخب المسيوجومار Jomard آخر من بقى من أعضاء المجمع العلمى الاول رئيساً شرفياً للمجمع الجديد ، وهذا المجمع قائم الى اليوم ، فالمجمع العلمى الحالى هو استمرار للمجمع العلمى القديم ، وقد انتقل من الاسكندرية الي القاهرة سنة ١٨٨٠ ومقره الآن بحديقة وزارة الاشغال ، وله نشرة دورية تحوى مجموعة المحاضرات والابحاث التى تلقى فيه

## زيارة الجبرتى للمجمع العلمى

### وما قاله فى وصفه

نرى من الواجب أن نختم كلامنا عن المجمع العلمى بايراد ما ذكره الجبرتى عنه وما قاله فى وصفه وما رآه فيه ، ننقل ذلك لان في وصف الجبرتى صورة دقيقة لما رآه وما شاهده وفى كلامه صورة جلية للمستوى العلمى فى ذلك العصر

وصف الجبرتى المجمع العلمى وصفاً عاما بقوله « وافردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك وأمير الحج المعروف بأبى يوسف وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففر مع الفارين وتركه »

## مكتبة المجمع العلمى

وقال عن مكتبة المجمع « وفيه ( بيت حسن كاشف ) جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر ، واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والاقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الانبياء

بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ممـا يحير الافكار ، ولقد ذهبت اليهم مراراً وأطلعونى على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليقة ، وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الـكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بايديهم السيوف ، وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين ، وفى الاخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس ، وصورة بيت المقدس والحرم المـكى والمدنى ، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين ، وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كأياصوفيه وجامع السلطان محمـد وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف الناس لذلك ، وكذلك جامع السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعـة فيه ، وأبى أيوب الانصارى وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والاهرام وبرابى الصعيد والصور والاشكال والاقلام المرسومة بها وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والاعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الاثقال ، وكثير من الـكتب الاسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم « شفاء شريف » ، والبردة للبوصيري ، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليـل والنهار ، وعنـدهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت الى لغتهم في أقرب وقت »

## قسم الفلك

وقال عن قسم الفلك :

« وعند توت[١] الفلكى وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدراً من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها الى المرئى ، واذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وارصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها وأنواع المنكابات والساعات التي تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك »

## قسم الرسم والتصوير

وقال عن قسم الرسم والتصوير :

« وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى ، وهم المصورون لكل شيء ، ومنهم أريجو[٢] المصور وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه انه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دائرة وكذلك غيرهم من الاعيان ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر ، وآخر[٣] فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر[٤] يصور الاسماك والحيتان بأنواعها

---

(١) لعله يريد نوى Nouet

(٢) يريد الرسام ريجو Rigo

(٣و٤) يريد بالاول سافيني Savigny والثاني ردوتيه Redouté وقد تكلمنا عنهما ص ١٣١ و ١٤١ والاثنان مساعدا العلامة جوفروا سان هيلير في أبحاثه في التاريخ الطبيعي ولهما رسوم عديدة في كتاب تخطيط مصر فسافيني رسم حيوانات مصر وحشراتها ، وردوتيه رسم أسماك مصر

وأسمائها ، و يأخذون الحيوان أوالحوت الغريب الذي لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيأته لايتغير ولا يبلى ولو بقى زمناً طويلا »

## قسم الهندسة

### والطب والكيمياء

« وكذلك افردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق ، وسكن الحكيم رويا (١) بيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية وركب له تنانير و كوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الاملاح وقدوراً عظيمة و برامات، وجعل له مكاناً أسفل وأعلى و بهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الاطباء والجرايحية (الجراحين) ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى و بنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الارواح وتقاطير المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات و بداخلها أنواع المستخرجات ، ومن أغرب مارأيته في ذلك المكان ان بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، و بأخرى فجمد حجراً احمر ياقوتيا، وأخذ مرة شيئا قليلا جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان

---

(١) يريد روييه Royer كبير صيادلة الحشد الفرنسى

وضرب به بالمطرقة بلطف نخرج له صوت هائل كصوت القرابانه ( البندقية ) انزعجنا منه فضحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غيرهيأتها وأنزلها في الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من المـاء وقرب الآخر الشعلة اليها في الحال، نخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة او ما قرب منها بيده الاخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة ، ومن لمس هـذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ولو كانوا الفا أو أكثر...، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لاتسعها عقول أمثالنا . . »

# نظرة عامة

## فى نظام الحكم الذى أسسه نابليون

لا جدال فى أن تأسيس « الديوان » على النحو الذى شرحناه كان نواة لنظام شوري لم تكن تعرفه البلاد من قبل ، ولا سيما اذا لاحظنا انه وضع سنة ١٧٩٨ أى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ففى ذلك الحين لم يكن النظام الدستورى مألوفا فى الشرق ، بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد واهواء الحكام هو السائد فى بلاد الشرق قاطبة بل فى أغلب بلاد أوروبا ، فان الشعوب الاوروبية لم تكن الى ذلك العهد تعرف الحياة الدستورية الصحيحة عدا انجلترا التى كانت تتمتع بالنظام الدستورى من عهد القرن السابع عشر ، وفرنسا التى قوضت دعائم الاستبداد فى أواخر الثامن عشر ، أما معظم الامم الاوروبية فكانت لا تزال ترزح تحت نير الحكومات المطلقة

فالنظام الذى أنشأه نابليون فى مصر كان اذن نظاما جديدا فى الحكم ، وفضلا عن أنه يشبه أن يكون شوريا فانه كان يجعل للعنصر المصرى صوتا فى حكومة البلاد

كان العنصر المصرى فى خلال حكم المماليك بعيداً عن كل نفوذ لان هؤلاء المماليك استأثروا بسلطة الحكم من جميع نواحيه ، فنظام «الديوان» بالرغم من أنه ترك السلطة العليا للفرنسيين قد أشرك العنصر الاهلي فى ادارة الحكومة ، وهذا شيء جديد كان له أثره فى التطورات التى ظهرت فى البلاد أوائل القرن التاسع عشر ، ولا شك ان نابليون بوضعه نظام «الديوان» فى مصر كان متأثراً بعض التأثر بالافكار والمبادىء الجديدة التى أوحت بها الثورة الفرنسية الى أذهان الناس

ان نابليون كان قبل كل شيء قائداً عظيما طموحا الى الفتح والسلطان ، لكنه فى الوقت نفسه وليد الثورة الفرنسية ، كما كان جنود فرنسا أبناء ذلك الانقلاب العظيم الذى أعلن حقوق الانسان وقرر حرية الشعوب ، فعلم الثورة كان لم يزل يخفق

على الجيوش التى ساقتها الجمهورية الفرنسية الى ميادين القتال ، يحمل فى طياته مبادىء الحرية الجديدة ، وهذا وحده كان كافياً لفتح عيون الامم والجماعات وتشوّفها لنظام جديد قائم على أساس الحرية والحق ، ومهما تغلبت فكرة الفتح والاستعمار فى رؤوس القواد والفاتحين فانهم مضطرون أن يجاروا الروح الجديدة التى ولدتها الانقلابات والثورات فى نفوس الجماهير والجماعات ، اعتبر ذلك فيما أعلنته جيوش الثورة الفرنسية للبلاد التى فتحتها كالبلجيك والبيمونت ولومبارديا وايطاليا من أنها جاءت لنصرة مبادىء الحرية وتحطيم أغلال الاستعباد لتجتذب اليها قلوب الشعوب فى تلك البلاد ، كذلك فعل نابليون حينما جاء مصر ، فانه عمل على اجتذاب قلوب المصريين فخاطبهم بلهجة الود ووعدهم فى منشوراته وبياناته بأن يجعل زمام الحكم فى أيديهم ، وبذلك استثار الروح القومية فى نفوس المصريين ، فكان فى هذه المنشورات شبيها بالرئيس ويلسن الذى قام فى الحرب العالمية الاخيرة يعلن للامم مبادئه المشهورة فى حرية الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها ، فان اعلان هذه المبادىء والعهود قد استثار روح الاستقلال والحرية فى الشعوب قاطبة بالرغم من اخلاف ويلسن لوعوده وعهوده للامم

فنابليون قد استثار الروح القومية المصرية فى منشوراته وبياناته للمصريين ، على انه فى الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها ، لان هذه الاعتداءات أثارت كراهية الامة للاحتلال الفرنسى وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هى النواة التى انبثقت منها الروح القومية المصرية

ومهما قيل فى مبلغ ما كانت عليه الامة المصرية فى ذلك الحين من التأخر فى العلم والمدنية فان الحملة الفرنسية وما اهتاجته فى نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزت أعصاب الامة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئاً من الغشاوة التى رانت عليها فى خلال العصور

أراد نابليون اذن أن يجتذب اليه قلوب المصريين ويتودد اليهم ويكسب ثقتهم

لانه كان على يقين انه مالم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشيء على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه ، مهما أوتى من قوة الجند والسلاح

لكن نابليون قد خاب فى تحقيق هذا الامل ، وكان اخفاقه راجعاً الى أن الامة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن اليه بحال من الاحوال ، ولم تخدع فى حقيقة الاغراض التى كان يرمى اليها نابليون من هذه الحملة ، وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة فى الامة ، والواقع ان نابليون مع كل تلك الوعود التى كان يمنى بها المصريين في منشوراته و بياناته لم يكن يقصد في الحقيقة الا فتح مصر واخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب ، فالحملة الفرنسية قامت على أساس الفتح والاستعمار ، ومهما تعددت أساليب القوة والفتح فلامم التى تشعر بشيء من الحياة والكرامة تأبى أن تكون مطية لاهواء الفاتحين

فنظام الحكم الذى وضعه نابليون في مصر لم يكن ليصرف نظر المصريين عن أن يروا في الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على بلادهم بدون حق أو مسوغ ، فهذا الاعتداء في ذاته قد أثار الروح القومية في نفوس المصريين ، وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين عاما ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة أجنبية ، والواقع انك اذا تتبعت تاريخ الحملة الفرنسية في مصر تجد أنها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسى ، بحيث لم يستقر للفرنسيين حكم ولم يهدأ لهم روع في السنوات الثلاث التى قضوها في مصر

ولا نزاع في ان إعراض الامة المصرية عن السكون لنابليون والاستنامة لوعوده هو في ذاته برهان على صدق نظر الامة أو بالاقل على ما انطوت عليه من سلامة الفطرة اذ لم تقبل أن تكون أداة مسخرة لتحقيق أطماع نابليون ، ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم على أنه لم يبر بوعده لأمة من الامم التى فتح بلادها ، بل كان يهزأ بحرية الامم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لاطماعه في الفتح والسلطان ، فالامة المصرية قد برهنت اذن على حيوية كبيرة فى مقاومتها للحملة الفرنسية ، ولم

يفت مؤرخي الحملة حتى من هؤلاء الفرنسيين التنويه بهذه الحقيقة وحسبانها فضيلة للشعب المصرى

وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون الى مصر(١) « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فانهم لم يستقر لهم قرار في البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا بالمتاعب ، ولم يترك الاهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها ، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة »

وقال في موضع آخر « ان دعاة الفتنة ما فتئوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء القطر المصرى ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا وهو ان مقاومة الاضطهاد هي أقدس واجبات الشعب »

ويقول المسيو ريبو Reybaud (٢)

« كانت هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد ( الفرنسيين ) ، فقد كان من الصعب أن توجد امة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للاخطار ويحتل بلادها ويخوض فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات الفخمة فى تغيير حالة الشعب النفسية ، لذلك كان الوجه البحرى بالرغم من احتلاله وانهزامه غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مر بها الجيش الفرنسى ورفعت علم الثورة »

هذا ما كتبه كاتبان فرنسيان فى وصف الحالة النفسية للامة ، وفيه كما ترى تمجيد لروح المقاومة التى ظهرت فى نفوس المصريين

والآن وقد انتهينا من الكلام عن نظم الحكم التى أسسها نابليون فلنتكلم تفصيلا عن المقاومة الاهلية فى عهد الحملة الفرنسية

---

(١) في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ) الجزء الثانى

(٢) في كتاب التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية جزء ٣

# الفصل الخامس

## المقاومة الاهلية

### فى عهد الحملة الفرنسية

كانت حكومة الديركتوار تظن قبل تجريد الحملة على مصر انها لن تلقى مقاومة من جانب المصريين لما وقر فى الاذهان وقتئذ من ميلهم الى الهدوء وخفض الجناح وصبرهم على مظالم الحكام ، هـذه الفكرة تراها ماثلة فى التقرير الذى قدمه المسيو « تالبران » وزير الخارجية الفرنسية الى حكومة الديركتوار فى ١٤ فبراير سنة ١٧٩٨ عن مشروع الحملة [١] وهو تقرير مطول بحث فيه علاقات فرنسا بمصر والاسباب التى تبرر الحملة الفرنسية فى نظره والمقاومة الحربية التى ينتظر أن تلقاها الحملة فى مصر ، بدأه بقوله « كانت مصر فيما مضى ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية ، والآن يجب أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية »

وقال فى كلامه عن قوة مصر الحربية « ان اهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل لا سلاح معهم ، واذا اعطاهم المماليك سلاحا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الاجنبية فانهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك انفسهم ، فليس ثمت خوف من مقاومة أو وثبة من الاهالى »

وقال فى موضع آخر « ان الشعب المصرى سيتلقانا باحترام لانه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين »

هذا ما كتبه تالبران فى تقريره عن مشروع الحملة ، وذلك ما كان يتوقعه اقطاب الحكومة الفرنسية حينما قرروا انفاذ المشروع ، لكن الحوادث قد خيبت ظنونهم ، فان المقاومة التى لقيها الفرنسيون من جانب الاهالى كانت أشد من مقاومة المماليك .

---

(١) هو الذى تكلمنا عنه بالفصل الثاني ص ٧٤

والواقع ان من يتتبع سلسلة المقاومات التى لقيها الجيش الفرنسى من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسى واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها فى انحاء القطر المصرى ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين وامتد لهيبها من اقصى البلاد الى اقصاها ، ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية فى خلال المائة سنة الاخيرة لما وجدت لهذه المقاومة شبها سوى الحركة العامة التى ظهرت سنة ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب العالمية

قلنا ان الحملة الفرنسية قد هزت اعصاب الامة المصرية فأخذت تنفض عنها غبار الجمود الذى كان يخيم عليها من ركود العصور ، وان هذه الحملة قد استثارت روح القومية واهتاجت شعور المقاومة الاهلية فى نفوس المصريين ، فبدأوا يشعرون ان لبلادهم مركزا ممتازا فى العالم وان لهم كيانا يدعوهم للمحافظة عليه ، لم يكن هذا الشعور مصبوغا بالصبغة العلمية المهذبة التى نفهمها اليوم وذلك لما كانت عليه البلاد من التأخر فى العلوم والافكار ، لكن شعوراً طبيعياً قد طاف بالنفوس واستفزها للدفاع عن كيان البلاد ، فكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقاومة فى البلاد كلها من الاسكندرية الى اسوان ، وقد افردنا هذا الفصل والفصول التى تليه لسرد حوادث المقاومة فى البلاد التى مر بها الجيش الفرنسى وما لقيه الاهالى من ضروب العنت والارهاق ، وما أصابهم فى سبيل المقاومة من الشدائد والاهوال ، وسنفصل ذلك متتبعين من جهةٍ سير الحملة ومن جهة أخرى حوادث كل مدينة وكل مديرية من مديريات القطر المصرى بقدر المستطاع ، ليكون تحت نظر القارىء صورة مفصلة لحوادث المقاومة الاهلية فى ذلك العصر ، ولنبدأ بالاسكندرية وهى أول بلد نزل به الجيش الفرنسى

# في الاسكندرية

يحسن بنا قبل أن نذكر دفاع أهل الاسكندرية عن مدينتهم أن نمهّد بكلمة عن حالتها عند مجيء الحملة الفرنسية لنتمثلها كما كانت فى ذلك الحين

## الاسكندرية عند مجيء الحملة

كانت الاسكندرية مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثمانية الاف نسمة ، عمرانها متهدم ، و بيوتها اشبه بمبانى القرى ، وشوارعها ضيقة كثيرة التعاريج ، ومعظم سكانها فقراء ، فالفرق كبير جدا بين حالتها فى ذلك العصر وما صارت اليه الآن من العظمة والثراء والاتساع والجمال ، أو ما كانت عليه قديما فى عهد البطالسة إذ كانت عروس المدائن ومركز تجارة العالم يسكنها نحو ستمائة الف نسمة ، ففقدت على مرّ العصور ما كان لها من الجلال والعظمة ، وما كان بها من عمران و حضارة ، وتجارة وصناعة ، وعلوم وفنون

ومع انتقاض معالم الحضارة فيها فقد احتفظت بمكانتها الى القرن الخامس عشر من الميلاد ، ثم أخذت تفقد مكانتها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند ( سنة ١٤٩٧ ) فقد تحول الشطر الاكبر من تجارة الهند الى طريق المحيط الاطلنطى وحرمت مصر مرور تجارة الشرق ، و بعد أن كانت الاسكندرية مستودع المتاجر وطريقها بين الشرق والغرب اقتصرت تجارتها على واردات افريقية وجزيرة العرب وثغور السلطنة العثمانية والنذر اليسير من واردات الهند ، فأخذت تنزل عن مكانتها التجارية ، وأمعنت فى التأخر والاضمحلال من عهد الفتح العثمانى (سنة ١٥١٧) الى آخر القرن الثامن عشر حيث لم يكن باقيا من الاسكندرية القديمة سوى الاسم والاطلال الدارسة ، درست معالم تلك المدينة العظيمة وتحولت الى بلدة صغيرة تقع شمال المدينة القديمة وتنحصر فى شبه الجزيرة التى بين الميناء الشرقية والميناء الغربية المعروفة بالقديمة

كانت الميناء الشرقية تعرف وقتئذ بمرسى السلسلة ، وهذه الميناء واقعة كما هى الآن شرق المدينة ولا تصلح لمرسى السفن اثناء اضطراب البحر ، وعلى شاطىء هـذه الميناء كان يوجد الجمرك ودور القناصل ، وكانت السفن الافرنجية لا ترسو الا بها ، وفى النهاية القصوى من لسان الارض الواقى لهذه الميناء توجد القلعة المعروفة بطابية « قايتباى » التى بناها السلطان الملك الاشرف ابو النصر قايتباى فى القرن الخامس عشر ، ويسميها الفرنسيون قلعة المنارة ، سموها كذلك لانها انشئت فى المكان الذى كان به منارة الاسكندرية القديمة المعدودة أحدى عجائب الدنيا السبع ، وعلى مدخل الميناء الشرقية من الجهة المقابلة لطابية قايتباى يوجد برج السلسلة القائم اثره الى اليوم ، وكان فى داخل الميناء طابية ( قلعة ) أخرى صغيرة على الساحل ترى مكانها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

أما الميناء الغربية أو المرفأ الكبير فهى الواقعة الى الغرب بين شبه جزيرة راس التين والبر ، وفى طرف رأس التين غربا كان يوجد بطارية من المدافع لحماية الميناء ، وفى داخل الميناء برج آخر ترى موقعه على الخريطة ، وكانت هـذه الميناء تصلح لمرسى السفن ، لكن المداخل المؤدية لها كان يتعذر مرور السفن الكبير منها ، ولم يجر اصلاحها الا فى عهد محمد على واسماعيل ، ومع أن الميناء الغربية أصلح لمرسى السفن التجارية من الميناء الشرقية ، الا أن السفن الاوروبية كان محظوراً عليها الرسو الا فى الميناء الشرقية بأمر حكومة المماليك ، وبالميناء الغربية توجد الترسانة ومخازن البحرية التى كانت على درجة كبيرة من التأخر والاهمال ، وفي النهاية القصوى للشاطىء خارج الميناء يوجد اللسان المعروف بجهة العجمى والمسافة بينه و بين رأس التين ٨٣٠٠ متر على خط مستقيم ، وتجاه هذا اللسان الجزيرة المعروفة بجزيرة العجمى وكان بها برج يسميه الفرنسيون برج المرابط Marabout ، واسمه الصحيح برج العجمى .

ويسمى الفرنسيون جزيرة العجمى (جزيرة المرابط )، وهذا الاسم وارد بالفرنسية والعربية هكذا في خريطة الاسكندرية التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، وهـذه

التسمية فيما نعلم لا أصل لها اللهم الا أن تكون وصفاً لا اسما[١]، والاسم الصحيح هو جزيرة العجمى وبرج العجمى، ويقول المسيو فيفان دينون الذي جاء الى مصر مع الحملة الفرنسية[٢] أن هذه التسمية ترجع الى اسم المسجد الذى كان بالجزيرة ، والصحيح أن هذا المسجد معروف باسم مسجد الشيخ العجمى ، لا باسم المرابط ، و يقول الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه ( مصر بعد واقعة عين شمس ) ان القلعة التي أنشأها الفرنسيون فى جزيرة ( المرابط) أقاموها حول مسجد قديم في جزيرة منفصلة عن اليابسة ، وقد رسم رينيه هذه الجزيرة فى خريطته ، وهى جزيرة العجمى بعينها ، ويقول ان القلعة قد تخربت أثناء القتال الذى دار بين الانجليز والفرنسيين فى أغسطس سنة ١٨٠١ وانتهى بتسليمها ، والمعروف أن محمد على الكبير قد أعاد بناءها ولا تزال آثار القلعة التي بناها باقية الى الآن بالجزيرة ، كما لا يزال مسجد العجمى مزاراً للناس الى وقتنا هذا ، وقال لنا كبار السن في جزيرة العجمى ان هذا المسجد معروف بهذا الاسم وموجود قبل عهد محمد علي باشا وقبل الحملة الفرنسية

حدود عمران المدينة

أما عمران الاسكندرية في أواخر القرن الثامن عشر فكان منحصراً بين الميناءين كما تراه في الخريطة ، وحدود هذا العمران ينتهي شمالا في مقابلة شبه جزيرة رأس التين ، فكانت جميع الجهات الواقعة بين البحر شمالا وشارع أبي ورده الى جامع أبي العباس بعضها مدافن و بعضها تقع ، ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت الصيادين بالجهة المعروفة بالسيالة ، وكان حد المدينة من الجهة القبلية الحارة المعروفة الآن بحارة المغاربة قريبا من ميدان محمد علي

ويكفيك لتحكم على تناقص عمران المدينة في ذلك العصر أن تعرف موضع عمود السواري فانه كان يبعد عن المدينة بنحو الف وخمسمائة متر جنوبا

وكان للاسكندرية سور طوله الدائري ٧٨٩٣ متراً ، يتخلله مائة برج ، و بعض

(١) كلمة مرابط كثيرة الذيوع عند المغاربة وتطلق على الاولياء الصالحين والشيوخ المجاهدين (٢) فى كتابه ( رحلة فى الوجه البحري ومصر العليا )

هذه الابراج غاية في الفخامة والمناعة لافرق بينها و بين القلاع الحصينة ، وهذا السور مشيد على الراجح في عهد احمد بن طولون ، وجدد بناءه السلطان صلاح الدين الايوبي ثم السلطان الظاهر بيبرس (١) ويسميه الافرنج سور العرب ، وهو الذي امتنع به الاسكندريون عند هجوم الجيش الفرنسى على المدينة ، ويبين هذا السور حدود عمرانها في عهد الدول الطولونية والايوبية والبحرية والبرجية ، وهو يحد من العمران نصف ما كان يحده سور البطالسة القديم

خطط العالم المصري محمود باشا الفلكى معالم سور البطالسة القديم ، ومن المقارنة بينه وبين معالم سور العرب يتبين ان عمران الاسكندرية وان كان قد تناقص بعد انقراض عهد البطالسة الا أن المدينة ظلت عامرة الى القرن الخامس عشر ، وقد أخذ عمرانها يتقلص في بدء القرن السادس عشر ، وصار سور المدينة فى عهد البكوات المماليك لا يحيط الا بفضاء عظيم من الخرائب قد خلا من المساكن فيسير الانسان فيه عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الاطلال الدارسة ، ولم يبق به إلا صهاريج المياه وأربعة كفور يسكنها خدام البساتين التى بداخل السور وحراس القلاع والابراج ، وكان معظم هذه الابراج متخربا ، وفي السور ثغرات وفتحات سببها الاهمال وسوء الادارة

رسالة محمود باشا الفلكى عن الاسكندرية القديمة

ولمناسبة الكلام عن خريطة محمود باشا الفلكى نقول أنه اول عالم عصرى كشف عن موقع سور الاسكندرية القديم وآثارها ، وله فى ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر وما وصل اليه من كشف معالمها القديمة كاسوارها وشوارعها واقنيتها ومراسحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وضواحيها ، ولم يسبقه الى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى

---

(١) المقريزى الجزء الاول

من الافرنج ، لان مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الاسكندرية ، أولها المسيو سان جنيس Saint Genis احد مهندسى الحملة وله فى الاسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من تخطيط مصر ، ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الارض كما فعل محمود باشا الفلكى بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وأرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبير Gratin Le Père بحثا فى وصف الاسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الافرنج والعرب ، وللمسيو نورى Norry وللمسيو مارتان « Martin » وكلاهما من مهندسى الحملة الفرنسية بحثان اقل أهمية من ابحاث سان جنيس وجراتيان لوبير منشوران فى الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب

فمحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الاسكندرية القديمة على ما كشفت له اعمال الحفر تحت الارض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهودا كبيرة وكان تحت امرته جماعة من المهندسين المصريين ونحو مائتى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استثار الارض فى عهد الخديوى اسماعيل باشا أى قبل أن تغطى بالمبانى الحديثة وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطا مبنيا على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون عن الاسكندرية القديمة ، واليها يرجع علماء اوروبا فى أبحاثهم

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم، فعين لمدينة كانوب مكانا غير الذي عينوه وكشف أطلال مدينة تابوزيريس[١] التى يسمي الفرنسيون برجها برج العرب

---

(١) بوصير غرب الاسكندرية

## حالة المدينة من الوجهة الحربية

وصف الكاتب الفرنسي « ڤولني » Volney حالة الاسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها عام رحلته اليها سنة ١٧٨٣ أى قبل الحملة الفرنسية بخمس عشرة سنة، فقال انها من الوجهة الحربية لا قيمة لها ولا يوجد بها قلعة ذات شأن أو خطر، أما قلعة المنارة ( طابيــة قايتباى ) بأبراجها العالية فانها لا تصلح للدفاع اذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للضرب، وليس فيها رماة يحسنون الرمي بالقنابل، وحاميتها المؤلفة من خمسمائة من الانكشارية هبط عددهم الى النصف، وان فرقاطة واحدة لتكفى لهدم المدينة [١] .

وقد زارها الرحالة الفرنسى المسيو سافارى Savary سنه ١٧٧٧ فقــال ان قلعة المنارة لاتقوى على صد بارجة واحدة [٢] ، وكتب المسيو مور Mure قنصــل فرنسا فى تقريره [٣] الذي قدمه سنة ١٧٨٣ الى الحـكومة الفرنسية يرغبها فى الحملة على مصر « ان مرافيء الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعيه والذخائر، وليس بها من الجنود سوى الاهلين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثماني، أما قلعة المنــارة فهي في ظاهرها فخمة لـكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعيه، والمدافع البــاقية بها لا تصلح للضرب، ولا تستعمل إلا في أيام الاعياد »

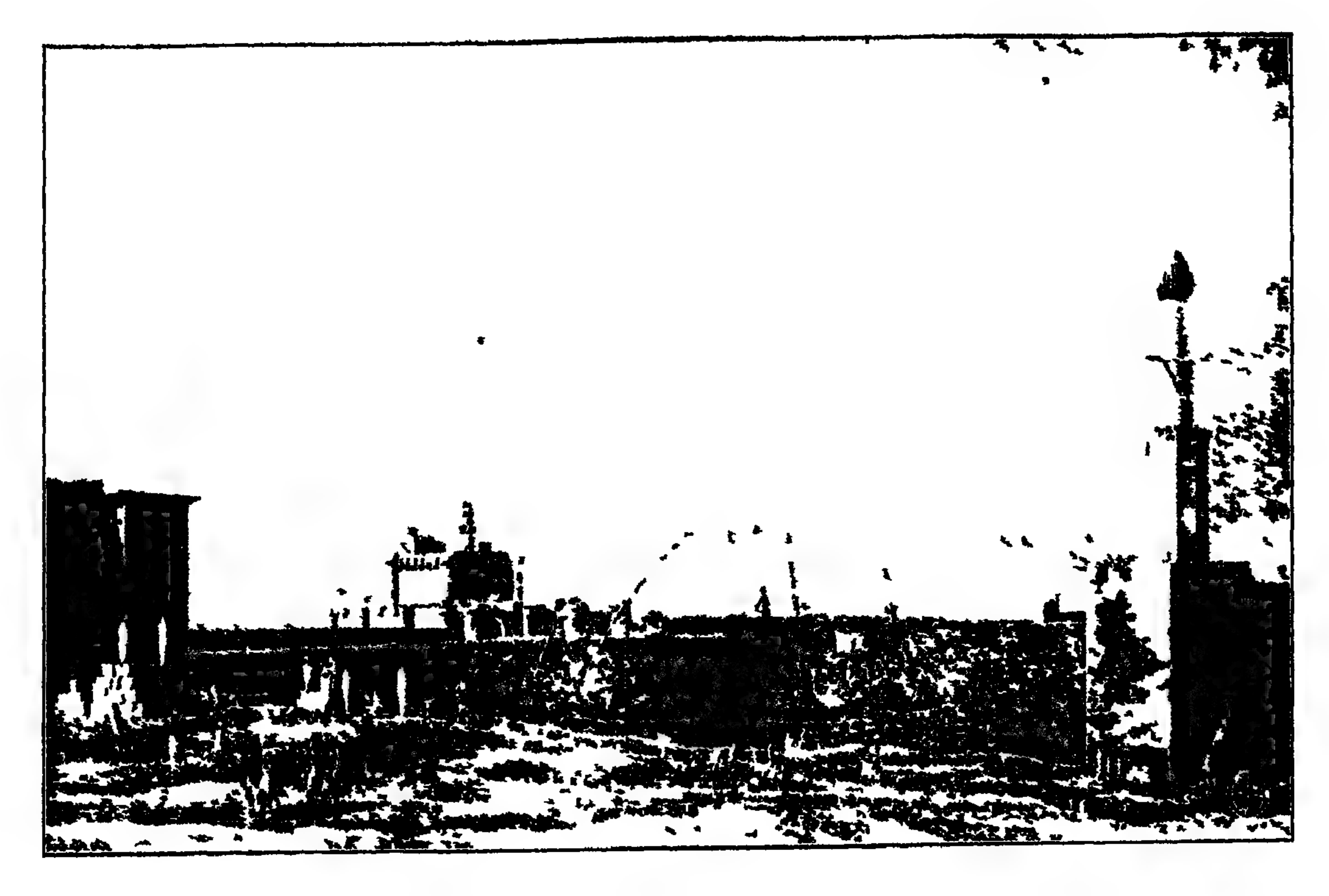
ففى هده الاقوال صورة صحيحة لما آلت اليه حالة الدفاع عن الاسكندرية من الضعف والاهمال في عهد الولاة الاتراك والبكوات المماليك، ويفهم من كلام المسيو مور أن حاميه الاسكندرية كانت مؤلفة من الاهلين دون سواهم، وبهذا نفسر قول فولنى ان حامية قلعة قايتباي كانت خمسمائة من « الانكشارية » فان هؤلاء

---

(١) رحلة في مصر وسوريا بقلم فولنى Volney

(٢) رسائل عن مصر بقلم المسيوسافارى

(٣) أشرنا الى تقريره ص ٧٢



الاسكندرية — الميناء الشرقية سنة ١٧٩٨ ، وترى فى الصورة طابية ( قلعة ) قايتباي بحالتها القديمة والمدافن التي كانت على الشاطىء في ذلك العهد ( ص١٦٤ و١٦٥ )

« الانكشارية » كانوا اذن من الأهالى لا من الأتراك ، وهذا يؤيد ما ذكرناه فى الفصل الأول من أن المصريين انتظموا فى سلك الوجاقات ( الفرق العسكرية ) التى تألفت فى عهد الحكم العثمانى و بذلك اكتسبت الصبغة المحلية القومية

## ترعة الاسكندرية

تردد اسم ترعة الاسكندرية كثيراً فى الوقائع التى حدثت بالاسكندرية والبحيرة ، لذلك يجدر بنا أن نكتب كلمة عنها

كانت الاسكندرية تأخذ ماءها من ترعة تنبثق من الرحمانية الواقعة على النيل وتسير مغربة شمال دمنهور ثم تنثنى شمالا بغرب وتمر بين بحيرة مريوط و بحيرة ( أبوقير ) الى أن تبلغ الاسكندرية ، وكانت هذه الترعة تسمى ( خليج الاسكندرية ) اتباعا لتسمية الترع فى ذلك العصر وما قبله بالخلجان ، وفى مكانها أنشئت ترعة المحمودية فى عهد محمد على الكبير مع اختلاف فى المأخذ والمصب [1] ، وترعة الاسكندرية كانت موجودة فى عهد الفراعنة كما ذكر ذلك استرابون [2] Strabon مع اختلاف فى التخطيط، وعنى بها البطالسة لأهميتها التجارية للأسكندرية لأنها كانت طريق الملاحة بينها و بين النيل ، ونقل المقريزى فى خططه ان أحمد بن طولون أمر بحفرها سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٢—٨٧٣ ميلادية ) وان السلطان الظاهر بيبرس جدد حفرها سنة ٦٦٢ هجرية ، وذكر أيضاً أنه فى سنة ٧١٠ هـ ( ١٣١٠ م ) جدد حفرها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون واشتغل ٤٠٫٠٠٠ عامل فى حفرها وتطهيرها وأقيمت عليها القناطر والسدود وجرت فيها السفن طول السنة واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصهاريج وعمرت أراض و بلاد كثيرة على جانبيها [3]

---

(١) تأخذ ترعة المحمودية مياهها من النيل عند العطف

(٢) العالم الجغرافى اليونانى الشهير ولد سنة ٦٠ قبل الميلاد

(٣) المقريزى الجزء الاول

كانت ترعة الاسكندرية أعظم ترع مصر، وقد أهمل شأنها فى عصر الولاة الاتراك والبكوات المماليك حتى جفت وارتفع قاعها عن ضعف عمقها الأصلى، فكان لا يدخلها الماء فى معظم السنين الا فى وقت زيادة النيل ثم تجف باقى السنة، وفى مدة زيادة النيل أى فى شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها الى الاسكندرية فيملأ أهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة، وكان أهل الاسكندرية يحتفلون بمجيء مياه الترعة وخزن الماء فى الصهاريج ويبتهجون لذلك ابتهاجا عظيما كما يبتهج سكان القاهرة بمهرجان وفاء النيل (١) وبطلت الملاحة فيها بعد ان كانت طريق المواصلات النيلية إلى الثغر، فانعزلت الاسكندرية عن القاهرة وداخلية البلاد وانحطت منزلتها التجارية القديمة، على انها ظلت ميناء القطر المصرى التجارية فى البحر الأبيض المتوسط لا ينافسها فى هذا المركز إلا دمياط، فكانت متاجر أوروبا ترد اليها وحاصلات مصر تصدر منها، وظلت مقصد السفن الاوروبية بسبب صلاح مينائها لايواء السفن فكانت السفن تصل اليها قادمة من ثغور البندقية وليفورن وراجوز ومارسليا وثغور السلطنة العثمانية ثم تنقل المتاجر منها الى رشيد بحراً فى المراكب المصرية المعدة للملاحة بالنيل، أما السفن الاوروبية فلم تكن ترسو برشيد رأساً لصعوبة اجتياز البوغاز

## عدد سكان الاسكندرية

تناقص عدد سكان الاسكندرية الى درجة عجيبة من القلة، فان المسيو جومار Jomard (٢) قدرهم فى ذلك العصر بخمسة عشر ألفاً، ولكن المسيو جراتيان لوبير يقدرهم بثمانية آلاف، ويلوح لنا ان تقدير جراتيان لوبير أدنى الى الحقيقة، لأن

---

(١) ذكر المسيو سان جنيس S. Genis أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى البحث المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ان عدد هذه الصهاريج فى عهد الحملة كان ٣٠٨ وانها كانت تسع من المياه ما يكفى المدينة مدة ثمانية عشر شهراً، وذكر محمود باشا الفلكى فى رسالته عن الاسكندرية ان صهاريجها بلغت ٧٠٠ فى عهد اسماعيل باشا

(٢) راجع ما كتبناه عنه ص ١٢٦

جومار قدر عدد سكان الاسكندرية ضمن تقديره مدن القطر المصري ، أما جراتيان لو بير فقد توفر على درس حالة الاسكندرية درساً خاصاً وأقام فيها طويلا زمن الحملة الفرنسية وخطط مواقعها وآثارها ، وله فيها رسالة مطولة نشرت فى كتاب تخطيط مصر [١]، فتقديره فيما نعتقد أدعى الى الثقة به ، أضف الى ذلك ان المسيو سافارى Savary الذى زار الاسكندرية سنة ١٧٧٧ قبل الحملة الفرنسية بعشرين سنة أحصى عدد سكانها بستة آلاف نسمة [٢]، فالامر قريب من قريب كما ترى ، ومما يدل على دقة لو بير فى الاحصاء قوله ان عدد سكان الاسكندرية قد نقص فى عهد الحملة الفرنسية فنزل الى سبعة آلاف ، فهذه الملاحظة قوية الدلالة على انه لا يتحيز فى ايراد الحقائق ، ويظهر ان السبب فى هذا النقص يرجع الى اضطراب الاحوال فى الاسكندرية عقب الاحتلال الفرنسى وكثرة مافرضه الفرنسيون من الغرامات والمصادرات والى الحصر البحرى الذى ضربه الانجليز عليها ثم ركود حركة التجارة وظهور الوباء فيها وحصار الانجليز والاتراك لها براً وبحراً ، فبكل ذلك نقصوا وقلوا ، ولا زيادة على فقر أو موت أو هجرة ، فكيف بها كلها ؟

## حضور الاميرال نلسن الى الاسكندرية

### ثم اقلاعه

كانت الاسكندرية أول مدينة قصدتها الحملة الفرنسية ، وهي كذلك أول من علم باقتراب العمارة الفرنسية قبل أن تصل الى الثغر ، ذلك انه بالرغم من تكتم نابليون وجهة العمارة فقد تسربت أخبارها الى البلاد ولا سيما بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على مالطه [٣] فى طريقهم الى مصر ، فطارت اشاعة عزم الفرنسيين على

---

(١) الجزء الثامن عشر

(٢) رسائل عن مصر

(٣) بعد أن رست العمارة الفرنسية في مالطه ذاعت الاشاعات ان وجهة

احتلال البلاد، وعم السخط والهياج طبقات الشعب واستعد الناس المقاومة، وبينما هم كذلك حضر أسطول الاميرال نلسن الى مياه الاسكندرية يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ يفتش عن العمارة الفرنسية، لكنه لم يلتق بها لانها تأخرت فى طريقها بسبب احتلال مالطه، فأرسل الى حاكم الاسكندرية الوطنى السيد محمد كريم ينبهه الى احتمال حضور العمارة الفرنسية، وسأله أن يأذن له فى دخول الثغر ليمتار منه، لكن الحاكم رفض طلبه، ولعل السبب فى الرفض انه أساء الظن فى مقاصد الاميرال نلسن لان الاشاعات التى كان الناس يخوضون فيها ذلك الحين تنبىء أن « الافرنج » يعتزمون احتلال مصر، وكلمة افرنج كانت تتناول الفرنسيين والاوروبيين على السواء، ومع أن الاشاعات ذاعت بأن الحملة المنتظرة حملة فرنسية الا ان حاكم المدينة توجس خيفة لما رأى أسطولا كبيراً يقترب من الشاطىء، وكان لايعلم شيئاً عن الحالة السياسية فى أوروبا، فخشى أن يكون طلب الاميرال نلسن خدعة لها صلة بالحملة المقبلة فرفض، وظل الاميرال نلسن ينتظر بأسطوله أربعا وعشرين ساعة ثم أقلعت بوارجه يوم ٢٩ يونيه متجهة الى شواطىء الاناضول

واليك ما كتبه الجبرتى عن حضور الاسطول الانجليزي :

« وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الاسكندرية ومضمونها أنه فى يوم الخميس حضر الى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانجليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً، فانتظر أهل الثغر مايريدون واذا بقايق (مركب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة انفار فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد، والرئيس اذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرام والنقض السيد محمد كريم، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فاخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لانهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولاندرى أين

---

الحملة مصر فنقل قباطين بعض السفن التجارية هذه الاشاعات الى الثغور المصرية قبل مجيىء العمارة الفرنسية

قصدهم ، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هـذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن فقالت رسل الانجليز نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر لانحتاج منكم الا الامداد بالماء والزاد بثمنه ، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا ، فعندها عادت رسل الانجليز وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية وليقضى الله أمراً كان مفعولا » (١)

فى ذلك الحين كانت العمارة الفرنسية تمخر العباب قادمة الى سواحل مصر ، وهكذا شاءت الاقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الاميرال نلسن ، فاقتربت العمارة من مياه الاسكندرية يوم ٣٠ يونيه ، وعندئذ أمر نابليون بأن تنفصل عن العمارة السفينة ( جونون ) Junon التى كانت فى طليعة الاسطول لتصل الى الثغر وتلتقى بقنصل فرنسا (٢) وتنبىء الفرنسيين فى الاسكندرية بوصول الحملة ، وظلت العمارة فى عرض البحر دون أن تصل الى الشاطىء ، وفى اليوم التالى ( أول يوليه ) عادت السفينة جونون تحمل قنصل فرنسا بالاسكندرية (٣) فانبأ نابليون بحالة الهياج الذى عم الاهالى من يوم أن علموا باقتراب الحملة ، وأن الفرنسيين الذين فى الثغر أصبحوا كالرهائن وأن كثيراً من سكان المدينة مسلحون يستعدون للدفاع وأنهم قد استنجدوا

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) هو مجالون الصغير ابن أخ المسيو شارل مجالون القنصل العام الذي كان فى فرنسا وجاء مع الحملة

(٣) يقول الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في كتابه أن شواطىء مصر ظهرت في الافق يوم ١٢ مسيدور ( ٣٠ يونيه ) صباحا حيث كانت العمارة الفرنسية تجاه برج العرب ( بوصير ) التى تبعد عن الاسكندرية غربا نحو ٣٦ كيلو مترا وأن نابليون أرسل يستدعى قنصل فرنسا في الثغر فوصل يوم ١٣ مسيدور ( أول يوليه ) الى بارجة الاميرال

بمن حولهم من الاهالى والعرب المجاورين للثغر ، وأخبره كذلك بقدوم أسطول الاميرال نلسن واقلاعه

## الحالة النفسية للشعب
### عند مجيء العمارة الفرنسية

اذا أردت أن تعرف نفسية الاهالى قبيل وصول العمارة الفرنسية الى الاسكندرية فتأمل فيما كتبه فى هذا الصدد الكاتب الفرنسى فيفان دينون Vivant Denon

كان المسيو فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون على ظهر السفينة (جونون) التى كلف نابليون ربانها بالتقدم الى مياه الاسكندرية لمقابلة قنصل فرنسا فى الثغر ، فسمع حديث القنصل وأثبته فى كتابه (١) واليك ما ذكره فى هذا الصدد قال:

« قدم الينا قنصلنا يصحبه ترجمانه وقد خالطه الرعب بعد أن نجا من القتل ومن هياج الشعب ، وأخبرانا أن أسطولا انجليزيا مؤلفا من أربع عشرة بارجة حربية كان بالثغر ولم يغادره الا عشية أمس الأول وان الانجليز صرحوا بانهم قادمون للتفتيش عنا ومحاربتنا ، وقد ظنهم الاهالى فرنسيين ، فانفجر بركان الهياج فى البلاد كلها لشعورهم باقترابنا ، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لمالطه ، وقد استعدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ويجمعون جيشاً من العرب ، وأن حاكم الاسكندرية (السيد محمد كريم) لم يأذن للقنصل بمقابلتنا الا مصحوباً بجماعة من نوتية الاسكندرية وعهد اليهم ارجاعه الى الثغر (٢) »

---

(١) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت

(٢) ذكر نقولا الترك الذى شهد وقائع الحملة الفرنسية ودونها في كتابه ان السيد محمد كريم كان معارضا فى هذه المقابلة وأن أدريس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالثغر هو الذى أقنع السيد محمد كريم بالتصريح لقنصل فرنسا بمقابلة القادمين

وجاء فى مذكرات الكولونل سلكوسكى أحد ضباط الحملة مايأتى

« وصلت منذ شهرين عن طريق الاستانة أنباء الحملة فأخذ الأمراء ( المماليك ) يستعدون، ولا نعلم الى أي حد بلغ استعدادهم، ولكن الخبر الذى أزعجناهو قدوم الاسطول الانجليزى الى الاسكندرية ومغادرته إياها قبل وصولنا ، وقد انزعجت له البلاد وظنه الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضورهم منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الأهالى يُعِدُّون العدة للمقاومة، فحملوا السلاح وانضم اليهم المغاربة من ضواحى الثغر وتحصنوا بالاسوار بينما كان اربعماية من الفرسان يجوبون الضواحى استعداداً للقتال ، ولم يمكث الانجليز بمياه الاسكندرية إلا يوماً واحداً ثم غادروها متجهين شمالا بشرق ، هذا كل ما استطعنا معرفته ، وعلمنا أنهم اقتصروا على السؤال أمستعدةٌ البلادُ لاستقبال الفرنسيين أم هى مُعِدَّةٌ لهم الحرب والمقاومة ؟ »

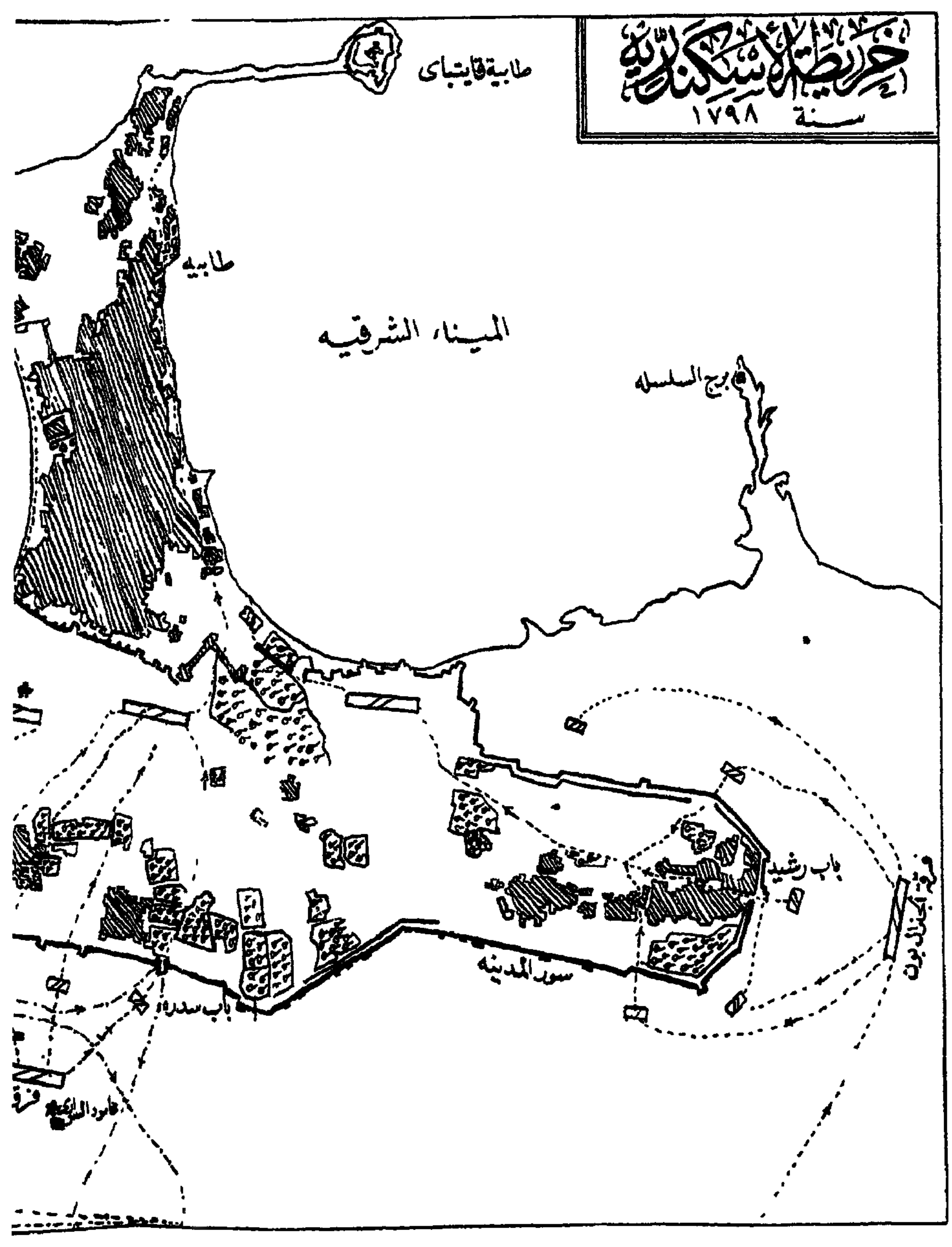
## دفاع أهالى الثغر
### واحتلال الاسكندرية

لما سمع نابليون حديث القنصل خشى عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله فى عرض البحر فأمر بالمبادرة الى إنزال الجنود للبر، واختار لمرسى عمارته ونزول جنوده جهة العجمى(١) التى تبعد عن الاسكندرية غرباً بحوالى عشر كيلومتراً ، و بدأت الجنود تخرج الى البر ليلا ( ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ ) ، ونزل نابليون الساعة الحادية عشرة مساء كما ذكر ذلك فى تقريره الى حكومة الديركتوار ، وظل نزول الجنود متراسلا طول الليل ، وفى نحو الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليه كان عدد الذين نزلوا بالبر نحو خمسة آلاف مقاتل من فرق الجنرالات كليبر Kleber و بون Bon ومنو(٢) Menou ، و بعد

---

(١) بالشاطىء الممتد بين العجمى والدخيلة

(٢) كان الجيش مؤلفاً من خمس فرق وهى فرقة الجنرال كليبر ، وفرقة الجنرال ديزيه ، وفرقة الجنرال بون ، وفرقة الجنرال منو ، وفرقة الجنرال رينيه ، عدا الفرسان الذين كانوا تحت قيادة الجنرال دوماس Dumas ثم الجنرال مورا Murat




خريطة الاسكندرية سنة ١٧٩٨ — وتجد بها بعض المعالم القديمة والحديثة ، كسور الاسكندرية
قايتباى ، وبرج السلسلة ، والخطوط المائلة تمثل حدود عمران المدينة فى أواخر القرن الثامن عشر ( أنظر ص
( منو ) و ( كليبر ) و ( بون ) من قواد الجيش الفرنسي فى هجومهم على السور الذى كان أهالى الاسكندر
بالخريطة موقع فرسان العرب الذين كانوا يناوشون القوات الفرنسية قبل اقترابها من المدينة ثم انسحابهم جنو

مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار اطلاقا من غير إحكام ، فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات ، الجنرال منو من الغرب حذاء الشاطىء ، والجنرال بون من جهة باب رشيد ، والجنرال كليبر من باب سدره واندفعوا الى الأسوار ، فقابلهم الأهالى باطلاق النار اطلاقا شديداً من المدافع والبنادق ، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة ، لكن المدافعة لم تدم طويلا ، فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا الى الجهة المسكونة منها ، وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر فهاجموا الناس فى بيوتهم ، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة قاتلة لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال بوريين Bourienne سكرتيره الخاص فى هذا الصدد : « دخل بونابارت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنباً لجنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من أحد النوافذ ، واستمرا يطلقان الرصاص ، فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة (١) »

وخشى نابليون حدوث المذابح فى المدينة وهو الذى أعلن انه انما جاء لمحاربة المماليك ، فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم واستدعى ادريس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالثغر ، وطلب اليه أن يقنع أهل المدينة بالكف عن القتال و يبلغهم انه انما جاء لمحاربة المماليك (٢) ، فبلغهم القومندان الرسالة وكف الأهالى عن المقاومة مذعنين للقوة القاهرة ، وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة

---

(١) مذكرات بوريين سكرتير نابليون الخاص الجزء الأول

(٢) قبل أن يحتل نابليون الاسكندرية أرسل الى الوالي التركى ( أبو بكر باشا ) والى ادريس بك قومندان السفينة العثمانية رسالتين يعرب فيهما عن مقاصده الودية نحو السلطان ويعلن انه انما جاء لمحاربة المماليك ، وقد نشرنا هاتين الرسالتين فى قسم الوثائق التاريخية

معتصما بطابية قايتباى ومعه فريق من المقاتلة ، الى أن كلت قواه ورأى المقاومة عبثاً لا يجدى فكف عن القتال وسلم القلعة ، فتلقاه نابليون لقاء كريماً وأبقاه حاكما للاسكندرية ، وبذلك سلمت المدينة بقلاعها وأسوارها ومرافئها الى الفرنسيين ، ولم يكن بد من التسليم لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو فى عنفوانه وقوته ، وشرعت السفن الفرنسية فى مساء اليوم الذى احتلت فيه المدينة تنزل بقية جنودها وأحمالها فى الميناء الغربية

كتب الجنرال برتييه(١) فى رسالته الى وزارة الحربية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للاسكندرية فقال : « ان الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت ، وقد أصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته ، فجرح جرحا بليغاً ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، وأصيب الادجودان جنرال اسكال Escale بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى ، وقتل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرون »

وكتب الجنرال منو الى نابليون يقول « ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الاقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الاعداء ( الأهالى ) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم »

وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسى فى مهاجمة الاسكندرية فى رسالته الى حكومة الديركتوار بثلاثين الى اربعين قتيلا وثمانين الى مائة جريح ، وقدرها بعد ذلك فى مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الاسكندريين بين سبعمائة الى ثمانمائة بين قتيل وجريح ، وأمر بدفن قتلى الفرنسيين حول عمود السوارى باحتفال عسكرى كبير ونقشت أسماؤهم على قاعدة العمود

### رواية الجبرتى عن احتلال الاسكندرية

اليك ما ذكره الجبرتى عن رسو العمارة الفرنسية واحتلال الاسكندرية :

---

(١) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية

« فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور ( محرم سنة ١٢١٣ )[(١)] وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأنه فى يوم الاثنين ثامن عشر وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، فارسوا فى البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد ، فلما نزلوا اليهم عوقوهم عندهم ، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب الى جهة العجمى وطلعوا الى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر ومن انضم اليهم من العربان المجتمعة وكاشف (حاكم) البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ، ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر الى التترس فى البيوت والحيطان ، ودخلت الافرنج البلد ، وانبث فيها الكثير من ذلك العدد ، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون ، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون ، فلما أعياهم الحال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الابراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم ، ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد ورفع بنديراته عليها »

## سياسة نابليون

### فى الاسكندرية

كانت الاسكندرية أول مدينـة مصرية نزلها نابليون وواجه فيها المصريين ، فعزم على أن يتبع فيها السياسة التي رسمها من قبل وهى مجاملة الاهـالى ومحاسنتهم واجتذابهم اليه بالكلم الطيب والوعود الحسنة ، لذلك بادر عقب احتلاله الاسكندرية الى دعوة مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته ، فلما اجتمع بهم أعرب لهم عن تمنيه السعادة والرفهية للشعب المصرى وأوضح لهم انه لا يقصد بالاهالى سوءاً وطارحهم الرأي فى

---

(١) ٤ يوليه سنة ١٧٩٨

اصلاح حالة البلاد ، وواثقهم على الاطمئنان على حياتهم وأموالهم وأن لا يحاربوا الجيش الفرنسي وأن يكونوا موالين للجمهورية الفرنسية ، وردّ الى السيد محمد كريم الذي استبسل فى الدفاع عن المدينة سلاحه وقال له فى مجلس من أعيان المدينة : « لقد اخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الاسير ، ولكنك استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد اليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » (١)

حضر المسيو فيفان دينون هذا المجلس وأثبت فى كتابه (٢) أقوال نابليون للسيد محمد كريم ووصفه بقوله « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء ، وكأنما كان يكتم عواطفه عناء على انه بدت عليه علامات التأثر من العفو الذى أسداه اليه القائد العام » وصوره فى مجموعة رسومه

وعقب اجتماع نابليون بأعيان المدينة أذاع منشوره الذي كان أعده من قبل ، وقد بسطنا الكلام عنه فى الفصل الثانى ، وأطلق سراح أسرى مالطه ليوزعوا نسخاً منه في البلاد ، فلم يكن من الاهالي الا أن قابلوا هذا المنشور بالاذعان لا اقتناعاً به ولكن نزولا على حكم القوة ، وأذاع نابليون أمره فى الجند وحذرهم عقابه اذا لم يحترموا الشعائر الدينية للأهالى ونهاهم أن يتعرضوا لهم فى أموالهم وأملاكهم

وقبل أن ترسو العمارة على سواحل الاسكندرية بعدة أيام أمر نابليون باذاعة منشور على الجنود يوصيهم فيه باحترام شعائر المصريين الدينية وعدم التعرض لنسائهم ويحذرهم من الاعتداء على أموالهم و بيوتهم ، وفرض عقوبات شديدة لجرائم النهب والاعتداء (٣) ، و بعد احتلال الاسكندرية أصدر الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب أمراً بتاريخ ٣ يوليه يتضمن تعليمات القائد العام فى هذا الصدد وأهمها « ان القائد العام يريد أن يستمر الاهالى يؤدون شعائرهم الدينية في المساجد كما كانوا

---

(١) و (٢) كتاب رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا

(٣) نشرنا هذا المنشور فى قسم الوثائق التاريخية

من قبل ، ويحظر على الفرنسيين جميعاً من عسكريين وملكيين دخول المساجد أو الاجتماع على أبوابها، وعليكم أن تأمروا ضباط الفرق بأن يتلوا هذا الامر على جنودهم وأن يعيدوا تلاوة أمر القائد العام الخاص بمعاقبة النهب والتعدى على النساء ، وعليكم أن تعدموا رميا بالرصاص كل من يخالف هذه الاوامر ، ومن المهم أن يدفع كل جندى من الجنود ثمن ما يبتاعه فى المدينة وأن يحافظوا على أموال الاهالى وكرامتهم وعلينا أن نكتسب صداقتهم وأن لا نعادى سوى المماليك »

كانت نتيجة مقابلة نابليون لزعماء الاهالى أن كتبت فى يوم ٤ يوليه وثيقة بالعهود التي أخذها الفريقان كلاهما على الآخر ، واليك نص الوثيقة :

« هذا ما تم الاتفاق عليه بين أعيان الاسكندرية الموقعين بأسمائهم و بين رئيس الامة الفرنسية والقائد العام للجيش المعسكر بالمدينة

« يستمر الاعيان على العمل بقوانينهم والقيام بشعائرهم الدينية وفض المنازعات بينهم مع مراعاة العدل والابتعاد عن مسالك الهوى ، ولهم أن يختاروا القاضي الذي يتولى القضاء في محكمة الشرع من خيار العلماء المشهود لهم بالاستقامة والتقوى ، وعليه أن لا يقضى فى أمر الا بعد الرجوع الى رأي مجلس العلماء

« ويجتهد الموقعون على هذا فى اقامة العدل و يبذلون ما فى وسعهم لتحقيق هذا الغرض، وسيعملون جهودهم لما فيه صالح البلاد وتوفير أسباب السعادة للاهالى ومحاربة الاشرار والمفسدين ، ويتعهدون كذلك أن لا يخونوا الجيش الفرنسى وأن لا يعملوا عملا يضر مصالحه وأن لا يشتركوا فى مؤامرة تدبر ضده ، وتعهد لهم القائد العام من جهته بأن يمنع كل جندى من جنوده من التعدى على أهالى الاسكندرية، ويعلن ان من يرتكب من الجنود عدواناً أو ظلماً ينكل به ويعاقب بأشد أنواع العقوبة ، ويتعهد القائد العام علناً بأن لا يجبر أياً من الاهالى على تغيير دينه وتغيير شعائره الدينية فإن مقصده هو اقرار الاهالى فى دينهم واطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم وسيبذل فى هذا السبيل كل ما لديه من قوة ما داموا لا يقصدون به ولا بجيشه سوءاً »

هذا الاتفاق مؤرخ ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ (الموافق ٤ يوليه سنة ١٧٩٨ ) وموقع عليه بالاسماء الآتية :

« ابراهيم البرجى مفتى الحنفية ، سليمان الكلاف مفتى المالكية، محمد المسيرى، احمد عبد الله الشافعى ، حسن كانيد، عباس القويضى ، مصطفى محمد »

لم نجد لهذا الاتفاق ذكراً فى تاريخ الجبرتى ولا فى أي مرجع آخر من المراجع العربية ولذلك ترجمناه عن الاصل الفرنسي الوارد فى لاجونكيير (١) وقد أورد الجبرتى مقابلة نابليون لاعيان الاسكندرية ولم يذكر فيها الا طلبه جمع السلاح وتعليق الشارة الفرنسية المثلثة الالوان (الكوكارد) على صدورهم واليك ما قاله الجبرتى

« وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه فألزمهم بجمع السلاح واحضاره اليه وان يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم ، « والجوكار » ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك مستديرة فى قدر الريال سوداء وحمراء و بيضاء توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيطة بعضها ببعض » ولم نجد فى الجبرتى ذكراً ولا بطريق الاشارة لأحد من الموقعين على هذا الاتفاق سوى الشيخ محمد المسيرى فقد ذكره في عرض الكلام عن ولاية على باشا الطرابلسى فأثنى عليه ووصفه بالعلم وقال عنه انه « أجل مذكور فى الثغر »

## أوامر نابليون وتعلياته قبل مغادرته الاسكندرية

قبل ان يزحف نابليون بجيشه على القاهرة عين الجنرال كليبر قومندانا وحاكما لدائرة الاسكندرية وضواحيها ، والجنرال مانسكور Manscourt قومندانا للموقع ،

---

(١) حملة مصر الجزء الثانى، وهذا الكتاب مطبوع سنة ١٨٩٩،وقد رجعنا الى كتاب المسيو تيبودو Thibaudeau المطبوع سنة ١٨٢٨ فوجدنا به هذه الوثيقة مع زيادة بعض العبارات التي أضفناها في الترجمة ومع اختلاف بسيط في أسماء الموقعين عليها فان تيبودو لم يذكر سوى أسماء ابراهيم البرجى مفتى الحنفية ، ومحمد المسيرى، واحمد (ولعله احمدعبدالله الشافعى)، وسليمان الكلاف مفتى المالكية

والقبطان لبلاى Le Pelley قومندانا للميناء ، وعهد الى الكولونل كريتان Cretin تحصين ثغر الاسكندرية وترميم قلاعه القديمة وانشاء قلاع جديدة لجعلها بمأمن من البوارج الانجليزية

ويعدّ الجنرال كليبر من أكفأ قواد الحملة الفرنسية وكان قائد فرقة من الفرق المعدة للزحف على القاهرة ، لكن الجراح التى أصابته يوم احتلال الاسكندرية حالت دون اشتراكه فى الزحف ، فأبقاه نابليون بالاسكندرية الى أن يشفى من جراحه ، ووكل اليه شؤون الدفاع عنها والاشراف على ادارتها وترك بها حامية من الجنود(١) ، وعين فى الوقت نفسه الجنرال منو Menou حاكما لرشيد ، وكانت اصابته كذلك سبباً فى تخلفه عن اللحاق بالجيش الزاحف فى داخلية البلاد ، وقد شاءت الأقدار ان كليبر ومنو قد توليا على التعاقب القيادة العامة للجيش الفرنسى عقب سفر نابليون الى فرنسا كما سيجيء بيانه

ولما أزمع نابليون مغادرة الاسكندرية (يوم ٧ يوليه سنة ١٧٩٨) أوصى الجنرال كليبر أن « يبذل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الأهالى وابداء كل أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ فى المدينة » ومع ذلك فان نابليون قد فرض على المدينة بعد احتلالها غرامة حربية قدرها ١٥٠ الف فرنك ( ستة آلاف جنيه ) وهى غرامة فادحة إذا قيست بما كانت عليه المدينة فى ذلك الحين من الفقر والتأخر الاقتصادى

وقبل أن يغادر الاسكندرية أمر بابقاء السيد محمد كريم حاكما لها وأعرب له عن ارتياحه لمسلكه الذى اتخذه من يوم قدوم الجيش الفرنسى وكتب له الخطاب الآتى يوم مغادرته الاسكندرية :

---

(١) تتألف هذه الحامية من ٦٥٠٠ جندي يضاف اليهم ٣٫٠٠٠ من بحارة السفن التى أقلت الجنود أى ان مجموع الحامية بلغ نحو ٩٫٥٠٠

« الى السيد محمد كريم

« المعسكر العام بالاسكندرية فى ١٩ مسيدور من السنة السادسة ( ٧ يوليه سنة ١٧٩٨ )

« لقد سر القائد العام سروراً تاماً من الخطة التى سلكها السيد محمد كريم منذ قدوم الجيش الفرنسى ، واعراباً عن هذا السرور يعينه فى وظيفة محافظ دائرة الاسكندرية ، وستصل اليه أوامره بواسطة الجنرال كليبر القومندان العام للجهة، وهذا لايمنعه من أن يراسل القائد العام رأسا متى شاء ، وعلى الجنرال كليبر أن يطلب منه كل ما تقتضيه مهام الجيش الفرنسى و بوليس دائرة العرب . بونابارت [1] »

## موقف كليبر فى الاسكندرية

بذل الجنرال كليبر ما فى طوقه واستخدم كفايته وجهده لتوطيد مركز الفرنسيين فى الاسكندرية من الوجهتين العسكرية والادارية، على أنه فشل فى مهمته ، ولم يكن ينظر الى مقامه بالاسكندرية بعين الارتياح لانه كان من القواد الذين يطمحون الى نيل المجد فى ميادين القتال لا بين أسوار المدن ، ولقد كتب الى نابليون يقول [2] انه يعتبر الاسكندرية منفى له ويرجو منه أن ينقذه من منفاه فى عاجل الوقت ، وانه وان كانت جراحه لا تلتئم قبل شهر بيد أن ذلك لا يمنعه من السفر الى القاهرة واللحاق بفرقته

ان مهمة كليبر فى الاسكندريه كانت شاقة لأن حالة الحرب جعلت الاسكندرية فى شبه حصار بحرى شل حركة السفن وعطل التجارة التى هى أكبر مورد لثروة الأهالى ، لذلك أخذ الكساد يضرب فى المدينة وتشتد الفاقة والضيق بالأهالى فيزداد تذمرهم وسخطهم من الاحتلال الفرنسى ، ولقد شكا كليبر غير مرة من هذه الحال الى نابليون وأعرب له عن حيرته فى دفع عطاء الجنود لان موارده

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٨٥

(٢) رسالة كليبر الى نابليون بتاريخ ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨

المالية لا تتسع لمرتباتهم ، وكان الأهالى من ناحيتهم لا ينفكون ينظرون الى الفرنسيين بعين المقت والكراهية ، والجنود من جهتهم لا يكبحون لأنفسهم جماحا ، بل كانوا يقترفون من المنكر والعدوان ما يؤجج نار الكراهية ويثير الحفيظة عليهم فى نفوس الناس ، ذكر كليبر فى رسالته الى نابليون(١) ان بحارة الأسطول قد خربوا ضواحى (أبو قير) فكانوا يغتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه ، وقد لفت كليبر نظر الاميرال « برويس » قومندان الاسطول الى كفهم عن هذا العدوان قائلا له « انكم تقدرون عواقب هذا السلوك فى اثارة روح الكراهية فى نفوس الأهالى فى الوقت الذى نحن محتاجون فيه الى كسب قلوبهم » وكان بعض الجنود فى المدينة يخرج على النظام ويرتكب السرقات ، وبالرغم من حكمة الجنرال كليبر واناته و بذله الجهد فى تحسين علاقة السلطات الفرنسية بالاهالى فان روح السخط كانت كامنة فى جوانحهم ، والواقع أنهم ما رضخوا للحكم الفرنسى الا اذعانا للقوة وكانوا يتحينون الفرص للمقاومة والوثبة ، وقد وقعت حادثة فى يوم ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨ كادت تفضى الى هياج عام لولا ما اتخذه الجنرال كليبر من الحكمة والحزم ، فقد قتل فى هذا اليوم أحد جنود مدفعية الاسطول ولم يعرف قاتله ، ووجدت جثته ملقاة فى الشارع ، وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط فمات غرقا ، حصلت الحادثتان فى وقت واحد ، فترامى الخبر فى المدينة وتحفز الناس للهياج فاتخذ كليبر وسيلة الشدة فى معالجة هذه الحادثة ، فاعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن واستدعى حاكم المدينة الوطنى (السيد محمد كريم) والقاضى الشرعى وكبار الاعيان وطلب منهم البحث عن الجناة ومعاقبتهم طبقا لقوانين البلاد ، وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن اذا لم يعاقب الجانى فى خمسة أيام وتعهد السيد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومحاكمتهم ، لكن البحث لم يؤد الى نتيجة ما ، وتبين أن القاتل واسمه السيد احمد قد نجا بنفسه وأفلت من القصاص فحوكم غيابيا بالمحكمة الشرعية وحكم عليه قاضى الاسكندرية

---

(١) بتاريخ ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨

بالقصاص بمحضر جمع من العلماء وأعيان المدينة وكتب بذلك اعلام شرعي

والظاهر ان الجنرال كليبر قد تحقق من أخباره وأبحاثه ان الجندى القتيل هو الذى استهدف للقتل باعتدائه على الناس ولذلك أصدر عقب الحادثة منشوراً الى الجنود قال فيه : « أيها الجنود انكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث اذا خالفتم أوامر القائد العام ولم تحترموا أملاك الأهالى وعاداتهم ودياناتهم ، وقد رأيت من واجبى حماية للاهالى ومحافظة واطمئنانا عليكم أن أصدر اليكم الأوامر الآتية تفاديا من عواقب الخروج عن حدود الواجبات والنظام

أولا — كل من يدخل من مسكن أحد المسلمين فى مكان النساء يعد محرضاً على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام

ثانياً — كل من يتسلق بيتاً من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لاىّ من الأسباب يعد سارقاً ويحكم عليه بالاعدام

ثالثاً — من يصيد الحمام داخل المدينة باستعمال الآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الأهالى للقتل والخطر كما حدث من قبل يعد قاتلا ويحكم عليه بالاعدام

رابعاً — كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية فى المساجد أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرضاً على الاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام»

## بين الاسكندرية ودمنهور

### هزيمة الجنرال ديموى

وكانت روح الكراهية للفرنسيين تظهر ويعلنها الأهالى كلما وجدوا سبباً أو سنحت فرصة ، فمن ذلك ان الجنرال كليبر أمر بتسيير كتيبة طوافة من الجنود تقوم من الاسكندرية لتجوب بعض جهات مديرية البحيرة فتعرج على دمنهور ثم تنثنى الى رشيد وأبو قير والاسكندرية للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسى بين

المدن والمواقع المهمة ، وكان ذلك بأمر من نابليون الذى اختار الجنرال ديموى Dumuy لقيادة الكتيبة

قامت الكتيبة يوم ١٧ يوليه سنة ١٧٩٨ ، ولم تستطع أن تتزود ما يكفيها من الماء والزاد لأن الأهالى علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة فهربوا الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت الفرقة عنتا ومشقه بعملهم هذا ، قال الجنرال ديموى فى تقريره عن طوافه « على بعد نصف فرسخ من الكريون(١) هاجم الكتيبة عدد كبير من العرب وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا فى السير وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلنى الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للاسكندرية ، وخيل إلىّ أن هناك اتصالا بينهم و بين أهالى الاسكندرية ، تابعت الكتيبة سيرها ووصلت الى دمنهور ، وكنا في خلال هذه المسافة محرومين الماء حرمانا تاما ، وكان من المستحيل علينا ونحن فى الاسكندرية أن نحصل على جمل واحد أو قربة واحدة لحمل الماء على رغم أوامر الجنرال كليبر ، وبلغت بنا الحال انه في يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الاسكندرية ثم عادت إلى الظهور فى شوارع المدينة غداة مسيرنا ، مما يدل على ان هناك تواطؤا بين الأهالى وأصحاب الابل »

لقيت الكتيبة عنتا ومشقة فى طريقها الى دمنهور فقد كان الأهالى لايزالون يذكرون اعتداء الجنود على القرى أثناء زحف الجيش الى القاهرة فكانوا يقابلون الفرقة بما استطاعوا من أنواع المقاومة ، ولما دخلت دمنهور لقيت بها تمرداً شديداً حيث اجتمع من الأهالى نحو ستة آلاف (٢) مُعدّين للقتال وقد غصت بهم الطرق والشوارع وتغطت أسطحة المنازل ، فرأى قائد الكتيبة ان من الخطر الاصطدام مع هذه الجموع ، فأخلى دمنهور بعد ان قتل بعض جنوده وصدت المدافع الفرنسية هجوم

---

(١) من بلاد مركز كفر الدوار

(٢) تقرير الجنرال ديموى المؤرخ ٣ ترميدور (٢١ يوليه سنة ١٧٩٨)

الجموع الثائرة وانسحب الى بركة غطاس وهناك استقى الجنود من الماء وهاجمهم العرب ثانية فاعتزمت الكتيبة ان ترجع الى الاسكندرية وتعدل عن متابعة سيرها الى رشيد وذلك لما عانته من المتاعب والغارات فى طريقها ، رجعت ادراجها الى الاسكندرية مضعضعة منهوكة القوى بعد ان خسرت ثلاثين بين قتيل وشريد ، وأخفقت شر اخفاق فيما قصدت إليه ، وأخذ الأهالى يتعقبونها حتى وصلت الاسكندرية يوم ٢٠ يوليه ، وكانت جموع العرب والأهالى لا تفتأ تحتشد حول أسوار الاسكندرية متشجعة لما حل بفرقة الجنرال ديموى من الخسائر وقتلت بعض الجنود المالطيين بجهة عمود السوارى وجرحت جنديا آخر ، فاضطر الجنرال كليبر الى انشاء مخافر على الاكمات المشرفة على المدينة لمنع توالى الهجمات وحماية السرايا ( الدوريات ) المسلحة التى كانت ترود الضواحى ، وقد فتكت هذه السرايا بقوة من العرب على مقربة من باب رشيد يوم ٢٣ يوليه فقتلت منهم ثلاثة وأربعين رجلا

لم يكن الفرنسيون يتوقعون هذه المقاومة بل كانوا يظنون الأهالى قد أخلدوا واستكانوا ، قال الجنرال ديموى فى تقريره « انى آسف كثيراً لانى لم أجد فى جولتى هذه مصريا واحداً يحمل الشارة الفرنسية ! » واستنتج من حوادث دمنهور ان هناك مخابرات سرية بين الاسكندرية والمدن التى مرت بها الفرقة ولاحظ ان أهالى دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم فكانو معدّين لحربهم ما أعدّوا

## مسألة السيد محمد كريم

### والقبض عليه ومحاكمته

بدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتاب فى نيات السيد كريم حاكم الاسكندرية وتتهمه بخيانته للجمهورية وممالأته عليها واثارته الهياج والعصيان فى نفوس الاهالى ، وكانت عودة كتيبة الجنرال ديموى بالحالة التى وصفناها والخسائر التى لحقتها قد نالت من هيبة الجيش الفرنسى فى الاسكندرية ، فأراد الجنرال كليبر

أن يستعيد هذه الهيبة بعمل ينطوى على البأس والشدة ، فأمر بالقبض على السيد محمد كريم يوم ٢٠ يوليه أى يوم عودة كتيبة ديموى ، وبعث به الى ظهر السفينة « ديبوا » التى كانت بالاسكندرية فاقلته الى ( أبو قير ) حيث كان الاسطول الفرنسى راسياً واعتقل بالبارجة ( أوريان ) سفينة الاميرال برويس

اتهم كليبر السيد محمد كريم بانه كانت له يد فى المقاومة التى لقيتها كتيبة الجنرال ديموى ، وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة لمناسبة وضع سلفة اجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسى ، فعارض السيد كريم فى تقرير هذه السلفة وتلكأ فى الموافقة عليها ومساعدة السلطة الفرنسية فى تحصيلها ، فأسرها كليبر فى نفسه ، ولما عادت كتيبة الجنرال ديموى وتحقق منه مالحق الجنود من الخسائر بسبب توالى هجوم الاهالى عليهم ساءت ظنونه فى السيد محمد كريم وموقفه ، واجتمعت كل هذه العوامل فافضت الى القبض عليه وابعاده عن المدينة

أراد كليبر بابعاد السيد محمد كريم عن الاسكندرية أن يقضى على نفوذه الأدبى بين الاهالى ويضعف أملهم فى عودته ، كتب كليبر الى الاميرال « برويس » قومندان الاسطول الفرنسى بتاريخ ٢٠ يوليه سنة ١٧٩٨ يخبره بنبأ اعتقال السيد محمد كريم ويقول « لقد رأيت أن أعوان هذا الرجل يبقون مابقوا آملين عودته اذا هو ظل قريباً من المدينة ، لذلك رأيت قطعاً لهذا الأمل أن أرسل به اليك لتعتقله على ظهر البارجة ( أوريان ) »(١)

وقد أوصى فى رسالته الاميرال برويس بأن يحسن معاملة السيد محمد كريم فى اعتقاله وأن يأمر اذا شاء بأن تؤدى له التحيه العسكرية الى أن يعرض أمره على القائد العام ويقرر فى شأنه مايراه ، وكتب الى السيد كريم يوم اعتقاله خطاباً قال فيه :

---

(١) ذكر الجبرتى فى كتابه مايشير الى هذه الواقعة فقال :

« فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وضانبوه بالمال وحبسوه فى مركب » فرواية الجبرتى صحيحة تؤيدها المراجع الفرنسية .

« انى لم أقصد من ارسالكم الى بارجة فرنسية إلا أن أمكنكم من أن تلحقوا بالقائد العام ، وعلى ذلك بعثت بكم الى قومندان الاسطول الفرنسى ليسهل لكم الوصول الى القاهرة من طريق النيل ، فاذا وصلتم الى مقابلة القائد العام أمكنكم أن تثبتوا له أنكم تستحقون ما وضعه فيكم من الثقة ، وفى انتظار سفركم أرجو أن تبلغونى ماترغبونه وسآمر بأن لايمنع عنكم كل ما تطلبون » وقد تلقى الاميرال برويس قومندان الاسطول الفرنسى أسيره بالاحترام وأكرم مثواه ، وكتب عنه الى نابليون فى رسالته التى بعث بها اليه بتاريخ ٢٦ يوليه ـ ولعلها آخر رسالة منه قبل كارثة ( أبو قير ) ـ قال « أرسل الى الجنرال كليبر منذ ثلاثة أيام حاكم الاسكندرية الوطنى فأفردت غرفة كبيرة له ولحاشيته وأنزلته نُزُلا كريما ، وأنى أعامله بكل رعاية واحترام معتقداً أنى بذلك أحقق رغباتكم الى أن تصدروا أمركم فى شأنه وتبتوا فى مصيره »

وفى يوم اعتقال السيد محمد كريم جمع الجنرال كليبر أعيان المدينة وأبلغهم خبر القبض عليه للريبة فى اخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب اليهم أن يختاروا حاكما للمدينة بدلا عنه ، فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى ، ووعدوا بمعاونته فى تأديته وظيفته ، وقد كان موقف الحاكم الجديد دقيقا حرجاً لان السيد محمد كريم كان محبوباً محترماً من الاهالى ، وقد زاد فى احترامه اضطهاد السلطة الفرنسية له ، فماذا كان يستطيع خلفه أن يفعله فى وظيفته ؟ كتب الجنرال كليبر الى نابليون رسالة [١] نفهم منها حالة الحاكم الجديد النفسية . قال

« أخبرنى السيد محمد الغريانى قبل أن يقبل وظيفة المحافظ ( الحاكم ) أن أهالى الاسكندرية يختلفون عن سائر أهالى القطر بأنهم أصعب مراساً وأقرب الى القلق والهياج ، وأبدى لى بعض استدراكات وملاحظات تخص ادارة المدينة ، فجبته على ملاحظاته بأن الرجل الذى يتنبأ بمصاعب الوظيفة جدير به أن يعرف كيف يضطلع بها ويتغلب عليها ، وبذلك أقنعته بقبول المنصب »

---

(١) بتاريخ ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ لمناسبة القبض على السيد محمد كريم وتعيين السيد محمد الغريانى بدله

وقد قبل السيد محمد الغرياني وظيفة المحافظ ، وكان الشيخ محمد المسيري كبير علماء المدينة يعاونه فى عمله وكان أول عمل طلبه كليبر منهما أن يساعدا على تحصيل السلفة الاجبارية التي فرضها على تجار المدينة فطلبا منه انقاص هذه السلفة فتنزل منها عن خمسة عشر الف فرنك يحصلها من ايراد الجمارك

عرض الجنرال كليبر فى آخر رسالته أمر السيد محمد كريم على القائد العام ورغب اليه فى أن لا يأمر بعودته الى الاسكندرية خوفا من أن يستفحل أمره ويتضاعف نفوذه فى نفوس الاهالى ، وقد أقر نابليون عمل الجنرال كليبر وأرسل اليه بتاريخ ٣٠ يوليه خطابا من القاهرة جاء فيه « اني لا أوافق على اعتقال كريم وحسب بل أمرت فوق ذلك باعتقال أشخاص آخرين » والواقع انه أصدر فى هذا اليوم منشوراً عسكرياً يعلن استياءه من سلوك أهل الاسكندرية وأمر بأن يطلب من جميع الاهالى على اختلاف أجناسهم تسليم أسلحتهم الى قومندان الموقع ومن يتأخر منهم عن تنفيذ هذا الامر بعد ثمان وأربعين ساعة من نشره فجزاؤه الاعدام ، وأمر بهدم منزل الشخص المتهم بقتل الجندى الفرنسى ، و باعتقال خمسين شخصا يكونون رهائن وحبسهم على ظهر الاسطول الى أن يستوثق من سلوك أهل الاسكندرية (١)

وفى اليوم نفسه أصدر أمرا آخر بفرض ضريبة ثلثماية ألف فرنك على تجار الاسكندرية يحسب منها الثلاثون الف فرنك التى فرضها الجنرال كليبر والباقى يجب استصفاؤه وجمعه فى ٢٤ ساعة من نشر هذا الامر (٢) وأرسل الى الاميرال برويس كتابا فى شأن السيد محمد كريم ينبئه فيه بأنه قد تحقق خيانته ويأمره على ذلك أن يكبله فى الحديد ويسد عليه كل منفذ حتى لا يهرب ، وأن يسجن أتباعه وحاشيته ويرسلهم مخفورين الى الجنرال كليبر بالاسكندرية ، وأرسل الى الجنرال كليبر صورة هذا الكتاب ، وأمره أن يعتقل كل من بقى فى منزل السيد محمد كريم من الحاشية

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٣

وأن يختم على داره وعلى أملاكه ، وقال له فى كتابه انه علم ممن قدموا له الادلة على خيانة كريم ان امواله مطمورة فى بئر بالاسكندرية وان عنده دفترا فيه بيان امواله وأملاكه وان بعض خدمه يعرفون مقادير هذه الاموال وموضعها، وكلفه أن يقرر هؤلاء الخدم منفردا بكل منهم وأن يتهددهم ما شاء ليبوحوا بما لديهم من الاسرار ، واذا دفع السيد كريم فى ثمانية أيام مبلغ ٣٠٠ الف فرنك فيبقى معتقلا على ظهر احدى بوارج الاسطول حتى لا يجد مفرا ويرسل الى فرنسا حين تعرض فرصة قريبة ، واذا لم يدفع بالاقل ثلث المبلغ المفروض عليه فى خمسة أيام فعلى الجنرال كليبر أن يأمر بقتله رميا بالرصاص(١)

على ان رسالة نابليون لم تصل للاميرال برويس ولا الى كليبر لان الرسول الذى كان يحملها وهو الكابتن جوليان Julien قتل فى الطريق

وأرسل الاميرال برويس فى ٣٠ يوليه السيد محمد كريم الى رشيد ليبعث به الجنرال منو من هناك الى القاهرة ، وكان برويس لا يفتأ يعامل السيد كريم بالاحترام حتى انه كتب الى منو كتابا من البارجة ( اوريان ) ينبئه فيه ان السيد كريم ألح عليه فى أن يرسله الى نابليون ويقول « انى لم أستطع أن أرفض رجاءه المتكرر البالغ نهاية التلطف وأرجوكم اذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام » كتب هذه الرسالة إذ كان لم تصله أوامر نابليون

وصل السيد محمد كريم الى رشيد مطلق السراح (٢) ، وكانت منزلته فى نفوس

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٦

وجاء فى يوميات أركان حرب الجنرال كليبر ان الجنرال أمر اللجنه الادارية بجرد أملاك السيد محمد كريم وأمواله فى منزله وفى مخازنه فوجدوها خالية وقد اعتقل كليبر عم السيد محمد كريم وشقيقه ويهوديا كان موضع ثقته واستحضر الاثنين الاخيرين وتهددهما بالاعدام اذا لم يبوحا بموضع أموال السيد كريم

(٢) هذا مستفاد من رسالة منو الى كليبر التى يقول فيها « لقد ألقيت القبض

المصريين قد عظمت بسبب اعتقاله وانتشرت محبته فى كل مكان ، فلم يكد يعلم أهالى رشيد بمقدمه حتى سارعوا الى ملاقاته بالحفاوة والتكريم مما اضطر الجنرال منو الى القبض عليه والاسراع بارساله الى مصر

كتب منو الى نابليون يقول « ان السيد محمد كريم حضر الى رشيد يوم ٣٠ يوليه» فحدثت حركة كبيرة فى المدينة للحفاوة به وتهنئته ، وحيال هذه المظاهرة رأيت القبض عليه وارساله الى القاهرة »

## الحالة فى الاسكندرية

### بعد اعتقال السيد كريم

أخلد الاهالى الى السكينة بعد اعتقال السيد محمد كريم وكفوا عن المظاهرات العدائية التى كانت تبدو منهم ، فكتب الجنرال كليبر الى نابليون يقول ( ٣١ يوليه ) « تسود السكينة مدينة الاسكندرية بعد اعتقال السيد محمد كريم ، ولم تعد تنتشر اشاعات السوء المقلقة للخواطر والمثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل انسان على عمله »

وقد ازداد مركز الفرنسيين توطدا فى الاسكندرية عقب ورود أخبار انتصار نابليون فى معركه الاهرام ودخوله القاهرة ظافرا

وردت هذه الانباء من طريق رشـيد فى رسالة بعث بها الجنرال منو الى كليبر بتاريخ ٢٧ يوليه ، فأثرت هذه الانباء فى روح الاهالى المعنوية وأضعفت فيهم روح التمرد والمقاومة ، وأقام الجنرال كليبر حفلة تكريم كبيرة ابتهاجا بهذا النصر ،على أن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت بعد أن وقعت واقعة « أبو قير » البحرية التى تحطم فيها الاسطول الفرنسى فتغيرت نفسية الشعب تغيرا محسوسا على قدر ما شد منها تضعضع الفرنسيين

---

هنا على السيد محمد كريم الذى أطلق سراحه من البارجة ( أوريان ) وسأبعث به غدا الى القاهرة مخفورا بقوة كافية »

## اعدام السيد كريم

سافر كريم على ظهر سفينة من سفن الجيش أقلعت به من رشيد يوم ٤ أغسطس ، وكان على ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم المسيو بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، والمسيو استيف Esteve مدير الخزانة والموظفون الذين تحت رآستهم يحملون خزانة الجيش الى القاهرة

وصلت السفينة الى القاهرة يوم ١٢ أغسطس مساء ، وظل السيد كريم مسجونا رهناً بالتحقيق ، وكان الجنرال ديبوى Dupuy قومندان (حاكم) القاهرة يتولى أمر التحقيق معه ، فستجوبه فى التهمة الموجهة اليه وهى مراسلته لمراد بك وغيره من المماليك وعرب البحيرة ، وانتهى التحقيق بثبوت التهمة عليه ، وأصدر نابليون أمره فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باعدامه رميا بالرصاص ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له أن يفتدى نفسه بدفع غرامة ثلاثين الف ريال (١) فى أربع وعشرين ساعة ، فلم يقبل السيد محمد كريم أن يدفع هذا المبلغ ، وأظهر جلدا وشجاعة أمام حكم الاعدام ، فقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له « انك رجل غنى فماذا يضيرك ان تفتدى نفسك بهذا المبلغ » فأجابه السيد محمد كريم : « اذا كان مقدوراً عليّ أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن

السيد محمد كُرَيِّم
حاكم الاسكندرية الوطنى
حين مجيء الحملة الفرنسية

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٤٧

أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدراً لى الحياة فعلام أدفعه » [(١)] وظل على اصراره الى ان نفذ عليه الحكم رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ومن غرائب القدر ان السيد محمد كريم غادر البارجة (اوريان) يوم ٣٠ يوليه قبل ان تغرق ويموت من بها فى واقعة « ابو قير » بيومين ، فنجا من الكارثة التى حلت بالاسطول الفرنسى يوم أول اغسطس ، ولكن القدر الذى نجاه من الموت فى « ابو قير » قد أسلمه الى يد الجلاد فى القاهرة ، ولكل أجل كتاب « وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

وقد ذكره الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٣ فقال عنه « مات الوجيه الاجل الامثل السيد محمد كريم السكندرى مقتولا بيد الفرنسيس » وذكر عن منشأه انه كان قبانيا فى الثغر وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة فأحبه الناس واشتهر ذكره فى ثغر الاسكندرية ورشيد ومصر « وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر ونفذت كلمته وأحكامه » أى أنه عينه حاكما للاسكندرية ومديراً للجمارك بها ، وفصل الجبرتى خبر مقتله ، وروايته تختلف عن رواية « بوريين » و « ريبو » التى اعتمدنا عليها والتى نعتقد أنها أرجح من رواية الجبرتى لانها واردة في معظم المراجع الفرنسية ومنقولة عن شهود الواقعة من الفرنسيين ، قال الجبرتى « ولما حضر الفرنسيس ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال ، وضيقوا عليه ، وحبسوه فى مركب ، ولما حضروا الى مصر وطلعوا فى قصر مراد بك وفيه مطالعة بأخبارهم ( أي رسائل السيد كريم عن أخبارهم ) وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين امرهم وتنقيصهم ، فاشتد غيظهم عليه ، فأرسلوا وأحضروه وحبسوه ، فتشفع فيه أرباب ( أعضاء ) الديوان عدة مرار ، فلم يمكن ، الى ان كانت ليلة الخميس فحضر اليه مجلون Magallon وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال وذكر قدرا يعجز عنه ، وأجله اثنتى عشرة ساعة وان لم يحضر ذلك القدر والا يقتل بعد

---

(١) ريبو . التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . الجزء الثالث . وانظر كذلك مذكرات بوريين سكرتير نابليون الجزء الاول

مضيها ، فلما أصبح أرسل الى المشايخ والى السيد احمد المحروقى ( كبير تجار القاهرة ) فحضر اليه بعضهم فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث ، وصار يقول « اشترونى يا مسلمين » وليس بيدهم ما يفتدونه به ، وكل انسان مشغول بنفسه ، ومتوقع لشىء يصيبه ، وذلك فى مبادىء أمرهم ، فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة ، الى أن ذهبوا به الى الرميلة ، وكتفوه وربطوه مشبوحا وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت وطافوا بها فى جهات الرميلة والمنادى يقول « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس »

فالخلاف بين رواية الجبرتى ورواية بوريين وريبو هو فى موقف السيد محمد كريم بعد الحكم بالاعدام، ولو كانت رواية الجبرتى صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا باعدامه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان رواية « بوريين » ترجح رواية الجبرتى لان الجبرتى لم يكن شاهد عيان لواقعة اعدام السيد كريم ، بل يغلب على الظن أنه كان منزوياً فى بيته بالصنادقية فى ذلك اليوم العصيب ، أما المسيو بوريين فقد شهد الواقعة ويقول فى مذكراته أنه هو الذى أوعز الى المسيو فانتور أن ينصح للسيد كريم بدفع الغرامة (١) فأبى دفعها ، فرواية « بوريين » كما ترى هى رواية شاهد عيان وهى أدعى الى الثقة وأقرب الى الواقع

وقد كان اعدام السيد محمد كريم قسوة لامبرر لها حتى فى نظر بعض الكتاب الفرنسيين ، ذكر تيبودو Thibaudeau فى كتابه (٢) خلاصة هذه الحادثة وعلق عليها بقوله « ان اعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات العديدة التى وجهت فيها التهم الى نابليون أثناء حملة مصر، فان النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التى انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى أعدم بأمر القائد العام ، على أن الجنرال كليبر كان أول من اقتنع بخيانته للجمهورية ، وهو الذي قبض عليه وأتهمه لدى بونابرت »

---

(١) مذكرات بوريين الجزء الأول

(٢) تاريخ نابليون حملة مصر الجزء الاول طبع سنة ١٨٢٨

# الفصل السادس

## فى البحيرة

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى فى زحفه الى القاهرة ، فلاقت من وراء اجتيازه لها شدائد وأهوالا ، ونال كثيراً من القرى التى مر بها الجيش أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل ، وتعددت حوادث الاعتداء حتى اضطر الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب ان يصدر أمراً عسكرياً فى ١٢ يوليه سنة ١٧٩٨ من الرحمانية يذكر الجنود فيه بمنشور نابليون الذى يعلن أن الجيش الفرنسى قدم البلاد ليحارب المماليك لا الأهالى ، وقال فى أمره ان بعض الجنود اقتحم منازل الأهلين فالقائد العام يلقى تبعة هذه السيئات على ضباط الفرق ، وأوصى الجنرال برتييه الجنرال دوجا Dugua قائد الفرقة الزاحفة من رشيد الى الرحمانية بأن يحظر على الجنود اقتحام منازل الأهالى أو صيد الحمام ، وكرر أمره فى ١٦ يولية بمنع صيد الحمام أو غيره من الطيور فى الطرق أو فى الغيطان ونبه رجال الجيش والملكيين الى اتباع هذا الأمر

لم تمنع هذه الأوامر تكرار اعتداءات الجنود على القرى الآمنة ، ولم يقم الضباط فى كثير من المواطن بالواجب عليهم فى منع جنودهم من النهب والاعتداء ، ويعزو كتاب الحملة الفرنسية ومؤرخوها هذا الاهمال الى ان الجنود والضباط قد أنهكهم تعب السير من الاسكندرية الى القاهرة ، وأجهدهم الاعياء والقيظ ، فشعروا بخيبة الأمل فى مغامرتهم فى بلاد نائية كانوا يظنون انها من أغنى بلاد العالم فوقعوا منها فى صحراء قاحلة تختلف كثيرا عن سهول لومبارديا الجميلة التى لقوا فيها الرفاهية ورغد العيش ، فتبرمت نفوسهم بهذه الحملة الشاقة وضعف فيهم احساس النظام العسكرى والشعور بالواجب ، وتراخى الضباط فى كبح جماح جنودهم فكانوا يرونهم يرتكبون النهب والسلب ولا تحدثهم أنفسهم بمنعهم وردهم الى حدود الواجبات والنظام

## معركة شبراخيت

### ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

قلنا فى الفصل الثانى (ص ٨٢) خلال الكلام عن وقائع الحملة ان الجيش الفرنسى بلغ الرحمانية يوم ١٠ يوليه سنة ١٧٩٨ وعسكر فيها ينتظر قدوم فرقة الجنرال دوجامن رشيد ، فوصلت هذه يوم ١٢ يوليه ووصل معها أسطول السفن الفرنسية الخفيفة التى رافقت الفرقة فى النيل بقيادة الكونتراميرال بيرى Perrée ، وهنالك استعد نابليون لمهاجمة جيش مراد بك الذى جاء من القاهرة

كان جيش مراد بك مؤلفاً من نحو ١٢ الف رجل منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك ، والباقون من الفلاحين وأتباع البكوات [١] ، وكان الفلاحون مسلحين بالبنادق والعصى ( الشماريخ ) [٢]

تحرك الجيش الفرنسى من الرحمانية وقضى ليلة ١٣ يوليه في ناحية منية سلامه [٣] واتخذها مؤقتاً معسكره العام وأخذ نابليون يتأهب للقتال ، فأمر الكونتراميرال بيرى أن يحمى بأسطوله ميسرة الجيش فى هجومه على شبراخيت بحيث لا يبتعد عن صفوف الجنود ، فتحركت السفن الفرنسية فى الساعة الثامنة من صبيحة يوم ١٣ يوليه ، ولكن ريحا عاصفة هبت على السفن فدفعتها عن موقع الجيش مسافة طويلة فالتقى الاسطول

---

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن يوميات الكابتن ديبونتون Deponthon من ضباط فرقة الجنرال ديزيه ، و قول الجنرال برتييه فى تقريره الى وزارة الحربية بتاريخ ٢٤ يوليه سنة ١٧٩٨ أن عدد المماليك فى واقعة شبراخيت كان أربعة آلاف فارس ، ويقول نابليون في مذكراته أن جيش مراد بك كان مؤلفا من ثلاثة آلاف من المماليك وكان مع كل مملوك ثلاثة او أربعة من الرجال لخدمتهم وانضم اليهم ٢٠٠٠ من العرب

(٢) تقرير الكابتن ديبونتون

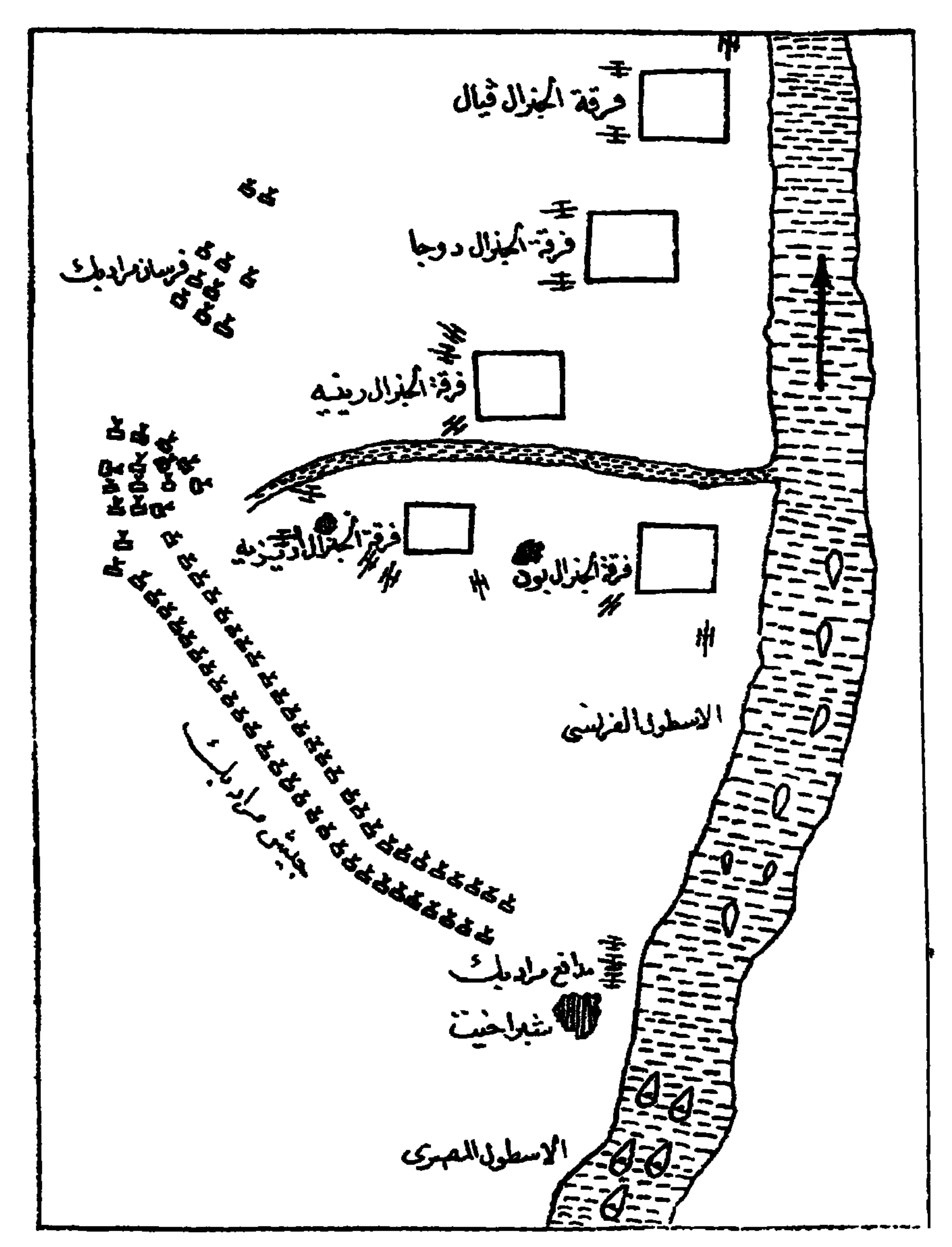
(٣) بالبر الغربى للنيل جنوب الرحمانية وشمال شبراخيت

الفرنسى بأسطول المماليك الذى كان يحمى ميمنة جيش مراد بك بالقرب من شبراخيت

كان الاسطول الفرنسى مؤلفاً من اثنى عشرة سفينة مسلحة وعدة مراكب نقالة تقل كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال أندريوسى Andreossi وتحمل الذخائر والأقوات، وعلى ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم المسيو مونج Monge والمسيو برتوليه Berthollet من علماء الحملة الفرنسية و بورين Bourienne سكرتير نابليون الخاص، المسيو سوسى Sucy مدير مهمات الجيش

أما أسطول مراد بك فمؤلف من عدد من السفن لا يقل عن عدد الاسطول الفرنسى يقوده القبطان خليل الكريتلى ، فتلاقى الاسطولان فى النيل بالقرب من شبراخيت وأخذا يتبادلان اطلاق القنابل ، وكان مركز الاسطول الفرنسى فى هذه المقابلة محفوفاً بالخطر لأن ألوفا من الأهالى المسلحين على شاطىء النيل كانت تهاجمه من الجانبين ، فغرقت منه خمس سفن وهوت الى قاع النيـل واستولى الأهالى على سفينتين مسلحتين ، وجرح الـكونترامبرال بيرى Perrée فى ذراعه جرحا خطراً ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية لولا إحكام مرمى مدافعها فأصابت قنبلة منها سفينة من سفن مراد بك كان بها مستودع البارود فانفجر ونسفت السفينة نسفاً ، وكان الجنرال أندريوسى على ظهر احدى النقالات الفرنسية ، فأمر بانزال جنوده إلى البر لمقاومة الأهلى الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاع ان يبعد عن الشاطىء جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الاسطول الفرنسى ، واستمر القتال ثلاث ساعات حتى حضر نابليون بجنوده

كان جيش مراد بك يرتكز بميمنته الى شبراخيت حيث ركب بها عدة مدافع والى النيل حيث كان أسطوله راسيا ، فرتب نابليون جنوده على شكل مربعات ، فكانت كل فرقة من الفرق الخمس تؤلف مربعاً ، والمدافع على زوايا المربعات، كما تراه على الخريطة ،وهجم بهذا النظام المحكم على جنود مراد بك فكانوا مكشوفين أمام نيران المدافع والبنادق،وأخذوا بالرغم من ذلك يهاجمون جناحى الجيش الفرنسى وجبهته،وانتشر فرسانهم في السهل ليحيطوا بالمربعات الفرنسية ، ولكن نار المدافع حصدت الصفوف المتقدمة




خريطة معركة شبراخيت — ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

منهم ، فاختل نظامهم وانسحبوا بغير نظام الى شبراخيت ، بعد ان قتل منهم نحو مائتي قتيل ، فتعقبهم نابليون بجنوده واحتل شبراخيت وأخلى شاطىء النيـل من جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الاسطول الفرنسي

وبالرغم من ان الجيش الفرنسى كان ينقصه الفرسان فانه انتصر على قوات مراد بك لجهلها أساليب القتال الحديثة ، قال أحد ضباط أركان حرب نابليون فى هذا الصدد : « لو كان جيش المماليك متدرباً على ضروب القتال الحديثة ويقوده ضباط متعلمون لأمكنهم أن يهزموا الجيش الفرنسى أو لأجبروه على التراجع الى الاسكندرية » (١)

هذه هى المعركة التى سميت معركة « شبراخيت » وتلك رواية المراجع الفرنسية عنها ، ومنها يتبين ان القسط الذى احتمله الأهالى فى هذه المعركة كان كبيراً بل كان أكبر من قسط المماليك

واليك ما ذكره الجبرتى عن هذه الواقعة :

« فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٣ (٢) التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس ، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح ، وانما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردلى ، وكان قد قاتل فى البحر قتالا عجيباً ، فقدر الله ان علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود ، فاشتعلت جميعها بالنار واحترق المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم وتطايروا فى الهواء ، فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ونزلت المشاة فى المراكب ورجعوا طالبين مصر « القاهرة » ووصلت الأخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس »

انتهت معركة شبراخيت بانتصار الفرنسيين كما قدمنا وانسحاب مراد بك ،

---

(١) كتاب ( ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التى انتصر فيها بونابارت فى ايطاليا ومصر )

(٢) يوافق ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

فتابع الجيش الفرنسى زحفه قاصداً القاهرة ، فمر بشابور ( ١٤ يوليه سنة ١٧٩٨ ) فكوم شريك ( ١٥ يوليه )، فعلقام (١٦ يوليه )، فالطرانه ، فأبى نشابه (١٧ يوليه ) ، فوردان ( ١٨ يوليه )، فأم دينار ( ١٩ يوليه )

وكان الأهالى والعرب يتعقبون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه ممن يتخلفون عن قوة الجيش اعياء أو تعباً أو ممن ينتقلون بين مختلف القرى لتبليغ الرسائل إلى قواد الفرق ، حتى اضطر نابليون ان يشدد الأوامر على الجنود والرجال الملكيين التابعين للحملة بعدم لابتعاد عن فرقهم (١) ، ولقى الجيش عناء كبيراً فى اجتياز هذه المرحلة لأنه لم يكن يلقى فى طريقه الا بلاداً مقفرة أخلاها أهلها قبل قدوم الجيش وهاجروا منها بعيالهم ومواشيهم، ونهب الفرنسيون عدة قرى فى طريقهم الى القاهرة

## نهب القرى

كتب الجنرال بليار فى يومياته يصف نفسية الجيش فى طريقه الى شابور « ان روح التذمر سائدة فى الجيش ، والضباط لعدم اكتراثهم بالواجب يتركون جنودهم يجوبون القرى القريبة من طريق الجيش وينهبون كل ما تصل اليه أيديهم »

وجاء فى يوميات الجنرال لوجييه Laugier

« وصلنا يوم ٢٦ مسيدور ( ١٤ يوليه ) الى قرية ( النجيلة ) بينما كان جنود الجنرالين بون وفيال ينهبونها ، وكان صياح الأهالى و بكاء النساء ونحيبهم يصم الآذان ، وقد علم القائد العام بذلك فأمر الجنرال دوجا بالبقاء فى هذه القرية حتى يعود النظام فيها ، وقد لاقى الجنرال دوجا صعوبات كبيرة فى القيام بمهمته لأن الضباط كانوا يتذمرون من قلة الزاد وكانوا لا يقاومون تمرد الجنود »

وجاء فيها :

« صرنا على مسيرة نصف فرسخ من شابور ثم وصلنا الى النجيلة فى الظهر ، ولم يكن لدى الفرقة زاد ، فنهبت القرية »

---

(١) أمر ١٦ يوليه سنة ١٧٩٨

وجاء فى يوميات الكابتن سافارى (١) عما حدث فى الطرانه

« صادرنا بعض المواشى التى وجدناها فى طريقنا، و بينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها بالرغم من وجود ثلاثة من القواد جاءوا ليمنعوا هذا النهب والتدمير ، ان فرقتنا لم تكن تعمل سوى اتمام خراب القرى التى كان يمر بها الجيش ، لان الفرق التى تقدمتنا لم تترك فيها الا مالا يمكن حمله أو تخريبه ، وفى بعض الاحيان كنا نرى النار مشتعلة فى الغيطان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على مايلزم من التبن والشعير لخيولنا »

وكتب الجنرال بليار فى يومياته

« وصلنا الى مقربة من النيل حيث وجد الجنود الراحة تحت ظلال النخيل والجميز بعد رحلتهم الشاقة فى خلال الصحراء ووصلنا الى وردان ، وهذه القرية هى أغنى وأكثر عمرانا وأعز سكانا من جميع القرى التى مررنا بها ، وبالرغم من أن الجنود كانوا فى حاجة الى الراحة فان ذلك لم يردهم عن النهب »

وقال فى موضع آخر « خرجنا من وردان وعدنا الى اجتياز الجهات الرملية ووصلنا الى القطا ووجدنا الاهالى قد غادروها لما علموا باقترابنا ، ولم يأسف الجنود لذلك لانهم لما لم يجدوا أحدا فى البيوت وضعوا أيديهم على ما وصلت اليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه »

هذه أقوال واعترافات القواد الفرنسيين ، على ان من الواجب أن نقول تقريرا للحقيقة ان نابليون كان شديد الاستياء من صنيع جنوده ناقما على ما ارتكبوه من النهب والتدمير ، تدل على ذلك أوامره التى كان يصدرها من آن لآخر فى هذا الصدد

ففى ١٥ يوليه سنة ١٧٩٨ أصدر أمرا عسكريا « باعلان استيائه من سلوك

---

(١) ياور الجنرال ديزيه وقد ارتقى فى عهد امبراطورية نابليون وصار لقبه الدوق روفيجو Duc de Rovigo

الجند من فرقتى الجنرال بون والجنرال منو (١) وفرقة المدفعية والاحتياطى لما ارتكبوه من الاخلال بالنظام فى عدة قرى ، وان هذا الاخلال جاء فى الوقت الذى هو أدعى لحسن مسلك الجنود وجاء هادما للاثر الحميد الذى تركه سلوك الجيش من عهد نزوله بالاسكندرية »

وعند ما وصل نابليون الى وردان ومعه أركان حربه كان فى شدة الغضب والنقمة على حوادث النهب وأمر بمغادرة القرية فى الحال وكان يبث ألمه من هذه الحوادث للمقربين اليه

وغنى عن البيان ان اعتداء الجنود على القرى الآمنة كان يوغر صدور الاهالى ويذكى فيهم نار العداوة والبغضاء للجيش الفرنسى فلم يتركوا وسيلة للمقاومة الا اتخذوها ، ونسوا مظالم حكامهم السابقين بما ابتلوا من فظائع المتمدنين ، فحالفوا المماليك وأمدوا جيش مراد بك بما لديهم من حول وقوة

وكان معظم السكان قد سمعوا بما حدث فى القرى من النهب والاعتداء فهجروا بلادهم بماشيتهم ومتاعهم

قال ريبو (٢) « لقد لقى الجنود تعبا واصباً من قلة الزاد ، فان كل القرى التى على طريق الجيش كانت خالية خاوية لان الاهالى هاجروا منها الى داخل الدلتا ، ولا ندرى أهذه الهجرة من تلقاء أنفسهم أم بتحريض المماليك ، على انهم فى هجرتهم ساقوا مواشيهم معهم ولما رأى مدير مهمات الجيش القوميسير سوسى ان قرى الشاطىء الغربى أقفرت من الاقوات أمر بعبور النيل لمصادرة الاقوات فى القرى والبلاد التى بالبر الشرقى وقام بهذه المهمة الجنرال فوجيير Fugieres والجنرال زايونشك Zayonchek ومعهما قوة من ١٤٠٠ من الفرسان ولكنهم لم يجدوا الا قرى خالية خاوية ، ولم يجدوا من الاقوات الا ما يكاد يكفى القوة التى بلغتها »

---

(١) هذه الفرقة كان يقودها الجنرال فيال بدلا من الجنرال منو الذى بقى فى رشيد ولذلك تعرف أحيانا بفرقة منو وأحيانا بفرقة فيال

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

# الفصل السابع

## فى القاهرة

لما وصل الجيش الفرنسى الى أم دينار يوم ١٩ يوليه سنة ١٧٩٨ لم يكن بينه وبين القاهرة سوى خمسة فراسخ ، وهناك شاهد نابليون أول مرة الاهرام بعظمتها الخالدة، فأمر باراحة جيشه يوم ٢٠ يوليه تأهبا لخوض المعركة الفاصلة ( معركة الاهرام )

## حالة الافكار

### فى القاهرة

### عند مجيء الحملة الفرنسية

الآن وقد أفضينا الى الكلام عن المقاومة الاهلية فى القاهرة يجمل بنا أن نصور الحالة فيها من يوم أن جاء نبأ نزول الفرنسيين بساحل الاسكندرية الى أن احتلوا العاصمة

كانت القاهرة فى اضطراب وفزع منذ انتهى اليها نبأرسو العمارة الفرنسية فى مياه الاسكندرية ، فقد أرسل السيد محمد كريم الى مراد بك يخبره الخبر ، وكان أسلوب رسالته يلقى الرعب فى النفوس فقد قال فيها « ان العمارة التى حضرت هذا اليوم مراكب عديدة مالها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله ادركونا بالرجال » فلما تلا مراد بك الرسالة ذهب الى زميله ابراهيم بك فى قصره تجاه الروضة (قصر العينى) للتشاور فى الامر، وذاع الخبر فى المدينة فاضطربت النفوس وهاجت الخواطر وتبلبلت الافكار ، واتفق مراد بك وابراهيم بك على عقد جمعية عامة من البكوات المماليك ومن كبراء البلاد وعلمائها ، وحضر الجمعية الوالى التركى أبو بكر باشا والبكوات والكشاف الذين كان بيدهم سلطة الحكم فى ذلك العهد مثل ابراهيم بك ومراد بك

ومصطفى بك ، وأيوب بك ، وابرهيم بك الصغير ، ومراد بك الصغير ، وسليم بك أبوذياب ، وعثمان بك الشرقاوى ، ومحمد بك الألفى ، وعثمان بك البرديسى ، وعثمان بك الطنبورجى وغيرهم ممن سترد أسماءهم فى فصول الكتاب ، وجاء من العلماء السيد محمد السادات ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والسيد خليل البكرى ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الجوهرى ، عدا من دون هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم

وأخذ المجتمعون يتداولون فى الأمر ويستغربون قدوم هذه العمارة الكبيرة ، ويتطارحون الرأي فى مايجب عمله ، وجشت العداوة القديمة بين المماليك والأتراك ، فالتفت مراد بك الى أبى بكر باشا وقال له ان الفرنسيس ماجاؤوا هذه الديار الا باذن من الدولة العثمانية ولا بد أن يكون عندكم علم بذلك ، ولكن الله يساعدنا عليكم وعليهم ، فأجابه أبو بكر باشا بأن هذا عبث فى القول إذ لا يمكن أن تسمح الدولة العثمانية بدخول الفرنسيس الى مصر ، وقل له متهكما « دعوا عنكم ذلك المقال وانهضوا واستعدوا للحرب والقتال » واستقر الرأى فى هذه الجمعية على أن يرسلوا الى الاستانة بخبر وصول الحملة الفرنسية ، وأن يجهز مراد بك جيشاً لملاقاة الفرنسيين فى طريقهم من الاسكندرية الى القاهرة ، وأرسل الوالى التركى رسالة المجتمعين الى الاستانة صحبة رسول بطريق البر « ليأتيه بالترياق من العراق » كما يقول الجبرتى

سار مراد بك بجيشه فى البر وبمراكبه فى البحر لملاقاة الفرنسيين ، وكان ما كان من هزيمته فى واقعة شبراخيت كما تقدم فى الفصل السابق

## التطوع العام فى القاهرة

فلما وصلت القاهرة أنباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك الى امبابه أحس الناس شراً مستطيراً ، أما المماليك فقد أدركوا حرج موقفهم أمام الجيش الزاحف ، فأخذوا يهتمون بشؤونهم دون الدفاع عن المدينة وينقلون أمتعتهم من قصورهم المشهورة الى بيوت صغيرة لا يعرفها أحد ، واستمروا عدة ليال ينقلونه

امتعتهم ويستودعونها معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا بعضها للأقاليم ، كل ذلك حتى لا تصل اليها أيدى المغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون فى هذه الصغائر كان أهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك ما عانوا يتطوعون للدفاع عن العاصمة فى وجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب فى ساعة الخطر أرقى نفساً وأنبل قصداً من حكامه الظالمين ، ففى يوم الثلاثاء ١٧ يوليه أى قبل معركة الاهرام ببضعة أيام نودى بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فلبى المصريون الدعوة، وأغلقوا الدكاكين والأسواق،وخرج الجميع الى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب فى التطوع فكانت كل طائفة من أهـل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتتاباً ويجتمعون ليرتبوا ما يصرف عليهم وما يحتاجون اليه مما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة « بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحـد فى ذلك الوقت بشىء يملكه [1] » وخلت طرقات العاصمة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح واتجهوا جميعاً نحو بولاق استعداداً لرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق فى المنازل أو الطرقات سوى النساء والصغار والضعفاء والمرضى الذين لا يقدرون على الحركة « ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق وأقام بها من حيث نصب ابراهيم بك العرضى[2] هناك الى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فى بولاق فكانوا يرجعون الى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون الى بولاق[3] »

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) كلمة عَرَضى تؤدى معنى معسكر أو جيش وهى مأخوذة من الكلمة التركية « أوردو » أى الجيش أو الفيلق

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

## سوء استعداد المماليك

## وضعف وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للدفاع عن عاصمة البلاد ، ولم يكن فى الامكان أن تنجح هذه التدابير فى رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التى أكسبته النصر فى حروب أوروبا ، لكن أهل القاهرة لم يقصروا فى الدفاع، وإنما المقصر المسؤول عن ضعف المقاومة هم طائفة المماليك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون فى الجهل والغباوة لاهم لهم إلا ارتكاب المظالم وابتزاز أموال الناس بالباطل ، فأهملوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التى أنشأها أسلافهم السلاطين تتهدم وتتخرب، ومن ثم سرى الخراب الى قلاع الاسكندرية وأبو قير ورشيد ودمياط والبرلس والقرين ، وخلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب ، وكذلك قلعة القاهرة لم تعد فى عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة بما توالى عليها من الاهمال وقلة الاستعداد ، وحسبك أن تقرأ ما كتبه عنها الرحالة الفرنسي سافارى Savary سنة ١٧٧٨ لتعرف مبلغ قوتها وحظها من الاستعداد الحربى .

زار المسيو سافارى مصر وشهد الحرب التى قامت بين مراد بك وابراهيم بك وبين حسن بك الجداوى واسماعيل بك ، وشهد ضرب القلعة للجهة التى امتنع بها حسن بك الجداوى بالمدافع فقال ان القلعة بها ستة مدافع عتيقة ، وكان جنود المدفعية يحشون المدفع فى نصف ساعة ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة ، وقال تعليقاً على ذلك « يمكنك أن تقدر هل مثل هؤلاء الجنود يستطيعون أن يثبتوا لحظة واحدة فى ميدان القتال بازاء عدة صفوف من الجنود الاوربية ؟ لاجرم ان الدولة الحربية التى تهاجم مصر تستولى عليها دون مقاومة [١] » هذا ما كتبه

---

(١) رسائل عن مصر بقلم المسيو سافارى

سافارى قبل الحملة الفرنسية بنحو عشرين سنة ، ومع ذلك لم يتنبه المماليك يوماً ما لتحصين القلاع وترميمها بل كانوا مملوءين جهلا وغروراً يظنون انهم لما اشتهروا به من اجادة ركوب الخيل قادرون على مواجهة أقوى الجيوش المنظمة المدربة على أساليب القتال العلمية ، واذا أردت ان تعرف الى أى حد بلغ بهم الجهل والغرور فانظر ما رواه عنهم كلوت بك فى كتابه (١) فقد ذكر انه لما استولى نابليون على جزيرة مالطه ووصلت أخبار نزول الجيش الفرنسى بها أراد المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فى القاهرة وكان من كبار تجار الافرنج بها وموضع ثقة رؤساء المماليك ان ينهى اليهم هذا الخبر ويحذرهم عاقبته، فقابل مراد بك وكاشفه باحتمال عزم الفرنسيين ان يهبطوا مصر، ورغب اليه فى اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن البلاد ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن أغرق فى الضحك وقال « ماذا تريد من اخافتنا من الفرنسيين ، ألم يكونوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ؟ انه ليكفينى اذا نزلوا الى سواحل مصر فى مائة الف من رجالهم أن أبعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب » فحاول المسيو روستى ان يقنعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المبين فى ايطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القهرة ، وألح عليه بتحصين الاسكندرية ، فلم يُجْدِ تحذيره وأراد مراد بك أن يجامله ويسكن روعه فأرسل الى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها ! ! . .

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون الى الاسكندرية ونزلوا الى البر واستولوا عليها وعلم مراد بك بهذا النبأ فاستدعى المسيو روستى على الفور وقال له مغضبا : أن أولئك الفرنسيين الوقحاء قد اجترأوا على النزول الى هذا البر ، وطلب اليه أن يكتب اليهم على لسانه بالمسارعة الى الجلاء فى أقرب وقت ، فاعترض روستى قائلا « ولكنهم لم يأتوا الى هنا ليعودوا كما جاءوا ، فهم جاءوا بغير أمرك ولا يعودون بأمرك » فقال مراد بك وقد تولاه الجزع « وماذا يريد هؤلاء الخسرة ؟ ماذا يريد

---

(١) لمحة عامة الى مصر الجزء الثانى

هؤلاء المتشردون الجائعون ؟ ان كانوا طامعين فى مال فارسل اليهم عدة آلاف من الريلات[١] وليرحلوا ! فأجابه روستى ولكن هذا المبلغ لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة أقلتهم الى مصر ، والاجدر بك أن تأخذوا عدتكم للدفاع »

من هذه الرواية يتبين مبلغ غرور المماليك وجهلهم وانحطاط عقليتهم ، ويدخل فى هذا السياق ما رواه عنهم الجبرتى لما جاءهم الخبر بقدوم أسطول الاميرال نلسن الى الاسكندرية للتفتيش عن العمارة الفرنسية قال « أما الامراء (البكوات المماليك) فلم يهتموا بشىء من ذلك ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيولهم ... » وقال عن مبلغ استعدادهم وجهلهم فى فن الخطط الحربية ان مراد بك « لما ارتحل من الجسر الاسود أرسل الى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد فى غاية التخن ( كذا ) والمتانة طولها مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا لتنصب على البوغاز ( بوغاز رشيد ) عند برج مغيزل من البر الى البر تمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل وذلك باشارة على باشا الطرابلسى[٢] — صديق مراد بك — وأن يعمل عندها جسرا من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع »

فمراد بك فى الوقت الذى احتل نابليون الاسكندرية وأخذ يسير بجيشه براً بطريق دمنهور فالرحمانية كان يظن ان الفرنسيين لا يستطيعون بلوغ القاهرة الا من بوغاز رشيد فطلب اعداد سلسلة لمنع المراكب من دخول النيل . . . وكانت هذه الفكرة غاية فى الجهل حتى ان الجبرتى على قلة درايته بالشؤون الحربية سخر منها فى كتابه وقال « ان الامر كان بخلاف ذلك فان الفرنسيس عندما ملكوا الاسكندرية ساروا على طريق البر الغربى من غير ممانع »

---

(١) فى الاصل الفرنسي باتاك Pataques وهى محرفة عن كلمة ( أبو طاقة ) أى ( الريال أبو طاقة ) الذى كان يتعامل به فى مصر

(٢) هو على باشا الجزائرلى الذى عينته حكومة الاستانة واليا على مصر سنة ١٨٠٣ وقتله المماليك كما تراه فى موضعه فى الفصل الخامس عشر من الجزء الثانى

وندد الجبرتى بما كان من اهمال المماليك الاستعداد للقتال قبل معركة الاهرام بقوله « هذا وليس لأحد من أمراء العسا كرهمة أن يبعث جاسوساً أوطليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء مصر، بل جمع كل من ابراهيم بك ومراد بك عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير و إهمال أمر العدو »

إذن كان أمراء المماليك يركبون الجهل والغرور ، وكانوا أيضاً يمثلون الحرص على النجاة والتخاذل فى أشد الأوقات حرجاً ، فبينما كان الجيش الفرنسى زاحفاً على العاصمة لم يكن مراد بك وابراهيم بك على أتم وفاق بل كان يباعد بينهما التنافس القديم على السلطة ، ولم يخف هذا التنافس على الفرنسيين فقد علم به نابليون وهو فى أم دينار يرسم الخطط ويستطلع أخبار القوة التى سيواجهها ، فهناك وصلته أخبار الجفاء الذى بين مراد بك وابراهيم بك (٢) وعلم أن كلا منهما بقى بجيشه بعيداً عن الآخر ، فمراد بك بالشاطىء الغربى ( برامبابه ) وابراهيم بك بالشاطىء الشرقى من النيل ، وكلاهما لا يثق بصاحبه ، فلم يكن ثمت تعاون بينهما فى خطة الدفاع ، ولو اتحدا لاجتمعت قوات الاثنين فى صعيد واحد بالبر الغربى أو البر الشرقى للنيل

قال الجبرتى يصف نفسية المماليك قبل الواقعة « لكن الاجناد ( الجنود ) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى رؤيتهم ، مغمورون فى غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

---

(٢) انظر مذكرات الكولونل سلكوسكى ياور نابليون وعضو المجمع العلمى ، وهو الذى قتل فى ثورة القاهرة كما سيجىء بيانه فى الفصل الثالث عشر

## واقعة امبابة أو معركة الاهرام

## ( ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ )

## ونصيب المصريين فيها

يصور المؤرخون واقعة الاهرام قتالا دار بين الفرنسيين والمماليك وحدهم ، والواقع ان المصريين قد اشتركوا فيها بمقدار ما لديهم من قوة واستعداد ، وفى الحق أن قسطهم فيها كان أكبر من قسط المماليك

فلنذكر — اثباتا لهذه الحقيقة — كيف بدأت هذه المعركة ومبلغ اشتراك المصريين فيها

بعد ان انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع الى القاهرة أخذ يستعد للقتال فى امبابه بالبر الغربى للنيل ، وأقام المتاريس بين امبابه و بشتيل[١] ، وكانت قواته ممتدة من بشتيل وامبابه الى الاهرام ، فيمنة الجيش كانت مرتكزة على شاطىء النيل وقاعدتها امبابه التى أنشأ فيها مراد بك الاستحكامات والمتاريس وركب فيها المدافع ، والميسرة تمتد قريبا من الاهرام ، و بينهما القلب .

ورسا الاسطول المصرى على ساحل امبابه ، وكان مؤلفا من السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم اليهــا من المراكب الـكبيرة والغلايين ( المراكب الحربية ) التى قدمت من دار صناعة ( ترسانة ) الجيزة

أما ابراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل ، وتفاوض مع الوالى والعلماء فى اعداد معدات الدفاع فأجمعوا رأيا على اقامة متاريس من بولاق الى شبرا ، فصار البر الغربى والبر الشرقى للنيل مملوءين بالمقاتلة والمدافع والمتاريس .

### الاستعداد للمعركة

فى الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت ٢١ يوليه تحركت فرق الجيش الفرنسى

---

(١) شمال امبابه بغرب

كلها من أم دينار واستقرت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضر (١) وبشتيل ، فكانت الاهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امبابه وفيها جموع المقاتلة من المصريين وعددهم نحو عشرين ألفاً تحميهم المدافع والمتاريس ، وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفى القلب والميسرة فرسان المماليك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون فى خط يمتد بين النيل والاهرام ، وفى أقصى الميسرة فرسان العرب

فلما شاهد نابليون عن بعد قوات مراد بك أراد أن يبعث الحماسة فى نفوس جنوده فخاطبهم بكلمته السائرة « تقدموا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر اليكم من فوق قمم هذه الاهرام » ففعلت هذه الكلمة فعل السحر فى الجنود ونسوا متاعبهم التى قاسوها فى الطريق

واطمأن نابليون لما شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ، وكيف لا يطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين الف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال مدربين على خوض غمار الحروب ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معتزين بالانتصارات التى نالوها فى ميادين القتال بأوروبا ، وأمامهم جيش يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، أى ينقصه كل ما يكفل له الفوز والظفر

## سير القتال

بدأت المعركة بعد ان رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وكانت فرقتا الجنرال دبزيه Desaix والجنرال رينييه Reynier بالميمنة ، وفرقتا الجنرال بون Bon وفيال Vial بالميسرة ، وفى القلب فرقة الجنرال دوجا Dugua وفيها نابليون يرسم الخطط ويصدر الأوامر ويرقب حركات الجناحين

لاحظ نابليون من استحكامات امبابه انها لم تكن على جانب كبير من المناعة ،

---

(١) بالبر الغربى للنيل شمال امبابه

وان المدافع المركبة بها وعددها أربعون مدفعاً لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، فأدرك من ذلك ان المقاتلة الذين فى امبابه لا يستطيعون التحرك بسهولة ومغادرة الاستحكامات التى كانوا ممتنعين بها ، فعزم على ان يبدأ الهجوم من الميمنة بعيداً عن مرمى مدافع امبابه ، وان يجعل أول هدف لهجومه قوات المماليك الذين يتألف منهم قلب جيش مراد بك وميسرته ليحول بينهم و بين بقية القوات المرابطة فى امبابه ، و بذلك يخترق صفوف مراد بك ويحيط بها و يدفعها أمامه الى النيل ثم ينثنى على امبابه ليستولى عليها

وتنفيذاً لهذه الخطة أمر فرقة الجنرال ديزيه ان تتقدم من اليمين تتبعها فرقة الجنرال رينييه ، فهجمت الفرقتان فى طريق الجيزة بينها وبين امبابه ، وأمر فرقة الجنرال بون وفيال [١] بالتقدم من الميسرة للاحاطة بامبابه ، وتقدمت فرقة الجنرال دوجا [٢] التى كان بها نابليون لتتصل بحركات الجناحين ، فكانت الفرق الخمس التى يتألف منها الجيش الفرنسى تهاجم قوات مراد بك على شكل نصف دائرة مركزها امبابه وقاعدتها النيل

أدرك مراد بك خطر هذا الهجوم الذى كان مقصوداً منه اختراق صفوفه ، فترك بامبابه الفين من المماليك يشتركون فى الدفاع عنها مع من بها من المصريين ، وهجم بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة دوجا ، فصدتها نار المدافع ، ثم هجم على فرقة ديزيه ليعزلها عن باقى الفرق ، وكان هجوم المماليك شديداً ، لكن فرقة الجنرال ديزيه تلقت هذا الهجوم بنار كالصواعق حصدت صفوف المماليك حصداً ، فكرَّ الفرسان على فرقة الجنرال رينييه ، فتلقتهم بمثل تلك النار الحامية ، وقد تزلزلت أقدام الفرنسيين من شدة هذا الهجوم لولا ان فتكت نار المدافع والبنادق بصفوف المماليك ، وكان دوىّ المدافع كالرعد القاصف والدخان يملأ الجو حتى حجب وجه الشمس ،

---

(١) هى فرقة الجنرال منو كما بينا ذلك بهامش ص ٢٠٥

(٢) التى كانت فى الاصل فرقة الجنرال كليبر

وانحصر المماليك بين فرقتى ديزيه ورينييه وا كتنفهم الموت من الجانبين ، وأرادوا الانسحاب الى النقطة التى بدأوا بها هجومهم فتلقتهم فرقة الجنرال دوجا التى وصلت الى النيل فحالت بينهم وبين النهر فوقع المماليك بين نارين من أمام ومن خلف ومات كثير من زعمائهم وشجعانهم ، وانفلتت بقيتهم من هذا المأزق فارتد جماعة منهم الى امبابه وارتد معظمهم الى الجيزة

أشار الجبرتى الى هذا الدور من المعركة بقوله « ولما كان وقت القائلة (الظهر) ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا الى ناحية بشتيل فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمى ، وأبلى الفريقان ، وقتل أيوب بك الدفتردار ( مدير الشؤون المالية ) وعبد الله كاشف الجرف ( من البكوات المماليك) وعدة كبيرة من كشاف محمد بك الألفى ومماليكهم ، وتبعهم طابور من الافرنج نحو الستة آلاف وكبيرهم ديزيه الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم ، وأما بونابارته الكبير فانه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعد الهزيمة ، وكان بعيدا عن هؤلاء بكثير »

هـذا ما رواه الجبرتى عن هذا الدور من المعركة ، ولا يمكننا ان نمر على قوله « ان بونابارته الكبير لم يشاهد الواقعة » دون ان نبدى شيئاً من الدهشة لأنه كيف تصور الجبرتى ان بونابارته لم يشاهد الواقعة مع انه قائدها وراسم خططها ومدبر الأمر فيها ؟ ولا ندرى من أين جاء الجبرتى انه لم يحضر الا بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير مع ان بونابارت كان فى القلب يرقب حركات القتال ويتتبع كل صغيرة وكبيرة فيه ؟ على أى وجه قلبنا الرواية لا نجد ثبتا لها وكل ما نقوله فيها انها « خطأ »

والآن فلننتقل الى الدور الثانى من المعركة

أمر نابليون قوات الميسرة من جنود الجنرال بون والجنرال فيال بمهاجمة امبابه ، فوقع الهجوم فى الوقت الذي كان فرسان مراد بك يغامرون بأنفسهم بين فرقتى ديزيه ورينييه ، واشترك فى الهجوم فرقة الجنرال دوجا فدار قتال شديد بينهم وبين المصريين والمماليك وكر هؤلاء على الفرنسيين لكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا الى معاقلهم

وحاولوا صد هجوم الفرنسيين باطلاق النار من المدافع المركبة فى استحكامات امبابه، لـكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ولم يستطع رماتها ان يعيدوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش فى امبابه وأحاط جنود الجنرال رامبون Rampon ومارمون Marmon [1] بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين الى النيل، وتمكن الفرنسيون من تطويقها فوقع المصريون والمماليك بين نارين ،فكان العدو أمامهم والنيل من ورائهم « والريح النكباء قد اشتد هبوبها وأمواج البحر فى قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار » ووقعت الهزيمة بجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلا أو غرقاً فى النيل ، واستولى الفرنسيون على امبابه وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن ، فلما علم مراد بك بسقوط امبابه تحقق ان الهزيمة حلت به ففر بالباقين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف الى جنوب الجيزة ، وأغرق المماليك السفن المصرية التى كانت بالنيل حتى لاتقع فى أيدى الفرنسيين ، وانتهت المعركة فى نحو الساعة السادسة مساء بانتصار نابليون وجنوده والقضاء على قوة البلاد الحربية

نقلنا عن الجبرتى العبارة التى وضعناها بين قوسين لانها أبلغ ما كتبه عن الدور الثانى من المعركة ، ولا بأس ان نورد ما ذكره فى وصف وقائع القتال حول امبابه ليقابل القارىء بين روايته والرواية التى استخلصناها من المصادر الفرنسية ؛ قال « ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع ، وكذلك العساكر المحاربون البحرية ( أى بحارة السفن المصرية التى كانت راسية بين امبابه و بولاق ) وحضر عدة وافرة من عساكر الارنؤود من دمياط وطلعوا الى انبابه وانضموا الى المشاة وقاتلوا معهم فى المتاريس وركب طائفة كبيرة من الامراء والاجناد

---

(١) من قواد فرقتى بون وفيال

من العرضى الشرقى (١) ومنهم ابراهيم بك الوالى (٢) وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب ، فتزاحموا على المعادى لـكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين »

وقال يصف نظام المربعات الفرنسية وهجومها على امبابه وهزيمة الجيش المصري

« ثم ان الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله ، وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار ، واظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح وصمت الاسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس ان الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربى (٣) فغرق الـكثير من الخيالة فى البحر لاحاطة العدو بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع أسيراً فى أيدى الفرنسيس ، وملـكوا المتاريس وفر مراد بك ومن معه الى الجيزة ، فصعد الى قصره وقضى أشغاله فى نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب الى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والاسلحة والفرش ملقاة على الأرض بين اساسه تحت الأرجل ، وكان من جملة من القى نفسه فى البحر سليمان بك المعروف بالأغا ، وأخوه ابراهيم بك الوالى ، فأمّا سليمان بك فنجا وغرق ابراهيم بك الصغير وهو صهر ابراهيم بك الـكبير »

بلغت خسائر جيش مراد بك فى معركة الاهرام نحو الفى قتيل من المماليك وعدّة آلاف لا تحصى من المصريين ، وفى مذكرات نابليون ان مجموع القتلى من جيش مراد بك من مماليك ومصريين بلغ سبعة آلاف ، وان خسائر الفرنسيين ثلثمائة (٤) وقد سار نابليون بعد انتهاء المعركة الى الجيزة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له

---

(١) يعنى جيش ابراهيم بك الذى كان مرابطا بالبر الشرقى للنيل

(٢) صهر ابراهيم بك رئيس المماليك

(٣) يعنى جيش مراد بك لأنه بالبر الغربى

(٤) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين



قصر مراد بك فى الجيزة ( انظر ص ١٤٦ و ٢١٨ )

استولى على ( ترسانته ) التى أنشأها بالجيزة وما بها من المدافع والذخائر ، وفى مساء هذا اليوم احتلت فرقة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة

وفى مساء اليوم التالى دخل الجنرال « ديبوى » أحد قواد الجيش الفرنسى المدينة على رأس كتيبة من الجنود لاحتلالها فلم يلق بها مقاومة وعسكرت ليلا فى بيت ابراهيم بك الوالى ، فكانت هذه الكتيبة طليعة الجيش المحتل ، وفى اليوم التالى ( الاثنين ٢٣ يوليه ـ ٩ صفر ) تبعتها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها ، وأصبحت العاصمة فى قبضة الجيش المحتل

## انسحاب ابراهيم بك

كان جيش مراد بك هو الذى تلقى صدمة الهجوم الفرنسى بالبر الغربى للنيل ، وما أن حلت به الهزيمة حتى انسحب الى الجيزة كما قدمنا واحرق سفنه كيلا تقع فى أيدى الفرنسيين ، ثم فر الى الوجه القبلى ومعه فلول جيشه المهزوم

أما ابراهيم بك الذي كان يرابط فى الشاطىء الشرقى ليدافع عن القاهرة اذا اعتزم الفرنسيون عبور النيل فانه ظل يرقب تطورات المعركة وبقى جامداً لا يحرك ساكنا حتى علم بهزيمة زميله مراد بك فاركن الى الفرار هو ومن معه من المماليك ، وغادروا العاصمة وقصدوا الى بلبيس ثم الى سوريا حاملين ما وصلت اليه أيديهم من المتاع والاموال والتحف لينجوا بها ويستخلصوها لانفسهم ، وبذلك ترك امراء المماليك سكان القاهرة واهل البلاد وجها لوجه أمام القوة الفرنسية



خريطة واقعة امبابة أو معركة الأهرام ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ — وفيها البيانات الآتية

١ — فرقة الجنرال دوجا وفيها نابليون وهي تؤلف قلب الجيش الفرنسي

٢ — فرقة الجنرال بون ⎫
٣ — فرقة الجنرال فيال ⎭ وهما تؤلفان الجناح الأيسر

٤ — فرقة الجنرال ديزيه ⎫
٥ — فرقة الجنرال رينييه ⎭ وهما تؤلفان الجناح الأيمن

٦ — امبابة وفيها الاستحكامات والمدافع والمتاريس والقوات التي يقودها مراد بك

٧ — قوات ابراهيم بك المرابطة ببولاق ولم تشترك في القتال

٨ — قوات مراد بك تهاجم فرقة الجنرال دوجا ثم فرقتي ديزيه ورينييه

٩ — قوات مراد بك تهاجم جنود الجنرال رامبون وترد هجمتهم على امبابة

١٠ — آخر نقطة انسحبت منها قوات مراد بك بعد الهزيمة

١١ — الأسطول المصري في النيل والمراكب الحربية بين امبابة وبولاق

١٢ — جزيرة بولاق

والخطوط المزدوجة تمثل خط سير قوات مراد بك

وقد اقتبسنا هذه الخريطة من مجموعة رسوم الأستاذ فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون في مصر ؛ وأهمية هذه الخريطة ترجع الى أن نابليون راجعها ونقحها قبل أن تطبع في كتاب دينون سنة ١٨٠٢

## نصيب المصريين فى المعركة

وقف المصريون بجانب المماليك فى معركة الاهرام يقاتلون الفرنسيين ، هذه واقعة وان لم يعلنها المؤرخون الفرنسيون الا انها حقيقة ثابتة تنطق بها أقوالهم وروايات شهودهم

ذكر المسيو تييرس Thiers فى كتابه (١) « ان جيش مراد بك اقام بعسكره على الشاطىء الغربى من النيل فى السهل الممتد ما بين النيل واهرام الجيزة، وكان يدافع عن قرية امبابه بقوة مؤلفة من ٢٤٠٠٠ من الفلاحين والانكشارية وهذه القوة كانت تؤلف ميمنة الجيش ، وكان المماليك وعددهم عشرة آلاف فارس ومنهم يتألف القلب والميسرة برابطون فى السهل الممتد بين النيل والاهرام يشد أزرهم عدة آلاف من الفرسان العرب »

ويقول الجنرال برتييه Berthier فى كتابه (٢) .

« استولى الفرنسيون على قرية امبابه بعد أن دافع عنها نحو الف وخمسمائه مملوك ومثل هذا العدد من الفلاحين دفاع الابطال ورفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقا»

ومعلوم ان الجنرال برتييه هو رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية وقد شهد معركة الاهرام وكان يخوض غمارها الى جانب نابليون ، فكلامه حجة

ويقول نابليون فى مذكراته عن قوة جيش مراد بك :

« كانت الميمنة ترابط شمال امبابه وتتألف من ٢٠٠٠٠ من الانكشارية والعرب ومقاتلة القاهرة ، وتتألف الميسرة والقلب من ١٢ الف فارس من المماليك والأغاوات ( رؤساء الجند) والمشايخ والاعيان المصريين ومع كل منهم ثلاثة أواربعة من المشاة لخدمتهم ، فكان مجموع هذه القوة نحو خمسين الف رجل يضاف اليهم

---

(١) تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر

(٢) تاريخ حروب بونابارت فى مصر وسوريا

ثمانية آلاف فارس عربى تتألف منهم ميسرة هذا الجيش فكان الجيش يحتل خطا طوله ثلاثة فراسخ »

وقال ميو Miot وهو شاهد عيان لوقائع الحملة فى مذكراته « ان قوة مرادبك تقدر بستة الاف من المماليك وعدد كبير من الفلاحين و العرب [1] »

وذكر ريبو « ان مراد بك كان تحت امرته ستة الاف من المماليك رابطوا على الشاطىء الغربى للنيل وارتكزت ميسرتهم الى الجيزة وميمنتهم الى قرية امبابه حيث كان يدافع عنها ١٢ الفاً من الفلاحين ومعهم أربعون مدفعاً وقد امدته فى هذا اليوم فصيلة من الانكشارية وعدد حاشد من العرب والاقباط والحبشان [2] »

وتكلم دى لاجونكيير عن حامية امبابه فقال « من الصعب أن تتصور أن عشرين الفاً كانوا محتشدين فى قرية صغيرة كامبابه ، والمعقول أن القوه النظامية من هذا العدد كانت مؤلفة من أربعة آلاف فقط من المشاة ، ولكن هذا العدد قد وصل الى الضعف أو الثلاثة الأمثال بمن انضم اليهم من الفلاحين ومن متطوعة القاهرة ، وقد بلغت خسرة المماليك الفين من فرسانهم وخيرة رجالهم ، وكانت خسائر الأهالى عظيمة فغرق معظمهم فى النيل »[3]

وفى الجبرتى مايدل على اشتراك المصريين فى المعركة فقد نقلنا عنه ماذكره عن تطوع أهل القاهرة ونضيف اليه ما أورده عن تطوع سكان الاقاليم قال :

« أرسل ابراهيم بك الى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم »

وقال فى موضع آخر « ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر ( صفر الموافق ٢٠ يوليه)

---

(١) مذكرات عن تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر بقلم القوميسير ميو Miot

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث بقلم دى لاجونكيير

وصل الفرنسيس الى الجسر الاسود وأصبح يوم السبت ( يوم الواقعة ) فوصلوا الى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر (١) »

يؤخذ من هذه الوثائق والمصادر المتعددة أن المصريين قد اشتركوا فى معركة الاهرام بكل ما أوتوا من حول وقوة وأنهم قدموا كل مافى استطاعتهم من رجال ومال للدفاع عن كيان البلاد ، وان عددهم كان أكثر من عدد المماليك .

ولقد اختلف الرواة فى تقدير عدد المماليك الذين اشتركوا فعلا فى المعركة ، لكن التقدير الذى هو أقرب الى الصواب أنهم يتراوحون بين ستة آلاف وسبعة الاف فقط ، فقد أحصى المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة الفرنسية (٢) عددهم ٥٠٠ر٥ مقاتل ، وقدرهم ريكاردو Richardo أحد ضباط الحملة بستة آلاف ، ويقول دى لاجونكيير De La Jonquiere أن احصاء المماليك بستة آلاف موافق لتقدير الجنرال برتييه رئيس أركان الحرب وميو وريكاردو ، ويلاحظ دى لاجونكيير تأييداً لهذا التقدير أن مجموع المماليك الصالحين للقتال كان عند مجيء الحملة الفرنسية لايزيد عن عشرة آلاف مقاتل (٣) منهم ١٥٠٠ كانوا بالبر الشرقى للنيل بقيادة ابراهيم بك ولم

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) فى كتابه تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر الجزء الاول

(٣) هذا الاحصاء يوافق ماذكره الجبرتى فى الجزء الرابع على لسان ابراهيم بك زعيم المماليك وهو يخاطب مندوبى محمد على الكبير الذين قابلوه في شأن الصلح فذكر ابراهيم بك ما كان لهم من النفوذ والشوكة قبل الحملة الفرنسية قال فى هذا الصدد « اعلم اننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف أو أقل أو اكثر مابين مقدمى ألوف ( قواد ) وأمراء وكشاف ، واكابر وجاقات ، ومماليك ، واجناد وطوائف ، وخدام ، واتباع » فيؤخذ من ذلك ان عدد المقاتلة من المماليك كان عشرة آلاف ، أما جنس المماليك من رجال ونساء واطفال وعتقى وارقاء فيبلغ عددهم نحو خمسين الفا

يشتركوا فى المعركة ، و ٥٠٠ بالصعيد بقيادة حسن بك الجداوى ، ونحو هذا العدد مع قافلة الحج التى لم تكن حضرت بعـد ، فاذا قدرت خسائر المماليك فى الرحمانية وشبراخيت كانت النتيجة أن عدد المماليك الذين حشدهم مراد بك بالبر الغربى انما كان يتراوح بين ستة آلاف الى ستة آلاف وخمسمائة ، والباقون من المصريين .

وصفوة القول أنه لايمكن لأمة عزلاء لاسلاح معها أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية فى عهد الحملة الفرنسية

بعد الواقعة

قام المصريون بقسطهم فى الدفاع فى واقعة الاهرام كما ترى ، وهم الذين احتملوا عواقب الهزيمة، فقد عم الفزع القاهرة بعد وقوع الهزيمة وفرار قواد المماليك ، وقضى أهلها ليلة رهيبة اكتنفتهم فيها الخطوب والاهوال وتوقعوا أن تحل بهم الكروب اذا دخل الفرنسيون المدينة ، فلاذ معظمهم بالفرار تلك الليلة الى الاقاليم ومعهم نساؤهم وعيالهم ، فكان هذا الذعر أشد هولا من وقائع الحرب والقتال . قال الجبرتى يصف تلك المأساة :

« استمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر، البعض بحريمه ، والبعض ينجو بنفسه ، ولايسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن ابنه وأبيه، والناس يضجون بالعويل والنحيب ، و يبتهلون الى الله من شر ذلك اليوم العصيب ، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ، فخرج تلك الليله معظم أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لبلاد الشرق وهم الأكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه ، ومن لايقدر على الحركة ممتثلا للقضاء متوقعا للمكروه ، وذلك لعدم مقدرته أو لقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله و يصرفه عليهم فى الغربة ، فاستسلم للمقدور، ولله عاقبة الأمور »

وقد زاد هذه الفاجعة هولا انه لما احرق المماليك سفنهم بعد الهزيمة تصاعد لهب الحريق ودخانه من السفن المحترقة ببولاق والجيزة ، وشاهد سكان العاصمة النيران

المشتعلة ليلا ، فظنوا ان الفرنسيين قد عبروا النيل واحرقوا بولاق والجيزة ، وشاع بين الناس أنهم وصلوا الى باب الحديد يحرقون ويعتدون على النساء ، فاشتد الفزع وعظم الخطب ، وفى ذلك يقول الجبرتي :

« ان بعض القليونجية ( البحارة ) من عسكر مراد بك الذى كان فى الغليون ( المركب الحربى ) بمرسى انبابه لما تحقق الكسرة اضرم النار فى الغليون الذى هو فيه ، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة امر بانجرار ( سحب ) الغليون الكبير من قبالة قصره ( قصر مراد بك بالجيزة الذى اتخذه نابليون معسكرا له بعد الواقعة ) ليصحبه معه الى جهة قبلى ، فمشوا به قليلا ووقف فى الطين لقلة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانه ، فامر بحرقه ايضا ، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل ايقنوا انهم احرقوا البلدين فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع ، وخرج (من القاهرة) اعيان الناس وافندية الوجاقات واكابرهم ونقيب الاشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم ، والحال ان الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون ، وأى طريق يذهبون ، وأى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الاعرج أو البغل الضعيف باضعاف ثمنه ، وخرج اكثرهم ماشيا أوحاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على اقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، واطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصبحها »

وختم الجبرتى وصف تلك المأساة بقوله « وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين ، فما راء كمن سمعا »

# الفصل الثامن

## عود إلى الاسكندرية

## واقعة أبو قير[1] ( أول أغسطس سنة ١٧٩٨ )

## وتأثيرها فى مركز الفرنسيين

على مقربة من الاسكندرية ، وفى منتصف المسافة تقريبا بينها و بين رشيد ، فى خليج ( أبو قير ) ، وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨ الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة (أبو قير) بين الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال نلسون Nelson والاسطول الفرنسى بقيادة الاميرال برويس Brueys وانتهت بتحطيم الاسطول الفرنسى وتدمير معظم سفنه وأسر الباقى ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته، فكانت هذه الواقعة كارثة عظمى أصابت البحرية الفرنسية وقضت على آمال فرنسا فى بسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط، وكانت فى الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية فى مصر ، من أجل ذلك وجب علينا أن نتكلم عن هذه الواقعة مع بيان نتائجها وأثرها فى تطور الأحوال فى مصر

---

(١) التزمنا فى هذه الكلمة لفظها المحكى « ابو قير » على قاعدة الحكاية ، والكلمة ليست مركبة من (ابو) و (قير) بل هى كلمة مفردة ، فلا تجرى على (ابو) قواعد الاضافة ، وفى تاج العروس للعلامة اللغوى المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدى ( الجزء الثالث ) انها ( بوقير بالضم جزيرة قرب رشيد ) وقد أوردها تحت كلمة ( بقر )، فالباء من بنية الكلمة، وهذا يثبت انها كلمة مفردة ، وسواء أكانت (بوقير) أم ( أبوقير ) فهى ليست كلمة مركبة ، ولذلك قلنا واقعة أبو قير

## مقدمات الواقعة

كانت ميناء الاسكندرية الغربية لا تستطيع أن تؤوى بوارج الاسطول الفرنسى الكبرى لقرب غور المياه فى مداخلها ، فاختار الاميرال برويس بالاتفاق مع نابليون خليج ( أبو قير ) يتخذه مرسى لبوارجه ، وانتقل اليه بأسطوله يوم ٧ يوليه سنة ١٧٩٨ على أن يقلع منه الى جزيرة كورفو إذا رأى المكث فيه خطراً ، وكان الكبتن بارى Barré قد كلف سبر غور الميناء ومداخلها للتحقق من عمقها ، فأجرى عدة من التجارب انتهى منها إلى ان الميناء تحتمل دخول البوارج الكبرى ، لكن الأميرال برويس بعد ان استشار قواد الاسطول رأى من المخاطرة أن يعود الى ميناء الاسكندرية اذ لم يطمئن الى التجربة التى زاولها الكابتن باري ، وكان متردداً بين البقاء فى أبو قير والاقلاع الى جزيرة كورفو ، لكنه آثر البقاء فى أبو قير لأنه لم يكن لديه المؤونة الكافية للسفر الى كورفو ، ثم لأنه لم يشأ أن يغادر سواحل مصر قبل أن يطمئن على مصير الجيش الفرنسى بها ، فأخذ يترقب أخبار نابليون بنافد الصبر وينتظر نتيجة محاربته لجيش مراد بك ، فأضاع وقته فى الانتظار دون أن يتخذ خطة حاسمة أو ينصب المدافع بالبر لحماية مواقع الأسطول ، وكان بشاطىء ( أبو قير ) قلعة قديمة[١] لكنها لا تصلح لحماية الخليج إذ كانت فى حاجة الى تحصينها بالمدافع الكبيرة ، وكذلك يوجد فى مدخل الخليج جزيرة صغيرة[٢] (شرق القلعة ) وضع فيها الاميرال برويس بعض المدافع لكنها لم تستطع منع السفن الانجليزية من دخول الخليج يوم الواقعة

وكان الاميرال نلسن قبل الواقعة لا ينفك يتجول فى البحر الابيض المتوسط ليتعرف مواقع الاسطول الفرنسى ، فانه بعد ان وصل الى الاسكندرية يوم ٢٨ يونيه

---

(١) هى المعروفة الآن بطابية البرج وهى على الراجح منشأة فى عهد السلاطين البحرية

(٢) سميت بعد الواقعة جزيرة نلسن

ولم يجد العمارة الفرنسية كما قدمنا أقلع بأسطوله الى شواطىء الأناضول ثم عاد ادراجه الى صقلية ليمتار منها، ثم قصد ثانياً الى سواحل مصر، وفى غضون ذلك اشتد قلق الرأى العام الانجليزى فى لندن لأن الأميرال نلسن لم يستطع فى بحر ثلاثة أشهر تقريباً قضاها فى خوض البحر ان يدرك الاسطول الفرنسى وترك نابليون يستولى على مالطه ويبلغ سواحل مصر ويحتلها بجنوده، ولكن نلسن لم يقصر فى تعقب أسطول الاميرال برويس بل كانت الأقدار هى التى باعدت بينه وبين خصمه على ظهر البحار، الى أن حضر بأسطوله تجاه الاسكندرية صباح يوم أول أغسطس (يوم الواقعة) ثم اتجه ناحية أبوقير حيث كان الاسطول الفرنسى راسياً يترقب

## الموازنة بين الاسطولين

لم تكن قوة الاميرال نلسن تزيد عن قوة الاسطول الفرنسى لا فى عدد السفن ولا فى عدد المدافع والبحارة، فان اسطول نلسن كان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة حربية منها أربع عشرة بارجة كبرى، وكان عدد مدافع أسطوله ١٠٥٠ مدفعاً وبحارته ٨٢٤٠ من المقاتلة

أما أسطول الاميرال برويس فى أبوقير فكان مؤلفاً من سبع عشرة سفينة حربية منها ثلاث عشرة بارجة كبرى وأربع فرقاطات كبيرة عدا السفن المسلحة المتوسطة الحجم أوالصغيرة التى كانت حولها[1] وكان سلاح هذا الاسطول ١١٨٠ مدفعاً وبحارته ٨٩٠٠ مقاتل

فيتبين من هذه المقابلة أن الاسطول الفرنسى وان كان أقل عدداً فى البوارج الكبيرة إلا أنه فى مجموعه أكثر عدداً وعتاداً من الاسطول الانجليزى، لكن الفارق الحقيقى الذى جعل للاسطول الانجليزى الغلبة والنصر فى القتال هو كفاية

(١) ترك الاميرال برويس بميناء الاسكندرية بعض السفن الحربية وكثيراً من السفن الخفيفة

القيادة والنظام وحسن الاستعداد الحربى ، ولا غرو فشخصية نلسن هى من أهم أسباب عظمة انجلترا البحرية ، كأن الرجل أسطول إنسانى

لم يكن الاميرال برويس يتوقع أن يصادمه الاسطول الانجليزى فى خليج أبوقير، فلم تكن بوارجه على تمام من أهبتها واستعدادها ، وكان عدد كبير من ضباطها وبحارتها يتخلفون فى الشواطىء أو فى الاسكندرية يمتارون منها

بدء المعركة

ففى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم أول أغسطس ، بدأت بوارج الاميرال نلسن تظهر فى الأفق تجاه أبو قير ، وتبيّنها الاميرال برويس وهى فى عرض البحر بعيدة عن الساحل ، ولم يكن يعتقد أنها جاءت لمهاجمته ، بل كان يظن بادىء الامر أنها تريد محاصرة الخليج ، غير أنه رآها تقترب شيئاً فشيئاً على سَمْتٍ من الخليج ، فتحقق أن المعركة لا محالة ناشبة

وكانت تتقدم أسطول الاميرال نلسن عند اقترابه من الخليج سفينة مصرية [١] ويرجح « ريبو » أن هذه السفينة كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الاسطول الانجليزى الى مسالك البحر فى تلك الجهة يساعدونه بذلك على الاسطول الفرنسى [٢]

وعند الساعة الثالثة اصدر الاميرال برويس امره للسفن بالتأهب للضرب ، وأخذ الاميرال نلسن يرقب مواقع بوارجه ، وكان فى حركاته حرا بعكس الاميرال

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء فى تقرير الضابط الفرنسى شارييه Charrier الذى كان على ظهر البارجة فرنكلن من بوارج الاسطول الفرنسى ما يؤيد هذه الرواية ، قال « فى منتصف الساعة الخامسة مساء شاهدنا فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الاسكندرية تتصل باحدى السفن الانجليزية ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة ( الرت ) Alerte اطلقت عليها عدة قنابل »

برويس فان حركاته كانت مقيدة لانحصاره فى الخليج ، وبالرغم من أن بعض أركان حربه نصحوه بالخروج فى عرض البحر لملاقاة الاسطول البريطانى فانه آثر البقاء فى مرساه ، وكان موقف الاسطول الفرنسى مما ساعد الاميرال نلسن على احكام تدبيره لان البوارج الفرنسية كانت مصطفة على خط يشبه القوس بعيدة عن الشاطىء الغربى للخليج كما تراه فى الخريطة ، فاستطاعت البوارج الانجليزية أن تندسَّ بينها و بين الشاطىء ، وخُيّل للاميرال برويس أن مثل هذا الحادث يستحيل وقوعه لقلة عمق البحر فى هذا الموضع ، فكان هذا الخطأ فى التقدير وجرأة الاميرال نلسن فى الوصول الى هذا المكان من أسباب الكارثة التى حلت بالاسطول الفرنسى

توصل الاميرال نلسن الى حصر البوارج الامامية من الاسطول الفرنسى وعددها ثمان بين صفين من البوارج ، فصارت هدفا لنارين ، ومع ان البوارج الفرنسية الاخرى كانت حرة وخارجة عن مرمى هذه النار وكان فى استطاعة قائدها الكونتراميرال فيلنوف [illegible] أن ينتهز الفرصة ويحيط بالبوارج الانجليزية ، فانه ظل جامداً وترك البوارج المحصورة عرضة للنار من الجانبين ، فكان جمود فيلنوف من أسباب انتصار نلسن

## بدء الضرب

بدأ الضرب فى نحو الساعة الخامسة مساء ،[1] وكان شديداً مروّعا ، فانقلب البحر كأنه بركان من نار أو وادٍ من أودية الجحيم ، وأبدى الفريقان بسالة فى القتال لكن البوارج الانجليزية كانت أرسخ فى موقفها وأشد احكاماً فى الرمى ، وكانت البارجة ( أوريان ) بارجة الاميرال برويس هدف لنار شديدة ، على ان الاميرال

---

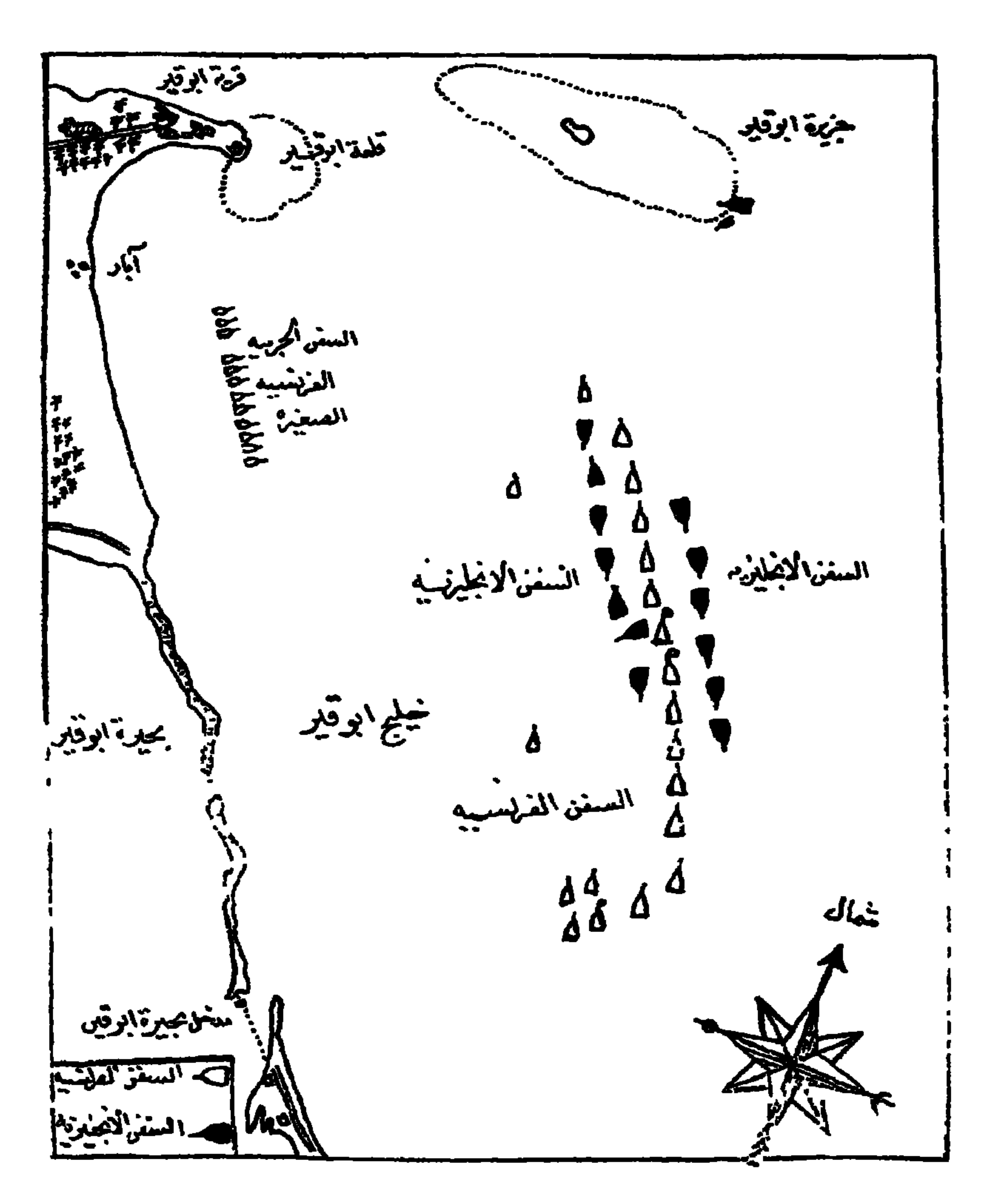
(١) يوجد اختلاف فى الرواية عن بدء الضرب ، ففى رواية أخرى أنه بدأ الساعة السادسة مساء على اننا نرجح الرواية الاولى لان الكاتب الفرنسى فيفان دينون كان وقت المعركة واقفاً على برج ابى مندور جنوب رشيد عند ابتداء الضرب ومعه هناك فقال انه ابتدأ الساعة الخامسة مساء

لم يفتأ يصدر الاوامر ويحرض رجاله على القتال و يبدى شجاعة كبرى فى قيادة المعركة ، وفى نحو الساعة السابعة مساء أصيب فى رأسه وفى يده ، لكنه استمر فى مركز القيادة وضمد جراحه بنفسه

مقتل الاميرال برويس

الى أن كانت الساعة الثامنة فأصابته قنبلة مدفع فصلت فخذه الأيسر وقضت على حياته ، وتولى القيادة بعده الكونترااميرال فيلنوف واستمر الضرب حتى كانت الساعة التاسعة مساء ، وهنالك اضطرمت النار فى البارجة أوريان وظلت مشتعلة فيها الى أن اتصلت بمستودع الذخائر، فانفجر ونسف السفينة نسفا، فتطايرت اجزاؤها فى الفضاء ومات معظم بحارتها حرقا وغرقا ، وكان ذلك فى منتصف الساعة الحادية عشرة مساء ، فساد من الجانبين سكون رهيب لهول الانفجار ، ثم تجدد الضرب بعد نصف ساعة ، وكان الاسطول الفرنسى قد تضعضع بسبب ماحل به من الخسائر ولاسيما بعد مقتل أميراله وضياع كبرى بوارجه ، واستمر الضرب الى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ثم انقطع وخفت وطأته ، ثم تجدد فى نحو الساعة الخامسة صبيحة اليوم التالى ( ٢ أغسطس ) وانتهت المعركة فى نحو الساعة الثانية عشرة ، انتهت بالقضاء على الاسطول الفرنسى ، وانسحب الكونترااميرال فيلنوف بأربع سفن حربية هى البقية الباقية من العمارة الفرنسية ومضى بها قاصداً الى مالطه ، ولم يتعقبه الاميرال نلسن لما أصاب سفنه من العطب ولما حل برجاله من الاعياء .

كان الضرب من الجانبين فى خلال المعركة شديداً مروّعا ، وقد سمعه وقتئذ سكان الاسكندرية ورشيد ، ففى منتصف الساعة السابعة مساء ( يوم أول أغسطس ) سمع فى الاسكندرية قصف المدافع آتيا من أبوقير ، فعلم الناس أن معركة هائلة وقعت فى الخليج ، واستمر دوىّ المدافع الى الساعة العاشرة ليلا ، و بعد ذلك سمعوا صوت انفجار البارجة « أوريان » وشاهد بعض الضباط الفرنسيين فى منتصف




خريطة واقعة ابو قير البحرية — أول اغسطس سنة ١٧٩٨

وموقف الاسطولين عند ابتداء القتال

الساعة الحادية عشرة ليلا لهيب النار يتصاعد فى جنح الظلام وتحققوا فى اليوم التالى انها نار البارجة ( أوريان ) ساعة انفجارها ، فكان المنظر رهيباً يملأ النفوس فزعا ورعبا ، وانقطع صوت الضرب عقب الانفجار مدة عشرين دقيقة ، ثم تجدد بشدة وانقطع ثانية فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل

وكذلك سمع قصف المدافع فى رشيد خلال المعركة ورأى أهلها لهيب النار يخترق ظلمة الليل ، فأدركوا ان بارجة كبيرة تحترق ( وهى البارجة أوريان ) وسمعوا دوىّ انفجارها ، وفى اليوم التالى عند أذان الفجر تجدد صوت الضرب ، وفى الصباح سمعوا انفجاراً آخر وهو انفجار الفرقاطه لارتميز L'Artemise الفرنسية التى جنحت على الشاطىء فأمر ربانها باشعال النار فيها حتى لا تقع فى يد الانجليز

خسائر الفرنسيين

فقد الفرنسيون فى معركة أبوقير سفنهم الكبرى ولم ينج منها إلا أربع سفن وهى التى فرت من الميدان بقيادة فيلنوف أما الباقى فقد دمرت النار بعضها وغرق البعض الآخر وغنم الانجليز ست سفن ضموها الى أسطولهم ، فكان انتصار نلسن فى موقعة أبوقير ساحقاً لأنه خرج منها وقد حطم الاسطول الفرنسى وزاد عدد أسطوله بما غنمه من السفن الفرنسية ، وكانت خسارة الفرنسيين فى الأرواح فادحة فقد قتل أميرال الاسطول ومعظم أركان حربه وقتل وغرق من الفرنسيين نحو أربعة آلاف ولم ينج من بحارة الاسطول سوى ثلاثة آلاف ، أما الباقون فكانوا فى عداد القتلى أو الاسرى . وقد أعاد الانجليز الأسرى الفرنسيين الى الاسكندرية تخلصا من مؤونتهم ومنهم كثير من الجرحى ، وخسر الانجليز ٢١٨ قتيلا و ٦٧٨ جريحاً وأصيبت بوارجهم بتلف وعطب من شدة الضرب

دامت المعركة طويلا ، وكان الحظ فيها متمايلا بين الفريقين ، ومر وقت كان الشك فى مصيرها عظيما ، لكن أسبابا ثلاثة عجلت بهزيمة الفرنسيين ، وهى احاطة الاسطول الانجليزى بالبوارج الأمامية ، واحتراق البارجة أوريان ، وجمود

الكونتراميرال فيلنوف ، وقد أصيب الأميرال نلسن بجرح فى رأسه وأغمى عليه لكن جرحه كان خفيفاً ولما زال عنه الاغماء عاد الى موقفه فى القيادة حتى تم له النصر وخرج من المعركة رافع الرأس خالد الذكر يحمل لواء البطولة والمجد

ويسمى بعض المؤرخين هذه المعركة « معركة النيل البحرية »

## رواية الجبرتى عن الواقعة

كتب الجبرتى ما يلى عن واقعة أبو قير

« وفيه ( ٦ ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ) تواترت الاخبار بحضور عدة مراكب من الانكليز الى ثغر اسكندرية ، وانهم حاربوا مراكب الفرنساوية الراسية بالميناء ، وكانت أشيعت هذه الاخبار قبل وتحدث الناس بها فصعب ذلك على الفرنساوية ، واتفق ان بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد احمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون انه تحدث بذلك ، فأمروا باحضاره وذكروا له ذلك ، فقال انى حكيت ما سمعته من فلان النصرانى ، فأحضروه أيضاً ، وأمروا بقطع لسانيهما ، أو يدفع كل منهما مائة ريال فرانسه نكالا لهما وزجرا عن الفضول فيما لا يعنيهما ، فتشفع المشايخ ، فلم يقبلوا ، فقال بعضهم اطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم ، فلم يرضوا ، فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى ( من أعضاء الديوان ) وأحضر مائتى ريال ودفعها فى الحضرة ، فلما قبضها الوكيل ردها ثانيا اليه ، وقال فرقها على الفقراء ، فأظهر انه فرقها كما أشار وردها الى صاحبها ، فانكف الناس عن التكلم فى شأن ذلك ، والواقع ان الانكليز حضروا فى أثرهم ( أى الفرنسيين ) الى الثغر وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم وأحرقوا القايق الكبير المسمى نصف الدنيا (١)

---

(١) يريد البارجة « أوريان » ( الشرق ) ولا ندرى لماذا اختار هذا الجبرتى هذا الاسم ، ولعلها سميت فى مصر ( نصف الدنيا ) اشارة الى عظمها أو اشارة الى أن اسمها ( الشرق ) ومن الشرق والغرب تتكون هذه الدنيا ، وظاهر من

وكان به أموالهم وذخائرهم وكان مصفحا بالنحاس الاصفر واستمر الانكليز بمراكبهم بمينا الاسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس »

## نتائج المعركة

يوجد فى تاريخ الحروب وقائع معدودة امتازت بعظم تأثيرها فى مصير الدول والشعوب ، ومن هذه الوقائع واقعة أبو قير

كانت هذه الواقعة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية وظهرت نتائجها الخطيرة على مدى الأيام ، فان فرنسا حينما شرعت فى احتلال مصر كانت تعتمد على قوتها البحرية فى البحر الأبيض المتوسط لامداد الحملة وحماية المواصلات بينها وبين السواحل المصرية ، وكانت تأمل إذا بقيت قوتها البحرية فى البحر الأبيض سليمة أن تتفاهم مع تركيا بشأن مصر لأن تركيا لم يكن لها فيها سوى سيادة اسمية لا أهمية لها ، وكانت من جهة أخرى تؤمل أن يكون اتصالها بمصر بطريق البحر مما يسهل عليها اتخاذ وادى النيل قاعدة عسكرية لضرب انجلترا فى الهند وانشاء دولة شرقية تحقق اطماع فرنسا ، فلو أن معركة أبو قير انتهت بانتصار الاسطول الفرنسى لضمنت فرنسا سيادتها فى البحار واستطاعت أن تضرب انجلترا الضربة القاضية بل أن تغزوها فى جزيرتها

لكن كل هذه الاعتبارات والآمال قد تلاشت فى معركة أبو قير إذ قضت هذه المعركة على البحرية الفرنسية فى البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت لانجلترا السيادة على البحار، وقطعت الاتصال بين فرنسا وسواحل مصر، وأحيت آمال الدول الملكية التى قهرتها فرنسا فى ميادين القتال ، فبدأت تتأهب للأخذ بالثار متشجعة بما حل بالأسطول الفرنسى من الدمار ، وانتهزت انجلترا فرصة انتصارها على ظهر البحر

---

رواية الجبرتي عن الواقعة انه لم تصله عنها بيانات وافية وان الفرنسيين كانوا يتكتمون أخبارها ويتهددون كل من يذيع أنباءها كما رأيت مافعلوه مع السيد احمد الزرو وصاحبه

لتجتذب اليها الدول الموتورة ، وانضمت الروسيا الى تلك الدول وعقدت محالفة جديدة مؤلفة من انجلترا والنمسا والروسيا وتركيا ونابولى لمحاربة الجمهورية الفرنسية ، وتمكنت انجلترا من أن تحمل الباب العالى على اعلان الحرب على فرنسا والانضمام الى الروسيا عدوته التاريخية وفتح البحر الأبيض للبوارج والقوات الروسية ، ولم تلبث الحرب أن تجددت بين النمسا وفرنسا ، وانضمت الروسيا الى النمسا ، وقامت الثورة فى مالطة ضد الفرنسيين ، وتحرج مركز فرنسا أمام تحالف الدول الملكية عليها ( التحالف الثانى ) ، فكانت واقعة أبوقير نذيراً بتزلزل مركزها وضياع فتوحاتها فى القارة الأوروبية والبحر الأبيض

هذا من الوجهة الدولية ، أما من الوجهة المحلية فقد كانت خسائر الفرنسيين فى واقعة أبوقير فادحة ، فقدوا بوارجهم الحربية الكبرى ، وفقدوا معظم ضباط وبحارة هذه البوارج بين قتيل وغريق.

وكان وقعها فى نفوس الجنود من الجيش الفرنسى اليماً ساحق ، لانهم أدركوا أن المواصلات قد انقطعت بينهم وبين فرنسا وانهم أصبحوا شبه منفيين فى القارة الافريقية ، وكان وقع الكارثة أشد على جنود الاسكندرية ورشيد والسواحل القريبة من مكان الواقعه ، فانهم شهدوا عن كثب آثار الكارثة ، فكانوا يرون المستشفيات غاصة بالبحارة المصابين الذين مزقت القنابل أجسامهم ، ويرون على الشاطىء بقايا العمارة المتحطمة وأشلاء الجثث التى كانت تقذفها الامواج الى البر ، ويشهدون فى عرض البحر البوارج الانجليزية تمخر عباب اليم فتلقى الرعب فى قلوبهم

أثرت كل هذه المشاهد فى روح الجنود المعنوية ، فأخذت قواهم تضعف ونفوسهم تيأس وعزائمهم تخور ، وكان من نتائج الواقعة انها ضعضعت هيبة فرنسا فى جهات الاسكندرية ورشيد والبحيرة وشجعت أهلها على الثورة ، وأخذ الاسطول الانجليزى بعد انتصاره فى تلك المعركة يشدد الحصار على الشواطىء فقطع كل المواصلات التجارية التى كانت مصدر ثروة الاسكندرية ، ونضب معين التجارة فضاقت الحال واشتد الكرب بأهل الاسكندرية وزاد سخطهم على الاحتلال الفرنسى ، وكان الفرنسيون

يتوقعون فى كل وقت أن ينزل الانجليز قوات الى الشاطىء فيوقعوا الفرنسيين فى الخطر وبخاصة اذا اتصلوا بالاهالى الذين كانوا على استعداد للثورة

كتب كليبر الى نابليون بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة طويلة يشكو فيها حرج مركزه قال فيها « ان مركزى هنا حرج عسير ولا سبيل لى الى معرفة خطتكم ونهجكم وانى مضطر أن أواجه الحالة كما لو كنت أتلقى تعليماتكم ، ان الانجليز يستطيعون أن يضربوا المدينة بالقنابل وان يقتحموا الثغر دون أن يخشوا مقاومة ، ان لدينا بطاريات تحمى الثغر ولكن وسائلنا محدودة بالنسبة لمجهودات العدو الذى يظهر أنه مصمم على سحقنا ولو ضحى فى سبيل ذلك أسطوله بأكمله، ومن الواجب أن توجهوا عنايتكم لضمان المواصلات بطريق البر ومن رأيى أن كتيبة الجنرال ديموى لا تغنى بل لا تعد شيئا يركن اليه فى تحقيق هذا الغرض »

وكتب له رسالة أخرى يقول فيها « لم تصلنى كلمة منك منذ خمسة وثلاثين يوما، ان وجودكم هنا ضرورى لرفع المستوى المعنوى للجنود ، فان كثيراً من الاشاعات تنتشر عن مركز الجيش وأنى أعمل فى احباطها بقوة ولكن أخشى أن تترك أثرا فى النفوس فوجودكم يردُّ الى الجنود طمأنينتهم »

على أن نابليون قد محا بتأثيره السحرى أثر اليأس الذى تسرب الى نفوس الجنود، وشدد عزائمهم ونفخ فيهم روح الاقدام والبسالة ، وقابل الكارثة برباطة جأش ردت الى الجنود قوتهم المعنوية ، واستمر فى مشاريعه يدبرها وينفذها كأن لم يحدث حادث ولم يقع مصاب ، وكتب الى كليبر يقول « ان ما حدث سيضطرنا أن نعمل أعمالا أعظم مما كان فى حسباننا »

وأخذ كليبر من جهته يواجه الكارثة بجلد وثبات ، وجمع فلول البحارة الذين نجوا من الهلاك وعددهم نحو ثلاثة آلاف فانشأ منهم فرقة جديدة سميت ( الفرقة البحرية ) وكلف نابليون الاميرال جانتوم بان يجمع بقايا السفن السليمة وينظمها من جديد على أن يكون قومندانا لها ، وأوفد الجنرال مارمون الى الاسكندرية لتحصين السواحل وحمايتها من هجمات السفن الانجليزية

## ديوان الاسكندرية

رأى الجنرال كليبر أن يستميل الأهالى ويتبع حيالهم طريق المسالمة لانه شاهد بنفسه ولاسيما بعد كارثة الاسطول الفرنسى أن هوة الخلاف تزداد اتساعا بين الفرنسيين والمصريين ، فأنشأ فى الاسكندرية ( ديوانا ) على مثال ديوان القاهرة وعين لرآسته الشيخ محمد المسيرى ، وأصدر بذلك منشوراً الى الاسكندريين فى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩٨، فديوان الاسكندرية لم يؤسس كما ترى الا عقب واقعة (ابوقير) وكان كليبر هو مؤسسه

ان أغلب المؤرخين يذكرون أن نابليون هو الذى أسس الديوان بالاسكندرية، وهـذا خطأ كما ترى ، وقد جاء فى يوميات الجنرال كليبر بتاريخ ٤ فركتيدور (٢١ أغسطس) « فى هذا اليوم أنشأ الجنرال كليبر ديوانا فى الاسكندرية مع أنه لم تصله تعليمات من القائد العام فى هذا الشأن وكان لا يعلم اذا كان القائد العام يريد انشاءه ، على أنه أسسه حتى يقاوم دسائس الانجليز فى المدينة » وما جاء فى يوميات كليبر من أنه لم تصله تعليمات نابليون فى شأن انشاء الديوان فيه شيء من التجاوز ، لأن نابليون أرسل الى كليبر فى ٢٨ و٣٠ يوليه سنة ١٧٩٨ ( مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٠ ) يأمره بتأسيس ديوان الاسكندرية طبقا للنظام الذى رسمه لدواوين الاقاليم ، وهذه الرسالة تنفى أن كليبر أسس الديوان من تلقاء نفسه ، وتنفى كذلك ما زعمه أغلب المؤرخين من ان نابليون هو الذى أسس ديوان الاسكندرية أثناء اقامته بها وقبل رحيله عنها ، لأنه غادرها يوم ٧ يوليه ، ولم يصدر أمره بانشاء دواوين الأقاليم ـ ومنها ديوان الاسكندرية ـ إلا فى ٢٧ يوليه كما تقدم الكلام عن ذلك ( ص ١٠٣ ) وكان وقتئذ بالقاهرة

## الشيخ محمد المسيرى

قلنا ان الشيخ محمد المسيرى عين رئيساً لديوان الاسكندرية ، والشيخ المسيرى هذا كان كبير علماء الاسكندرية فى ذلك العصر ، وكان ابنه معتقلا مع الأهالى

الذين قبض عليهم عقب مقتل الجنـدى الفرنسى فى المدينة (انظر ص ١٨٦) ثم أفرج عنه بعد محاكمة القاتل ، وكان الشيخ تقياً ورعاً يؤثر العدالة والاستقامة ، ومما يذكر عنه فى هـذا الصدد ما جاء فى يوميات الجنرال كليبر انه أوصى أعضاء الديوان الذى أسسه بالنزاهة فى عملهم والابتعاد عن الطمع فى أموال الناس ، فأجاب الشيخ المسيرى محتجاً بأنه إذا لاحظ على أىّ من أعضاء الديوان أنه يبسط يده فى أموال الناس فهو يعتزل لفوره رآسة الديوان فطلب منه كليبر أن يكتفى بتبليغه الأمر دون أن يعتزل حتى لا يحرم قومه ولا يحرم الافرنج خدمته وعمـله ، فهذا يدلك على مكانة الشيخ المسيرى فى نفوس الشعب وما كان له من الاحترام عند المصريين والافرنج ، ويدلك على منزلته عند نابليون انه كتب الى الجنرال مارمون فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ [(١)] يطلب اليـه ان يذهب لمقابلة الشيخ المسيرى ويبلغه بالنيابة عنه كيف احتفل بالمولد النبوى بالقاهرة ، قال فى رسالته « وأبلغه عنى انى أجتمع مع كبار المشايخ ورؤساء الاشراف بالقاهرة بين حـين وآخر ، وانه لا يوجد أكثر منى اعتقاداً بطهارة وقدسية الدين الاسلامى [(٢)] » وكتب نابليون الى الشيخ المسيرى رسالة من القاهرة يقول فيها « لقـد سرنى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وانك تعـلم مبلغ احترامى لك منذ عرفتك وأتعشم ان يجيء الوقت الذى أستطيع أن أجمـع عقلاء البـلاد وعلماءها وان أضع نظاما موحـداً مؤسساً على مبادىء القرآن ، تلك المبادىء الصحيحة التى تـكفل للناس سعادتهم [(٣)] »

بين كليبر ونابليون

وأخذ كليبر يختلف بالزيارة الى محافظ المدينة ورئيس الديوان ويتودد اليهما ، ودعاهما مع أعضاء الديوان الى مأدبة عنده احكاماً لروابط الود معهم كما أنه عين

---

(١) و(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣١٤٧

(٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣١٤٨

مرتبات شهرية لكل من المحافظ وأعضاء الديوان وفرقة الشرطة

وطفق يراسل بعض رؤساء العشائر فى دمنهور ليستميلهم الى جانبه بالحسنى ويأخذ منهم عهوداً بالولاء ، وكان يرى تنظيم مديرية البحيرة على قاعدة اعتبار البلاد الكائنة بين الاسكندرية ودمنهور وشابور ورشيد مديرية واحدة تدخل فيها هذه المدن وتخصص لها قوة من ثلاثة آلاف جندى وبذلك يمكن تنظيم جباية الاموال بطريقة تكفل نفقات الجيش والادارة (١)

وكان كليبر شديد الرغبة فى ان لا يرهق أهالى الاسكندرية بضريبة جديدة أو سلفة اجبارية تزيد فى ضيقهم ، فاختلف هو ونابليون من هذه الوجهة لان نابليون كتب اليه بضرورة فرض ضريبة جديدة لسد نفقات الجيش وتقوية معدات الدفاع عن الاسكندريه وترميم بعض المراكب البحرية التى نجت من كارثة أبو قير ، لكن كليبر أصر على رأيه وكتب الى نابليون يقول ان طريقة المصادرة تؤول الى حدوث مجاعة وفتنة فى المدينة

وكان كليبر يرى أن ليس من الحكمة فى الوقت الذى بدأ فيه يتودد الى الأهلى بانشاء الديوان والمخابرة مع زعماء العشائر فى دمنهور لاعادة الصفاء أن يثير سخط أهالى الاسكندرية بفرض ضريبة جديدة ، وكان من جهة أخرى لايرى رأى نابليون فى الاهتمام باحياء القوة البحرية الفرنسيه لأن هذه القوة محكوم عليها بالفشل مهما انفق عليها ، فاستاء نابليون من رد أوامره ولا سيما فى فرض ضريبة جديدة على تجار الاسكندرية وكتب اليه فى أول سبتمبر يعاتبه ويأمره بفرض الضريبة ، فغضب كليبر من نابليون اقالته من وظيفته بالاسكندرية والحاقه بفرقته واعتذر بعدم اضطلاعه بالوظائف الادارية ، ورشح الجنرال دوجا ليخلفه ، على أن نابليون كان يعرف مقدرة كليبر ومميزاته فخشى أن يحرم مساعدته ورجا منه بالحاح أن يبقى فى مركزه ، وكتب له كتابا يعرب له فيه عن تقديره لمواهبه ويسترضيه عما فرط منه فى عبارات

---

(١) رسالة كليبر الى نابليون ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨

عتابه ، فتأثر الجنرال كليبر من لهجة الود و الاحترام التى خاطبه بها نابليون وأذعن لرغبة القائد العام[1] وكتب له يرجو مقابلته فى القاهرة ، وسافر كليبر من الاسكندرية لهذا الغرض فوصل الى القاهرة حين نشوب الثورة فيها

وكانت الحال فى الاسكندرية تزداد حرجا بسبب تضييق الانجليز للحصار البحرى المضروب على الثغر ، وقد بذل كليبر مافى وسعه لتخفيف وطأته ولكن الانجليز شددوا نطاق الحصار فأسروا فى يوم واحـد ( ٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) ٣٨ سفينة احرقوا منها ٢٨ سفينة وأعادوا بحارتها الى البر

## الجنرال مارمون فى الاسكندرية

تولى الجنرال مانسكور Manscourt قومندانية الاسكندرية عقب سفر كليبر الى القاهرة ، لـكنه لم يلبث أن استدعاه نابليون لما ظهر له من عجزه وعين الجنرال مارمون قومندانا لها[2] وظل فى هذا المركز الى أن رحل مع نابليون الى فرنسا فى أغسطس سنة ١٧٩٩

وقد أبدى مارمون حزما فى الاضطلاع باعباء مركزه ولـكن صادفته صعوبات كبيرة أهمها ظهور الطاعون فى الاسكندرية ، فقد كن لظهوره وضرورة حصره فى الثغر أثر شديد فى صعوبة المواصلات بين الاسكندرية وباقى بلاد القطر المصرى ، فاشتد الضيق بالاسكندرية وأهلها

اهتم الجنرال مارمون بتحصين الاسكندرية وتولى الكولونل كريتان Crettin انشاء قلعتين لصد هجمات البوارج الانجليزية ، القلعة الاولى بكوم الدكة ، والقلعة الأخرى بكوم الناضورة

---

(١) سنعود تفصيلا الى هذا الموضوع فى مراسلات نابليون وكليبر بالفصل السادس من الجزء الثانى

(٢) أمر نابليون الصادر في ٢٨ نوفمبر سنة١٧٩٨، والجنرال مارمون كان من قواد فرقة الجنرال بون وهو الذي اقتحم باب رشيد يوم احتلال الاسكندرية

وقد سميت القلعة الاولى باسم قلعة كريتان تخليداً لاسم بانيها الكولونل كريتان الذى قتل فى معركة أبو قير البرية كما سيجىء بيانه فى الفصل الرابع من الجزء الثانى

وسميت القلعة الثانية قلعة كافريللى تذكارا لاسم الجنرال كافريللى الذى قتل فى حصار عكا

ونصب الفرنسيون المدافع فى قلعة قايتباى وفى قلعة أبو قير و بنوا قلعة بجزيرة العجمى مكان البرج القديم الذى كان بها ووضعوا المدافع على مدخل الميناء فى نهاية شبه جزيرة راس التين

وقد بقيت قلعتا كافريللى وكريتان الى عهد محمد على باشا وشاهدهما الجنرال مارمون حينما زار الاسكندرية سنة ١٨٣٥ و يقول فى رحلته (١) أنه الفاهما كما كانتا فى عهد الحملة الفرنسية وان محمد على حفظ عليهما ( والصحيح أنه رممهما وجدد ماتخرب من بنائهما ) ويقول أيضا أن محمد على رمم سور المدينة وأصلح أبراجه وركب فيه المدافع وجعل الاسكندرية فى حالة منيعة من الدفاع

---

(١) رحلة المرشال الدوق دى راجوز ( الجنرال مارمون ) الجزء الثالث

# الفصل التاسع

## فى رشيد

رشيد هى الآن مركز من مراكز مديرية البحيرة ، لكنها فى عصر الحملة الفرنسية وقبلها كانت مديرية قائمة بذاتها وموقعاً حربياً وتجاريا على جانب كبير من الاهمية ، ذلك أنها مفتاح النيل ( فرع رشيد ) على البحر الأبيض المتوسط وطريق المواصلات النيلية الى داخلية البلاد ، وزادت أهميتها بعد طمر ترعة الاسكندرية التى كانت تصل الاسكندرية بالنيل (١) فقد كانت هذه الترعة طريق الملاحة بين الاسكندرية والقاهرة وسائر بلاد الوجه البحرى ، فلما طمرت فى عصر المماليك بسبب اهمالها صارت المواصلات بين الاسكندرية والقاهرة بطريق رشيد (٢) فكانت المراكب تنقل البضائع من الاسكندرية الى رشيد وتنزل النيل أو تفرغ شحنتها فى مراكب أخرى حتى تصل الى القاهرة ، وصارت رشيد مركزاً تجاريا عظيما يلتقى بها جزء كبير من صادرات الدلتا وواردات أوروبا والأناضول ، وكان عدد سكانها يبلغ ١٣٫٠٠٠ نسمة فى حين ان الاسكندرية لم يكن بها سوى ثمانية آلاف ، وكان لها فى نظر نابليون أهمية حربية كبرى لأنها صلة الاتصال للجيش الفرنسى ، وذلك ان المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالى فى داخل البلاد ، فاختار الفرنسيون طريق

---

(١) أنظر الكلام عنها فى الفصل الخامس

(٢) كتب المسيو دى ما ييه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر فى رسائله ( وصف مصر ) يقول انه لما جاء مصر سنة ١٦٩٢ كانت ترعة الاسكندرية قد طمرتها الرمال منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة فكانت جافة فى زمن الشتاء ولم تكن المراكب تسير بها قط حتى فى وقت الفيضان وان هذه الحالة قد أكسبت رشيد مكانة كبيرة فى ذلك العصر

النيل للاتصال بين القاهرة والاسكندرية ، فكانت رشيد من هذه الوجهة موقعاً حربياً عظيم الاهمية ، لذلك بادر نابليون وهو بعد فى الاسكندرية فأوفد اليها الجنرال دوجا لاحتلالها

## احتلال رشيد

سار الجنرال دوجا من الاسكندرية براً واحتل فى طريقه قرية أبو قير وقلعتها ثم احتل رشيد يوم ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ ولحق به بحراً أسطول من السفن المدفعية الخفيفة بقيادة الكونتراميرال بيرى Perrée واجتاز بوغاز رشيد ليكون تحت تصرف الجيش الفرنسى

لم يلق الجنرال دوجا مقاومة فى رشيد ، ويقول المسيو دفيلييه أحد مهندسى الحملة الفرنسية(١) تعليلا لذلك انه ذهب الى رشيد بعد احتلالها فعلم ان تسليمها راجع الى المنشورات التى أذاعها نابليون فى البلاد يوم نزوله الاسكندرية وحملها الى الاهالى الاسرى المسلمون الذين فك الفرنسيون أسارهم من مالطه وجاؤا بهم الى مصر ، قال وكان أهالى رشيد قبل اطلاعهم على هذه المنشورات عزمين على قتال الاوروبيين فما اطلعوا عليها رجعوا عن عزمهم

كانت مهمة الجنرال دوجا بعد احتلال رشيد أن ينزل النيل بفرقته يلتقى بباقى الفرق فى الرحمانية ، فلم يمكث برشيد أكثر من ٢٤ ساعة وترك بها حامية من مائتى جندى بقيادة الضابط سان فوست Saint Faust استقرت بالمدينة فى انتظار قدوم الجنرال منو Menou الذى عينه نابليون حاكما لرشيد، وكان الحكام الذين قد هربوا منها منذ علموا بنبأ احتلال الاسكندرية فخلت المدينة من حكومة تقوم على حراسة الأمن ، لكن الأهالى أنفسهم مدفوعين بفطرتهم السليمة أقاموا من بينهم حكومة أهلية اختاروا لها ثلاثة من خيارهم وحلوهم محل حكامهم الأقدمين ، فلما وصل الجنرال منو(٢) عمل بوصايا نابليون فى احترام العمد والكبراء ، ولم تكن

---

(١) فى كتابه « يوميات وذكريات عن حملة مصر »

(٢) يوم ١٢ يوليه سنه ١٧٩٨

القوة التى تحت قيادته تزيد عن اربعماية رجل ، ومع أن أهل رشيد كانوا أسلس قياداً من أهل الاسكندرية فقد طلب الجنرال منو أن يمده كليبر بقوة أخرى من الجنود وأوضح فى طلبه (١) أن العرب يزعجونه على الدوام وأن الأهالى لم يخلدوا الى الطاعة ولذلك فهو يشكو من قلة عدد الحامية ، وقد ألجأته الحاجة لتموين الجيش الى فرض الضرائب على الأهلين فأثار كامن سخطهم ، وبالرغم من مناعة مركز الحامية الفرنسية فى المدينة فان سلطة الفرنسيين لم تتجاوز ضواحيها ، يتبين ذلك من الحادثة الآتية

أوفد الجنرال كليبر ياوره الكولونل داماس Damas برسالة الى نابليون ، فسافر الرسول من الاسكندرية الى رشيد وهناك التقى بالجنرال منو فأعد له سفينة انحدر بها فى النيل يوم ١٦ يوليه سنة ١٧٩٨ ليصل الى القاهرة ، لكنه لم يكد يبتعد عن المدينه حتى هاجمه أهالى مطوبس وادفينا فاضطر أن يعود أدراجه الى رشيد (٢) ثم أعاد الكرة ثانية ولكن لم يكد يتجاوزها باثنى عشر فرسخاً حتى أطلق الفلاحون على سفينته الرصاص من جانبى النيل فاضطروه الى الرجوع مرة أخرى(٣)

كانت مهمة الجنرال (منو) فى رشيد دقيقة فقد كان مطلوبا منه أن يحمى البوغاز من غارات الاسطول الانجليزى ويحمى مواصلات الجيش بالاسكندرية عن طريق فرع رشيد ويتولى الادارة المدنية لمنطقة رشيد ويخضع حركات التمرد والهياج التى كانت تظهر فيها ، وقد زاد مركز (منو) حرجا بعد واقعة (أبو قير) لأن رشيد من أول المدن التى علمت بكارثة الاسطول الفرنسى فى خليج أبو قير وأولها تأثراً من وقوعها ، فأخذت روح المقاومة تقوى فى نفوس الأهالى ، كتب الجنرال (منو) الى نابليون فى هذا الصدد بتاريخ ٤ أغسطس يقول :

---

(١) بتاريخ ٢٠ يوليه سنة ١٧٩٨

(٢) خطاب منو الى كليبر فى ٢٣ يوليه سنة ١٧٩٨

(٣) يوميات أركان حرب الجنرال كليبر بتاريخ ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨

« لا أكلمكم عن نكبة أسطولنا ، وحسبي ان أقول انها فظيعة ، وليس لدى للآن تفصيلات عنها لصعوبة المواصلات بين رشيد وأبو قير بطريق البر وصعوبة الخروج من البوغاز الى البحر ، ولا أدرى مبلغ تأثيرها فى نفوس أهالى البلاد ، على أنى من جهتى سأبذل كل ما فى وسعى لتخفيف أثرها وسأستعمل مع الاهالى سياسة اللين والمجاملة والتودد مع الحكمة والحزم، وبالجملة فان أهالى هذه الجهة متصفون بالوداعة ولكنهم على جانب من الدهاء والمكر »

وكتب فى اليوم نفسه رسالة أخرى الى الجنرال برتييه يشكو فيها من مقامه فى رشيد ويقول « إن الذى يهمنى بالذات ان لا أبقى هنا طويلا فانك تشعر انى أوثر مائة مرة أن أكون على راس فرقتى على أن أدفن فى هذه المدينة ، انى حضرت الى مصر لا كسب الفخر أو أموت فيها ، لا لأجمع الضرائب »

حادثة السالمية

على أن الجنرال ( منو ) لم يكن معروفا بالحكمة ولا بحسن السياسة، فانه فى الوقت الذى كان يعد بمعاملة الاهالى باللين والتودد قد استعمل الغلظة والفظاظة مع أهالى «السالمية» الواقعة على الشاطىء الايمن من النيل (بمركز فوه الآن) عقابا لهم على مهاجمتهم شرذمة من الجنود أرسلها منو الى نابليون تحمل اليه البريد ، فقتلوا ثمانية من هؤلاء الجنود ، مضى على هذه الحادثة شهر وانتقل ( منو ) الى القرية التى اتهمت بأن المهاجمين منها فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ومصادرة مواشيها ثم أضرم النار فى القرية

كتب منو الى كليبر بتاريخ ١٣ أغسطس يقول « لقد قمت هذا اليوم بجولة لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين فأحرقت القرية وقتلت تسعة من الاهالى ، وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالى وادى النيل » وقال فى آخر رسالته هذه « ان مركزه فى المدينة دقيق لأن القوة التى لديه قرابة ستمائة جندى وليسوا جميعا فى الخدمة وهذا العدد لا يكفى للدفاع عن المدينة ، والعرب ينوشونه كل يوم »



اضرام الفرنسيين النار فى السالمية سنه ١٧٩٨ انظر ص ٢٤٦
( نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون )

وقد أصدر منو لمناسبة هذا التنكيل منشوراً عن هذه الحادثة موجها الى «الأهالى الساكنين على شاطىء النيل من رشيد وفوه والقرى الواقعة ما بين رشيد وأبو قير ومن أبو قير الى الرحمانية» وهذا المنشور يصف ما أوقعه من العقاب بأهالى السالمية وشيخهم الشيخ سلامه العقدة ويتهدد البلاد بمثل هذا العقاب ان وقع اعتــداء على الجنود الفرنسيين

وقد زاد فى استياء الأهالى كثرة الضرائب التى كان الفرنسيين يبتزونها بالقهر والقوة

وكان الجنرال (منو) يخشى عقب كارثة (أبو قير) البحرية أن يفكر الانجليز فى انزال قوة الى البر ولكن تحقق له بعد ذلك أن هذا المشروع ليس فى برنامجهم فاطمأن نوعاً على مركزه فى رشيد وأخذ يجتهد فى توطيد مكانته بين الأهالى بالتودد اليهم ، ولكنه لم يوفق الى كسب قلوب الناس فكانت الحوادث تصدمه كلما ظن أنه وطد مركزه، وكان من هذه وحه قيل لاحتيص وحرر محدء فى الظواهر

ومن هذه الحوادث حادثة شباس عمير

## حادثة شباس عمير

ومحصل هذه الحادثة أن الجنرال منو أراد أن يجوب بعض البلاد ويزور بعض جهاتها فاصطحب معه الجنرال مارمون وبعض أعضاء لجنة العلوم والفنون منهم دينون ودلوميو [1] وبعض الضباط فى كتيبة من الجنود نحو ٢٠٠ جندى

غادرت الكتيبة رشيد يوم ١٢ سبتمبر فوصلت الى برنبال فى اليوم نفسه ثم فى يوم ١٣ الى مطوبس ثم فى يوم ١٤ الى فوه ثم الى دسوق يوم ١٥

ووصل منو يوم ١٦ الى حدود مديرية رشيد وعاد الى دسوق ثم عرج على ن يكتشف

---

(١) تكلمنا عنهما ص ١٣١ و ١٣٩

شمال الدلتا ويصل الى البرلس، فوصل الى سنهور المدينة ، وكانت الرحلة حتى هذه القرية هادئة لم يتخللها حادث أو مصادمة، بيْد أنه لم يكد يصل الى شباس عمير حتى اصطدمت الكتيبة بمقاومة عنيفة من الاهالى

كان الجنرال منو يتقدم الكتيبة ومعه الجنرال مارمون والمسيو فيفان دينون والمسيو دلوميو والرسام جولى وبعض الحاشية وترجمان ، فلم تكد تقترب هذه الطليعة من شباس عمير حتى أُطلق عليهم الرصاص ، فاضطروا الى التراجع ليتصلوا بالكتيبة ولكن أحد رفقاء الجنرال منو وهو الفنان جولى لم يستطع اللحاق بهم وعجز عن المسير فتركه اخوانه وقتله الاهالى .

قصدت الكتيبة الى كفر شباس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ، وبهذا السور أبراج حصينة كان يحتلها الاهالى ويطلقون منها النار ، فاقتحمت الكتيبة الفرنسية هذا السور ، فلم يجد الاهالى بداً من إخلاء الابراج ماعدا برجا واحداً امتنع المدافعون عنه وأخذوا يطلقون النار على الجنود الفرنسيين ، وأصابت رصاصة جواد الجنرال منو فخر قتيلا ، فأدرك خطورة الموقف ، وكان رجال البرج مستمرين على إطلاق الرصاص ، فرأى من المجازفة الاقتراب منه ، فأمر باضرام النار فى القرية ، وكان الليل قد أقبل ، وجاء كثير من سكان القرى المجاورة لانجاد إخوانهم ، فأمر « منو » جنوده باطلاق الرصاص فى الظلام لمقاومة المهاجمين ، واندلعت النيران فى القرية كلها ، فاضطر الاهالى المدافعون عن البرج الى إخلائه ، وكانت الجموع قد تكاثرت حول القرية حتى بلغ عددهم من ألفين الى ثلاثة آلاف من الفلاحين ، فاضطر الجنرال منو الى الانسحاب وعاد بكتيبته الى سنهور المدينة ثم الى دسوق بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً، ثم قفل راجعا الى رشيد بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه ، وكان غرضه الوصول الى البرلس ، فعاقته هذه الحادثة وكتب الى نابليون ينبئه بخبرها ويذكر له ضمن رسالته أن التوغل فى هذه الجهات أمر محفوف بالمخاطر

لان معظم القرى فى تلك البلاد محصنة ولان إخضاعها يستلزم قوة من سبعمائة الى ثمانمائة جندى مسلحين بالمدافع

وكتب في هذا الصدد الى الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يعترف بأنه كان مخدوعا فى رحلته هذه وكان متأثراً من المقابلة الحسنة التى قوبل بها فى بعض القرى ولكن هذه الحادثة جعلته أكثر احتراساً ، فلا يأخذ الامور بظواهرها إن كان يظن الا ظنّا .

# الفصل العاشر

## عود الى البحيرة ورشيد

### الاضطرابات فى البحيرة

عرف القارئ ما حل بقوة الجنرال ديموى Dumuy من الهزيمة (١) ، وقد أوردنا ذلك فى الفصل الخامس لارتباطه بحوادث الاسكندرية

رأى الجنرال كليبر وقتئذ أن مثل هذه الكتيبة لا تستطيع أن تخضع اقليما كبيراً كالبحيرة ولا سيما القسم الشمالى منه المتصل بالاسكندرية ، وان الاضطرابات فيه لا تؤدى الى قطع مواصلات الجيش فحسب ، بل تقضى الى تهديد الاسكندرية براً وحرمانها الماء الذى يرد اليها من ترعة الاسكندرية ( ترعة المحمودية الآن )، فكتب الى نابليون فى ٣١ يوليه سنة ١٧٩٨ يخبره أنه من الضرورى وضع حاميات قوية من المشاة والفرسان فى دمنهور والكريون مسلحة بالمدافع الخفيفة لترود جوانب الترعة ، قال كليبر فى رسالته « من العبث أن نعتمد على كتيبة الجنرال ديموى ، ومن الواجب تخصيص فرقة من الجنود لتوطيد النظام فى المثلث الكائن بين البحر والنيل وترعة الاسكندرية ، وحماية المواصلات البرية فى إقليم البحيرة »

وكان الاهالى لا ينفكون يقطعون ترعة الاسكندرية ليمنعوا وصول المياه الى الثغر ، فقامت كتيبة من ستمائة من الجنود وحاصرت بلدة بركة غطاس وأحرقتها ونهبتها .

وقد سبق القول أن نابليون كان شديد الاهتمام بهذه الترعة لأنها جزء من طريق المواصلات المأمون الذى اختاره بين الاسكندرية والقاهرة ، وزاد اهتمامه بها بعد واقعة ( أبو قير ) ، ذلك أن الفرنسيين لم يكن فى مقدورهم بعد أن ضاعت عمارتهم البحرية أن يسلكوا طريق البحر من الاسكندرية الى رشيد فالنيل ، كما

---

(١) راجع الفصل الخامس ص ١٨٧

أن المواصلات البرية كانت شاقة ومعرضة لهجمات الأهالى ، فلم يكن أمام الفرنسيين إلا جعل ترعة الاسكندرية صالحة للمواصلات النيلية ، وقد عهد نابليون الى بعض مهندسى الحملة الفرنسية فى انفاذ هذا المشروع(١)

عزم نابليون على مقاومة الاضطرابات فى مديرية البحيرة وبخاصة بعد هزيمة الجنرال ديموى،فعين الادجودان جنرال بيرب Birbes قومندانا لها وأصدر اليه تعليماته وأهمها أن يأخذ أهل دمنهور أخذاً شديداً بمسلكهم إزاء كتيبة الجنرال ديموى وأمره بالسير من القاهرة الى الرحمانية ومن هذه الى دمنهور انفاذا لمهمته بها وهى « تجريد الأهالى من السلاح وإعدام خمسة من أعيان المدينة فيهم واحد من العلماء ممن اشتركوا فى الواقعة والأربعة الآخرون من المحرضين ، واعتقال خمسة وعشرين رجلا يأخذهم رهائن فيرسلهم الى القاهرة بطريق النيل » وأن يعود بعد ذلك الى الرحمانية إذ عزم نابليون على جعلها عاصمة مديرية البحيرة(٢).

مهمة الجنرال مارمون

على أن قوات الجنرال بيرب والجنرال ديموى لم تكن كافية لقمع هيَج فى البحيرة ولا سيما بعد واقعة ( أبوقير) التى أضعفت هيبة النفوذ الفرنسى فى تلك الجهات ، فعهد نابليون الى الجنرال مارمون Marmont إخضاع القسم الشمالى منها ،

---

(١) جاء فى مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران Bertrand فى سانت هيلين أن ترعة الاسكندرية هى أهم ترعة فى مصر من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وقد وضع المسيو لوبير Le Père كبير مهندسى الري فى عهد الحملة الفرنسية مشروعاً لجعل هذه الترعة صالحة للملاحة ولكن المشروع لم ينفذ ، وظلت الاسكندرية فى عزلة عن المواصلات النيلية الى أن أمر محمد على باشا بانشاء ترعة المحمودية مكانها

(٢) كانت الرحمانية موقعاً حربياً على جانب كبير من الأهمية لوجودها على فتحة ترعة الاسكندرية فأقام الفرنسيون فيها قلعة ومستودعاً لمهمات الجيش على أن نابليون بعد أن جعلها وقتاً ما حاضرة البحيرة عاد وجعل دمنهور حاضرتها

وتأمين مواصلات الجيش بطريق ترعة الاسكندرية والنيل ، وحماية شواطئ البحر من هجمات السفن البريطانية ، وتحصين المواقع التى يحتمل أن تنزل بها الجنود الانجليزية من جهة العجمى ( غرب الاسكندرية ) الى رشيد ، وتحصين بوغاز رشيد و بوغاز البرلس (١)

تلقى مارمون تعليمات نابليون بعد عودته من حادثة شباس عمير (٢) وكانت تعليماته تنطوى على القسوة والفظاعة فقد كتب له يقول

« انكم ستجدون تحت قيادتكم قوة من ١٥٠٠ جندى ، فبهذه القوة ونشاطكم وكفايتكم تستطيعون ان تكسبوا فخراً جديداً وتقديراً عاماً لخدماتكم ، فكونوا ليل نهار على تمام الأهبة ، واغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة »

صدع مارمون بالأمر فوصل الى الرحمانية يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨،وسار فى تاليه قاصداً الى دمنهور وراد شواطئ ترعة الاسكندرية حتى بلغ الثغر وأصلح ماخرب به الأهالى وأقام المخافر العسكرية على الترعة وترك ألفى جندى لحراستها وجعل الرحمانية مركزاً رئيسيا للقوات المخصصة لهذه الحراسة ومركزاً آخراً بالقرب من العكريشه ، عدا المخافر التى أنشأها على جانبي الترعة والسرايا ( الدوريات ) المسلحة التى أقامها لحراستها

تمكن الجنرال مارمون من اصلاح الترعة وتنظيم المواصلات فيها مدة الفيضان فأزجى فيها كثيراً من مهمات الجيش من الاسكندرية الى القاهرة وانتعشت

---

(١) كانت بحيرة البرلس أوسع مدى مما هى عليه الآن فكانت تمتد غرباً الى القرب من برنبال الواقعة على البر الشرقى للنيل فخشى نابليون أن تدخل السفن الانجليزية الخفيفة من بوغاز البرلس وتصل الى مقربة من برنبال ورشيد، فأمر باقامة قلعة على مدخل البرلس مكان القلعة القديمة التى كانت آثارها باقية الى ذلك العصر ، وقد تم إنشاء القلعة الجديدة فى عهد منو ، وكذلك أمر نابليون باقامة برج محصن فى برنبال

(٢) راجع الفصل التاسع ص ٢٤٩

الاسكندرية لوصول الغلال بطريق الترعة وأخذت المواصلات تزداد نشاطاً فكان بالترعة نحو مائتي سفينة عاملة فى النقل ليلا ونهاراً ، على أن انخفاض النيل حال دون سير المراكب فيها ، وعطل الانتفاع بها ولم تستمر الملاحة فيها أكثر من بضعة أسابيع

وكانت السفن الانجليزية قد استأنفت فى ذلك الحين مناوراتها حول الاسكندرية وصحبتها بعض السفن التركية فاضطر الجنرال مارمون أن يعود أدراجه الى الاسكندرية ليتولى حمايتها من الهجمات الطارئة .

## تجدد الاضطرابات حول رشيد وفى دمنهور

كانت السفن الانجليزية والتركية توفد بعض الرسل الى الشواطئ لتحرض الاهالى وتشجعهم على الثورة ، وقد قويت روح الهياج فى ضواحى رشيد وكان ذلك في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فتكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين بجهات رشيد وأبو قير وشمال البحيرة

احتشد حول رشيد جمع من الأهالى يوم ٢٠ نوفمبر فهاجموا القوات الفرنسية وأسروا منهم بعض رجالها ، واتهم الفرنسيون مشايخ بلاد دكو ودفين بتأييدهم وان لهم يدا فى هذه الأعمال العدائية ، فجيء بمشايخ رشيد وقتلوا رمياً بالرصاص بأمر الجنرال منو .

وازداد الهياج كذلك فى جهة دمنهور التى لم تكن خضعت من قبل للسلطة الفرنسية ، وكانت تابعة عسكرياً للرحمانية التى رابط بها الأدجودان جنرال لتورك Leturc فأراد تجريد حملة عليها ، لكن قوته لم تكن كافية لهذه التجريدة فضلا عن أنها كانت منصرفة فى صد مناوشات جموع الأهالى فى جهة الرحمانية ، وكان الجنرال مورا Murat ذلك الوقت فى رشيد فأوفده منو الى دمنهور لقمع الحركات العدائية التى تجددت بها .

سار مورا من رشيد الى الرحمانية ومن هناك قصد الى دمنهور يعاونه الأدجودان جنرال لتورك ، فاحتل دمنهور فى أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأعدم بعض زعماء الحركة

رمياً بالرصاص ، وفرض على المدينة اتاوة كبيرة من الغلال والمواشى ، ولكن جموع العرب والأهالى الذين قاموا بالحركات الثورية بها تمكنوا من الانسحاب وأوغلوا فى الصحراء ، فعزم مورا على تعقبهم وأقام عدة أيام فى دمنهور لاخضاع القرى المجاورة وفرض الغرامات عليها وناط بالجنرال لتورك هذه المهمة (١) ثم غادر دمنهور فى أوائل ديسمبرقاصداً قرية ( دير أمس ) إذ جاءه أن الثوار وعلى رأسهم سليم كاشف وابراهيم الشور بجى مرابطون بها ، وصل الجنرال مورا ليلاوعلى الرغم من أنه ضرب الحصار عليها فان الثوار قد تسللوا منها وسط طلقات الرصاص وأوغلوا ثانية فى الصحراء وكانت الجنود الفرنسيةقدأنهكهاالتعب فاستراحت فى دير أمس ثم استأنفت السير تقتفى أثر الثوار ، لكنها لم تستطع اللحاق بهم واضطر الجنرال مورا ان يعود الى دمنهور ثم سار منها الى الرحمانية وتلقى بها أوامر نابليون . فقام من الرحمانية يوم ٥ ديسمبر قاصداً الى شابور فوصلها ليلا ، وهناك علم أن قافلة من الاهالى والعرب ضاربة فى الصحراء بالقرب من الصواف ،فقام فى صباح ٦ ديسمبر يتعقب هذه القوة ، ومر بعدة قرى فألفاها خالية قد هجرها أهلها فراراً بأنفسهم من نقمة الجنود الفرنسيةووصل الى الصواف ، ومن هناك سار على أثر القافلة الى أن اقترب من مؤخرتها وكانت مؤلفة من ستمائةفارس ، فأطلق عليهم الفرنسيون النار فانهزموا تاركين معسكرهم وما فيه من المتاع والعتاد ، فجد الجنرال مورا فى تعقبهم لكنه عجز عن اللحاق بهم فاكتفى بالقاء النار فى معسكرهم وأحرق كل ما كان به من المتاع والغلال

واستأنف مورا سيره قاصداً الطرانه بالبر الغربى لفرع رشيد ثم رجع منها أدراجه الى القاهرة

---

(١) كتب الجنرال مورا الى نابليون بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ يصف هذه المهمة بقوله : « ان الجنرال لتورك جمع الخيول والاموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وانه أرسل الى الاسكندرية ستين جملا محملة غلالا مما صادره من البلاد »

# الفصل الحادى عشر

## فى القليوبية والشرقية

علم القارىء أن ابراهيم بك فر بمماليكه عقب انتصار الفرنسيين فى معركة الاهرام الى جهة بلبيس وحمل معه ما استطاع من الاموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التى اصطحبها معه فى معركة الاهرام فبقيت سليمة وان كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجس من وجود هذه القوة فى شرق الدلتا وعلى مسافة اربعين كيلو متراً تقريبا من القاهرة خطراً يتهدد مركز الفرنسيين ، فاعتزم بعد أن وطد مركزه فى القاهرة أن يتعقب ابراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك أجمع أن يطارد مراد بك الذى فر بالبقية الباقية من فلول جيشه الى الوجه القبلى وعهد بذلك الى الجنرال ديزيه Desaix ، على أن نابليون لم يكن يرى بادىء الأمر فى قوة مراد بك خطراً كبيراً لان الهزيمة التى حقت به فى معركة الاهرام قد قصمت أظفره وهونت من أمره ، لذلك اعتزم أن يوجه معظم قوته لسحق ابراهيم بك فى شرق الدلتا إذ كان لم يزل مرابطاً بجيشه فى بلبيس ، أضف الى هذا اقتراب وصول قافلة الحج من الحجاز ، فرأى نابليون من مصلحته السياسية أن يتولى تأمين مواصلات الحج ليحمد أثر ذلك فى نفوس المصريين والعالم الاسلامى ويكتسب عطف أمراء الاسلام ثم ليقنع شريف مكة وعرب الحجاز واليمن أن وجود الفرنسيين فى مصر لا يقطع سبل الحج الذى هو مصدر أرزاقهم

واليك ما ذكره الجبرتى عن خطة نابليون ازاء قافلة الحج « فى عشرين صفر سنة ١٢١٣ ( ٣ اغسطس سنة ١٧٩٨ ) حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب ( أعضاء ) الديوان الى باش العسكر ( القائد العام ) وأعلموه بذلك وطلبوا منه أماناً لامير الحج ( صالح بك ) فامتنع ، وقال لا أعطيه ذلك الا بشرط أن يأتى فى قلة ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج

فقال لهم أنا أرسل لهم اربعة آلاف من العسكر يوصلونهم الى مصر ، فكتبوا لامير الحج مكاتبة بالملاطفة وانه يحضر بالحجاج الى الدار الحمراء و بعد ذلك يحصل الخير ، فلم تصل اليهم الجوابات حتى كاتبهم ابراهيم بك يطلبهم للحضور الى جهة بلبيس فتوجهوا الى بلبيس وأقاموا هناك أياما »

## توزيع القوات الفرنسية فى الوجه البحرى

صحت عزيمة نابليون اذن على تجريد جيش للقضاء على قوة ابراهيم بك فى شرق الدلتا، وقبل أن يزحف بجيشه وزّع القوات العسكرية على مديريات الوجه البحرى لاخضاعها وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها ، فعين الجنرال فيال « Vial » قومندانا لمديريتى المنصورة ودمياط والجنرال زايونشك « Zayonchek » قومندانا للمنوفية، والجنرال فوجير « Fugières » قومندانا للغربية على أن يكون مقره المحلة الكبرى عاصمة المديرية فى ذلك العصر ، والجنرال مورا « Murat » للقليوبية ،والجنرال رامبون « Rampon » لاطفيح ، وأبقى الجنرال دزيه « Desaix » جنوب الجيزة يرصد حركات مراد بك وأمر الجنرال لكلرك « Leclerck » بالسير الى بلبيس

## المعارك بين الخانكه وأبى زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسى تزحف يوم ٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة بقيادة الجنرال لكارك، فمرت بالقبة ومنها سارت الى المطرية ثم الى المرج دون أن تجد مقاومة ما فان الاهالى كانوا ينزحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن المرج سارت القوة الى الخانقاه ( الخانكه ) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزا لتموين الجيش وانشئوا بها الافران ومخازن البقسماط والزاد والعلف

قصدت الكتيبة يوم ٤ من اغسطس قرية أبى زعبل ولكن صدهم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى [1] ( الشماريخ ) فعادت الكتيبة أدراجها الى الخانكه وأخذ الاهالى من العرب والفلاحين يتعقبونها الى مستقرها

---

(١) تقرير الكابتن مالوس الى الجنرال كافاريللى

وفى صباح ٥ من اغسطس هاجم الاهالى المخافر الامامية لمعسكر الخانكه بقوة أكبر من قوتهم الاولى اذ انضم اليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم، فبرزت من غابة أبي زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين، ولم يكن هؤلاء يحملون فى الغالب الا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب تخفيهم الزروع والغيطان وانضم اليهم سكان القرى المجاورة [١] فاطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ، ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيدا عن المعسكر فعادوا الهجوم كرة بعد كرة واضطروا جنود المقدمة الى التراجع

## انسحاب الفرنسيين من الخانكه ثم احتلالها

وأدرك الجنرال لكرك الخطر من الاصرار على الدفاع عن قرية الخانكه فأجمع أن ينسحب منها ويرتد غربا ، وفى أثناء المعركة ثارت قرية الخانكه نفسها فوثب أهلها برجال حرس الفرنسيين الموجودين بها فجردوهم من السلاح وقتلوهم

استولى الفزع على الجنود الفرنسية ولم يطيقوا البقاء معرضين للهجمات ، فجمع القائد ضباطه وتشاوروا فى الامر فاستقروا على إخلاء الخانكه والتراجع عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس وكان عددهم نحو ستمائة مقاتل وارتدوا قاصدين المطرية ، وفى طريقهم اليها قابلهم الكولونل سلكوسكى أحد ياوران نابليون فنبأهم بقرب وصول فرقة الجنرال رينييه Reynier لنجدتهم ، لكنهم استمروا فى إدبارهم حتى وصلوا الى المرج وقضوا بها آخرة الليل ، ولما لاح الفجر وصلت قوة جنرال رينييه فرجعوا يريدون استرداد الخانكه ووصلوا اليها ظهر يوم ٦ أغسطس وقد زاد عددهم فوجدوها خالية من أهلها فاحتلوها [٢]

---

(١) تقرير الكابتن مالوس

(٢) أخذنا هذه البيانات عن تقرير الكابتن مالوس الى الجنرال كافريللى، واليك ما ذكره الجبرتى فى هذا الصدد « فى ثالث وعشرين صفر ( سنة ١٢١٣ ) خرجت

كانت الخانكه من جهة موقعها ذات شأن عظيم لأنها تكاد تكون فى منتصف الطريق بين القاهرة و بلبيس ، لذلك وجه اليها نابليون عناية كبرى فى اتخاذها نقطة ارتكاز للزحف،وكان فى أوامره العسكرية يهتم بجعلها على تمام الأهبة لاقامة الجنود بها

وكان سيرالجيش محفوفا بصعوبات كبيرة لاصطدامه مع الاهالى أين توجه ،كتب الجنرال لوجيه Laugier الى الجنرال دوجا فى ٦ أغسطس يقول :

«ثارت القرى التى أرسلنا اليها بعض فرسان الدراجون لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات ، وكل الدلائل تدل على انه لا بد من قوة كبيرة لاخضاع هذه الجهات »

## احتلال بلبيس

ثم وصلت بقية الجيش الفرنسى بعد استرداد الخانكه ، فجاء نابليون ومعه فرقتا الجنرال دوجا والجنرال لان وانضمت اليهما فرقة الجنرال رينييه

فسار نابليون على رأس الفرق الثلاث قاصداً بلبيس عاصمة الشرقية فى ذلك الحين ووصل اليها يوم ٩ أغسطس بعد أن أخلاها ابراهيم بك ، فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن يغادر حدود مصر الى الشام ، ولقى الفرنسيون فى بلبيس من بقى من الحجاج بعد أن ارتحل بعضهم الى بلادهم قبل وصول الجيش الفرنسي وكان أمير الحج صالح بك قد لحق بابراهيم بك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم لأن ابراهيم بك كتب الى أمير الحج بعد معركة الاهرام ينصح له أن لا يذهب الى القاهرة ويرغب اليه فى اللحاق به فى الصالحية ، وبقى فى بلبيس من لم يقدر من

---

طائفة من العسكر الفرنساوى الى جهة العادلية وصار فى كل يوم تذهب طائفة بعد أخرى ويذهبون الى جهة الشرق ، فلما كان ليلة الاربعاء خرج كبيرهم بونابارت وكانت أوائلهم وصلت الى الخانكه وأبى زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنعوا فقاتلوهم فضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا الى بلبيس »

الحجاج أن يغادرها فلم يتعرض لهم الفرنسيون بسوء وأرسلوهم الى القاهرة تحرسهم كوكبة من جنودهم (١) وفي ذلك يقول الجبرتى « وفى ١٨ صفر ملك الفرنسيس بلبيس من غير قتال ومن بقى فيها من الحجاج لم يشوشوا عليه فأرسلوهم الى مصر ومعهم طائفة من العسكر »

## معركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨)

لم يضيع نابليون وقتا في بلبيس بل ارسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس فى أعقاب ابراهيم بك ، ووصل الجيش الى (القرين) فى ١٠ أغسطس دون أن يلحق بقوة ابراهيم بك الذى غادرها قبيل وصول الجيش الفرنسى قصداً الى الصالحية ، فتعقبه نابليون بفرسانه دون أن ينتظر فرقة الجنرال لان Lannes وانضم اليه الجنرال مورا Murat الذى جاء من قليوب بقوة الفرسان، فاشتبك نابليون مع قوة المماليك فى معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ اغسطس سنة ١٧٩٨) لانها وقعت على مقربة منها، وقد حمى وطيس القتال فى هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على قوة الفرنسيين لانها كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم لا يزيد عن أربعمائة وكان فرسان المماليك أكثر منهم عددا وأشد بأساً، فكانت هذه أول معركة نشبت بين فرسان الجيشين والتقى فيها الفريقان وجها لوجه واقتتلوا بالسلاح الابيض فتحرج مركز الفرنسيين لان فرسان المماليك اشتهروا بالمهارة والبسالة فى قتالهم ولا غرو فقد كانوا أحلاس الخيل وأبناء الطعن والضرب، ولم ينقذ نابليون الا وصول المدد من الجنرال لكلرك ، فاضطر المماليك الى الانسحاب ، وجرح فى هذه المعركة من خاصة رجال نابليون الكولونل سلكوسكى (٢) ياوره والكولونل ديترس Detres وغيرهما من الضباط جروحا بالغة ، وفى ذلك يقول الجبرتى

---

(١) عين نابليون بعد عودته الى القاهرة مصطفى بك كتخدا (وكيل) الوالى أميراً للحج بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ (٢١ ربيع الأول سنة ١٢١٣) كما أوضحنا ذلك فى الفصل الثانى عشر

(٢) هو الذى قتل فى ثورة القاهرة . راجع الفصل الثالث عشر

« فركب صارى عسكر وأخذ معه الخيالة وقصد الاغارة على الحملة ، وعلم ابرهيم بك بذلك أيضاً ، فركب هو وصالح بك ( أمير الحج ) وعدة من الامراء المماليك وتحاربوا معهم ساعة أشرف فيها الفرنسيس على الهزيمة لكونهم على الخيول ، واذا بالخبر وصل الى ابراهيم بك بان العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها ، فعند ذلك فر بمن معه على اثره ، وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالعرب فاجلوهم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة ، فارتحلوا الى قطيا ورجع صارى عسكر ( نابليون ) الى مصر وترك عدة من عساكره متفرقين فى البلاد » فالجبرتى ينسب انسحاب المماليك فى معركة الصالحية الى نهب العربان للحملة واضطرار اولئك الى اجلائهم عنها واستعادتها منهم ، وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب ابراهيم بك ومن معه الى حدود مصر الشرقية

عودة نابليون الى القاهرة

غادر نابليون الصالحية يوم ١٣ اغسطس عائداً الى القاهرة ، وفى طريقه اليها جاءه نبأ كارثة الاسطول الفرنسى في واقعة أبو قير ومقتل الاميرال برويس [١] ، حمل اليه هذا النبأ الضابط لوبيه « Lover » ياور الجنرال كليبر فى رسالة بعث بها اليه كليبر من الاسكندرية ، فلما تلا نابليون الرسالة وفيها أعظم نكبة أصابت الحملة الفرنسية تلقاها بالجلد والصبر ، ولم تبد عليه علائم الاضطراب وأخذ يسأل الياور عن تفاصيل الواقعة مما لم يرد فى الرسالة ، وبعد أن أتم الياور كلامه أبلغ نابليون نبأ الكارثة الى أركان حربه قائلا لهم « ان أسطولنا لم يعد له وجود ، والآن يجب علينا أن نبقى في هذه البلاد أو نخرج منها عظماء كما فعل الاقدمون » ثم عجل بالمسير الى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر المعنوى الذى أحدثته أخبار الكارثة في مصر فجاءها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ وهناك خاطب ضباطه قائلا « هانحن أولاء مضطرون

---

(١) يقول نابليون في رسالته الى كليبر الواردة فى مجموعة رسائله رقم ٣٠١٨ انه تلقى نبأ الواقعة فى الصالحية ، وفى تقريره الى حكومة الديركتوار يقول انه تنقاه بعد ان غادر الصالحية اذ كان على بعد فرسخين منها

أن نعمل العظائم ، ونعملها ، وان نؤسس فى هذه البلاد دولة كبيرة،ونؤسسها ، إن البحار تفصل بيننا و بين الوطن ولاسلطان لنا على هذه البحار،ولكن ليس ثمت فاصل يفصلنا عن آسيا وأفريقية،وعندنا من الرجال العدد الوافر ، ولا ينقصنا المدد لتقوية صفوفنا ، ولا تنقصنا الميرة والذخيرة ،واذا احتجنا الى المزيد منها فانشامبى Champy [١] وكونتى Conté [٢] كفيلان بصنعها [٣] »

## الاضطرابات فى الشرقية

عادت فرقة الجنرال لان الى القاهرة ورجع الجنرال مورا Murat بالقوة التى كانت تحت إمرته الى قليوب لاخضاع مديرية القليوبية،وسار الجنرال دوجا بفرقته الى المنصورة لاخضاع القسم الشمالى الشرقى من الدلتا [٤] وبقيت فرقة الجنرال

---

(١)و(٢) من أعضاء المجمع العلمى ، أنظر ما كتبناه عنهما بالفصل الرابع ص ١٣٢ و ١٣٤

(٣) نقلنا هذه العبارة عن مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران بسانت هيلين ، وقد كتب الجنرال مارمون فى كتابه ( رحلة المارشال الدوق دى راجوز ) يقول انه كان بجانب نابليون حينما جاءه نبأ كارثة العمارة الفرنسية فى معركة أبو قير وانه تلقى هذا النبأ وهو فى خيمته(خيمة مارمون) فى معسكر الخانكة بين بلبيس والقاهرة ( وهذا يخالف ماذكره نابليون كما بيناه فى هامش الصحيفة السابقة ) قال مارمون يصف حالة نابليون عندئذ«تلا الجنرال بونابرت رسالة كليبر وظل ثابتاً رابط الجأش ، وأبان عن شىء كثير من علو النفس وقوة البأس ، ولم يكتم عنا عظم النكبة وما تجره من العواقب ، ولكنه اجتهد فى أن يخفف عنا أثر وقعها »وذكر الجنرال مارمون أقوال نابليون وهى لاتخرج فى معناها عما جاء فى مذكراته

(٤) قبل أن يغادر نابليون الصالحية أصدر أمره بتعيين الجنرال دوجا قومندانا لمديرية المنصورة وان يقتصر الجنرال فيال على دمياط

رينييه وفرسان الجنرال لكلرك فى الصالحية حيث أمر نابليون بتحصينها لحراسة برزخ السويس ومراقبة حدود مصر الشرقية ، واتخذ من الصالحية مركزاً لتموين الجيش، وعين الجنرال رينييه قومندانا لمديرية الشرقية وعهد اليه فى إقامة الطوابى والاستحكامات بالصالحية و بلبيس واستطلاع أخبار المماليك الذين ارتدوا الى حدود سوريا، وقد اتخذ الجنرال رينييه مسجد الصالحية مركزاً عسكريا للفرقة وأنشأ فيه الأفران والمخابز للجيش وأقام فيه المدافع ، وأقره نابليون على صنيعه المثير لحفيظة الأهالى وأمره «أن يزيد عدد الافران التى بالمسجد وعدد المدافع التى نصبوها عليه وأن يتخذ فيه مخزنا للبارود ومستشفى للجنود ويجعل منارته مرصداً لاستطلاع الحركات العدائية» وقد صارت الصالحية و بلبيس فى عهد الحملة الفرنسية من المواقع الحصينة وعلى جانب كبير من المناعة.

كان مقام رينييه فى الشرقية مقرونا باعتداء الجنود وجرائمهم، فكانوا يجوبون القرى وينهبون الماشية فيضطر الناس الى الرحيل عن قراهم لتهريب مواشيهم فى الصحراء ، وعبثا حاول الجنرال رينييه أن يرد النظام فى صفوف جنوده أو يقنع الاهالى فى القرى المجاورة أن يبيعوه ما يحتاج اليه من المواشى بالثمن فلم يصدقوه ولم يأمنوه واخذوا يفرون من القرى بمواشيهم نجاة بها من النهب والسلب، وكانت صدور الفرنسيين من جهة أخرى موغرة على الاهالى لحملهم السلاح فى وجههم ، فاضطربت الاحوال فى الشرقية وظل الاهالى يناوشون الحاميات الفرنسية و يتهددون مواصلات الجيش مع القاهرة ، وقد اشتدت حركاتهم فى أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ عند ما انبثت فكرة الثورة فى القاهرة و بدأت تذيع الدعوة اليها فى الاقاليم ، فاجترأ الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية ، وقتل الاهالى ترجمان الجنرال رينييه الخاص على مقربة من معسكر الفرنسيين فى بلبيس ، وقاوم أهل (بيشه) الفرنسيين عند ماشرعوا فى مصادرة خيولهم ، و بدأ أهالى بلبيس وأعوانهم من العرب المجاورين لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين فى المدينة ولم يستطع الجنرال رينييه ان يخضع القوم لان الفيضان قد خرب الارض فعطل حركات الجنود فى انتقالها الى القرى كما ان الامراض قد فتكت بالجنود

وبخاصة الرمد الذى انتشر بينهم

وقد كان لجمود الحامية الفرنسية ولدعوة الثورة التى استطارت من القاهرة فى الاقاليم اثر كبير فى تشجيع الاهالى على مهاجمة معسكر بلبيس بقوة كبيرة، فبدأ هجومهم فجر يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ فاقبل مائة من الفرسان من قبيلة العائذ قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود، فرد الجنرال رينييه هجمة العرب ولكنه اضطر ان ينسحب الى بلبيس ليرد هجوما آخر كان يتهدد مركزه فى المدينة وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من المشاة

فرابط رينييه بالمدينة حتى اقبل اليه المدد ثم اخذ يهاجم الثوار الى ان ارتدوا عنها وسار بجنوده يتعقبهم حتى غابوا فى الصحراء فعاد الى بلبيس ، وفى هذا الوقت كان عرب بلى قد اقبلوا من طريق القاهرة ، وهاجموا المعسكر ، فردهم الجنود الفرنسية ، ثم كروا بعد قليل ولهم قوة أكبر فكان عددهم كما قدرهم الجنرال رينييه ٥٠٠ فارس و ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ راجل، فمال عليهم رينييه بجنوده ومدفعيته ففرقهم بالبنادق والمدافع وردهم الى قرية «غيته»[1]، وفيما هو على اثرهم هجم الجمع الحاشد من أهالى البلاد المجاورة (قدرهم رينييه بألفين من المشاة و ١٥٠ من الفرسان) على الفضاء الذى يفصل المعسكر عن بلبيس ، ولكن رينييه ردهم على اعقابهم عند عودته الى المدينة، ثم عدوا الى الهجوم ثانية وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية ، ثم استمرت الحرب سجالا بين الفريقين

لم تنقطع الحركات العدائية حول بلبيس، ولم يكن لدى الجنرال رينييه من الجنود القوة الكافية لتجريد حملة على الثوار تغزوهم فى بلادهم وقراهم ، فصحت مواصلات الجيش الفرنسى مهددة ، وأرسل رينييه يطلب النجدة من نابليون ، فأمده وأمره ان لايغفل عن تحسين موقعي بلبيس والصالحية ، وأن ينهك بعقوبته القبائل التى تمردت أو شاركت فى الحركات الاخيرة ويأخذ منها الرهائن ، وأمره كذلك بمعاقبة

---

(١) فى الجنوب الغربى لبلبيس

البلاد التى اشتركت فى الثورة وآن يأخذ مشايخها ويقتلهم لانهم هم المسؤولون فهم هم المأخوذون بما يحدث فى بلادهم[١]

وقد علم الاهالى والعرب أن رينييه زاحف عليهم للايقاع بهم والقصاص منهم، فأوغلوا فى البلاد البعيدة وأخلوا القرى المجاورة لبلبيس، فلم يستطع رينييه ان يجرد حملة لتعقبهم، وآثر أن يعدل معهم الى المحاسنة فلجأ الى المفاوضة مع زعمائهم لاعادة السكينة واقرارها، لكنه لم يوفق توفيقا يُعتدُّ به

واستمرت الاضطرابات فى الشرقية بعد ذلك لم تنقطع، قال الجبرتى فى حوادث أواخر رجب سنة ١٢١٣ (ديسمبر سنة ١٧٩٨)

« حضر سارى عسكر ( نابليون ) من ناحية بلبيس الى مصر ليلا واحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن اباظة اخو سليمان اباظة شيخ العبابدة وخلافه رهائن، وضربوا ابو زعبل والمنير، وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم الى القاهرة وخلفهم اصحابهم »

---

(١) رسالة نابليون الى رينييه فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨

# الفصل الثانى عشر

## عود الى القاهرة

### سياسة الحفلات

كان نابليون يسعى بكل الوسائل الى كسب قلوب المصريين واستلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التى كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ، ومن الوسائل التى ابتكرها اقامته الحفلات والافراح لادخال السرور الى قلوبهم ، ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطرى الى الابتهاج والانشراح بما كان يشاهده من تجمع الاهالى فى شوارع القاهرة لسماع المغنين والناقرين على الدفوف ، فأراد ان يصل الى قلوبهم من طريق التفريج ، وكان له غرض آخر من اقامة المهرجانات والحفلات ، ذلك حين أراد ان يحجب عن الشعب أثر النكبة التى حلت باسطوله فى واقعة ابو قير البحرية ويتظاهر بانه لا يكترث لها ، ويتودد الى زعماء الشعب ليكسب ثقتهم فى تلك الاوقات العصيبة بعد ان اصبح محصورا فى القارة الافريقية ، فاخذ يتحين ما يعرض من المناسبات لاقامة الافراح والحفلات ، ولذلك سمينا هذه السياسة سياسة الحفلات

### مهرجان وفاء النيل

انتهز اولا فرصة وفاء النيل ليشارك المصريين فى احتفالهم بهذا اليوم السعيد ، فأمر بأن يجرى الاحتفال المعتاد وان يشترك الجيش فى المهرجان ، فصطفت الجنود بحذاء النيل ، وحضر نابليون الاحتفال مصحوبا بقواده واركان حربه وبجانبه كتخدا الباشا (نائب الوالى) والقاضى التركى (قاضى مصر) واعضاء الديوان والاغا (المحافظ) وأعيان المدينة ، وازدانت السفن بالاعلام والرايات ، وأطلقت المدافع والسواريخ النارية من البر والبحر ، لكن الاهالى لم يشتركوا فى هذا الاحتفال ، ولم يخرجوا للتنزه ليلا فى المراكب كعادتهم كل عام ، وفى ذلك يقول الجبرتى « فى يوم

الجمعة خامس ربيع الاول سنة ١٢١٣ الموافق لثالث عشر مسرى القبطى (١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨) كان وفاء النيل المبارك، فامر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة ، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين (سفن حربية) ونادوا على الناس بالخروج الى النزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم ، وأرسل صارى عسكر اوراقا (تذاكر دعوة) لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب (اعضاء) الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صبحها (السبت ٦ ربيع — ١٨ اغسطس) وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السد ، وكسروا الجسر بحضرتهم ، وعملوا شنك مدافع ونفوطا حتى جرى الماء فى الخليج ، وركب وهم صحبته حتى رجع الى داره ، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم احد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والاروام والافرنج البلديين ونساؤهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها »

هذا ماقاله الجبرتى ، ومنه تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصراف المصريين عن الاشتراك فى الاحتفال بيوم يبتهجون له كل عام ، ويدخل فى هذا الباب ماذكره الجبرتى من ان الاشاعات عن هزيمة الفرنسيين (فى معركة ابو قير البحرية) قد ذاعت فى ذلك اليوم نفسه وتهدد الفرنسيون من أذاعوها باشد أنواع العقاب[١] فكأن نابليون أراد بالاحتفال بوفاء النيل إخفاء مظاهر الحزن التى كانت تختلج فى قلوب الفرنسيين لضياع اسطولهم

## حفلة المولد النبوى

وجاءت مناسبة أخرى لمشاركة نابليون المصريين فى حفلاتهم ومحاولته إدخال السرور الى قلوبهم ، وهى حفلة المولد النبوى الشريف ، فأمر أن يحتفل به كالمعتاد، وبالغ نابليون فى الاحتفال به وعين لهذه المناسبة السيد خليل البكرى نقيبا للاشراف

---

(١) انظر الفصل الثامن ص ٢٣٥

بدلا من السيد عمر مكرم (١) ، وخلع عليه خلعة ثمينة ، وأقيمت الليلة الكبيرة للمولد في منزل السيد خليل البكرى ، وحضر نابليون هذه الحفلة ، ويقول ريبو (٢) أن بونابارت أظهر أناة وصبراً في شهود حفلة الذكر من بدئها الى تمامها ، ومدّ السيد البكرى الموائد تكريما للمولد النبوى ، فبسطت خمسون مائدة على الطراز الشرقى ، حول كل مائدة خمسة أو ستة من الضيوف جالسين أرضا على الوسائد ، وكانت المائدة التي جلس حولها بونابارت والسيد البكرى في الوسط ، وهى من الفضة وقد صفت عليها أطباق الطعام ، ويتبين من رواية الجبرتى أن نفوس المصريين كانت في شاغل وقتئذ عن الحفلات والمسرات ، وان نابليون هو الذى أوجب الاحتفال ، قال الجبرتى :

« سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم ، فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الاحوال ، فلم يقبل ، وقال لابد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوى معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة الكبيرة ( موسيقى الجيش ) الى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طول النهار والليل ( ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ — ٢٤ اغسطس سنة ١٧٩٨ ) بالبركة ( ميدان الازبكية ) تحت داره ، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد في الهواء ، وفي ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة

---

(١) كانت نقابة الأشراف قبل أن يتولاها السيد عمر مكرم في يد السيد محمد البكرى ، وهو ابن عم السيد خليل البكرى ، ولما توفى السيد محمد البكرى سنة ١٢٠٨ هجرية تولى النقابة السيد عمر مكرم الى أن جاء الفرنسيون فغادر الديار المصرية وهاجر الى سوريا عقب واقعة الاهرام ، فخلت نقابة الأشراف من النقيب فتولاها السيد خليل البكرى كما ترى في سياق الكلام

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء ٣

وتقلد نقابة الاشراف ونودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب »

## تعيين أمير الحج

كانت إمارة الحج من المناصب العالية التى يعهد بها الى كبار الامراء المماليك ، وكان أمير الحج عند قدوم الحملة الفرنسية صالح بك وهو من أتباع مراد بك ، فلما قدم بالحجاج من الحجاز استدعاه نابليون الى القاهرة ، لكنه رفض وانضم الى ابراهيم بك وسافر معه الى سوريا وتوفى بها فى تلك السنة (١٢١٣ هجرية) ، وكانت التقاليد المتبعة فى ذلك العصر أن يعين أمير الحج فى حفلة حافلة ، فأراد نابليون أن يتبع هذه السنة فعين مصطفى بك كتخدا الباشا (وكيل الوالى) أميراً للحج يوم ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) وخلع عليه خلعة خضراء بحضور أعضاء الديوان (١) وأهداه جواداً كريما ، وأراد أن يكتسب قلوب الأهالى وقلوب المسلمين فى الشرق فأبلغ أمر هذا التعيين رسميا الى الدول الاسلامية وكتب الى شريف مكة يعده بارسال أوقاف الحرمين كما كانت ، واستكتب مشايخ القاهرة رسالة بعث بها الى السلطان وأخرى الى شريف مكة فيها إطراء لسياسته وتنويه بما بذله فى تأمين طريق الحج واشتراكه فى الاحتفال بفتح الخليج والمولد النبوى وتعيين أمير الحج الجديد واحترامه للشعائر الاسلامية

فنابليون قد استعمل « سياسة الحفلات » ليجتذب اليه قلوب المصريين من جهة ، وليعلن عن نفسه فى العالم الاسلامى بأنه صديق الاسلام والمسلمين ، ويظهر أن الفرنسيين كانوا يعلقون أهمية كبيرة على تعيين أمير الحج ، فقد كتب المسيو

---

(١) يقول الجبرتى فى هذا الصدد « وفى عشرين ربيع الأول قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا إمارة الحج فحضروا الى المحكمة عند القاضى ولبس هناك الخلعة بحضرة مشايخ (أعضاء) الديوان والتزم بونابارتة بتشهيل مهمات الحج وعمل محلا جديداً »

جوفروا سان هيلير (١) عضو المجمع العلمى المصرى رسالة الى أخيه بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يقول فيها :

« لقد نجح القائد العام فى حمل كتخدا الباشا ( وكيل الوالى ) على قبول منصب إمارة الحج ، وأمير الحج الجديد رجل ذو نفوذ كبير ، وقد أطلقت المدافع إيذاناً بهذا التعيين وبادر الديوان الى إبلاغه للأمم العربية مع دعوتهم الى إجراء مراسم الحج كالمعتاد (٢) »

## عيد الجمهورية الفرنسية

انتهز نابليون فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى ( أول فنديمير (٣) — ٢٢ سبتمبر ) وأقام بميدان الازبكية احتفالا عسكريا مهيبا دعا اليه العظماء والقاضى التركى وكتخدا الباشا وأعضاء ديوان القاهرة ودواوين الاقاليم والاعيان ، وأبدع الفنانون الفرنسيون فى تنسيق هذا الاحتفال وظلوا عدة أيام يقيمون أقواس النصر وينصبون الساريت وعددها ١٠٩ بعدد المقاطعات الفرنسية ، رفعت عليها الرايات موشاة بأسماء مقاطعات فرنسا ، ونصبوا فى وسط الميدان سارية عظيمة سموها شجرة الحرية ، وأقاموا تماثيل من الخشب كالهيا كل الكبيرة نقش عليها أسماء قتلى الفرنسيين فى مصر ، وأقاموا بوابتين كبيرتين ( أقواس نصر ) الأولى قبالة باب الهواء والثانية بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج الى الازبكية ، نقش على إحداها صورة معركة الاهرام ، وكتب على الأخرى ( لا إله الا الله محمد رسول الله ) ، وجرى الاحتفال يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فعرض نابليون كتائب الجيش يحف به أركان

---

(١) انظر ترجمته بالفصل الرابع ص ١٣١

(٢) « رسائل من مصر » بقلم المسيو جوفروا سان هيلير

(٣) يبدأ التقويم الجمهورى بأول فانديمير من السنة الأولى الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ غداة اليوم الذى قررت فيه الجمعية الوطنية إلغاء الملكية فى فرنسا

حربه ، وبعد انتهاء العرض تلا الادجودان جنرال بوييه Boyer خطبة لنابليون من خطبه الساحرة التى كانت تملأ قلوب جنوده حماسة وإقداما (١)

وبعد تمام خطبته دعا ضيوفه المصريين والفرنسيين الى الغداء على مائدته ، وأضيء ميدان الازبكية ليلا بالأنوار ، واستمرت الموسيقى تعزف الى ما بعد منتصف الليل .

وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتى فى وصف هذا الاحتفال :

« فى يوم السبت حادى عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ (٢) كان يوم عيدهم الموعود به ، فضربوا فى صبيحته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة ، وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة ( بركة الازبكية ) ، الخيالة والرجالة ، واصطفوا صفوفا على طرائقهم المعروفة بينهم، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام فاجتمعوا ببيت صارى عسكر بونابارته وجلسوا حصة من النهار ثم نزل عظماؤهم وصحبتهم المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا فركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع بوسط البركة ( الميدان ) وقد كانوا فرشوا فى أسفله بسطاً كثيرة ، ثم أن العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع ، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفاً حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم[٣] ورقة بلغتهم لا يدرى معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ ، ثم قاموا وانفض الجمع ، ورجع صارى عسكر الى داره فمد سماطاً عظيما للحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التى على

---

(١) تجد نص هذه الخطبة فى قسم الوثائق التاريخية

(٢) يوافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٣) هذا خطأ والصواب أن الذى تلا خطبة نابليون هو الادجودان جنرال بوييه Boyer وهو ليس بكبير القسس ولم يكن مع الجيش الفرنسى قسس

الحبال والتماثيل والأحمال التى على البيوت ، وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقى ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ، ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبير وتحته جماعة ملازمون الاقامة عنده ليلا ونهاراً من عساكرهم لانه شعارهم واشارة الى قيام دولتهم فى زعمهم »

وعلى الرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلا بمظاهر السرور والبهجة فان نفوس الاهالى كانت منقبضة عن تلك المظاهر ، ومن ألطف ماقاله فى هذا الصدد نيقولا الترك الذى شهد هذا الاحتفال ووصفه فى كتابه (١) ان الفرنسيين « كانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية واما اهالى مصر فكانوا يقولون ان هذه اشارة الخازوق الذي ادخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا ، واستمر هذا العمود نحو عشرة اشهر وحينما رفعوه استبشرت اهل مصر وابتهجت بالفرح »

وقال الدكتور ديجنت كبير اطباء الجيش الفرنسى فى مذكراته « لقد تكلموا كثيرا حتى فى اوروبا عن حفلات اول فنديمير وتأثيرها فى نفوس المصريين ، على ان كاتب هذه المذكرات يؤكد انها لم يكن لها اثر ما فى سكان القاهرة بالرغم من مظاهر الفخامة التى أحيطت بها » ويقول دى لاجونكيير (٢) أن الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية أصدر أمره فى ٢١ سبتمبر الى الجنرال ديبوى قومندان القاهرة بان يضع حرسا بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج الى ميدان الازبكية خيفة أن يتعمد بعض أهل السوء فتح السد فتطغى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه

فهذه البيانات تدل على نفسية اهل القاهرة وانصرافهم عن مشاركة الفرنسيين فى حفلاتهم

---

(١) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والديار الشامية ، للمعلم نيقولا الترك

(٢) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

# الفصل الثالث عشر

## ثورة القاهرة

احتل الفرنسيون القاهرة، ووطدوا سلطتهم بها، ووضعوا أيديهم على كل شيء فيها، لكنها لم تكن فى يوم من الايام راضية عن الاحتلال الفرنسى أو مستسلمة له ، وما فتئت تتحين الفرص للتخلص منه ، وعبثاً حاول نابليون بعد انتصاره الحربى ان ينتصر على ثورة النفوس وان يجتذب اليه قلوب المصريين ، ولم يكن انشاؤه الديوان، ولا تودده الى الزعماء ، ولا اشتراكه فى حفلات الشعب ، ليحل الصفاء والوئام محل الجفاء والخصام ، والواقع ان يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجعلته محدود السلطة مشلول الارادة ، وكان اعضاء الديوان انفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراة ومجاملة ، وقلوبهم منكرة نافرة ، اعتبر ذلك فيما رواه الجبرتى عن المشادة التى حصلت بين نابليون وأعضاء الديوان، فقد طلبهم الى داره ذات يوم[1] ولما استقر بهم المقام أراد ان يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الالوان[2] ووضع بيده

---

(١) ٢٠ ربيع الاول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨)

(٢) اصدر نابليون امرا فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ بان يحمل جميع سكان مصر شارة الجمهورية (الكوكارد) وان ترفع المراكب فى النيل الراية الفرنسية وامر بأنه ابتداء من أول فنديمير (٢٢ سبتمبر سنه ١٧٩٨) لا يصرح للسلطة الفرنسية بان تسمع اى شكوى من أى شخص من الاهالى اذا لم يكن حاملا تلك الشارة ولا يسمح للسفن بالملاحة فى النيل ابتداء من ١٥ فانديمير اذا لم ترفع الراية الفرنسية ، وامر ان تنصب الراية الفرنسية باعلى منارة فى القاهرة واعلى منارة فى كل حاضرة من حواضر المديريات

ويقول الجبرتى ماخلاصته ان الفرنسيين امروا بان يضع الناس الشارة الفرنسية (الكوكارد) فانف غالب الناس من وضعها ، ثم نادوا بابطالها بالنسبة لعامة الناس

الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريما له وتعظيما ، فرمى به الارض محنقا غاضبا ، واستعفى من الديوان ، وعبثا حاول الترجمان ان يقنع المشايخ ان الباسهم هذا الطيلسان هو تكريم لهم فلم يلق منهم قبولا ، وغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال انه لا يصلح للرآسة

لم يعمل اذن أعضاء الديوان على تمكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان فى استطاعتهم ذلك لو أرادوا ، فاخذ سخط الاهالى يستفحل ، وزاد فيه أعمال كثيرة أحرجت صدورهم وانتهت بنشوب نار الثورة فى العاصمة

ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين يوم الاحد ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ — ١١ جمادى الاولى سنة ١٢١٣

لم يكن مألوفا ولا منتظراً أن تثور القاهرة ، تلك المدينة الهادئة الوديعة التى احتملت ظلم حكامها السنين الطوال ، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون ان تثور فى وجههم وهم الذين فتحوا العواصم ودوخوا الممالك فى القارة الاوروبية

لكن ثورة القاهرة جاءت عنوانا لنفسية جديدة فى الشعب المصرى ؛ ولا غرو فان الحملة الفرنسية كما قلنا قد استفزت فى نفوس الشعب روح المقاومة الاهلية ، وكانت القاهرة مسرحا لتلك المقاومة كما كانت مصدراً لسريان الهياج والثورة الى انحاء البلاد

## لماذا ثارت القاهرة

من الواجب قبل أن نسرد وقائع تلك الثورة ان نتساءل لماذا ثارت القاهرة ، ماهى الاسباب التى أشعلت نار الثورة فى تلك المدينة العظيمة التى شتهرت من قبل بالاخلاد الى السكينة ؟

ذكر الجبرتى ان تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون فى أوائل جمادى الاولى هو الذى أدى الى نشوب الثورة ، وهذا صحيح اذا اعتبرنا تلك

---

والزموا بعض الاعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها اذا احضروا عندهم ويرفعونها اذا انفصلوا عنهم ، وذلك أياما قليلة ثم تركت »

الضرائب كالشرارة التى أشعلت النار ، لكن فكرة الثورة كانت مختمرة فى الرؤوس من قبل ، فلنبحث اذن عن أسبابها ومقدماتها

## الاسباب المالية

ان سلوك نابليون مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافاتهم ، فانظر ماذا فعل هو فى إرهاق الاهالى بالضرائب والمغارم

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة اجبارية ، ولم يستطع «الديوان» أن يمنعها على الرغم من تدخله فى الامر وتوسطه فى تخفيفها

فقد روى الجبرتى انه فى يوم السبت ١٤ صفر سنة ١٢١٣ (٢٨ يوليه سنة ١٧٩٨) أى عقب أن استقر نابليون فى العاصمة بأيام معدودة وعقب تأسيس (الديوان) بثلاثة أيام « اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمساية الف ريال (مائة الف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً فسألوا (أى أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا فأخذوا في تحصيلها »

فترى من ذلك ان الديوان لم تكن له سلطة ما فى منع الغرامات والقروض الاجبارية التى يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الاسباب التى دعت الى سقوط منزلته فى نظر الشعب

وذكر دى لاجونكيير [١] بعض ما فرضه نابليون فى أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الاجبارية فى الايام الاولى للحملة ، فمن ذلك انه فرض على تجار الاسكندرية ثلثماية الف فرنك ، وعلى تجار رشيد مائة الف فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ الف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ الف ريال نقداً و٤٠ الف ريال عروضاً (ملابس وأحذية للجنود) وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ الف ريال ،

---

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثاني . وانظر كذلك مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٤٩ و٢٩٥٠

وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الاقاليم ١٠٠ الف ريال ، ثم فرض على تجار خان الخليلى خاصة عشرة آلاف ريال ، ووكائل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكائل الفاكهة ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ الف ريال ، وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الاقمشة الهندية بالغورية ١٥ الف ريال ، فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولا سيما اذا لاحظنا ما كانت تعانيه وقتئذ من الضنك والفاقة

وقد تفنن الفرنسيون فى ابتزاز الاموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك انهم أذنوا لنساء البكوات المماليك أن يفتدين أنفسهن بالمال ليسكنّ فى بيوتهن وان كان عندهن شيء من متاع أزواجهن يبذلنه فان لم يكن عندهن شيء منه يصالحن على أنفسهن ويأمن فى دورهن

فهذه طريقة بلغت حد الاعنات والارهاق في جمع الاموال من النساء تلقاء أن يأمنّ على أنفسهن ! وهى أشد وطأة من الغرامات الحربية ، قال الجبرتى « ان الست نفيسة زوجة مراد بك ظهرت وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الامراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون الف ريال فرنساوى وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها ووجهوا عليها الطلب ( أى طالبوها ) وكذلك بقية النساء بالوسائط المتداخلين فى ذلك فصاروا يعملون عليهن ارهاصات وتخويفات [1] »

ويقول ريبو [2] ان مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ ٦٠٠ الف فرنك ، واذا رجعنا الى نص الامر الذى أصدره نابليون بتاريخ ١٤ ترميدور ( أول اغسطس سنة ١٧٩٨ ) فى شأن مافرض على الست نفيسه زوجة مراد بك نجد أنه يقضى بأن تدفع هى وحدها ٦٠٠ الف فرنك عن نفسها وعن نساء المماليك من أتباع مراد بك ، فيفهم من ذلك ان المبلغ الحاصل من نساء المماليك يزيد على سمانماية الف فرنك ، ويقول دى لاجونكيير ان ما أخذ من زوجة مراد بك خصة ٤٩٢,٨٥٧

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

فرنكا وما أخذ من باقى نساء المماليك ٣٢٤٫٧١٧ فرنكا ، وذلك الى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولا شك ان هذه مبالغ جسيمة اذا قيست بثروة البلاد فى ذلك العهد.
ويقول ريبو أيضاً ان الست نفيسة زوجة مراد بك اضطرت لدفع حصتها فى الغرامة الحربية أن تنزل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل مجالون باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها ورعايتها للتجار الفرنسيين « فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجا شريفاً منها [١] »

## استطراد

### الى ترجمة نفيسة المرادية

« نفيسة المرادية » هى أكبر شخصية ظهرت بين سيدات مصر فى ذلك العصر، لذلك رأينا ان نستطرد الى الكلام عنها ونترجم لها

كانت نفيسة المرادية شركسية الاصل، تزوج بها على بك الكبير، فصارت بمثابة ملكة مصر، وبنى لها قصراً عظيما بالازبكية بدرب عبد الحق ، ولما مات على بك تزوج بها مراد بك، فاحتفظت بمكانتها ونفوذها ، وكانت على جانب كبير من التثقيف والتهذيب ، إلى روعة فى الجمال وسمو فى العواطف ، تعلمت العربية قراءة وكتابة وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها ، فارتقت مداركها وا كتسبت احترام العلماء والبكوات المماليك الذين كان بيدهم الحل والعقد ، وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والاحسان ورفع المظالم وحماية الضعفاء ،فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب ، وسرت شهرتها الى الأوساط الاوربية إذ عرف عنها الميل الى تنشيط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات المماليك فى سلب اموال التجار، وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل مجالون Magallon اعترافا لها ببراتها وبخدماتها للتجارة، وكانت تتبرع باعانات

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

شهرية لكثير من العائلات التى أخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدى هذه الاعانات حتى فى أيام محنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وانهزم مراد بك فى واقعة الاهرام بقيت هى فى القاهرة فاستهدفت للاتاوات والغرامات الحربية كما تراه فى سياق الكلام، على أن قواد الجيش الفرنسى كانوا يعاملونها بالاحترام ، ولما جلا الفرنسيون عن البلاد استهدفت كذلك لمظالم الاتراك ، ذكر الجبرتى ما وقع من خورشد باشا من اساءة معاملتها فقال ما خلاصته ان الباشا امر باحضارها الى القلعة واتهمها بان جارية لها تسعى فى الاتفاق مع المماليك العصاة لتحريض الجند على التمرد ، فانكرت هذه التهمة وطلبت الدليل على مانسب الى جاريتها وقالت « اذا ثبت ان جاريتى قالت ذلك فانا المأخوذة به دونها » فاخرج خورشد باشا من جيبه ورقة وتظاهر بانها تثبت ذلك، فطلبت السيدة نفيسة الورقة فاعادها خورشد الى جيبه ، فوبخته نفيسة على عمله وقالت له طول ما عشت بمصر وقدرى معلوم عند الاكابر وخلافهم ، والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونى اكثر من معرفتى بك ، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس فما رأيت منهم الا التكريم ، وكذلك محمد باشا (خسرو) كان يعرفنى ويعرف قدرى ولم نر منه الا المعروف ، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، فقال ونحن ايضا لانقبل غير المناسب ، فقالت له وأى مناسبة فى أخذك لى من بيتى بالوالى (رئيس الشرطة) مثل ارباب الجرائم ، فقال أنا ارسلته لكونه اكبر اتباعى فارساله من باب التعظيم ، قال الجبرتى « ثم اعتذر اليها وامرها بالتوجه الى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة واجلسوها عنده بجماعة من العسكر » (أى جعلوها تحت الحفظ) فتدخل العلماء فى امرها حتى توصلوا الى اطلاق سراحها

يتبين من هذه الحادثة مقدار ما كان لنفيسة المرادية من المكانة بين الناس، وقد أدركت عصر محمد على بعد أن أدبرت عنها الدنيا وفقدت املاكها ولم يبق لها سوى النذر اليسير منها فعاشت فى قلة وفقة الى ان توفيت سنة ١٢٣١ هجرية (١٨١٦) وقد ذكرها الجبرتى غير مرة ووصفها « بالشهيرة الذكر بالخير » ونعاها فى وفيات ذلك العام وقال فى ترجمتها أنها عمرت طويلا مع العز والسيادة والكلمة النافذة ، واكثر نساء

الامراء من جواريها ، ولم يأت بعد الست شويكار من اشتهر ذكره وخبره سواها، وقال انها «كانت من الخيّرات ولها على الفقراء بر واحسان ، ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويلة توفيت يوم الخميس لعشرين من شهر جمادى الاولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى ، واضيفت الدار الى الدولة وسكنها بعض ا كابرها وسبحان الحى الذي لا يموت »

## رجع ما انقطع

ذكر الجبرتى ما وقع على الناس من المغارم الاخرى ، فمن ذلك ان الفرنسيين طلبوا الخيول والجمال والابقار والثيران والسلاح ، فحصلت عليها مصالحات أى أخذوا مقابلها نقداً، وكانوا يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين بسوق السلاح وغيره و يأخذون ما يجدون فيها من الاسلحة ، وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الامتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مالا يحصى، و يستخرجون الخبايا والودائع، و يطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم ليدلوهم على أماكن الخبايا ومواضع الدفائن ، وطلبوا أهل الحرف من التجار بالاسواق وفرضوا عليهم نقوداً على سبيل القرض والسلفة مبالغاً يعجزون عنه وحددوا لدفعها أجلا مقداره ستون يوماً ، فضجوا واستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسينى وتشفعوا بالمشايخ (أعضاء الديوان) فتكلموا لهم فأنزلوها الى نصف المطلوب و وسعوا لهم فى أيام المهلة

هـذا ما ذكره الجبرتى من مظالم الفرنسيين ومغارمهم فى الايام الاولى من احتلالهم ، وذكر أيضاً انهم قطعوا رواتب الاوقاف الخيرية عن مستحقيها الفقراء، فبمثل هذه المغارم الفادحة لا يمكن أن تجتذب القلوب وتسترضى النفوس

ولم تقتصر هذه المغارم على الايام الاولى من الاحتلال بل استمر الفرنسيون فى فرض الضرائب وجمع الاموال ولا سيما بعـد أن تحطم أسطولهم فى معركة أبو قير وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقى الامداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد، فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفننون فى استخراج

الاموال من البلاد واهلها ، وتذرعوا الى ذلك بوضع النظام الذى ابتدعوه لاثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض الاتاوات الجديدة كما بينا ذلك فى الفصل الثالث

كانت تلك المغارم الفادحة تناقض عهود نابليون فى منشوراته وبياناته ، وهى وحدها كافية لصرف قلوب المصريين عن الثقة به وبوعوده ، لان الشعب رأى ان الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد المماليك قد بقيت كما كانت وزادت عليها ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية اسوأ مما كانت فى عهد المماليك، والمسائل المالية كانت فى مختلف العصور والبلدان من أهم أسباب تذمر الشعوب وشكواها

مصادرة الاملاك وهدم المبانى

ومن مظالم الفرنسيين التى أحرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيرا من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم اليها . وهدموا كثيرا من المبانى والآثار ونسفوها بحجة تحصين القاهرة

قال الجبرتى فى هذا الصدد « وفيه ( شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣) أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول الى المدينة ليسكنوا بها فنزلوا ، وصعدوا الى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار، وهدموا ابنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدنة باب العزب (من أبواب القلعة ) بالرميلة ، وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كان فى الابواب العظام من الاسلحة والدرق والبلط والحوادث والحراب الهندية واكر الفداوية ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومجالس الملوك والسلاطين ذوات الاركان الشاهقة والاعمدة الباسقة »

هذه رواية الجبرتى ، ويعترف نابليون فى مذكراته ان ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها وامتد الهدم الى المسجد المجاور لسوره، وأن سكان القاهرة

قد ساورهم قلق شديد من رؤيتهم ضباط فرقة الهندسة يتولون الهدم و ينصبون المدافع فى الاماكن المهدومة (١)

## هدم أبواب الحارات

وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الابواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة فى مأمن من اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين فى ظنونهم ومخاوفهم، فان الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الابواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة ، قال الكولونل ديترو ا(٢) Detroye فى يومياته بتاريخ ٤ اغسطس سنة ١٧٩٨ «ان شوارع القاهرة مفصولة بعدد كبير جدا من الابواب الكبيرة التى تفصل الحارات والاحياء بعضها عن بعض ، ولقد رأى القائد العام ان هذه الابواب قد تعطل انتقال الجنود فى حالة الفتنة او الهياج ، لذلك أمر بهدمها ، على ان هذه الوسيلة اذا كانت نافعة من هذه الوجهة فلها عواقب وخيمة من جهة أخرى فان الابواب كانت تعزل الأحياء التى تظهر فيها الأوبئة ، فاذا أغلقت منعت سريان العدوى الى الاحياء الاخرى وقامت حداً فى الاختلاط بين الناس ، فبأي طريقة يمنع انتشار الاوبئة بعد هدم هذه الابواب »

وجاء فى يوميات الجنرال لوجييه Laugier عما أحدثه هـذا العمل من التذمر والسخط فى نفوس الاهالى ما يلى :

« كان لـكل شارع أوحارة باب كبير يقفل عليها ويمكن استخدامه كمتاريس فى حالة الثورة ، لذلك أمر القائد العام بنزع هذه الأبواب، وقد تذمر الأهالى

---

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٢) الـكولونل ديترو ا هو من قواد الحملة الفرنسية، كان رئيس أركان حرب الجنرال كافاريللى ، ويومياته على جانب عظيم من الأهمية دون فيها الحوادث التى شاهدها الى حصار عكا إذ قتل أثناء الحصار

وجعلوا يصيحون ويسخطون ، ولكنهم بعد ذلك أذعنوا وأخلدوا للسكينة ، وبعد أن أقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هـذا العمل عادوا وفتحوها »

والمعروف أن نابليون أصدر أمره بهدم أبواب الشوارع والحارات فى شهر اغسطس سنة ١٧٩٨ وقد انتهز فرصة اجتماع الديوان العام لانفاذ فكرته ، ففى الوقت الذى كان الديوان منعقدا كان ضباط فرقة الهندسة يطوفون أحياء القاهرة ويباشرون هدم الابواب ، واجتمع هـدم الأبواب وتحصين الفرنسيين للقلعة وفرضهم الضرائب الجديدة ، فكانت هذه العوامل المجتمعة من اسباب الهياج الذى أعقبته الثورة

## القتل والارهاب

ومن المظالم التى أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى والحكم عليه بالاعدام وتنفيذ الحكم فيه مما رأيته مفصلا فى الفصل الخامس ، وكذلك وصول اخبار الفظائع التى ارتكبتها الجنود فى المديريات وحضور الرهائن الذين قبض عليهم من البلاد وحبسهم بالقلعة [1] ، والواقع ان الفرنسيين كانوا يسرفون فى قتل الناس ليدخلوا الرهبة فى قلوب الأهالى ويحملوهم على الخضوع والأذعان ، وهذا مستفاد من بعض رسائل نابليون الى قواد الجنود الفرنسية فى الاقاليم ، ففى رسالته الى الجنرال زايونشك Zayonchek قومندان المنوفية يقول[2] « لا بد أن تكون جاءتك تعليماتى لتنظيم مديريتكم ( المنوفيـة ) ، يجب ان تعاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإنى هنا أقتل كل يوم

---

(١) كتب نابليون الى الجنرال كافاريللى بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ينبئه بأنه سيحضر الى القاهرة نحو خمسين من الاهالى من مختلف بلاد القطر المصرى وكلفه أن يهيىء لاقامتهم سجن القلعة

(٢) بتاريخ ٣٠ يولية سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠١

ثلاثة وآمر بأن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، وهذه هى الطريقة الوحيدة لاخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم ان توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح »

وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة « الترك » الأهالى، ولا يمكن أن يقصد الأتراك العثمانيين لأنه فى تاريخ هذه الرسالة كان يتودد اليهم كثيراً ويتظاهر بمحبته لسلطان تركيا ، وكلمة « ترك » كثيراً ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالى المصريين وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنابليون الى الجنرال منو Menou قومندان رشيد(١) يقول فيها

« إن الترك لايمكن إخضاعهم إلا بالقسوة وفى كل يوم آمر بقتل خمسة أوستة فى القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الارهاب تلك التهمة التى كانت تسبقنا الى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التى تؤدى الى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم »

***

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر فى الأذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، ومهما اختلف المؤرخون الفرنسيون فى بيان أسباب ثورة القاهرة وعزاها بعضهم الى الدعاية الدينية التى كان يبثها رجال الدين فانهم يعترفون بأن فداحة الضرائب كانت من أهم العوامل التى عجلت بها ، قال دى لاجونكيير (٢) « كانت الدعوة الى الثورة تختلط علناً بأذان المؤذنين فيدعون الى الله والى الثورة على المآذن صباح مساء ، فبلغ تهييج النفوس أشده حتى لتكفى حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القومى ، ولقد كان فرض الضرائب

---

(١) بتاريخ ٣١ يوليه سنة ١٧٩٨ مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠٧

(٢) حملة مصر الجزء الثالث

على المنازل سبباً كافياً استغله دعاة الثورة لاثارة الهياج فى نفوس من لم تستفزهم الدعاية الدينية »

## لجنة الثورة

كان للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها فى الأزهر ، وفى ذلك يقول ريبو

« لقد اجتمع الى جانب تذمر الأهالى واستيائهم نشر الدعاية الى الثورة ، فكان فى الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية فى نفوس الناقمين (١) » وقال الجبرتى بعد أن ذكر احتشاد الجماهير فى الطرقات « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عاقبة الأمور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور » وظاهر ان الجبرتى يقصد بأولئك المتعممين الداعين الى الثورة

ويقول نابليون فى مذكراته ان الشعب قد انتخب « ديواناً » للثورة ونظم متطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وأن المشايخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان (٢) ، وذكر فى تقريره الى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة ان « لجنة الثورة » كانت تنعقد بالأزهر .

فالأزهر إذن كان مركز الثورة فى أواخر القرن التامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام فان الأزهر خلال سنة ١٩١٩ كان فى فترة من الزمن المعسكر العام للثورة القومية التى قامت فى مصر عقب انتهاء الحرب العثنية ، والتاريخ يعيد نفسه

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر الجزء الرابع

(٢) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

## وقائع الثورة

أخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتقاض على الفرنسيين، وشرعوا فى الوقت نفسه يثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان ويتهمونهم بممالأة الفرنسيين حتى لايستمع الجمهور لنصائحهم فى الاخلاد الى السكينة ، وقد أفلحوا فى إحراج مركز أعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعضع فى نفوس الشعب

وكانت الدعوة الى الثورة تتردد على ألسنة الأهالى لكنها لم تقابل في مبدأ الأمر الا بعطف الناس وميلهم دون أن تقترن باعلان الثورة فعلا ، حتى جاءت الضرائب الجديدة فزادت عددالناقمين على الحكم الفرنسى، وسرت روح الثورة الى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات ، وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة مثيرة للخواطر،لأن تقييد الاملاك فى دفاتر الضرائب اقتضى معاينة المنازل والدخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا أمر يستفز الملاك ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « وعينوا ( الفرنسيون ) المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الاعلى من الادنى ( من العقارات) وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطافوا بالجهات لتحرير قوائم الاملاك وضبط اسماء أربابها »

وقد بدأ ذوو اليسار يتذمرون لان الضرائب الجديدة اثقلت كاهلهم ، وهؤلاء وان لم يشتركوا فعلا فى الثورة الا أن إقرارهم لها أمدها بالمساعدات المادية والمعنوية ، وبذلك اشتركت طبقات الشعب كلها فى ثورة القاهرة، واغتنم دعاة الحركة فرصة تذمر الشعب من الضرائب الجديدة فبدؤا يعملون لاهتياج الخواطر وإشعال النار ، وتعاهدوا على الاجتماع ليلة الاحد ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ لرسم الخطة الواجب اتباعها ، فاجتمعوا، وكان عددهم فى ذلك الاجتماع ثلاثين، فاتفقوا رأيا على البدء بالعمل فى اليوم التالى ، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين الى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجا على الضرائب الجديدة ، وبذلك تحدث فى المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج فتكون مقدمة للثورة

## اليوم الاول للثورة

## ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

وقد وقع مارسموا ، ففى اليوم الموعود ٢١ أكتوبر كانت القاهرة فى حالة لم يألفها الناس من قبل ، فكان الناس يتألبون فى الشوارع زرافات يشكون ويتهددون ، ويخطب بعض المعممين هذه الجموع فيشعلون نار الحماسة فى قلوبهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحبيذ ، وكان الناس يتلاقون على غير تعارف ، فيتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، وأخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادىء الوديع ، وظهرت الاسلحة فى أيدى المتجمهرين فى الشوارع والميادين بعدما كانت محجوبة عن الانظار ، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحى الى القاهرة فاشتركوا فى هذا التجمهر ، وأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى الفرنسيين

قال ريبو يصف هذه الحالة « سادت الجلبة ، واختلطت الاصوات ، وعلت الصيحات ، فكان هذا منظر يبعث الرهبة فى نفوس أشجع الناس ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت »

وهرعت جموع الناس الى بيت القاضى التركى ابراهيم أدهم افندى ( ويسميه الجبرتى بجمقشى زاده ) وكان رجلا وقوراً يحترمه الناس وله فى نفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من المتجمهرين فقابلوا القاضى وقالوا له إنهم يريدون الذهاب الى بونابارت ليلغى نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكد يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين وجموعهم تزحف زحفاً ، فأدرك خطورة الأمر ، وقال للجمع إن هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى ، واعتذر من مصاحبتهم وانكفأ الى بيته ، فثارت نفوس الجماهير ونادوا : الى بونابارت ! الى بونابارت ! القاضى معنا الى بونابارت ! ولما لم يقبل القاضى مصاحبتهم انهالوا عليه وعلى رجاله ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار .

تلك رواية المراجع الفرنسية عن بدء الثورة ، وهى تقرب من رواية نابليون

فى تقريره الذى أرسله الى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ عن وقائع الثورة ، وقد كان تقريره موجزاً اجتهد فيه أن يقلل من خطورتها ، ولكنه وصف ابتداءها وصفاً دقيقاً بقوله : « . . . . فى الساعة السابعة صباحا احتشد جمع كبير من الناس على باب القاضى ابراهيم أدهم افندى ، وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته ، واختار الجمع عشرين من زعمائهم لمقابلة القاضى فى داره وألزموه أن يركب معهم ويحضروا الىّ ، وقد طاوعهم القاضى وركب معهم الى أن قابله رجل بصير بالأمور فأفهمه أن الجمع الذى يسير معه كبير جداً ، وسواده من الدهماء ، بحيث لا يمكن أن يكون مقصده ما يزعم من الشكوى وحديثها ، فأدرك القاضى وجاهة هذه الفكرة ونزل عن جواده ورجع الى منزله فاستاء الجمهور وانهالوا على القاضى وحاشيته رجماً بالأحجار وضربا بالعصي ونهبوا منزله »

كانت هذه الحادثة كاعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع فى الجامع الأزهر يضجون ويصيحون ، ويهتفون بالقتال ، وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين الى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حساباً لهذه الجموع أو تتوقع حدوث ثورة ما ، ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم الى مركز المخافر الفرنسية فقتلوا الجنود والحراس .

## مقتل الجنرال ديبوى Dupuy

لم يقدر الجنرال ديبوى قومندان القاهرة (١) فى مبدأ الأمر خطورة الحالة ،

---

(١) كان بمثابة حاكم القاهرة ولذلك يلقب ( شيخ البلد ) وهو اللقب الذى كان يعطى لرئيس المماليك فى القاهرة كما بينا ذلك فى الفصل الأول ، والجنرال ديبوى من قواد الجيش الفرنسى الذى حارب فى ايطاليا تحت قيادة نابليون قبل مجيئه الى مصر ، وكان قومندانا لميلان حينما اختاره نابليون ضمن قواد الحملة الفرنسية

وجاءته أنباء غامضة عن الهياج ، فلم يحسب له حساباً ، ولم يره أمراً ذا بال، واكتفى بانفاذ بعض دوريات من الجند ، ولكنه لم يلبث أن خُبِّرَ الخبر بما يدل على اشتداد الأمر وتفاقم الثورة ، فعزم على مواجهتها ، وكان الرجل معروفا بالجرأة والاقدام ، فاصطحب ياوره الكابتن مورى Maury والمسيو بودوف Baudeuf التاجر الفرنسى ليكون ترجماناً له فى مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضى ليتعرف أسباب الهياج ، وأصدر فى الوقت نفسه أمره الى الجنود المرابطة فى بركة الفيل[1] بأن تحمل السلاح وتتأهب للقتال ، ومضى فى كتيبة من الفرسان قاصداً مركز الهياج ، فسار من بركة الفيل الى الموسكى واتجه الى شارع الغورية وأراد أن يذهب الى بيت القاضى ( بين القصرين ) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس، فأخذ الجنرال ديبوى يشق لنفسه طريقاً بين هذه الجموع الصاخبة وتساقطت الأحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، فخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وهناك لقى جمعاً من الثوار أخذوا الطريق عليه ، فحاول بودوف أن يخاطب الناس فأجابوه بالسخط والتعنت ، ولم يحسب ديبوى حساباً لعواقب مواجهة هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، فارتدت أولَ وَهْلَة ، لكن الهجوم كان فى زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن ينطلقوا فى حركتهم فأطبق الناس على الجنرال ديبوى من كل جانب ، وفى هذا الوقت جاء برتلمى الرومى [2] فى شرذمة من رجاله لنجدة الجنرال ديبوى . وكان برتلمى هذا مشهوراً بالقسوة والفظاعة .

---

(١) كان الجنرال ديبوى يسكن بيت ابراهيم بك ببركة الفيل

(٢) يسميه الجبرتى برطلمين الرومى وكان العامة يسمونه « فرط الرمان » وهو كما يقول الجبرتى من أسافل الاروام العسكرية القاطنين بمصر ، وكان من الطوبجية عند محمد بك الالفى وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ، وكان مشهوراً بالقسوة والفظاعة وكراهيته الاهالى ، عينه الفرنسيون ( كتخدا مستحفظان ) أى وكيل المحافظ فكانت له سطوة كبيرة فى عهدهم وسفك دماء كثيرة وضج الناس من فظائعه وشروره

فأطلق رصاصته على الجموع المحتشدة ، فكانت هذه الرصاصة شؤماً على الجنرال ديبوى ، أثارت غضب الجماهير ، فهجموا على الفرنسيين و بينهم ديبوى وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي ، ورجماً بالأحجار ، وأخذاً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، ورشقاً بالسهام ، فأدرك ديبوى حرج الموقف ، لكنه لم يجد لنفسه ولا لجنوده مفرا ، وفيما هو كذلك أصابته طعنة رمح فى ثديه الأيسر فقطعت شريانه ، وأراد ياوره الكابتن مورى أن يدافع عن قائده ، فسقط عن جواده ، وبالرغم مما أصاب ديبوى فانه مد يده الى ياوره يحاول رفعه عن الأرض فتفجر الدم من طعنته وخرّ صريعاً ، وهنالك خف الهياج والتجمهر فى الشارع ووصل الدكتور لارّى Larrey كبير جراحى الجيش ليضمد جراح الجنرال ونقلوه الى دار صديقه الجنرال جونو Junot بالأزبكية ، بيد أنه لم يفده إسعاف ولم ينفعه علاج ، وأسلم الروح متأثراً من جراحه

ذاع خبر مقتل ديبوى فى أنحاء المدينة كالبرق ، فحمي الثوار وامتلأوا حماسة ، وظنوه سهلا عليهم وقد قتلوا قومندان المدينة أن يقتلوا القواد والجنود فى الشوارع وانحازت الجموع الهادئة الى صفوف الثورة متشجعين بهذا « النصر الأول » ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتال فى نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة كباب الفتوح و باب النصر والبرقية الى باب زويلة و باب الشعرية الى جهة البندقانيين ، و اتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس أقاموها فى الشوارع و الحارات يستدفعون بها الجنود و يعرقلون سيرهم ، وأخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين بمن انضم إليهم من اهل الضواحى الذين أقبلوا من طريق الاهرام و بلبيس

و لما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدفع الخطر وضرب النفير العام صائحاً بالجنود الفرنسية الى القتال ، فأخذوا يتجمعون و يطلقون النار على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جموع الثوار تحتشد فى حى الازهر ، وامتنع بالجامع الاكبر خمسة عشر ألفاً من اشد الثوار حماسة وأقاموا المتاريس فى الطرق والأزقة الموصلة اليه

وهنا حضر نابليون الى القاهرة ، فاذا هى كالشعلة يضطرم نارها ، حضر وصحبته

الجنرال كافاريللى Caffarelli ودومارتان Dommartin والكولونل ديتروا Detroye وأخذ يعد ما استطاع لمواجهة الثورة

وصف الثورة

بقلم شاهد عيان

للكولونل ديتروا يوميات كان يدون فيها وقائع الحملة الفرنسية فوصف الثورة كما شاهدها ، قال

« ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ـ الساعة السادسة صباحا ، احتشدت الجموع فى عدة أحياء من القاهرة ، وعلت أصوات السخط والاستياء ، وأخذ الناقمون يعددون اسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على مآذنهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر ، واشال النس مسلحين بالبنادق والعصى يقصدون الاجتماع فى صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين . وفى نحو الساعة الثامنة صباحا علم الجنود الفرنسية بهذا الشرفتأهبت للقتال ، وكان القائد العام مطمئنا موقفه فركب جواده وصحبه من القواد كافاريلى ودومارتان وكنت معهم ، وذهبنا نتفقد استحكامات مصر القديمة وجزيرة الروضة ، وفى نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر أن القتال قد بدأ فى المدينة(١) وان أناسا قتلوا من الفريقين وان الجنرال ديبوى قومندان القاهرة ضمن القتلى صرعه

---

(١) جاء فى مذكرات نابليون أنه غادر القاهرة فى شروق ذلك اليوم لزيارة ترسانة ( دارصناعة ) الجيزة قبل نشوب الثورة وأنه عاد الى القاهرة فى الساعة التاسعة صباحا ، على أن شهادة الجنرال ديتروا تدل يقينا على أن نابليون كان وقت نشوب الثورة فى القاهرة ولكنه غادرها اذلم يساوره بدء الامر قلق من وقائعها الاولى ، ورواية ديتروا أدق وأدعى الى الثقة لانه كان يدون مذكراته يوميا وقد مات فى حصار عكا ، اما نابليون فأملى مذكراته على الجنرال برتران فى منفاه بسانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاما مضت من وقوع هذه الحوادث

الثائرون برمية سهم نفذت الى ثديه وكان فى كتيبة من الفرسان ذهب القتل بكثير منهم

«رجعنا الى المدينة ولما دخلنا من جهة مصر القديمة أمطرنا الثائرون مطراً من الحجارة فعدنا أدراجنا وقصدنا باب بولاق، ودخلنا منه فرأينا المدينة فى أفظع حالة ، سمعنا طلقات البنادق فى كل مكان ، رأينا الجثث ملقاة على الارض هنا وهناك ، وسرايا ( دوريات ) الجنود يهاجمها الثائرون فى كل جهة فيضطر الجنود غالبا الى التقهقر راجعين الى مواقفهم الاحتياطية ، وفى حى الفرنسيين نفسه قريباً من المعسكر العام بينما كنت على رأس جماعة من حرس القائد العام هاجمنى ١٥٠ من الثائرين ، ولم استطع إنقاذ حياتى الا بعد أن قتلت من تفرست أنه رئيسهم وفتحت ثغرة فى صفوفهم ، وكان الفرنسيون وقتئذ يحتلون المواقع الآتية :

« القلعة (قلعة الجبل) حيث كانت لنا مدفعية قوية ، وميدان بركة الفيل حيث كان يعسكر معظم الجنود ، ثم ميدان الأزبكية مقر القيادة العامة وكان يحميه ١٥ مدفعاً، وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة أن نمدّ الاتصال بين هذه المواقع المختلفة

« أما المعسكر العام للثائرين فكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر ، ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء المشرق ، وقد أقام الثائرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية اليه ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة

« أدرك القائد العام خطر الحالة واستفحال الثورة وإقبالها بوجهها المرعب المخيف ، وأغضبه انتصار الثائرين على عدد كبير من الجنود وهجومهم على دار فرقة الهندسة(١) ونهبهم أدواتها ، ثم بخاصة قتلهم الجنرال ديبوى ، فأمر الجنرال دومارتان قومندان المدفعية أن ينصب المدافع على ربى المقطم الى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق القنابل على الجامع الازهر »

هذا مارواه الكولونل ديتروا فى يومياته عما شاهده من حوادث اليوم الاول للثورة

---

(١) بيت مصطفى كاشف بالدرب الاحمر وكان يسكنه الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة

وعن الاستعداد لليوم الثانى ، ونزيد عليه أن نابليون أمر بأن يتولى الجنرال جونو Junot قيادة الجنود المعسكرة فى الازبكية و إقامة مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ، ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، وأمر بتعيين الجنرال بون Bon قومندانا للقاهرة خلفاً للجنرال ديبوى ، وكلفه « اتخاذ اللازم لاعادة النظام فى المدينة » ( أمر ٣٠ فانديمير — ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ) ، وعهد الى الجنرال لان Lannes الذى كان معسكراً فى مصر القديمة ان ينتقل بجنوده فى فجر اليوم التالى ليحتل المرتفعات القائمة خرج المدينة ومعه من المؤونة ما يكفى الجنود مدة يومين

وقد أرسل الجنرال بون بعد تعيينه التقرير الآتى الى نابليون يصف فيه حالة المدينة الثائرة :

« ٢١ اكتوبر الساعة العاشرة مساء . إن مركز الثورة لا يزال فى حى العرب حيث يوجد الجامع الاكبر — الازهر — وقد حط الثائرون هذا المعسكر بالمتاريس التى سدت جميع الشوارع المفضية اليه ، ولم استطع كشف هذه الشوارع لان الظلام يخيم عليها ، وقد أطلق الرصاص على طلائعى ، و يظنون أن الغد كليوم ، فلا سبيل غداً الى تشتيت الجموع المسلحة التى تتدفق من هذا المعسكر الثورى ، لذلك أرى فى هذه الحال أن تقرروا اتخاذ وسائل الشدة والصرامة »

## اليوم الثانى للثورة

### يوم الاثنين ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٩٨

انقضى الليل فى سكون ، والفريقان يتأهبان للغد ، و نتقل الجنرال دومارتان ليلا ونصب المدافع على سفح المقطم بالقرب من القلعة . أما دعاة الثورة فقد ذهبوا فى جنح الليل الى القرى المجاورة يستصرخون الناس للقتال . وفى الفجر كان أهالى هذه الضواحى يتوافدون على المدينة ، وكان معظم أبواب القاهرة ما تزال فى أيدى الثوار ففتحوها لهم ودخلوا المدينة وجابوا شوارعها حاملين أسلحتهم من عصى ورماح و بنادق

وبدأ النهار بتجمهر الناس فى الشوارع ، وكانت صيحات المتجمهرين تشق الى السماء ، وأخذ نابليون ينفذ الخطة التى وضعها فى ليلته، فوجه الى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتغلب عليهم، وعلم ان حشداً من الثوار قدرهم فى مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف خرجوا من باب الفتوح يرمون الى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصدتهم الجنود الفرنسية وفرقت شملهم ، وصعد جموع من الثوار على أسطحة جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ، وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل مدخل الحارة الموصلة الى ميدان الازبكية ، فعزم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولكنهم لم يستطيعوا أن يهاجموها من الشارع ، فتسلقوا المنازل وعلوا الاسطحة القريبة واحتلوا جامعاً صغيراً يشرف علي موقع الكتيبة وأصلوها ناراً حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهجم العسكر على المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذاً لتعليمات نابليون وزع الجنرالات لان Lannes وفو Vaux والكسندر دوماس Dumas جنودهم بعد الفجر فى ضواحى القاهرة لمنع سكانها أن ينحازوا الى ثوار العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعاً كثيرة من الاهالى وحالت بينهم و بين العاصمة، و بذلك تمكن نابليون من حصر الثورة فى المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة

## مقتل الكولونل سلكوسكى

وكان الكونل سلكوسكى Sulkowski ياور نابليون ممن عهد اليهم إنفاذ هذه المهمة، فركب فى الصباح ومعه كتيبة من حرس القائد العام ومضى على طريق بلبيس ليصد الاهالى منه ، وفيما هو عائد الى القاهرة من ( باب النصر ) تلقاه الثوار وأرادوا منعه هو وكتيبته من دخول المدينة ، فهاجمهم سلكوسكى بشرذمة من الجنود ، وفى أثناء القتال كبا جواده وألقاه على الارض ، وكان لم يزل يشكو من جراحه التى أصابته فى معركة الصالحيه ، فهجم عليه الثوار وقتلوه ، وكان هذا الضابط بولونى الاصل سليل

بيت من البيوت العريقة هاجر من بلاده فراراً من الظلم وتطوع فى الجيش الفرنسى ، وكان من قبل مجاهداً فى سبيل حرية بلاده تحت لواء كوتشيسكو بطل بولونيا الشهير، فلما هزم كوتشيسكو تطوع فى الجيش الفرنسى وعينه نابليون ياوراً له تقديراً لكفايته و إعجابا بعواطفه النبيلة ، وكان على جانب من العلم والذكاء، فجعله عضواً بالمجمع العلمى بمصر ، وكان لكل ذلك موضع عطفه واحترامه ، فلما جاءه نبأ مقتله حزن عليه حزناً شديداً ونعاه الى حكومة الديركتوار فى التقرير الذي بعث به اليها عن ثورة القاهرة

وساطة أعضاء الديوان

وفى ضحوة هذا اليوم جاء أعضاء الديوان لمقابلة نابليون يسألونه الكف عن الضرب ، فتلقاهم بفتور ورماهم بالتهاون فى منع الثورة ، و بعد مناقشة بينهم أمهلهم حتى يعودوا الى الثوار و يدعوهم الى القاء السلاح والاخلاد الى السكينة ، وفى الوقت نفسه أمر الجنرال دومارتان قومندان الطوبجية بأن يمسك عن ضرب المدينة بالمدافع الى أن تصله أوامره

وكانت كتائب الجنود قد تغلبت على الثوار فى معظم أحياء المدينة وانحصرت الثورة فى حى الجامع الازهر وما حوله فذهب أعضاء الديوان الى الأزهر لينصحوا الثوار بالكف عن القتال فلم يأبهوا لهم، ومنعهم الثوار أن يتخطوا المتاريس و أبوا عليهم الدخول الى الازهر ، ولم يبلغ المشايخ الى نابليون ما انتهى اليه سعيهم، وكان نابليون يرقب حركات الازهر من الصباح و يصدر تعليماته الى القواد على ما يقتضيه تحول الحال

ففى الصباح أرسل له الجنرال بون قومندان القاهرة يطلب منه أوامره، و يقول فى رسالته « إن الدوريات التى اكتشفت فى فجر يومنا هذا حى الازهر بلغتنى أن السكينة سائدة عليه ، لكن دوريات أخرى أنبأتنى بعد ذلك أن الحال غير هذا ، ومن الواجب التذرع بالشدة لتفريق الجموع المسلحة التى تحتشد فى هذا الحى ، وانى منتظر أمركم ، ومن رأيى أن نميل بقواتنا على هذا المسجد ، ولكن من الصواب أن نزحف عليه من كل الجهات التى تفضى اليه »

فأنفذ الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب فى الساعة الثانية بعد الظهر الى الجنرال بون تعليمات القائد العام وهى :

« عليكم أن تهاجموا لفوركم معسكر الثائرين ، وان تضربوا الازهر بالمدافع، ولتكن المدافع فى أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثراً، بلغوا الجنرال «دومارتان» ان يفعل مثل ذلك وان يستولى على مدخل الازهر والمنازل الموصلة اليه ، وعليكم ان تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع ، والقائد العام يأمر أن تقتلوا كل من تلقونه فى الشوارع المسلحة ، وعليكم ان تعلنوا الاهالى بأن كل المنازل التى تلقى منها الحجارة تحرق حالا بالنار ويعفى عن المنازل الاخرى ، وعليكم ان تقتلوا كل من فى المسجد وان تضعوا فيه حرسا قوياً من الجنود »

## ضرب المدينة بالمدافع

و بينما كان الثائرون مجتمعين فى الازهر قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة على ربى المقطم، فانفجرت فى المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع

يقول ريبو (١) ان اطلاق القنابل بدأ فى الساعة الرابعة تماما ، لكن الكولونل ديترو ا يقول فى يومياته ان الضرب ابتدأ فى الظهر واستمر الى الليل ، وروايته أدعى الى الثقة لانه شاهد لتلك الحوادث شهادة عيان

أخذت آلاف القنابل تنهال على الازهر وتترامى فى الاحياء المجاورة له كالصنادقية والغورية والفحامين وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل، فالقت الرعب فى نفوس الناس، وفى الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة الى الازهر بحيث أصبح الثوار محصورين بين نارين نار المدافع من فوقهم ونار الجنود من حولهم ، وأحدثت المدافع تخريباً فى الجامع الازهر والبيوت القائمة فى الاحياء

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

المجاورة له ، فأصبح منظر هذه الأحياء فظيعاً لما شوهها من آثار الخراب، قال « ريبو » يصف تأثير الضرب :

« أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه، وأصبح الحي المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ودور محترقة ، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين كان يسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولا سيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة »

ويقول الجبرتي في هذا الصدد « تتابع الرمى من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل ، فما ذهبوا اليه عتبهم فى التأخير واتهمهم بالتقصير ، فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك »

قال ريبو ان الضرب انتهى فى نحو الساعة السادسة مساء ، ويقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة الفرنسية وهو شاهد عين لتلك الحوادث ان الضرب انتهى الساعة الثامنة مساء (١) ، فوقع الاختلال فى صفوف الثوار وطلبوا الهدنة والتسليم ، وانتهت المفاوضة بالقاء السلاح ورفع المتاريس فدخل منها الجنود حتى وصلوا الى الجامع الأزهر ، فعسكروا فيه طول الليل ، وبذلك انتهت ثورة القاهرة وباتت المدينة تلك الليلة غارقة فى لجة من الظلام ولجة من الفزع

---

(١) تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر تأليف المسيو مارتان

## قمع الثورة

تغلبت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لا سلاح معه ، واستهدف سكان القاهرة بعد اخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها وأهوالها

قدر الكولونل ديترووا فى يومياته قتلى الاهالى بسبعمائة الى ثمانمائة رجل ، لكن هذا التقدير دون الحقيقة بمراحل، فضلا عن انه لم يحص الذين ماتوا تحت أنقاض الدور المتهدمة والمنازل التى خربت أو احترقت

أما نابليون فأحصاهم فى تقريره الى حكومة الديركتوار بعدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قتيل، وقدر ريبو عدد ضحايا الثورة بأربعة آلاف، ولعله اعتمد فى هذا العدد على تقدير الجنرال « بليار » Belliard فى مذكراته ، فانه قدرهم بهذا العدد وهو أقرب الى الثقة

وبلغت خسارة الفرنسيين ٣٠٠ قتيل منهم جنرال وهو ( ديبوى ) وكولونل ( سلكوسكى ) وبعض الضباط والمهندسين، والباقى من الجنود ، وقد يكون قتل بعض المهندسين مدعاة للتعجب ، اذ ماشأنهم بثورة قامت بين الأهالى والجنود ؟ على أن نابليون فى مذكراته يبين لنا السبب فهو يقول أن ضباط فرقة الهندسة كانوا هدفا للشعب لأنهم هم الذين كانوا يتولون اقتلاع أبواب الدروب والحارات و نبش القبور وهدم البيوت وتحصين القلعة ، ولعل هـذا من أهم أسباب مهاجمة الثوار لبيت الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة الذى كان يسكن ببيت مصطفى كاشف بالدرب الاحمر ، فقد هجم العامة على داره وكان غائباً عنها صحبة نابليون فى الروضة، وكان بها اثنان من مهندسى القناطر والجسور وهما تيفنو Thevenot ودوفال Duval فقتلهما الثوار وأتلفوا ما كان بالدار من الآلات الفلكية والهندسية، فخسر العلم باتلاف هذه المجموعة خسارة كبيرة

قال الجبرتى فى هذا الصدد « وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو

معدوم النظير كل آلة لا قيمة لها عند من لا يعرف صنعتها ومنفعتها، فبدد العامة كل ذلك وكسروه قطعا ، وصعب ذلك على الفرنسيس جدا ، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات »

وخسر العلم كذلك بقتل المسيو تستفيود Testevuide كبير المهندسين الجغرافيين وكان يشتغل بوضع خريطة مصر فعاجلته المنية قبل أن يتمها، خرج صبيحة يوم الثورة (٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ من دار المجمع العلمى بالناصرية وذهب الى دار الجنرال كافريللى بالدرب الاحمر فقتله الثوار فى الطريق ، وقتل كذلك ارساه دوبرى Duperrés والجراحان روسل Roussel ومنجان Mangin

مروءة سكان القاهرة

ويعترف الكتاب والمؤرخون الفرنسيون انه لا يصح نسبة شيء مما يعد من الفظائع فى ثورة القاهرة الى المصريين وانه اذا كان ثمت فظائع ارتكبت فهى من عمل المغاربة الذين كانوا بالقاهرة ، وفضلا عن ذلك فانهم يعترفون بان الطبقة المتوسطة من سكان العاصمة قد برهنت فى خلال الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة بايواء الفرنسيين العزل من السلاح ، قال ريبو فى هذا الصدد « ان جميع الفرنسيين الذين التجأوا الى بيوت الطبقة المتوسطة قد افتدوا نوافيهم على حياتهم وألفوا بها النجدة والمروءة (١)

وكتب المسيو فيفان دينون Vivant Denon وهو شاهد عين لحوادث ثورة القاهرة يصف مروءة الطبقة المتوسطة من السكان : « اذا كان العامة وبعض الكبراء والاتقياء قد ظهروا قساة فى ثورة القاهرة فان الطبقة المتوسطة من سكان المدينة برهنت على أسمى عواطف الانسانية ومروءة رغم فوارق العادات والاخلاق والدين واللغة التى كانت تفصل بيننا ، فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تسمع من المآذن وبينما كان شبح الموت والدم ينتقل فى الشوارع فان أصحاب المنازل التى كان

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

يسكنها الفرنسيون قد آووهم وأظلوهم بحمايتهم وأمدوهم بما يحتاجون ، فمن ذلك أن عجوزا كانت تسكن بالحى الذى كنا نقيم به (١) فاخبرتنا انه لا يفصل بيننا و بينها الا حائط مشترك وانها مستعدة لان تؤوينا فى بيتها وصرحت لنا فى حالة الهجوم علينا ان نهدم الحائط المشترك لنكون فى دارها ، وحدث أن جارا لنا امدنا بالمؤونة التى تكفينا دون أن نطالب منه ذلك مع انه لم يكن بيع ولا شراء فى تلك الاوقات العصيبة إذ كانت المجاعة تتهدد العاصمة ، ومحا هذا الجار كل المعلومات التى ترشد الى مكاننا ، وجلس امام دارنا يدخن الشبك كأنها داره ليصرف عنا أنظار الثوار ، وحدث ان اثنين من الفرنسيين كانا يسيران فى الشوارع فاختطفهما أناس مجهولون وذهبوا بهما الى دار لا يعرفانها ، فخيل اليهما انهما وقعا فى كمين ولم يشكا انهما صارا فريسة القتل والتعذيب ، فثارت ثائرتهما ، ورأى المسكون بهما انهم لم يستطيعوا اقناعهما بحسن نيتهم وانهم لا يريدون الا انقاذهما ، فأودعوهما اطفالهم ليطمئنا على حياتهما ، ويمكن ايراد وقائع أخرى كثيرة من أشباه هذه الحوادث تدل على رقة الشعور وتبرهن على أن عواطف الانسانية تتجلى فى أشد الساعات بأساً (٢) »

## فظائع الفرنسيين

### فى إخماد الثورة

أسلفنا ان عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة فى إخماد الثورة بلغ على أرجح الروايات أربعة آلاف ، ولا جدال ان قمع الثورة فى مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو الى إفناء هذا العدد الكبير من السكان ، على ان قواد الفرنسيس لم يكن همهم الا قمع الثورة بكل وسائلهم فى الصرامة والارهاب ، ولم يحسبوا حسابا لتضميد جراح النفوس واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة ، والواقع ان ثورة القاهرة وما تخللها وأعقبها من الفظائع قد باعدت بين المصريين

(١) حى الناصرية حيث كان المجمع العلمى

(٢) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا للمسيو فيفان دينون

والفرنسيين ، فالدماء التى سالت فى شوارع العاصمة فى أيام ٢١ و٢٢ و٢٣ اكتوبر وما بعدها قضت نهائيا على آمال نابليون فى اكتساب قلوب الشعب المصرى ، على أنك اذا تأملت فى الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة واخلادها الى السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، ولهى أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام

وحسبك أن ترجع الى ما رواه الجبرتى عن تلك الفظائع وبخاصة انتهاكهم حرمة الازهر لتحكم أنها فوق ما توصف به من الفظاعة

قال الجبرتى « وبعد هجعة من الليل ( ليلة الثلاثاء ٢٣ اكتوبر ) ، دخل الافرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الازقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جند ابليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخلت طائفة من باب البرقية ، ومشوا الى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجموا ، وعلموا باليقين ، ان لا دافع لهم ولا كمين ، وتراسلوا أرسالا ، ركبانا ورجالا ، ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالاروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والاوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الارض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . . . وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه . . . ومن ثيابه أخرجوه »

هذا بعض ما كتبه الجبرتى وصفا لتلك المأساة التى أعقبت تسليم القاهرة ، على ان الفظائع لم تقتصر على اليوم الذى اخمدت فيه الثورة بل استمرت بعد ذلك ولا ضرورة اليها من حرب ولا من سياسة

ففى يوم الثلاثاء ٢٣ اكتوبر غداة إخماد الثورة بعد أن سادت السكينة واستولى الفزع على النفوس كانت الجنود لم تزل مرابطة بالازهر وما حوله ، فكانوا يمنعون الناس دخول الجامع ، وشردت الجنود فى الاحياء المجاورة للازهر ونهبوا بعض البيوت بحجة

التفتيش على السلاح حتى اضطر سكان تلك الجهة الى التحول عن دورهم والنجاة بأنفسهم ، وأخذ الجنود يتسكعون فى الاسواق ويقفون صفوفا، فان مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، وصاروا يقبضون على الناس جزافا بحجة انهم كانوا يخبأون السلاح أو أنهم اشتركوا فى الثورة ، فوقع الفزع وكثرت الوشايات ، وراجت الدسائس ، وتغالت المفتريات ، وتعددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، وامتلأت السجون بالابرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والهوان ، وقتل منهم الكثير بلا محاكمة ولا حساب ، قال الجبرتى فى هذا المعنى :

« وانتدب برطلمين (١) للعسس ، على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات ، يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم . . فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب فى موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبال ، يسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم ( يكرهونهم على الاقرار) بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضا القبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الاغا (٢) ، وتجبر فى أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله »

وكانت التعليمات التى أصدرها الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان الحرب (وهى صادرة بأمر القائد العام) بعد إخماد الثورة تأمر بالصرامة والغلظة والقسوة ، انظر

---

( ١ ) هو برتلمى الرومى الذى سبق الكلام عنه بهامش ص ٢٨٩

( ٢ ) هو مصطفى اغا وقد عينه الفرنسيون محافظا للمدينة بعد أن عزلوا محمد المسلمانى الذى كان معينا باشارة أعضاء الديوان كما سبق بيان ذلك بالفصل الثالث، ويقول الجبرتى عن مصطفى أغا انه كان تابع ( خادم ) عبد الرحمن أغا مستحفظان ( محافظ المدينة ) سابقا

الى الأمر الذى أصدره الى الجنرال بون Bon بتاريخ ٢٣ اكتوبر :

« يهدم الجامع الأكبر ليلا اذا امكن،وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع »

نجد أن أعمال الفرنسيين جاوزت الغرض من إخماد الثورة الى الانتقام والارهاب ، ويعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سراً فى القلعة(١) من غير محاكمة،فقتلوا بحد السنك ، و يعترف القواد الفرنسيون فى رسائلهم التى تبادلوها بالفظائع التى ارتكبت فى قمع الثورة ، كتب الجنرال برتييه بتاريخ ٢٣ اكتوبر سنة ١٧٩٨ الى الجنرال دوجا Dugua قومندان مديرية المنصورة وقتئذ يخبره بحوادث الثورة قال .

« لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم الفين أو ثلاثة آلاف »

وأمر نابليون الجنرال برتييه بتاريخ ٢٣ اكتوبر أن يصدر تعليماته الى قومندان المدينة « بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم سلحة ، وعليكم إرسال جثث فى هذه الليلة الى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة واغراقها فى النهر »

وأرسل نابليون بتاريخ ٢٦ اكتوبر الى الجنرال رينييه Reynier قومندان الشرقية يقول :

« عادت السكينة الى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو الفى قتيل ، وفى كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن ان هذا سيكون درساً قاسياً لهم »

وفى مذكرات نابليون رواية مخففة لهذه الفظائع،قال« إن رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة ،وان نحو أربعة آلاف من سكان العاصمة هاجروا منها قبل شروق الشمس قاصدين الى السويس ليلتجئوا اليها (وكان

---

(١) دى لاجونكيير الجزء الثالث

الفرنسيون لم يحتلوها بعد) وأن أعضاء لجنة الثورة (أى الثمانين) قد أُخذوا بذنبهم وثبتت إدانتهم فأصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨ قراراً باعدامهم جميعاً ونفذ فيهم الحكم (١) » ولعل هؤلاء هم الذين اعدموا سراً بدون محاكمة كما يقول دى لاجونكيير

وقد أسرف الفرنسيون فى القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، فقتلوا كثيراً منهن ، وهذا من أفظع ما سمع فى التنكيل وسفك الدماء ، قال المسيو بوريين سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته « سيق المسجونون الى القلعة ، وكنتُ أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية باعدام اثنى عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الاعدام الايلية (٢) »

وفى مذكرات نابليون أيضاً أن الشيخ السادات الذى انتخب رئيساً للجنة الثورة نفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة بأنه كان مريضاً ، وقد تردد نابليون فى شأنه وقال فى مذكراته إنه مع قيام البينات على أنه زعيم الثورة فقد عفا عنه ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه لما كان له من المنزلة الرفيعة فى الشرق ولأن قتله يجعله شهيداً فى نظر الشعب (٣)

أما الذين حوكموا رسميا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ اسماعيل البراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) ، والشيخ احمد الشرقاوى ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر ، حبس هؤلاء المتهمون فيمن قبض عليهم بعد إخماد الثورة ولم يكن أحد يعلم التهمة التى أخذوا بها

---

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٢) مذكرات بوريين الجزء الاول

(٣) مذكرات نابليون

وفى يوم الأربعاء ٢٤ اكتوبر ذهب الى نابليون وفد كبير من الشيوخ يسألونه العفو عن أهل المدينة لتطمئن قلوب الناس وتسكن روعهم ، فوعدهم كما يقول الجبرتى « وعداً مشوباً بالتسويف » وطالبهم بارشاده عمن تسبب من المعممين فى اثارة العوام ، فلم يتهموا أحداً ، فقال لهم القائد العام على لسان الترجمان « نحن نعرفهم واحداً واحداً » ثم طلبوا منه اخراج الجنود من الجامع الأزهر فأجابهم الى ذلك وأمر باخراج الجنود على ان يبقى سبعون جنديا أسكنوهم فى خط الأزهر للمحافظة على النظام ، فكأن الأزهر بقى محتلا من ليلة الثلاثاء الى يوم الأربعاء ، ويقول نيقولا الترك فى كتابه (١) ان نابليون رفض طلب كبار العلماء اخراج الجنود من الأزهر ، وقبل شفاعة الشيخ محمد الجوهرى الذى جاءه متوسلا وكن فى حياته لم يقابل حاكما قط فلما دخل على نابليون قال له ما قابلت حاكما عادلا كان أو ظالماً ، والآن قد أتيت متوسلا اليك أن تأمر باخراج العسكر من الجامع الأزهر ، فقبل نابليون رجاءه وأمر باخراج الجنود من الأزهر

ولما علم الشيوخ باعتقال المتهمين بالتحريض على الثورة شفعوا لهم واختلفوا الى ولاة الامور من الفرنسيين لاطلاق سراحهم ، فلم يتلقوا جوابا صريحا ، وقبض كذلك على ابراهيم افندى كاتب جمرك البهار واتهم بانه ألب الجموع وكان يوزع عليهم السلاح والمساوق وانه كان يؤوى عدة من المماليك والرجال المعدودين ، وقد تردد الشيوخ غير مرة للافراج عنه وعن باقى المتهمين ، أما ابراهيم افندى فقبل نابليون فيه شفاعة الشيخ محمد المهدى ورجاء المسيو بوسليج مدير الشئون المالية ، فاطلق سراحه ونقل الى بيته ، وأما باقى المشايخ المتهمين فقد بقوا فى السجن ، وهناك حكم عليهم بالاعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم فى السر فلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ، ففى الساعة الثامنة صباحا جيء بهم الى القلعة

---

(١) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية تأليف المعلم نيقولا الترك (الذى شهد وقائع الحملة الفرنسية)

مخفورين بشرذمة من الجنود ، وهنـاك تلى عليهم حكم الاعدام وأعدموا رميا بالرصاص (١) وتولى تنفيـذ الحكم فيهم برتلمى الرومى ، وَغُيِّبَ حالهم عن أكثر الناس اياما ، ويقول الجبرتى انهم سجنوهم بالقلعة الى الصباح ثم اخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة ، وقد ذكرهم فى وفيات سنة ١٢١٣ هجرية ، فقال عن الشيخ احمد الشرقاوى انه تولى التدريس بالازهر بدلا من والده واجتمع عليه طلبة أبيه وغيرهم واشتهر ذكره وكان فصيح اللسان عظيم الجسم ولم يزل يدرس بالازهر حتى اتهم فى ثورة القاهرة

وقال عن الشيخ عبد الوهاب الشبراوى انه تولى التدريس بالمشهد الحسينى «وكان يقرأ كتب الحديث كالبخارى ومسلم ويحضر درسه الجم الغفير من العامة وكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة »

وقال عن الشيخ يوسف المصيلحى انه كان يتولى التدريس بجامع الكردى وانه كان « مهذب النفس لطيف الذات ، حلو الناطقة ، مقبول الطلعة ، خفيف الروح »

وقال عن الشيخ سليمان الجوسقى انه كان شيخ طائفة العميان تولى هذه المشيخة بعد وفاة الشيخ الشبراوى شيخها السـابق ، وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت ، وصار « من أعيان الصـدور المشار اليهم فى المجالس ، تخشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا»

وقال عن الشيخ اسماعيل البراوى انه ابن أخى الشيخ عيسى البراوى الشـهير الذكر ، تصدر بعـد وفاة والده مكانه « وكان قليل البضاعة ، تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتدخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنسيس »

---

(١) نشرت جريدة ( كورييه دليجبت) بالعدد الصادر في ٢٠ برومير (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨) نبأ اعدام هؤلاء المشايخ وذكرت انهم ستة لا خمسة كما فى الجبرتى ونشرت أسماءهم كما ذكرها الجبرتى وأضافت اليهم السيد عبد الكريم وقالت انهم أعدموا فى ميدان القلعة وقطعت رؤوسهم

وقال الجبرتى عن أولئك المشايخ انهم لم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم

وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان فى كتابه (تحفة الناظرين) « ان الفرنسيس قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالما ، ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر ومكثوا فيه يوما و بعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ،ونهبوا منه أموالا كثيرة، وسبب وجودها فيه ان أهل البلد ظنوا ان العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ودشتوا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة »

وأمر الفرنسيون الاهالى الساكنين حول ميدان الازبكية — حيث كان معسكر القائد العام وقواد الجيش — أن يتحولوا من بيوتهم ليسكن بها رجالهم العسكريون والملكيون الذين كانوا متوزعين من قبل فى القاهرة حتى يجتمعوا فى حى واحد إذ لم يعودوا يأمنون على أنفسهم بين الاهالى ، وقد استيقنوا ان الشعب معاد لهم ساخط عليهم يتربص بهم الدوائر

وأصدر نابليون أمراً عسكريا فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ اذاعه بين الجنود يدل على مبلغ توقعه الوثبة من الشعب ، يأمرهم فيه أن لا يبتعدوا عن معسكراتهم و يستنكر حوادث الاعتداء والنهب التى وقعت من الجنود ، قال فى هذا الامر:

« لقد قتل بعض الفرنسيين فى يوم الثورة ، وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الأوامر الصادرة اليهم ودعاهم الطيش الى الابتعاد عن معسكراتهم والمغامرة بأنفسهم غير حاملين سلاحاً ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الأقسام الادارية مراقبة الجنود لكيلا يبتعدوا ولايضعوا عنهم السلاح ، وعليهم أن يراقبوا اتباع النظام والأوامر العسكرية بين الجنود ، وعلى كل فرنسى أن يكون شاكى السلاح تام الذخيرة ، وإذا قامت قومة فى المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقته أو الادارة التى يستتبع لها منتظراً مايؤمر به ، ولايمنعن الأمن من الحذر ، ولتكونوا فى وقت السكينة معدين لوقت الهياج، فان عدم الاغراق فى الاطمئنان أدعى للاطمئنان ، ولقد علم القائد العام أن بعض الجنود

يستبيحون التسلل الى المنازل ونهبها ، فعلى قومندان موقع القاهرة وقواد الفرق أن يتخذوا التدابير الفعالة ليلزم الجند حدود واجباتهم حتى لا يصم بعض الجنود سمعة إخوانهم ولا يكدروا صفو النظام والسكينة »

وأصدر أمراً آخر يحظر فيه على الجنود والضباط إصلاح أسلحتهم عند صناع الاسلحة ( البندقلية ) الوطنيين وان يسترجعوا منهم كل الاسلحة التى لديهم

وانتزعت الثقة مما بين الجنود والاهالى، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التى باعدت الى الابد بين الامة المصرية والجيش الفرنسى ،وراح كل جندى لا يمشى الا بسلاح بعد ان كانوا لا يمشون به أصلا من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل فى يده عصا أو سوطا أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جهتهم عن الخروج والمرور بالاسواق من العشية الى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة ، وشرعوا فى إحصاء الاملاك والمطالبة بالضرائب الجديدة التى كانت سبباً فى نشوب الثورة فلم يعترضهم فى ذلك أحد ، وساد حكم الارهاب مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة

## إبطال الديوان

### وانشاء القلاع لاخضاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب إخماد الثورة عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم ، وانصرف الى تحصين المدينة وجعلها بمأمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ونصبوا فيها المدافع، وهدموا كثيرا من الاماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وحصنوها تحصينا منيعا ، وأقاموا المعاقل فى أهم شوارع القاهرة ، وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة ، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة امبابه ومسجد المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيرا من النخيل والاشجار لعمل الحصون والمتاريس ، وهدموا جامع

الكازرونى بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غرب الازبكية ،وخربوا دورا كثيرة ، وكسروا شبابيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها ليجعلوها فى بناء الحصون الجديدة ، ولم يمض ستة أسابيع على إخماد ثورة القاهرة حتى أصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات (١)

وأهم هذه القلاع طابية ( ديبوى ) سميت باسم الجنرال ديبوى Dupuy الذى قتل فى ثورة القاهرة وأقيمت على رابية من ربى الجبل بالمكان الذى ركب به الجنرال دومارتان مدافعه قرب القلعة، والغرض من اقامتها فى هذا الموقع استهداف حى الازهر ، للضرب وكانت تعرف فى القاهرة باسم قلعة الغريب لقربها من مقام الشيخ الغريب

وطابية ( سلكوسكى ) Sulkowski أنشأوها فى جامع الظاهر (٢) فحولوا المسجد الى قلعة ، واتخذوا مأذنته مرصدا للاستكشاف و بنوا بداخله عدة مسا كن وأمكنة تسع ٦٠٠ فارس بخيولهم ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة،ومنارته برجا ، ووضعوا على أسواره مدافع وأسكنوا به جماعة من العسكر و بنوا فى داخله عدة مسا كن تسكنها العسكر المقيمة به » والجبرتى يسمى هذه الطابية قلعة جامع الظاهر ويسميها فى بعض المواطن القلعة الظاهرية ، أما الفرنسيون فسموها طابية سلكوسكى باسم الضابط البولونى الذى قتل فى ثورة القاهرة على مقربة المسجد وقد روينا خبر مقتله ص ٢٩٤

وطابية « كامان » (٣) Camin بالقرب من قنطرة الايمون بالطريق الموصل

---

(١) بعض هذه القلاع أمر نابليون باقامتها قبل ثورة القاهرة لكنها أقيمت فعلا بعد الثورة

(٢) الكائن بالميدان المعروف الآن بميدان الظاهر وكان وقتئذ خارج مبانى القاهرة أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

(٣) هو ضابط فرنسى كبير ( ادجودان جنرال ) قتله العرب على سواحل الاسكندرية جهة مريوط بالقرب من برج العرب

لبولاق يسميها الجبرتى قلعة قنطرة الليمون

وطابية ( مويرور) أقاموها فى حى طولون لاخضاع الحى

وطابية ( الناصرية ) أقاموها فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلمي ويسميها الفرنسيون طابية المجمع العلمى، وكانت تعرف فى مصر بطابية قاسم بك

وحصن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع بطاريات من المدافع فى كل طرف من طرفيها ، وجعل من المقياس شبه قلعة ، وحصن شاطىء النيل فى مقابل الجزيرة لحماية الملاحة فى النيل ، وجعل فم الجراة طابية حصينة سميت طابية الجراة ( أو طابية السبع السواقى)، وجعل قصر ابراهيم بك (قصر العينى) الواقع تجاه جزيرة الروضة مستشفى عسكريا حصيناً يسع الف مريض وجريح والحق به البيت الذى بجواره وكان معروفا وقتئذ ببيت محمد كاشف الأرناؤوطى وجعله مخزناً ومصنعاً لفرقة الهندسة وحصن السور المحيط بهما وركب عليه المدافع فصار حصناً منيعاً

قال الكولونل ديترو فى يومياته « إن الغرض من إقامة هذه الحصون هو استهداف مدينة القاهرة اذا قامت ثورة فيها، وقد وصّل بينها بطرق خارجة عن المدينة ، ولما كانت نية القائد العام متجهة الى جعل المستشفيات ومخازن الجيش بمعزل عن المدينة وإسكان الفرنسيين فى حيين من احيائها فمن المحقق أننا نستطيع ان نتغلب على كل هياج فى القاهرة »

وحصن نابليون الجيزة وكانت من عهد المماليك محاطة بسور منيع أقيمت عليه الابراج وبها دار صناعة ( ترسانة ) كبيرة من عهد مراد بك ، فجعلها نابليون مركزاً للمدفعية ومخازنها ومستودعاً للذخائر ، واختار الجيزة لهذا الغرض لموقعها على النيل وسهولة النقل منها واليها بواسطة المراكب

---

(١) مويرور Muireur هو اسم جنرال فرنسى قتل فى دمنهور فى أوائل الحملة الفرنسية

## كلمة عن ترسانة الجيزة

ذكر الجبرتى هذه الترسانة فى ترجمة مراد بك فقال عنها ما خلاصته ان مراد بك لما رجع من الصعيد (١) جعل إقامته بقصر الجيزة وأنشأ ترسانة عظيمة « وطلب صناع آلات الحرب من المدافع والقنابر والبنب (كذا) والجلل والمكاحل واتخذ بها أيضا معامل للبارود خلاف المعامل التى فى البلد، وأحضر أناساً من القليونجية (البحارة) الاروام وصناع المراكب فأنشأوا له عدة مراكب حربية وغلايين وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم وصرف عليها أموالا عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية وأدر عليها الرواتب والارزاق الكثيرة وجعل عليهم رئيساً يقال له « نقولا (٢) » بنى له داراً عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر وله عزة وأتباع من نصارى الاروام المرتبين عسكراً (٣) »

ويقول بعض المؤرخين إن حسن باشا الجزائرلى الذى أرسلته تركيا لمحاربة ابراهيم بك ومراد بك هو الذى بنى هذه الترسانة بعد عودته من محاربة المماليك بالصعيد وقبل سفره الى الاستانه ، ولكن رواية الجبرتى أصدق لانه شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العهد ، ومنطق الحوادث يؤيده لأن حسن باشا الجزايرلى هبط القاهرة فى شهر شوال سنة ١٢٠٠ وعاد الى الاستانة فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠١ لنشوب الحرب بين تركيا والروسيا ، فلم يكن لديه الوقت ولا التفكير فى انشاء دار صناعة بالجيزة أو غيرها ، والظاهر أن مراد بك بعد عودته من الصعيد وتخلصه من حسن باشا الجزايرلى بنى هذه الترسانة لتكون عدة له اذا عادت تركيا لمحاربته ، والى ذلك يشير الجبرتى بقوله

---

(١) بعد عودة حسن باشا الجزائرلى الى الاستانة وموت اسماعيل بك سنة ١٧٩١ كما سبق بيان ذلك فى الفصل الاول ص٢٢

(٢) اسمه نيقولا بابازوغلو

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

« واختلفت آراء الناس فى ذلك فمن قائل ان ذلك خوفا من خشداشينه (رفاقه) وقائل مخافة من العثمانية كما تقدم فى قضية حسن باشا ، والبعض يظن خلاف ذلك، وليس غير الوهم والتخيل الفاسد ، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحواصله حتى أخذ جميعه الفرنسيس ، ويقال أنه كان بحواصل الترسخانة أحد عشر ألف جلة »

وقال الجبرتى عن « نيقولا » رئيس الترسانة ان الفرنسيين بعد أن اعتقلوه ضمن بحارة مراكب مراد بك أفرجوا عنه فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ ( ابريل سنة ١٧٩٩ )

## عدد القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة

لم يكتف الفرنسيون بالقلاع التى تكلمنا عنها بل أخذوا يزيدونها كلما اشتد قلقهم من مقاومة الاهالى أو أوجسوا خيفة من نشوب نار الثورة ، حتى بلغ عدد القلاع التى انشأوها فى خلال الحملة الفرنسية ١٩ (تسع عشرة) قلعة كما ذكر ذلك المسيو جومار أحد مهندسى الحملة وذلك بخلاف استحكامات جزيرة الروضة (١)

وقد اجتهدنا أن نحصى تلك القلاع بأسمائها ومواقعها ، فرجعنا الى خريطة القاهرة المفصلة التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، فرأينا القلاع الآتية مرسومة على الخريطة واليك بيانها مسماة بأسمائها الفرنسية التى اختاروها لها عند انشائها، وهى أسماء بعض القواد والضباط ومعظمهم ممن لقوا حتفهم فى خلال الحملة

طابية ( دبوى ) Dupuy أو طابية الغريب

طابية ( سلكوسكى) Sulkowsky أو قلعة جامع الظاهر بيبرس

طابية ( مويرور ) Muireur بحى طولون

طابية ( كامان ) Camin أو قلعة قنطرة الليمون

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

طابية المجمع العلمى Fort de l'institut أو طابية قاسم بك بالناصرية

طابية ( ربو ) Reboul بين قلعة الجبل وطابية دبوى

طابية ( فنو ) Venoux شمال طابية دبوى بشرق

طابية ( مارتينيه ) Martinet وطابيـة ( سورنيه ) Sornet وطابيـة ( لامبير ) Lambert وهذه الطوابى الثلاث تقع شمال قلعة الجبل

طابية ( جرزيو ) Grezieux على الكوم القائم بالقرب من باب الحسينية

طابية ( لوجييه ) Laugier أو طابيـة أبى الريش الكائنة بكوم أبى الريش بالفجـالة

طابية ( كونرو ) Conroux غرب الازبكية على طريق بولاق

طابية ( دنزلو ) Donzelot ببولاق

طابية ( سبتزر ) Spizer ببولاق

هذه هى القلاع المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، وهى خمس عشرة قلعة لا تسع عشرة ، ومن الواجب أن نضيف اليها طابية المجراة ( السبع السواقى ) ، وقصر العينى وقد أسلفنا أن الفرنسيين حصنوهما فوجب عدهما ضمن القلاع ، يؤيد ذلك ما جاء فى تقويم الجمهورية الفرنسـية عن السنة الثامنة من الحساب الجمهورى ( سنة ١٧٩٩ — ١٨٠٠ ) وهو التقويم الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه أنهما معدودان ضمن قلاع القاهرة ، وجاء فى كتاب نقولا الترك الذى عاصر الحملة الفرنسية انهم أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب الفتوح ، فمع إضافة هـذه القلاع الاربع الى الخمس عشرة قلعـة المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية يكون ذلك تمام التسع عشرة قلعة بحسب احصاء المسيو جومار

وهذا العدد من القلاع يدلك على مبلغ المقاومة التى لقيها الفرنسيون من المصريين فى عهد الاحتلال الفرنسى

## صدى الثورة

### فى الأقاليم

ما فتئت القاهرة فى خلال العصور مصدر كل حركة ومنبع كل تطور فى الديار المصرية ، ولا غرو فهى بمثابة الرأس المفكر الذى يرسم الخطط ويدبر البرامج ويبتكر الافكار ، أو هى بمثابة القلب يوزع دم الحياة فى شرايين البلاد ، وهى أبداً حافظة لمنزلتها بين سائر البلدان التى تظلها سماء مصر ، تلك المنزلة التى جعلت لها الزعامة الفكرية والسياسية فى البلاد بلا منازع ولا مزاحم ، وجعلتها دائماً مصدر كل تطور سياسى ، فلا تحدث فيها حركة الا ويتردد صداها فى الاقاليم

فالثورة التى شبت فى القاهرة خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كان لها صدى فى سائر البلاد ، والمقدمات التى سبقت تلك الثورة والحالة الفكرية التى كانت عليها القاهرة من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر عمت الاقاليم حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيرا سابقاً لقيام ثورة عامة فى كل أنحاء القطر ، والواقع انك اذا تتبعت الحركات التى قامت هنا وهناك من أقصى البلاد الى أقصاها أخذتك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على انه ليس ثمت تدبير ولا اتفاق ، بل هى القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية تغذى البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من أمانيها وآمالها ، وتشركها فى أفراحها وأحزانها ، فكأن البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الافق يتردد فيه صدى نداء العاصمة

بهذا التفسير نفهم الحوادث التى وقعت فى الوجه البحرى فى شهر سبتمبر وشهر اكتوبر من تلك السنة ، ولا نريد أن نذكر تفاصيل تلك الحوادث فى مختلف المديريات فقد أفردنا لها الفصول الخاصة بها

لكننا نكتفى فى هذه النبذة بذكر الحوادث التى ارتبطت بثورة القاهرة وكانت جزءاً منها ، فان البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طريقها قد اشتركت فعلا فى الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد ، وإنك لتقدر مبلغ اشتراكها فى الثورة بما وقع

عليها من القصاص بعد إخمادها ، فقد أمرت القيادة العامة بعض كتائب من الجيش بالطواف فى القرى التى اشتركت فى الثورة للبحث عن الاعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها [١] وعهدت الى ضباط هذه الكتائب بمواجهة مشايخ البلاد ( العمد ) وتكليفهم تسليم الرسائل التى وردت عليهم ليلة الثورة تدعوهم الى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم [٢]

وقد ألقت القوة الفرنسية فى طوافها القبض على جماعة من الاعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك فى الثورة ، وعادت بهم الى القاهرة فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر ، ويدخل فى هذا الصدد ما رواه الجبرتى عن حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣ ( نوفمبر — دسمبر سنة ١٧٩٨ ) قال « ان كبير الفرنسيس الذى بناحية قليوب حضر وصحبته سليمان الشواربى شيخ الناحية وكبيرها ، فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل انهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة (ثورة القاهرة) الى مصر ياقوس لينهض أهل تلك النواحى فى القيام »

وقال نابليون فى رسالته الى الجنرال نكارث فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ [٣] انه اعتقل الشواربى لما تبينه من انه كان يوم ثورة القاهرة يحرض أهالى البلاد المجاورة الى الانضمام للثوار ، وذكر الجبرتى فى حوادث شهر رجب « انهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربى ومعه ثلاثة من عرب الشرقية ، قطعوا رؤوسهم بالرميلة ونقلت رفات الشواربى الى قليوب ودفن هناك مع أسلافه »

وفى أول نوفمبر أصدر نابليون أمره بقيام الجنرال لان Lannes على رأس كتيبة

---

(١) أصدر الجنرال برتييه أمراً الى الجنرال داماس Damas فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٧٩٨ بتجريد كتيبة من الفرسان وإنفاذها الى القبة والمطرية والمرج وأصدر أمرا آخر فى هذا اليوم لبرتلمى بإرسال كتيبة أخرى الى الخانقاه ( الخانكه )

(٢) لاجونكيير الجزء الثالث

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٥٧

من الجنود الى القطا (١) واعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن ، ثم أمره بالتوجه الى النجيلة وكفر غرين (٢) لمعاقبة أهلهما ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث أنها أطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية فى النيل وهددت الملاحة بين القاهرة والرحمانية ، ويقول القومندان دى لاجونكيير أن الجنرال ( لان ) اعتقل الرهائن من هذه القرى وأنذر الاهالى بأنه اذا وقع أى اعتداء على أىّ من السفن الفرنسية تحرق القرية بالنار وتقطع رؤوس الرهائن ، وتقول جريدة ( كوريه دليجبت ) بعدد ٢٠ برومير ( ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ) ان الجنرال لان هاجم القطا فى ١٣ برومير ومعه قوة من أربعمائة جندى وأحرق القرية فعلا وان أهلها هاجروا منها قبل إحراقها

وقد أصدر نابليون أمره بتأليف كتيبة من الاروام المقيمين فى ذلك العهد بالقاهرة ورشيد ودمياط وعهد اليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مرورها بالنيل ، وأراد نابليون من هذا الامر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية وأن يستخدم فى هذه المهمة الاروام الذين أظهروا ولاءهم للجيش الفرنسى ، لكن الاروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالعدد الذى كان ينتظره الفرنسيون ، وكانت المهمة فى ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن إذ كانت هذه الحوادث لا تفتأ تتكرر منذ انحدار أسطول السفن الفرنسية بقيادة الكونتراميرال بيرى Perrée من بوغاز رشيد الى القاهرة أى فى أوائل عهد الاحتلال الفرنسى ، فكانت جموع الاهالى تعطل سيره وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ، وقد شهد مدير مهمات الجيش المسيو سوسى Sucy احدى هذه الحوادث فان السفينة التى كانت تقله مع بعض ضباط أركان الحرب جنحت بالقرب من كوم شريك فهجم عليهم الاهلون وقتلوا بعض ركاب السفينة

---

(١) من بلاد مركز امبابه الآن بالبر الغربى لفرع رشيد بين أم دينار ووردان

(٢) بلدتان واقعتان على البر الغربى للنيل من بلاد مركز كوم حماده الآن

وأصيب سوسى بجرح بالغ فى ذراعه اليمنى (١) وجرح قبطان السفينة والضابط لا كوى Lacué

وحدث للكابتن جوليان Julien (٢) ياور نابليون ما هو أشد وأدهى ، فقد أوفده نابليون من القاهرة الى الاسكندرية برسالة منه الى الجنرال كليبر وأخرى الى الاميرال برويس Brueys فى أبو قير ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ، فما كاد ينزل هو وجنوده الى الشاطىء حتى هجم عليهم اهالى « علقام » (٣) فقتلوهم عن آخرهم، فلما علم نابليون بنبأ هذه الحادثة أمر باحراق القرية عقاباً لها على اعتدائها فاحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتاً قائما (٤) ثم فكر نابليون فى اتخاذ طريقة فعلية لحماية المواصلات النيلية ، فشرع فى انشاء أسطول نيلى مسلح ألفه من السفن الصغيرة الحربية التى نجت من كارثة أبو قير ومن المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون وسلحوها بالمدافع وجعل قواعد هذا الاسطول وسفنه فى موانىء بولاق ومصر القديمة و رشيد ودمياط والوجه القبلى

---

(١) لم يطل بقاء سوسى بمصر بعد هذه الاصابة وصرح له نابليون بمغادرتها للاستشفاء باوروبا ، فسافر على ظهر سفينة افلتت من مراقبة الاسطول البريطانى ولكنها اضطرت الى الرسو على شواطىء جزيرة صقلية فقتل أهل الجزيرة ركاب السفينة ومنهم سوسى، وقد عين نابليون بدله القومسير دور Daure مديراً لمهمات الجيش

(٢) هو الذى أشرنا اليه فى الفصل الخامس ص ١٩٣

(٣) من بلاد مركز كوم حماده الآن

(٤) جاء فى جريدة (كوربيه دليجبت) بالعدد الصادر فى ٢٠ فركتيدور (٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨) نبأ هذه الواقعة وقالت الجريدة ان الجنرال لانوس Lanausse هو الذى تولى احراق علقام وان عدد الجنود الذين قتلوا مع الكابتن جوليان خمسة عشر جنديا

وفى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ أصدر أمره بتسيير دوريات من السفن الحربية فى فرعى النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة فى قطاعات محدودة ، ففى فرع رشيد ثلاث منهن جعلت الاولى بين رشيد والرحمانية والثانية بين الرحمانية والطرانة (١) والثالثة بين الطرانة و بولاق

وفى فرع دمياط ثلاث أخرى ، الاولى من دمياط الى المنصورة ، والثانية من المنصورة الى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر الى بولاق ، وكل دورية مؤلفة من ثلاث أو أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحرى نيطت به حراسة المواصلات فى القطاع الذى هو فيه ، وعليه أن يُطوِّف بسفنه وأن يرسل للقيادة البحرية فى كل فرصة تقريراً عما يحدث فى قطاعه ، وهو مسؤول عن الحوادث التى تقع فى ناحيته ، وخصص عدة سفن مسلحة لتجوب النيل فى الوجه القبلى وتحمى مواصلات الجنرال ديزيه Desaix وتحرس نقل الغلال الى القاهرة

وقد لقى الفرنسيون أشد الجهد فى استخدام النوتية المصريين فى مراكبهم لامتناع الكثير منهم واستعصائهم أن يخدموا المحتلين فى نافعة أو ضارة

## تدخل العلماء

## و بياناتهم للشعب

فى خلال المدة التى ساد فيها حكم الارهاب وأبطل الديوان تدخل كبار العلماء (أعضاء الديوان) وتوسطوا لدى نابليون ليعيد الطمأنينة الى النفوس ، فطلب اليهم نابليون كتابة بيان للأهالى ينكرون فيه الثورة و يذكرون عواقبها من قتل المصريين ونهب بيوتهم وتدميرها و ينصحون الاهالى بالاخلاد الى السكينة تفادياً من الهلاك

---

(١) من بلاد مركز كوم حماده الآن

البيان الاول

واليك نص هذا البيان كما ورد فى الجبرتى :

« نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ونبرأ الى الله من الساعين فى الارض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة ان طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية و بين العساكر الفرنساوية ، بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية ، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة الى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المنافقين ، ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم و أديانكم ، فان الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم ان كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم ، وادفعوا الخراج الذى عليكم ، والدين النصيحة والسلام »

كتب هذا البيان بتاريخ ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، لكن الجبرتى يقول ان تاريخه أول جمادى الثانية ، وهذا خطأ ، لأن أول جمادى الثانية يوافق ١٠ نوفمبر ، ولا يمكن أن يكون تاريخ المنشور ١٠ نوفمبر لأنه مطبوع فى جريدة ( كورييه دليجبت ) بالعدد الصادر فى ١٠ بروميير من السنة السابعة ( ٣١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ) أى قبل ١٠ نوفمبر بعشرة أيام

ومذكور فى الصيغة الفرنسية للبيان المنشور فى جريدة ( كورييه دليجبت ) ان تاريخه الهجرى ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ وهذا يوافق ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ،

فتاريخ المنشور هو إذن ١٤ جمادى الاولى لا أول جمادى الثانية كما يقول الجبرتى

والظاهر أن هـذا البيان لم يكن له الأثر المطلوب فى تهدئة الخواطر و إقرار النفوس لأن فكرة الثورة والمقاومة كانت قد عمت الاقاليم وذاعت الاشاعات وتواترت الانباء بأن سلطان تركيا قد جاهر الفرنسيين بالعداء وأعد جيشاً لاخراجهم من مصر ، ووردت مكاتبات من احمـد باشا الجزار والى عكا وأبى بكر باشا الوالى وابراهيم بك تؤيد هذه الاشاعات وتحرض المصريين على الثورة

فطلب نابليون من علماء القاهرة أن ينشروا بياناً ثانياً يوزع فى الاقاليم لتهدئة الخواطر وتكذيب تلك الاشاعات (التى كانت فى الواقع صحيحة) فأذاع العلماء هذا البيان فى اليوم الثامن من شهر جمادى الثانيـة ( الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ) وأرسلت منه نسخ كثيرة للبلاد وألصقوا منها بالخطط والاسواق

وظاهر من البيان الثانى ان العلماء ينسبون هذه الاشاعات الى المماليك الذين يذيعونها لاثارة القلاقل بعـد ما طردوا من الديار المصرية ، وقد أطرى العلماء فى بيانهم نابليون وصفاته وصوروه صديقاً لسـلطان تركيا عدواً لخصومه ، ثم نصحوا للمصريين فى بيانهم بأن لا يقاوموا الجنود الفرنسـية فيستهدفوا لأنواع الأذى والانتقام ، ورغبوا اليهم فى دفع الخراج وأعلنوا الناس انهم اتفقوا مع نابليون على أن لا ينازع أحداً فى دينه ولا يعارضهم فى شريعة الاسلام وأن يرفع المظالم والمغارم عن الناس ويقتصر على أخذ الخراج

البيان الثانى

وهذا نص البيان الثانى كما ورد فى الجبرتى :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسة ، نخبركم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ، و ياسكان الارياف من العربان والفلاحين ، ان ابراهيم بك ومراد بك و بقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات،الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات،وادعوا أنهامن حضرة مولانا السلطان، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان ، و بسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واغتاظوا

غيظا شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم،فأرادوا أن يوقعوا الفتنةوالشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية، لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية ، وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكةمصر المحمية ، ولوكانوا فى هذه الاوراق صادقين، بأنها من حضرةسلطان السلاطين ، لارسلهاجهاراً مع أغوات ( رؤساء جند) معينين، ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائمـاً يحبون المسلمين وملتهم،و يبغضون المشركين وطبيعتهم،احباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته، وأصدقاء له ، ملازمون لمودته، وعشرتهومعونته ، يحبون من والاه ، و يبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنساوية والمسكوف غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة المسكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنساوية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم ان شاء الله تعالى ولا يبقون منهم بقية ، فننصحكم أيها الاقاليم المصرية ، انكم لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكرالفرنساوية ، بشىء من أنواع الاذية ؛ فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المفسدين، ولا تطيعوا أمرالمسرفين، الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون، فتصبحوا على مافعلتم نادمين ، وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لان حضرة صارىعسكر الكبير أمير الجيوش بونا بارته اتفق معنا على انه لاينازع أحداً فى دين الاسلام ، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم ، فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد ، وارجعوا الى مالك الملك وخالق العباد ، فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الامم ، عليه أفضل الصلاة والسلام»

هذه بيانات كبار العلماء للشعب عقب إخماد ثورة القاهرة ، ولاحاجة بنا الى تبيان ما بها من الأغلاط والعبارات الركيكة ، والافكار السخيفة ، فان مجرد تلاوتها يغنى عن

البيان ، واذا كان المراد منها اسداء النصح للشعب بالتزام السكينة لما نزل به من الاهوال فى خلال الثورة و بعد اخمادها فان للنصح والارشاد أساليب أرقى من تلك البيانات الملتوية نفاقا وسخفاً ، ولقد نشرناها بنصوصها لانها من الوثائق التاريخية لذلك العصر ، ولتعرف منها الفرق بين موقف كبار العلماء فى بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء فى قيادتهم للثورة

ومن الواجب تقريراً لحقيقة واقعة أن نقول أن هذه البيانات وغيرها مما نشر خلال الحملة الفرنسية على لسان العلماء قد أمليت تحت تأثير الضغط والارهاب ، وهذا ظاهر مما ذكره الجبرتى عن طريقة تحريرها ، فقد قال عن البيان الأول « واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت (سنة ١٢١٣ )وفيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخاً بالاسواق والشوارع » وظاهر أنه يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا » كما هو سياق العبارة فى الكتاب ، وقال عن البيان الثانى « وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد وألصقوا منها بالاخطاط والأسواق وذلك على لسان المشايخ أيضاً »

وقال عن البيانات التى نشرت باسم الديوان أثناء الحملة على سوريا (١) لما وردت الاخبار باحتلال الفرنسيين يافا وجاءت رسالة نابليون بتفاصيل هذا الاحتلال «اجتمع أعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية وهى عن لسان رؤساء الديوان الى الكافة وذلك بالزامهم وأمرهم بذلك » وعبارة الجبرتى هنا صريحة فى الالزام والأمر

ولا يفوتنا فى هذا المقام ان نشير الى ماورد فى المراجع الفرنسية من أن الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان كان يتولى صوغ المنشورات التى يريد نابليون اذاعتها على لسان الديوان فى قالب عربى مسجع ، ولعل هذا هو السبب فى امتداح نابليون للشيخ المهدى وتفضيله على باقى الاعضاء فقال عنه فى مذكراته « انه أذكى علماء

---

(١) راجع الفصل الثانى من الجزء الثانى من كتابنا

الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سنا[١]» وقد ذكر الجبرتى عن المنشور الذى أذاعه نابليون على لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا « انه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » والاشارة هنا الى الشيخ المهدى لامحالة ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الواضع لمنشور نابليون فى قالبه العربى ، ولأن الثابت فى رسالة نابليون التى بعث بها من يافا بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ الى المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله فيها « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التى يبعث بها فانتور Venture الى الديوان وأن تضيفوا اليها المحسنات والتنميقات التى يرى الشيخ المهدي ادخالها عليها وأن تنشروها فى أنحاء مصر[٢] » فلم يبق شك فى أن الشيخ المهدى هو الذى كان يتولى كتابة المنشورات التى كان يوعز بها الفرنسيون[٣]

---

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٢٨

(٣) بسطنا الكلام فى ترجمة الشيخ المهدى والافراد النابهين من أعضاء الديوان ودراسة شخصياتهم فى الفصل الرابع عشر من الجزء الثانى

# الفصل الرابع عشر

## فى المنوفية والغربية

عرفت مما كتبناه فى الفصل الحادى عشر أن نابليون عين الجنرال زايونشك Zayonchek قومندانا للمنوفية والجنرال فوجيير Fugières قومنداناً للغربية ليتوليا إخضاع المديريتين ، فلننظر كيف أديا مهمتهما

سبق الجنرال زايونشك زميله الى مقر وظيفته ، وكانت تعليمات نابليون تقضى بأن يسافر الجنرال فوجير الى محل عمله من طريق قليوب فمنوف فالمحلة الكبرى ، وأن يكون على اتصال مستمر بالجنرال زايونشك بمنوف والجنرال فيال بالمنصورة والجنرال بيرب بالرحمانية ليتعاونوا على توطيد سلطة الجمهورية الفرنسية فى هذه المديريات ، وأصدر تعليماته بأن يجردوا الاهالى من السلاح ويصادروا خيلهم ويعتقلوا أعيانهم رهائن ، كل ذلك لاخضاع البلاد والقاء الرهبة فيها ، واذا تأملت رسائل نابليون الى قواده رأيت فيها معنى الشدة والصرامة يأمر بهما فى اخضاع البلاد ، فلا يعسر علينا أن نفهم لماذا تأججت نار الكراهة فى نفوس الاهالى ، كتب نابليون الى الجنرال زايونشك بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ ينبئه بسفر الجنرال فوجيير ويقره على إعدام خمسة من الاهالى فى كل قرية من القرى الثائرة ويقول فى رسالته « اصدروا أوامركم بأن تقدم لكم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأيما قرية لم تفعل ومضت خمسة أيام من اعلانها بالامر ضربت عليها غرامة الف ريال ، وإن هذه لهى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتكم ، وعليكم عند طلب الخيل أن تطلبوا كذلك عدتها من الركاب واللجام لتتوافر لكم فى الحال فرقة من الخيالة ، فانها الوسيلة الوحيدة لاخضاع هذه البلاد [1] »

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١

## المقاومة فى غمرين وتتا

سار الجنرال فوجيير من القاهرة مساء ٥ أغسطس ١٧٩٨ وقصد الى منوف ثم غادرها قاصداً الغربية يوم ١٣ أغسطس ، وبعد مسير ساعة اصطدم بقريتى غمرين وتتا (١) ثار أهل القريتين، وحملوا السلاح ، وأغلقوا الابواب فى وجه الجنود ، فحاول الجنرال فوجيير عبثاً أن يكره البلدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المدد من الجنرال زايونشك الذى كان مرابطاً بمنوف فأمده بقوة من جنوده وتعاونت القوتان على اخضاع القريتين بعد مادافع أهلهما دفاعاً شديداً ، واشتد القتال بخاصة فى غمرين واشتبك الاهالى والجنود فى طرقاتها ، فانهمرت فيها الدماء وغطيت الارض بجثث القتلى ، قال الكابتن فيروس Ferus (٢) يصف هذا الدفاع « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين ، فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الاعداء (الاهالى) من أربعمائة الى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام ، أما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلا واحداً واثنى عشر جريحاً ، ولم تكن عندنا فئوس ، فكان ذلك من الاسباب التى أخرتنا عن اقتحام أبواب القرية »

فانظر الى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال فى مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم، وهذا لعمرى من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب فى الدفاع عن كيانه، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى فى خلال الوقائع التى نأتى عليها فى

---

(١) بلدتان متجاورتان شمال منوف

(٢) من رسالة له الى الجنرال كافاريللى فى ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨، وقد ذكر نابليون فى رسالته الى الديركتوار بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ واقعة (غمرين) بايجاز ونشرت رسالته فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٨٨

الفصول التالية ان النساء كن فى بعض البلاد يشاركن الرجال فى مقاومة الفرنسيين

استولى الفرنسيون أولا على غمرين ثم قصدوا الى تتا فاستولوا عليها وأضرموا النار فى القريتين عقابا لهما على الثورة

ونفدت ذخيرة الجنرال فوجيير فى محاربته لبلدتى غمرين وتتا ، فعاد الى منوف ينتظر المدد وبقى هناك ثمانية أيام ، ولما كان الفيضان قد بدأ يغرق الطرق فقد نزل بجنوده فى السفن ووصل الى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليج ، واستقر بها

## المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية ، وهى يومئذ أكبر بلاد الدلتا فى اتساعها ومركزها الصناعى ، واشتهرت فى ذلك العصر ( كشهرتها الآن ) بنسيج الأقمشة الحريرية والقطنية فكان الحرير الخام يرد اليها من سوريا عن طريق دمياط ثم يغزل خيوطا وتنسج منه الأقمشة الحريرية المختلفة ألوانها ، كتب المسيو جالوا Jallois أحد مهندسى الحملة الفرنسية رسالة عن رحلته فى الدلتا وصف فيها المحلة الكبرى وذكر صناعة الحرير بها فقال « ان معظم الحرير الذى يلبسه النساء فى مصر ينسج فى مصانع المحلة الكبرى ، ويصنع فيها أيضا المناديل التى يغطى بها النساء رؤوسهن والقمصان والبشاكير [1] » وقال المسيو جيرار Girard وكيل ادارة الرى فى عهد الحملة الفرنسية ان منسوجات المحلة الكبرى يتخذ منها ستائر الشبابيك وأغطية المقاعد والأرائك والوسائد وأغطية الموائد الموشاة بأسلاك الذهب والفضة ، والاحزمة الحريرية ، والملاءات المسماة ( باللس ) وكانت هذه المنسوجات تصدر عن المحلة الى سائر أنحاء القطر المصرى و بلاد السلطنة العثمانية ، قال وكانت تنسج فيها الأقمشة القطنية ، وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها الفى عامل فنزل .

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

عددهم مدة الحملة الى خمسمائة (١) وهذا يدلك على تقهقر البلاد من الوجهة الاقتصادية فى عهد الحملة الفرنسية

وقد رابط الجنرال فوجيير فى المحلة الكبرى ثم انتقل منها فى خلال الحملة الى سمنود التى اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية وفضلوها على المحلة لوقوعها على النيل وسهولة اتخاذها مركزاً للمواصلات النيلية والحركات العسكرية

## الثورة فى طنطا

كانت طنطا كما هى الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر عشرة آلاف نسمة كما قدرهم المسيو جالوا (١) ، وترجع مكانتها الى مركزها التجارى والى ضريح السيد احمد البدوى ومواسمه المعروفة ، فكان يزورها سنوياً فى أيام المولد الاحمدى نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار

ظهرت أعراض الهياج والثورة فى طنطا أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أى ضريبة أوغرامة تفرض عليهم

فابلغ الجنرال فوجيير الى نابليون حالة المدينة فى رسالة له بتاريخ ١٦ اكتوبر وقال ان امتناعهم راجع الى نياتهم العدائية وكراهيتهم للحكومة وانهم يؤوون بعض المماليك فيستترون بينهم ويحرضونهم على التمرد والثورة

وكان الفرنسيون ينظرون الى طنطا كمدينة مقدسة عند المسلمين تلى مكة والمدينة فى الاهمية ويستشعرون احترامها محافظة على إحساس الاهالى ، فتحاشوا أول أمرهم أن يرسلوا اليها قوة من الجنود كيلا يصطدموا بالأهالى أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتثور ثائرتهم ، ولكن الجنرال فوجيير رأى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد ، فأرسل اليها كتيبة من الجنود بقيادة الكولونل لوفيفر وعهد اليها اعتقال زعماء المدينة وأخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الاهالى فيما جاورها وفى البلاد الواقعة على طريق

---

(١) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

الجنود وأخذ الرهائن منهـا ، وكان دعاة الثورة فى القرى يحرضون الاهالى على عصيان الفرنسيين

وصل الكولونل لوفيفر تجاه طنطا يوم ٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجى أن ينفذ اليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن ، فجاءه بأربعة من أئمة مسجد السـيد احمد البدوى ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسى موثقاً بالمحافظة على السكينة فى طنطا ، وكان المولد قائماً فى ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد «لوفيفر» ينزل الرهائن الاربعة الى المراكب ليبعث بهم الى القاهرة ، حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحراب يصيحون صيحات الغضب والسخط رافعين الرايات والبيارق ، فلما رأوها أهالى البـلاد المجاورة أقبلوا من كل حدب وانضموا الى الثائرين وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب فاندفعت هذه الجموع على كتيبة الجنرال لوفيفر ، وكادت تأخذ المراكب التى معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة فانهزمت الجموع الى المدينة ، وعادت غير مرة تهاجمها ثم ترتد الى داخل البلد ، ورأى الكولونل لوفيفر أن لا سبيل الى تعقب الثائرين فى مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده وافتقاره الى المدفعية ، فلزم خطـة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده وعلى الدفاع عن مراكبه ، وتمكن من انزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ، ثم أقلعت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطىء الترعة لمنع الثوار أن يلحقوا به ، فظلوا يدافعونهم حتى جن الليل فانسحب الثوار بعد معركة دامت أربع ساعات ، وقد قدر الجنرال فوجبير عدد الثوار بعدة آلاف وقدر خسائرهم بثلثمائة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة أهالى طنطا لأن معظم الثوار كانوا منهم وألح فى طلب المدد من الرجال والمدافع لاخضاعهم

ولكن نابليون جنح الى الحكمة وآثر أن يأخذ الثائرين بالحسنى لأنه كان يخشى عقبة انفجار الهياج فى مدينة لها حرمتها عند الأهلين فلم يوافق الجنرال فوجبير على غضبه وأرسل اليه بتاريخ ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« لقد علمت بمزيد الأسف ما حدث فى طنطا ، على أنى راغب فى احترام هذه المدينة ، وأعتبر تخريب هذا المكان المقدس فى نظر الشرق كارثة كبرى ، على أنى سأكتب الى أهالى طنطا ، وسأطلب من الديوان العام أن يكتب اليهم ، وانى راغب فى أن تنتهى الحادثة بالمفاوضة على صلح ووئام »

وكان الجنرال فوجيير قد نبه نابليون إلى أن الثوار قد استعانوا بالعرب ، فكلفه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لاخضاعهم ، وإن لم يذعنوا فلينكل بهم

وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة الجنرال لانوس Lanausse الذى عين قومندانا لمديرية المنوفية ، خلفاً للجنرال زايونشك [1] فناط به قيادة الحملة وفيها جنوده وجنود الجنرال فوجيير ، وأمره أن يسير الى العرب فى سنباط ، حيث يرابطون بها ويحاربهم ، وينتزع منهم الرهائن والأسلحة

## احتلال عشما

كان الجنرال لانوس يهجم حينئذ قرية عشما [2] لاخضاع زعيمها المشهور فى ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « أبو شعير » ، وقد اتهمه الفرنسيون بعدائه لهم ، وممالأته على الجنود ، فجرد الجنرال لانوس حملة عليه ، وسار ليلة ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصداً قرية عشما فى كتيبة من الجنود ، فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفاجأ مخفرين من المخافر التى وضعها أبو شعير حول القرية لحراستها ، فتخطاها حتى وصل الى مدخل البلد ، وهناك التقى بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ، ومحاصرة منزل أبى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصيناً تاماً بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم أبو شعير بوصول الفرنسيين ، فركب فى رهط من رجاله استعداداً للقتال ،

(١) نقل زايونشك قومندانا لبنى سويف
(٢) من بلاد مركز شبين الكوم

وسعى لانوس فى أخـذه بالحسنى ، ولكنه أجاب باطلاق الرصاص على الفرنسيين ، فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وأدرك ( أبو شـعير ) أنه واقع لا محالة فى أسر الفرنسـيين ، فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفســه و يلوذ بالفرار ، وقد تمكن من تسلق الأسوار ، ثم ألقى بنفسه فى الترعـة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكد يصل الى عدوتها الأخرى حتى أصابته رصاصة جندلته ، والظاهر أن الفرنسيين عدوا قتل أبى شعير انتصاراً كبيراً ، فقد ابتهج له الجنرال لانوس ، وأرسل الى نابليون بتاريخ ٢٣ اكتوبر ينبئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسى منه أذى كبير ، وأنهم وجدوا بمنزله بعض شارات الضباط الفرنسيين ، ولعل هـذا هو سبب اتهام الفرنسيين إياه بالسطو ، وهى تهمة ينسبونها لمعظم من حاربوهم أو قاوموهم ، وقد ذكر لانوس عن أبى شعير أنه كان واسع الثروة ، وأن له مزارع واسعة ، وأنه يمتلك عشرين قرية ، وانه كان فى سطوة ، واذا مشى سار معه ألف ومائتا رجل فى سلاحهم ، واعترف لانوس فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجأته لأبى شـعير فى قريته لما استطاع أن يظهر عليه ، ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعد لملاقاتهم لأصابهم منه جهد وشدة وأذى ، وقد استولى لانوس على ما وجده فى القصر من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق (١) وأحصى ممتلكاته فى عشما والقرى الأخرى ، ولـكنه لقى مقاومة شديدة من الأهالى فى سـلامون وسرسنا ، وكادوا يقتلون مترجم الجنرال والمباشر الذى كان يرافقه ، وألقى لانوس القبض على اثنين من إخوة أبى شعير و بعض حاشيته ، وأرسلهم الى نابليون ليقررهم عن المكان الذى خبأ فيه أبو شعير أمواله إذ لم يعثر عليها ، وأشار على نابليون فى رسالته بأن يقتلهم بعد ذلك لما ارتكبوه من الاعتداء ، وطلب منه أن يمده بقوة من الفرسان ، وقد أشار الجبرتى الى واقعة احتلال عشما بقوله :

« وفى ١٨ جماد الاولى سنة ١٢١٣ (٢) ضربوا كفر عشما وقتلوا كبيرها المسمى

---

(١) رسالة لانوس الى نابليون فى ٢٥ اكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) يوافق ٢٨ اكتوبر سنة ١٧٩٨

بابن شعير، ونهبوا داره ومتاعه و بهائمه ، وكان شيئاً كثيراً جداً ، وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوهم ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخاً عوضاً عن أبيهم [1] »

ويلاحظ على رواية الجبرتى أنه جعل تاريخ الواقعة ١٨ جمادى الاولى أى ٢٨ اكتوبر والواقع أن مهاجمة كفر عشما كانت ليلة ٢٠ اكتوبر كما يؤخذ من رسالة الجنرال لانوس إلى نابليون

وكانت الملاحة فى الترع بدأت تتعطل لنقص مياه النيل، على حين أن المواصلات فى البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التى كلف بها الجنرال لانوس إلى أوائل نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة بقيادة الجنرال فو Veaux

سار الجنرال فو ومعه كتيبة من الجنود من القاهرة يوم ٧ نوفمبر فوصل إلى منوف من طريق قليوب وترعة الفرعونية ، وكان فى أعمال حملة لانوس إخضاع مدينة طنطا ، وقد كرر نابليون لهذه المناسبة وصاياه باحترام مساجد هذه المدينة ، فأرسل الجنرال برتييه رئيس أركان حربه الى الجنرال لانوس بتاريخ ٦ نوفمبر لمناسبة سفر الجنرال فو يقول « يجب المسير بقوات كبيرة الى طنط ولما كان هذه المدينة حرمة كبيرة عند المسلمين فمن الواجب أن لاتمس المساجد والمقامات التى بها »

ولما وصل المدد الى الجنرال لانوس سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد، و بلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العرب التى كانت تشد أزر الثوار لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها ثم عاد الى منوف

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

# الفصل الخامس عشر

## فى الدقهلية [1] ودمياط

على أثر تعيين الجنرال فيال Vial قومندانا لمديريتى المنصورة ودمياط فى أوائل أغسطس سنة ١٧٩٨ [2] مضى بفرقته الى المديريتين لاخضاعهما ، فقصد أولا الى المنصورة ومكث بها قليلا وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره الى دمياط ليجعلها مقراً لفرقته ، فاحتلها واحتل عزبة البرج

### واقعة المنصورة

ائتمر أهالى المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود فى معسكرهم يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالى البلاد المجاورة وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية فهاجموا الجند، ونادت المدينة كلها بالثورة رجالا ونساء ، وكان

---

(١) كانت مديرية الدقهلية تعرف بمديرية المنصورة ، ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً فى ذلك العصر ، ومع ذلك فهو الاسم الذى عرفت به قديماً ، فقد سميت باسم الدقهلية فى خطط المقريزى ( الجزء الأول ) ، وذكرها بهذا الاسم القاضى يحيى بن الجيعان فى كتابه ( التحفة السنية باسماء الديار المصرية ) الذى يتضمن تخطيط مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وذكرها كذلك الرحالة فانسليب Vansleb الذى جاء مصر سنة ١٦٧٢ باسم كاشفية ( مديرية ) الدقهلية ، فيؤخذ من ذلك ان تسميتها باسم (مديرية المنصورة ) لم يكن مألوفاً الا فى القرن الثامن عشر ، ولم يذكرها الجبرتى باسم الدقهلية الا مرة واحدة ، وقد جرينا فى سياق الكلام على ما كان معروفاً فى ذلك العصر وهو ( مديرية المنصورة )

( ٢ ) انظر ص ٢٥٨

النساء يحرضن أزواجهن على أن يثوروا بالفرنسيين (١) ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا فى معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا فى دكه وأشعلوا فيه النار ، فاضطر الجنود الى اخلائه هاربين وانحدروا الى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا الى البر وقصدوا الى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم (٢) وكان من الناجين امرأة أحد الضباط وابنتها فأبقى عليهما الثوار ولم يمسوهما بسوء ، ويقول ريبو (٣) ان الفتاة قد اشتراها شيخ العرب (أبو قوره) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ فى عهد محمد على باشا وبقيت حافظة عهده قائمة على تربية أولادها منه بعد وفاته ، وقد أيد كلوت بك هذه الرواية فى كتابه (٤) مع اختلاف فى بعض وقائعها ، وهو يقول إن هذه الواقعة حصلت عند ما شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر ، على أنه لم تحصل وقائع فى المنصورة عند جلاء الفرنسيين ، وكلوت بك يرجع اليه فيما حققه وشاهده بنفسه ، ويقول أنه سمع بنبأ هذه الواقعة حينما كان كبير أطباء الجيش المصرى فى عهد محمد على

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . ريبو . الجزء الثالث

(٢) جاء فى يوميات الجنرال «لوجييه» Laugier انه عثر على جندى جريح من جنود حامية المنصورة كان مختفيا فى احدى القرى فقص عليه الحادثة وكتب لوجييه بها تقريرا وهو لايخرج فى مجموعه عما ذكرناه ، ويقول المسيو «شابرول» Chabrol احد مهندسى الحملة الفرنسية فى بحثه المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر ان عدد جنود حامية المنصورة كان ١٢٠ مقاتلا وان العرب أسروا اثنين منهم وفر ثالث وهؤلاء الثلاثة هم الذين نجوا من القتل ، ويقول الكابتن ساباتييه Sabatier أحد ضباط فرقة الجنرال فيال التى زحفت على المنصورة ثم تابعت سيرها الى دمياط ان عدد جنود الحامية الذين تركهم الجنرال فيال بالمنصورة ١٦٠ مقاتلا

(٣) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٤) كلوت بك . لمحة عامة الى مصر الجزء الثانى

باشا فزار دار أبي قورة بميت العامل[١] سنة ١٨٣٤ أى بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة من الواقعة ونزل بها « وكان قصراً فسيحاً قائماً بالقرب من مساكن العرب » ، وقابل زوجة أبي قورة الفرنسية وابنها ، قال يصف هذه المقابلة « وقد أحسن ابنها لقائى وأكرم مثواي ، ولما عرف انى فرنسى الجنس ذكر لى والدته وقال انها فرنسية ، فكاشفته رغبتى فى لقائها ، وكانت ذريعتى الى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها ، فلما بلغت خدرها تلقتنى محيية باللغة الفرنسية ، وتبينت انها إيطالية الجنس ، وعلمت منها فعلا انها ولدت بمدينة البندقية ، وأن والدها كان تاجر قبعات اسمه بارتولى ، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت ، وأن اسمها هى جوليا ، وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوها جوادا وانطلقوا يطوون بها الفدافد والسباسب حتى بلغوا بها فى المساء دارا كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس الى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف ، وأنه جردها من ثيابها الأوروبية ليلبسها بدلا منها ثوبا شرقيا فضفاضا ، ثم سلمها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس ، أى مايعدل مائة الف فرنك تقريبا . وجعل فى خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجوارى ، وذلك الرجل هو الزعيم ( أبوقوره ) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاه الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها ، فكانت لاتكف عن البكاء وتعرب بالقول والاشارة والصياح عن رغبتها فى العودة الي ذويها ، ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهرا حتى رزقت غلاما ، فهدأ شعور الأمومة نحو وليدها ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها الا احتماله والرضاء به ، ولما مات زوجها ، وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه فى بحبوحة الهناء والنعيم ، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلقاه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف »[٢]

---

(١) من بلاد مركز أجا الآن

(٢) كلوت بك . لمحة عامة الى مصر . الجزء الثانى

وذكر كلوت بك ما كان عليه (أبو قوره) من الجاه والثراء فقال إنه كان يقاوم سلطة المماليك مدة حكمهم وكانت له السيادة فى إقليم المنصورة وقتئذ وكان يملك أربعا وأربعين قرية و بضعة آلاف من الجمال وقطعانا لاعداد لها من الاغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الارقاء

والآن نعود إلى الكلام عن واقعة المنصورة ونتائجها :

أشعلت هذه الواقعة نار الثورة والهياج فى البلاد المجاورة ، وكادت الثورة تستفحل و يتسع مداها ، لولا وصول الجنرال دوجا Dugua الذى عينه نابليون قومندانا لمديرية المنصورة(١)

وصل دوجا وجنوده جنوب المنصورة يومى ١٧ و ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فعلم عند وصوله بما حل بجنود الحامية ، وكان أهل المدينة يتوقعون انتقاماً شديداً ، فكتب الأعيان رسالة الى ديوان القاهرة يبرؤن من الاعتداء على الجنود ، وينسبون ذلك الى الفلاحين والعرب الذين قتحموا المدينة يوم الواقعة ، وذهب قاضي المنصورة خصيصاً الى القاهرة ليدافع عن مسلك سكان المدينة ، وقد علم نابليون بنبأ الحادثة وجاءته رسالة أعيان المنصورة التى كتبوها الى الديوان ، فبعث الى الجنرال دوجا يطلب منه عقاب أهلى المنصورة عقاباً شديداً ، و يأمره أن يقتل تسعة أو عشرة من أعيانها (٢)

وكان الجنرال دوجا معروفاً بين قواد نابليون بالحكمة و لأناة وحسن السياسة ، فاستعمل الحكمة فى توقيع العقاب وإعادة النظام فى المدينة ، وأراد أن يتحقق من المعتدين حتى لا يأخذ بريئاً بمذنب ، وقد تبين له من الفحص عن أمرهم أن معظم المعتدين من البلاد المجاورة ، وان زعماء المحرضين على قتل الحامية قد غادروا المنصورة ومنهم رجلان كانت لهم شهرة فى تلك الجهات بالسطوة والجاه وشدة البأس ، وهما

---

(١) راجع ص ٢٦٣ وهامشها

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٧٢

الأمير مصطفى وعلى العديسى ، فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على اثنين من أهالى المنصورة بالاعدام ، لثبوت اشتراكهما فى القتل ، وأنفذ الحكم فيهما وطافوا برأسيهما في شوارع المدينـة عبرة و إرهاباً ، وأخذ الجنرال دوجا يتأهب لتعقب المعتدين فى بلاد البحر الصغير والقبض على الأمير مصطفى ، وعلى العـديسى ، وتجريد حملة عسكرية لمعاقبة القرى التى اشتركت فى الاعتداء على الجنود

وكان الذعر قد استولى على المنصورة وهاجر كثير من أهلها فراراً بأنفسهم من اتهامهم فى واقعة قتل الحامية ، وتعطلت التجارة ، وركدت أسواق المدينة ، فطلب الجنرال دوجا من نابليون أن يأذن له إذا لم يظفر بالمعتدين فى اعـلان العفو ، ليعود الأهالى الى أعمالهم ، بشرط أن لايتناول العفو أهل القرى المجاورة الذين اشتركوا فى الواقعة ، وكان غرض الجنرال دوجا أن يؤخر معاقبة سكان هذه القرى الى أن تصل القوة الكافية ، و ينحسر الفيضان الذى كان يتلف الطرق ، و يعطل المواصلات

أقر نابليون الجنرال دوجا على خطته وأرسل له فى ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ يأذنه أن يمنح المدينة العفو ، وطلب اليه أن يستخدم ما يراه لإقرار الطمأنينة واعادة الأعمال سيرتها الأولى ، وكلفه فى الوقت نفسه أن يكتب الى أعيان البلاد المجاورة التى اشترك أهلها فى قتل الحامية الفرنسية يطلب أن يسلموا المعتدين منهم والا استهدفوا لإحراق قراهم بالنار

وطلب اليه إخضاع بلاد مديرية المنصورة وأخذ رهائن من كل قرية اشترك أهلها فى الاعتداء على الجنود ثم إحراق القرى التى يرى أنها كانت أبلغ فى الاعتداء، وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقابا لهم على سوء صنيعهم ، وفرض الفى ريال خاصة على السيد على الشناوى أحد أعيان المدينة ، ثم الفى ريال على القرى التى اعتدت على الجنود (١)

وقد لقى الفرنسيون عناء كبيراً فى اخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠١

المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب ، ويقول ريبو [١] أن محصلى الأموال الاميرية كانوا إذا ذهبوا الى القرى لجباية الضرائب أومصادرة أملاك المماليك يقابلون بالرصاص رمياً ، أو بالعصى ضرباً ، وفى بعض الأحيان كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراستهم فلا يعصمهم ذلك أن يلقوا مثل هذه المقابلة ، وعطل الفيضان حركات نقل الجنود فى البر فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة فى القرى ، واضطر الجنرال دوجا الى تأخير ماعهد اليه من اخضاع ذلك الاقليم ومعاقبة القرى التى ثارت فى وجه الجيش أو التى اشتركت فى قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة

الحملة على سنباط وميت غمر

كانت مهمة الجنرال دوجا أن يكتشف الجهات التى عزم على تجريد الحملة عليها قبل أن يغامر فيها ، وكانت بلدة (سنباط) [٢] من القرى التى شاركت بلاد الدقهلية فى الثورة فتخذها الجنرال دوجا أول هدف له ، وهى وإن كانت فى مديرية الغربية الا أنه رأى ان يبدأ بمهاجمتها لسهولة لوصول اليها بطريق النيل ، وكانت أوامر نابليون تقضى باحراق هذه البلدة، وكان الجنرال مورا Murat قومندان القليوبية مكلفاً معاونة الجنرال دوجا فى إخضاع إقليم المنصورة ، فانتقل من بنها الى ميت غمر فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ لمعاقبة العرب النازلين فى تلك الجهة وبخاصة فى دنديط [٣] ممن توجهت عليهم تهمة الاشتراك فى واقعة المنصورة ، وكان منوطا به كذلك تجريد الأهالى من السلاح ، على أنه لم يستطع إنفاذ هذه المهمة وكتب الى نابليون فى ٤ سبتمبر يسأله العدول عن هذه المهمة الشاقة ويقول فى خطابه « انى أعتقد ان سياسة تجريد الاهالى من السلاح طريقة ضارة وغير حكيمة إذ أرى أن العرب المزارعين مسلحون وتسليحهم مفيد لانهم يحمون البلاد من سطوات البدو الرحّل

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٢) بمركز زفتى الآن

(٣) من بلاد مركز ميت غمر

ويحفظون الأمن فى هذه الجهات ، وصعبٌ من الآن الى وقت لا يزال بعيداً أن نسلبهم السلاح دون أن نوقع الحرج فى صدورهم وندفعهم الى الثورة كما حدث فى مديريات أخرى ، لذلك أعتقد أنكم ترون ما أراه فى الانتظار بهم حتى يستقر نظام الحكم الجديد ، وما هو الآن خطأ يكون يومئذ صواباً »

هاجم الجنرال مورا فى شهر سبتمبر قوة من العرب فى دنديط بالقرب من ميت غمر فهزمهم وشتت جمعهم بعد أن قتل بعضهم وجرح رئيسهم واستولى منهم على ٢٠٠٠ رأس من الغنم

أما فى سنباط فقد أنفذ الجنرال دوجا الجنرال فردييه Verdier لمعاقبة العرب النازلين بها فغادر فردييه المنصورة يوم ١٢ سبتمبر بطريق النيل فى ٥٥٠ جنديا ، فالتقى على مقربة من سنباط بقوة من العرب فهزمهم واستولى على خيامهم وماشيتهم ومتاعهم (١) غير ان العرب تمكنوا من الافلات فلم يقعوا فى أيدى الفرنسيين ولاذوا بالتلال القائمة حول سنباط وأرادوا ان يقاوموا القوة الفرنسية لكنهم نكصوا أمامها وألقوا بأنفسهم فى النيل وذهبوا يسبحون ونجا منهم من نجا ، وعادت القوة الفرنسية الى المنصورة

ثم تجددت الاضطرابات فى منطقة ميت غمر ودنديط وميت الفرماوى فى شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ وباتت المواصلات النيلية فى فرع دمياط مهددة ، فعهد نابليون الى الجنرال مورا والجنرال لانوس بالتعاون على إخماد حركة الثورة فى تلك المنطقة

التقى القائدان بالنيل عند بنها (٢) وسارت قواتهما من الجنود بالمراكب قاصدين الى ميت غمر فأرسوا على شاطىء النيل بالقرب منها ، وساروا قاصدين مهاجمة الثوار الذين احتشدوا فى (دنديط) ، وكان الجنرال مورا يتولى قيادة الميمنة والجنرال لانوس

---

(١) كتبت جريدة (كوريه دليجيبت) بالعدد الثامن ان معركة سنباط انتهت باحراق القرية وخسر العرب فيها خمسمائة قتيل عدا من غرق منهم واستولى الفرنسيون على ستة آلاف رأس من الغنم

(٢) يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨

بقود الميسرة فسار الجنود الفرنسية بنظامهم الحربي لمهاجمة الثوار في معقلهم، وكان السير متعذرا لان الثوار قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الاراضي ووحل الجنود في الطرق والمستنقعات، ولما بلغت جموعهم دنديطا انسحب منها الثوار الى (ميت الفرماوى) وهناك امتنعوا بها وكان معهم مدفعان فقاوموا هجوم الفرنسيين مقاومة شديدة ثم اضطروا الى الارتداد عن القرية فاستولى عليها الفرنسيون وعلى المدفعين اللذين كانا بها ، واعتصم الثوار بالتلال القريبة منها، فتعقبهم الفرنسيون وأجلوهم عنها ثم استمر الثوار في انسحابهم حتى بلغوا (الهوابر) وعجز الفرنسيون عن متابعتهم لما لحقهم من الإعياء ولما غمر الارض من مياه الفيضان، فرجعوا أدراجهم إلى ميت غمر

فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف في مختلف البلاد بحيث كانت كلما أخمدت في جهة انبعثت في جهة أخرى ، قال ريبو في هذا الصدد « كان الجنود يعملون على إخماد الثورة باطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحيَّة ذات مائة رأس كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر »

وقال في موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين : « إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط في مصر ونحتلها احتلالا عسكريا ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الاقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسراً بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة وقمع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية، ولإدراك هذه الغاية وزع بونابرت الجيش على مختلف انحاء القطر لإخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان

قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الاشراف على الأعمال الادارية والمالية فى مديرياتهم و يراقبون جباية الاموال والغرامات و يشرفون على مجالس الدواوين فى الاقاليم حتى لا تتعدى اختصاصها »(١)

## الحملة على البحر الصغير

اهتم نابليون باخضاع بلاد البحر الصغير ، الكائنة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتياد الجهات الموصلة الى البحيرة ، وكان يرمى من جهة إلى اخضاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى الى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية ، وقد بعث الى الجنرال دوجا فى هذا الصدد بعدة رسائل تظهر مبلغ اهتمامه بهذا القطاع (٢)

جرد الجنرال دوجا حملة عسكرية لاخضاع البحر الصغير ومعاقبة القرى الثائرة فى هذا الاقليم ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال داماس Damas والجنرال دستنج Destaing فى قوة من الجنود الفرنسية ورسم لهما الخطة التى يتبعانها ، فكان أمره للجنرال داماس أن يمضى رأساً الى بحيرة المنزلة لارتيادها و إخضاعها ، وعهد الى الجنرال دستنج معاقبة بلدتى « منية محلة دمنة » و« القباب الكبرى » الواقعتين على بحر اشمون (٣) إذ جاهر أهلهما بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التى فرضت عليهم

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) كتب نابليون فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الى الجنرال دوجا يقول « أرجوك يا مواطنى الجنرال أن تخبرنى بالطريق الذى أزمعت السير فيه للوصول من المنصورة الى بلبيس ومن المنصورة الى الصالحية وباية طريقة يمكن نقل المدفعية والفرسان فى هذه الجهة ، وما هى أسماء القرى الواقعة على النيل فى إقليم المنصورة وما هى نتيجة اكتشافكم للترع الثلاث التى تأخذ من النيل وتصب فى بحيرة المنزلة »

(٣) هو الاسم الذى كان يطلق على الترعة الكبيرة المعروفة الآن بالبحر الصغير

## حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر فى تلك الجهات ، لما امتد فى أنحائها من أسباب الثورة والهياج، ولظهور جماعة من زعماء الاهالى يحرضون الناس على مقاومة الفرنسيين ، وقد تكرر فى كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين فى مديريتى المنصورة ودمياط اسم « حسن طوبار » شيخ بلد المنزلة فى ذلك الحين كزعيم للمحرضين ، وخصم عنيد لا يستهان به ، ومدبّر لحركات المقاومة فى هذه الجهات ، كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى العديسى كمحرضين فى واقعة الاعتداء على حامية المنصورة

كان حسن طوبار زعيماً لاقليم المنزلة ، وكان هذا الاقليم جيّاشاً بمتاعب كثيرة للفرنسيين ، كتب ريبو فى كتابه يصف سكان هذه الجهات بقوله : « إن مديرية المنصورة التى كانت مسرحا للاضطرابات ، تتصل ببحيرة المنزلة ، وهى بحيرة كبيرة تقع بين دمياط وبيلوز القديمة (الطينة) . والجهات المجاورة لهذه البحيرة ، وكذلك الجزر التى بها ، يسكنها قوم اشداء ذوو نخوة ولهم جَلَد وصبر ، وهم أشد بأسا وقوة من سائر المصريين ، ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم فى البحيرة خمسمائة أو ستمائة مركب [1] تجعل لهم السيادة فى البحيرة ، ولهؤلاء الجزائريين أربعون رئيسا منهم ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، وهو الزعيم الاكبر لهذه المنطقة »[2]

ويقول الجنرال أندريوسى Andreossi [3] الذى ارتاد بحيرة المنزلة وقدم عنها تقريراً الى المجمع العلمى بمصر[4] « إن لسكان هذه الشواطىء أربعين رئيسا يتبعون الشيخ

---

(١) يقول الجنرال لوجييه Laugier فى يومياته ان عدد المراكب التى ببحيرة المنزلة فى ذلك العصر يبلغ الألف

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٣) احد قواد الحملة الفرنسية انظر ما كتبناه عنه بالفصل الرابع ص ١٣٦

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر

حسن طوبار الذى احتكر الصيد فى البحيرة لقاء جعل للحكومة ، وحسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصرى، وربما كان أغناهم ، وهو من المنزلة ، وفى أسرته مشيخة البلد يتوارثونها من أربعة أو خمسة أجيال، وله سلطة واسعة تقوم على مكانته فى النفوس، وثروته وعصبيته ، من ذوى قرباه ، وأتباعه ، وعلى مؤازرة العرب الذين يقطعهم الاراضى ليزرعوها ويغدق على رؤسائهم بالهدايا والتحف »

سير الحملة على البحر الصغير

بدأت تتحرك الحملة على البحر الصغير من المنصورة يوم ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨، ويهمنا قبل أن نصف خط سيرها أن ننقل هنا بعض التعليمات التى أصدرها الجنرال دوجا لكل من الجنرالين داماس ودستنج ليتبعاها ، فإن فى هذه التعليمات صورة حية لحالة البلاد فى ذلك العصر وحالة الشعب النفسية ، قال دوجا فيما عهد به :

« منية محلة دمنة والقباب الكبرى — هاتان القريتان واقعتان تحت تأثير رجلين يجب أسرهما ، وهما على العديسى من المنية والامير مصطفى من القباب ، وقد وصلتنى رسالة من الجنرال فيال Vial (قومندان مديرية دمياط) ينسب اليهما تهمة الاتصال بالشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة وانتظارهما النجدة منه ، فيجب أن لا يترك له الوقت لامدادهما ، ومن ثم يجب مهاجمة المنيـة والقباب أسرع ما تمكن السرعة ، ثم احتلال موقع عسكرى بين القباب ودموه السباخ (١) يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما ، وإذا قاوم الاهالى وجب سحقهم وسحق قراهم ، وإذا سلموا بدون إطلاق النار فيجب عليهم أن يسلموا فى الحال عشرين رهينة منهم ، وأن يسلموا على العديسى والامير مصطفى ، ويسلموا كذلك جميع أسلحتهم وعشرين جواداً وثلاثين من الماشية ، ويغرموا ثلاثة أمثال الضريبة المفروضة عليهم ، وإذا رأيتم بعض القرى تتخذ السلاح لمؤازرة المنية والقباب ، فاضربوا فى أهلها وخذوهم

(١) منية محلة دمنة ، والقباب الكبرى ، ودموه السباخ من بلاد مركز دكرنس وهى واقعة على البحر الصغير ( بحر أشمون )

أخذ الأعداء أعداءهم ، وإذا انتهت الحملة على المنية والقباب باعادة السكينة والخضوع ، فعلى الجنرال دستنج أن يعود الى المنصورة فيمن معه من الجنود ، أما إذا ظهرت الثورة فى بلاد أخرى فعليكم أن تتابعوا سيركم لاخضاعها »

« تعليمات خاصة للجنرال داماس — إن مهمة الجنرل داماس هى أولا مساعدة الجنرال دستنج فى معاقبة منية محلة دمنة والقباب الكبرى ، وعلى ذلك يتبع التعليمات السابقة فهى لهما جميعاً ، وثانياً عليه أن يمر فى بحر أشمون ( البحر الصغير ) الى بحيرة المنزلة ويقيس عمقه على طول البحر ، ويخضع البلاد الواقعة على شاطئيه ، وينتزع رهائن من كل البلاد التى لم تدفع الضرائب المفروضة عليها ، أو تسلم الخيل المطلوبة منها

« ان الجنرال فيال منزعج من مقاصد الشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، ومن حشده عدداً كبيراً من المراكب فى المطرية ، فاذا كان هذا صحيحاً فمن الواجب أسر الشيخ حسن طوبار وتحطيم أسطوله ، وعلى الجنرال داماس أن يجمع كل ما يمكن العلم به من غور بحيرة المنزلة والترع التى تصب فيها ، والبلاد الدانية من مصبها ، والفتحات التى تصل البحيرة بالبحر الابيض ، وعمقها وعرضها،وطبيعة الجزر الكائنة بالبحيرة وسكانها ، ثم يعود الى المنصورة فى طريق أشمون ( البحر الصغير ) ، وعليه أن يتبين طريق الصالحية ( جنوب بحيرة المنزلة ) والطريقة التى يمكن بها جمع السفن فى بحيرة المنزلة لنقل فرقة عسكرية الى صان »

تنفيذاً لهذه التعليمات تحرك الجنرالان داماس ودستنج على رأس الجنود الفرنسية من المنصورة يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة مساء ، وساروا بالبحر الصغير على ظهر السفن ، فأرسوا ليلا على مقربة من منية محلة دمنة ، وشعر أهالى المنية باقتراب الحملة فأخلوا بلدتهم ، وفى فجر اليوم التالى أنزل القائدان الجنود الى البر وزحفوا على المنية فكانت خالية من السكان ، فتابعوا السير الى القباب الكبرى ، فاذا هى كذلك خالية من أهلها ، وقد كلف الجنرال داماس مشايخ بعض القرى المجاورة أن يبلغوا أهالى القريتين أن يعودوا فان القوة لا تنالهم بشر اذا دفعوا الضرائب المفروضة عليهم ، وهنالك

افترق القائدان الفرنسيان ، فرجع الجنرال دستنج الى المنصورة من طريق بحر أشمون ، ومضى الجنرال داماس الى المنزلة تنفيذا للمهمة التى كلف القيام بها ومعه من الجنود نحو ثلثمائة جندى بأسلحتهم وذخيرتهم ، ولما بدأ الجنرال داماس سيره جاءته رسالة من الجنرال دوجا أنه موافيه بمدد من الجند ، فانتظر داماس فى المرساة (١) حتى جاءه المدد ليلا ، وفى اليوم التالى سار بجنوده وواصل السير وانتظر غير قليل فى ميت السودان (٢) فالدراكسة (٣) لتموين جنوده، ثم وصل مساء الى برنبال الجديدة (٤) وكان الجنرال دستنج قد وصل فى صباح هذا اليوم الى المنصورة

## معركة الجمالية(٤)

عسكر الجنود ليلا فى برنبال الجديدة ، وغادروها قبل شروق الشمس فوصلوا بحراً تجاه (الجمالية) فى نحو الساعة العاشرة صباحا ، فوحلت سفنهم فى بحر أشمون من قلة المياه ، وانتهزها الأهالى فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك فى هذا الهجوم أهالى الجمالية، فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلا من الحجارة من أعلى سور بلدتهم، فأمر الجنرال داماس بانزال الجنود الى البر لرد هجوم الأهالى، وأمكنه أن يفرق الجموع التى أحدقت بالقوة الفرنسية، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذى نزل به ورأى أنه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير فى بحر أشمون، فأضرم النار فى الجمالية وعاد أدراجه الى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه

سلك الجنرال داماس فى عودته الى المنصورة طريق البحر الصغير ومر فى طريقه بميت سلسيل (٥) فأمر باحراقها وكان أهلها قد تمردوا وأخلوا بلدتهم وأوغلوا بعيداً عنها بحيث كانت تفصلهم مياه الفيضان والمستنقعات عن خط سير الحملة فلم يستطع داماس اللحاق بهم

---

(١) و (٢) و (٣) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير
(٤) و(٥) من بلاد مركز دكرنس على البحر الصغير

## خريطة معركة الجماليه



١ — الجمالية والسور الذى كان يحيط بها
٢ — بحر أشموں ( البحر الصغير ) وفيه السفن المقلة للجنود
٣ — المواقع الاولى التى نزل بها الجنود الفرنسية لمقاومة هجمات الاهالى
٤ — جموع الاهالى الذين هاجموا الجنود الفرنسية
٥ — انسحاب الاهالى بعد كسر هجمهم الاولى
٦ — انسحاب الثوار من الجمالية والتجاؤهم الى استحكامات
٧ — انسحاب الفرنسيين الى المنصورة بعد انتهاء المعركة
٨ — ترعة الجمالية
٩ — ميت شريف
١٠ — الواحد
١١ — بركة مياه

عن خريطة مودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية سنة ١٨٠٠ نشرها القومندان دى لاجونكيير سنة ١٨٩٩

---

كانت معركة الجمالية ذات شأن وخطر ، وصفها الضابط جرلاس Gazlas من ضباط كتيبة الجنرال داماس فى تقريره عنها قال :

« لما وصلنا بحراً تجاه الجمالية ، وهى قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربى من بحر أشموں ، فوجئت السفن التى كانت تقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انبعثت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفى الوقت نفسه رأينا جموعاً كبيرة من العرب والمماليك

والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصي (الشماريخ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا ، وكان بعضهم راكبين الخيل ، وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ، ولكننا لم نؤخذ على غرة ، ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقي المقابل للقرية وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الاعداء (الأهالى) ، فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا فى وسط جنودنا ، لكن الجنود حاربوهم ببسالة ، وقد رأيت بنفسي جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنّة رماحنا ، وصدر لى الأمر باطلاق النار على الأعداء المهاجمين ، فأطلقنا النار عليهم وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم أن يعبروا الترعة ثانية ويمتنعوا فى الجمالية ، وهى قرية محاطة بالأسوار تحميها ترعة أشمون (البحر الصغير) من جهة والمستنقعات التى تغمرها المياه من جهة أخرى ، فأمرنى الجنرال داماس أن آخذ القوة الكافية وأستولى عنوة على القرية ، فعبرنا الترعة بجسر أقمناه على عجل ، ووزعت جنودى ، فعهدت إلى جزء منهم رد الهجمات الآتية من خارج القرية ، وهجمت بقوتى على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعاً قويا ، فاستولينا على جزء من القرية ، ولكن الأهالى ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين فى البيوت والشوارع ، وهجم الثوار على القوة التى دخلت القرية ولكن صدتهم البنادق والحراب ، وحصر جزء منهم فى القرية وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فتلقتهم القوة المرابطة حولها ونجا منهم من ألقوا بأنفسهم فى المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون أسلحتهم »

وقدر جازلاس خسائر الفرنسيين فى هذه المعركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحا وقدر خسائر الاهالى بخمسمائة (١)

---

(١) أشار نابليون الى واقعة الجمالية فى رسالته الى الديركتوار بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ بقوله « بلغ الجنرال داماس الجمالية فهجمت قوة من العرب منضمين إلى الفلاحين على جنودنا ، فاتخذت التدابير الحربية التى انتهت برد هذا الهجوم ، وامتاز الضابط جازلاس فى هذه الواقعة »

انتهت معركة الجمالية باحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت قوة الجنرال داماس الى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد أن مرت وهى راجعة بالكردى ومنية محلة دمنة ، وكان الاهالى فى معظم القرى التى مر بها الجيش يخلون بلادهم خوفا من انتقام الفرنسيين بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها إلا خالية

## عود الى حسن طوبار

لم توفق الحملة الاولى على البحر الصغير فى إتمام مهمتها ، وبقى حسن طوبار قوياً يثير البلاد ويستفز الناس للمقاومة ، وكان الفرنسيون يحسبون له حسابا كبيرا ويسعون بمختلف الوسائل أن يخضعوه أو يجتذبوه إلى صفوفهم ، وقد اتصل به الجنرال فيال Vial فى دمياط وأظهر له حسن طوبار استياءه مما بلغه من إحراق الفرنسيين للجمالية وقال إن هذا العمل سبة عليه فى هذه الجهات لأن أهالى الجمالية يعتبرون أنفسهم فى حمايته ، وقد أبلغ حسن طوبار الجنرال فيال أن ما أحدثه فى نفسه إحراق الجمالية من القلق والهم يمنعه من مقابلته ، وأرسل نابليون من القاهرة بعض الهدايا إلى الجنرال فيال ليقدمها باسمه إلى حسن طوبار يستميله بها ، فكتب فيال الى الشيخ حسن يدعوه إلى الحضور لتسلم هذه الهدايا فأبى حذراً من أن تكون الهدايا وسيلة للقبض عليه

وكان حسن طوبار يخادع الفرنسيين عن خططه ومقاصده ، فقد أرسل له الجنرال داماس أثناء حملته بالبحر الصغير يدعوه إليه ، فأجاب الرسول انه لا يأبى دفع الضرائب العادية على أن يتركه الفرنسيون حراً ولا يعرضوا له بسوء ، وفى الوقت نفسه كان حسن طوبار يستعد للقتال ويرسل عياله وأمواله الى غزة [1]، ومما زاد الفرنسيين ريباً فى مقاصده أنهم علموا نبأ حركة يقوم بها الأتراك فى عكا بسواحل سوريا إذ يجمعون هناك السفن بقصد الاغارة على بحيرة المنزلة من طريق فم الديبة [2] ، وأن هذا هو السبب فى حشد الشيخ حسن طوبار كل ما نالته يده من

---

(١) يوميات الجنرال داماس بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) من فتحات بحيرة المنزلة على البحر الابيض المتوسط

السفن فى بحيرة المنزلة ليشترك فى تلك الحملة البحرية ، وتواترت الأخبار فى ذلك الحين بأنه متفق مع ابراهيم بك زعيم المماليك الذى كان مرابطاً بفلول جيشه فى جنوب سوريا ، وأنهما على اتصال مستمر لمقاومة الفرنسيين ، فحسن طوبار كان يشعل نار الثورة فى مختلف البلاد الواقعة بين دمياط والمنزلة والمنصورة ، وبينما كان يثير الأهالى فى بلاد البحر الصغير ، كان فى الوقت نفسه يجمع مراكبه فى بحيرة المنزلة لمهاجمة دمياط ، وكان الرجل فى نظر الفرنسيين عنواناً للمقاومة والعصيان

جاء فى يوميات الجنرال لوجييه « لقد تأكدنا أن حسن طوبار كان يجوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرض الأهالى على الثورة ، وكان يرسل إلى بعض البلاد الأخرى رسله وأتباعه لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، وأنه هو الذى دبر واقعة الجمالية ، غير أنه من الصعب أن نلقى يدنا على هذا الرجل مع نفوذه العظيم بين الأهالى ، وان فى استطاعته أن يحشد علينا قوات كبيرة جداً ، وقد جاءتنا الأخبار أن أهالى بعض القرى الواقعة على النيل أطلقت النار على السفن المقلة للجنود الفرنسية ، وأن الدلائل تدل على أن الثورة عامة ، ومن المحقق أننا كنا نستهدف لأخطار بالغة لو تشجع الثوار بانتصار يضرم فى قلوبهم نار الحماسة »

## فى دمياط

كانت دمياط ( كما هى الآن ) من أهم بلاد القطر المصرى من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً ، تصدر منها متاجر البلاد وترد إليها وارداتها القادمة من سوريا وقبرص والأناضول وتركيا واليونان وفرنسا ، وبها كثير من الوكائل والخانات القائمة آثارها الى اليوم ، واشتهرت بتجارة الأرز والأقمشة والمنسوجات والخشب ، وكانت تزاحم الاسكندرية فى مركزها التجارى ، واشتهرت هى والقرى المحيطة بها بصناعة الأقمشة إذ تنسج بها أحسن منسوجات القماش والحرير والتيل بالقطر المصرى

قدر « ريبو » عـدد سكان دمياط فى ذلك العصر بستين ألف نسمة [١]، ويلوح لنا أن هـذا التقدير فيه شيء من المبالغة ؛ لأن المسيو جومار أحد مهندسى الحملة الفرنسية يقدرهم بعشرين ألفاً [٢]، و إحصاؤه أقرب إلى الثقة لأنه جاب أنحاء مصر ودرس أحوالها عن كثب بخلاف المسيو « ريبو » ، ويقول كلوت بك فى كتابه [٣] ان عدد سكان دمياط فى عصر محمد على كان يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ ألفاً فى الوقت الذى وضع فيه كلوت بك كتابه ، أى حوالى سنة ١٨٤٠ ، ومن المحقق أن دمياط كانت إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ثانى بلد فى القطر المصرى بعد القاهرة فى عدد السكان ، و يقول الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية فى كتابه[٤] إن عـدد سكان دمياط كان وقتئذ يزيد عن ضعف سكان المنصورة .

امتـدت شعلة الثورة الى دمياط وظهرت علائم الاضطراب والهياج حولها من أوائل سبتمبر سـنة ١٧٩٨ . فأرسل الجنرال فيال إلى الجنرال دوجا ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب المدد ، وينبيء بأن حسن طوبار يحشد أسطولا كبيراً فى بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة

وقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واشترك فيه أهالى البلاد المجاورة لدمياط ، واشترك فيه أيضاً أسطول حسن طوبار الذى تحرك فى بحيرة المنزلة قاصداً شطوط دمياط ، فوصل إلى (غيط النصارى) شرق المدينة ، والتقى الأهالى القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة قوة الجنرال فيال ، فقتـلوا الحراس الفرنسيين المرابطين فى المخفر

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع
(٢) تخطيط مصر الجزء التاسع
(٣) لمحة عامة الى مصر الجزء الاول
(٤) التاريخ الطبى للجيش الشرق

الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلا ليلة ١٦ سبتمبر إلى أن رتب الجنرال قواته فتحول موقفه من الدفاع إلى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار وردهم على أعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم إلى شاطىء البحيرة ، فركبوا السفن التى كانت تنتظرهم ، واتجهت فرقة منهم الى قرية (الشعراء)(١) فتحصنوا بها وهذه القرية من دمياط على مرمى المدفع ، فاتخذها الثوار معسكراً لهم وجاءهم المدد من بحيرة المنزلة ، وفى خلال ثورة دمياط قام أهالى عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من أدركوهم من رجالها ، ولما علموا فى اليوم التالى أن ثورة دمياط أخمدت وأن الفرنسيين لابدّ آتون للاقتصاص منهم أخلوا البلدة بعيالهم ونسائهم وانحدروا فى المراكب قاصدين الى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الجنرال فيال حملة على تلك البلدة فوجدتها خالية من السكان فنهبتها وأحرقتها وعادت الى دمياط

واقعة الشعراء

تشجع الجنرال فيال بالمدد الذى جاءه من المنصورة ، وبحضور الجنرال اندريوسى الذى أوفده نابليون ليوطد سلطة الجمهورية فى تلك الأصقاع ، فتقدم الفرنسيون يوم ٢٠ سبتمبر للاستيلاء على الشعراء ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار تحميهم البحيرة من جانب والنيل من جانب آخر ، فاقتحم الجنود القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها وأضرموا فيها النار ، واستولوا على مدفعين للأهالى وعلى السفن التى كانت على مقربة من الشعراء ، ويقول الجنرال لوجييه في يومياته إن الثوار خسروا فى هذه المعركة نحو خمسين قتيلا ، ويقول ريبو إن الفرنسيين خسروا اثنى عشر قتيلا وثلاثين جريحا (٢)

---

(١) جنوب دمياط على مقربة من البحيرة والان على ترعة الشرقاوية

(٢) ذكر نابليون فى منشور من منشوراته العسكرية ( بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ) واقعة الشعراء ولكنه بالغ فى وصفها إذ ذكر أن عدد الثوار فيها كان عشرة آلاف وأن خسائرهم بلغت ١٥٠٠ قتيل وغريق ، وهذا المنشور

## تفاقم الثورة وفظائع الجنرال فيال

تفاقمت الثورة فى البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود فى النيل ، وقتل فى خلال هذه الحوادث بعض الجنود والبحارة ، وكانت قرية ميت الخولى الواقعة على النيل أكثر القرى اعتداء على السفن ، فقام الجنرال فيال من دمياط فى خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ونزل بطريق النيل ومعه القوة الكافية من الجنود لمعاقبة البلاد التى هاجمت السفن ، لكنه أسرف فى التنكيل ولم يفرق بين القرى الثائرة والقرى الآمنة الهادئة ، وأوقع بها كلها نهباً وإحراقاً ، مر أولا بالظاهرية (١) فوجدها خالية من السكان لأن أهلها أخلوها قبل أن تصل إليهم الجنود الفرنسية كى لا يستهدفوا للانتقام ، ثم بلغ كفر المياسرة فوجدها كذلك خالية من سكانها ، ومر بالزرقا فوجد مشايخ البلد قد لاذوا

---

وارد فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٨٠ ، وليس من المعقول أن يحتشد فى ( الشعراء ) عشرة آلاف ثائر مهما كان عدد المدد الذى جاء من البلاد المجاورة أو من بحيرة المنزلة ، وبالتالى لايعقل أن تبلغ خسائر الأهالى ١٥٠٠ قتيل ، والظاهر أن هذه المبالغة راجعة إلى الاحصاء المكذوب الذى أورده الجنرال فيال فى رسالته الى نابليون عن المعركة لينتحل لنفسه فخرا لا يستحقه ولتعظم منزلته عند نابليون ، على أن فيال هذا ذكر فى رسالة له الى الجنرال دوجا عن هذه الواقعة أن عدد قتلى الثوار فيها لم يزد عن ثلثمائة ، وفى هذا أيضامبالغة ، والواقع أن الجنرال فيال كان معروفا عنه المبالغة والاغراق فى رسائله وتقاريره ، وقد اشار الجنرال ( لوجييه ) فى يومياته الى مبالغاته وذكر بالذات أرقامه عن واقعة الشعراء فقال فى هذا الصدد «ان الجنرال فيال بالغ فى تقريره مبالغة مدهشة فجعل خسائر الاعداء ( الاهالى ) ١٥٠٠ قتيل فى حين أن خسارتهم لم تبلغ خمسين قتيلا » وهذا الاحصاء هو الذى اعتمدنا عليه

(١) بمديرية الغربيــة على الشاطىء الغربى لفرع دمياط شمال شربين وتسمى الضهرية

بالفرار ، ووصل إلى ميت الخولى التى كان أهلها أكثر اشتراكا فى الاعتــداء على الجنود فاذاهم قد أخلوا بلدهم وكانت قرية كبيرة محصنة محاطة بسور يحيط به خندق، فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ما وجد فيها من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها

واستمر فى طريقه بالنيل وأراد أن يفاجىء بقوته قرية الأحمدية الواقعة بالبر الغربى ولكن أهلها أخلوها قبل مجيئه ، ثم اتجه إلى شرمساح بالبر الشرقى وعاد منها إلى كفر الزعاتره وهى آخر بلدة حط بها أثقاله فى هذه الرحلة ، فوجد فيها بعض الأهالى الآمنين بعد أن هجرها معظمهم ، ثم عاد إلى دمياط فوصلها ليلة ١٤ أكتوبر ومعه بعض الرهائن من أعيان البلاد ، فأرسلهم مخفورين إلى القاهرة

اعترف الجنرال فيال فى رسالته إلى الجنرال دوجا بأنه الآمر بنهب ميت الخولى انتقاماً من الأهالى لاعتدائهم على الجنود الفرنسيين ، وقد لامه نابليون على هذا الأمر وأرسل له يقول « لقد استأت من نهب قرية ميت الخولى وكان يكفى تجريدها من السلاح » (١)

وكتب الجنرال لوجييه فى يومياته يصف المساوىء التى ارتكبها الجنرال فيال فى اقتصاصه من ميت الخولى والقرى المجاورة :

« فى اليوم الذى عاد فيه الجنود الى دمياط بعد هذا النهب كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد باع فيه الجنود الفرنسية إلى الأروام ما نالته أيديهم من النهب والسلب، فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والأوز . . . وكثيراً من قطع الذهب والفضة التى كانت حلياً للنساء »

وقد أمر نابليون الجنرال دوجا بالانتقال إلى دمياط لمواجهة الحالة الثورية فيها وكانت فظائع الجنرال فيال وجنوده قد أججت فى النفوس نار الكراهية واستفزت الأهالى للأخذ بالثار ، والاستماتة فى مقاومة الفرنسيين

وأرسل نابليون إلى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون عند أمر الجنرال دوجا

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٧٦

فى بحيرة المنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيهـا ، على أن مركز الفرنسيين فى جهات دمياط والمنزلة ظل مزعزعا وسلطتهم مردودة فى معظم البلاد ، كتب الجنرال لوجييه فى يومياته يقول .

« لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية مازالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية، وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى لا يأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين ، والحامية الفرنسـية مقصاة فى حى الأروام » .

## الحملة الثانية على البحر الصغير

رأى نابليون أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيراً من المصاعب ويزعزع سلطتهم فى جهات البحر الصغير والمنزلة ويثير فى نفوس الأهالى روح الثورة ، فعزم أن يجرد عليه حملة ثانية لاخضـاعه والاستيلاء على المنزلة ، وكان لا يفتأ يهتم بتوطيد سلطة فرنسا فى البلاد الواقعة بين النيـل ( فرع دمياط ) وبرزخ السويس لأنها الجبهة الشرقية للقطر المصرى ، لذلك كان يفكر فى تحصين بعض المواقع فى تلك الجهات لحماية حدود مصر وتأمين مواصلات الجيش ، ولكن حوادث الثورة التى شبت فى تلك البلاد عطلت وقتاً ما تنفيذ مشروعه

على أن نابليون أدرك عواقب هذا التأخير فوفد الجنرال اندريوسى Andreossi ليقوم بتحصين مصب النيل واتخاذ دمياط موقعاً حربياً منيعاً ودراسة بحيرة المنزلة ليتعرف إلى أى حد يمكن استخدامها فى حملة الهجوم على مصر من جهة سوريا أو الهجوم على سوريا من مصر ، وطلب منه أن يمضى فى اكتشافه لبحيرة المنزلة حتى آثار مدينة بيلوز القديمة الواقعة فى نهاية البحيرة شرقا ودراسة فتحاتها على البحر الأبيض المتوسط والتحقق مما إذا كانت السفن الأنجليزية أو العثمانية تستطيع الدخول إلى بحيرة المنزلة وإنزال الجنود على شواطئها وتقدير المسافة بين بيلوز والصالحية، وأصحبه ببعض المهندسين

فى مهمته بدمياط وبحيرة المنزلة ، ثم أرسل إلى الجنرال رينييه قومندان الشرقية بأن يعاون الجنرال أندريوسى فى مهمته .

وصل الجنرال أندريوسى الى دمياط فألفى مركز الفرنسيين مزعزعا وتعذر عليه أن يرتاد بحيرة المنزلة لأن الثورة التى شبت فى القرى المجاورة لها كان من نتائجها أن أوغل أصحاب المراكب فى عرض البحيرة بحيث لم يجد مركبا منها ، وكتب إلى نابليون يخبره أن لاسبيل إلى تسلط الفرنسيين على بحيرة المنزلة إلا بعد سحق حسن طوبار والقضاء على قوته الكبيرة ، فبالاستيلاء على مدينة المنزلة التى يسكنها تصبح مركزاً حربياً للحركات العسكرية فى البحيرة وتكون ملتقى المواصلات الحربية بين المنصورة ودمياط وميت غمر والصالحية و بيلوز

أرسل نابليون المدد إلى الجنرال دوجا وكلفه بتجريد حملة عسكرية على مدينة المنزلة للاستيلاء عليها وإرسال كتيبة أخرى الى الجنرال اندريوسى للاستيلاء على جميع الجزائر الواقعة فى بحيرة المنزلة ، وشدد عليه فى هذه الرسالة أن يأخذ حسن طوبار ولو بالخديعة (١) وأن يرسله الى القاهرة ، وأوصاه كذلك بالقسوة على الثائرين وإخضاع البلاد الكائنة بين المنصورة ودمياط إخضاعا تاماً وأوصاه « بتجريد القرى من السلاح وقطع الرءوس وأخذ الرهائن (٢) »

التقى الجنرال اندريوسى فى دمياط بالجنرال دوجا الذى جاءها من المنصورة بعد ما نصبه نابليون قومنداناً للمديريتين ، فتبين له أن مركز الفرنسيين مضطرب وأن سوء إدارة الجنرال فيال وقسوته كان لهما أثر فى اضطراب الحالة واختلالها ، فقد ثبت أنه كان يهاجم القرى الآمنة وهى مطمئنة لم ترفع السلاح فى وجه الفرنسيين ولايفرق

---

(١) رسالة نابليون إلى الجنرال دوجا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

بينها و بين القرى الثائرة ، وكان يصادر الأهالى و يرهقهم بالاتاوات والغرامات ، ونسب إليه بعض زملائه أنه احتكر تجارة الخمور فى دمياط

سير الحملة والاستيلاء على المنزلة

وضع الجنرال دوجا أثناء تعهده لدمياط خطة الحملة التى أمر نابليون بتجريدها على جهات المنزلة لإخضاع حسن طوبار ، فاتفق مع الجنرال أندريوسى على أن يقصد هـذا الاخير إلى مدينة المنزلة بطريق البحيرة على ظهر المراكب التى جمعها لهذا الغرض ، وأن تسير اليها قوة أخرى بقيادة الجنرال داماس Damas بطريق البر من المنصورة فتطبق القوتان على المدينة من البر والبحر و بذلك يقضى على مقاومة حسن طوبار ، وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يبدأ الجنرال أندريوسى بالاقلاع بسفنه وجنوده قبل أن تتحرك القوة الاخرى من المنصورة بأربع وعشرين ساعة

تحركت قوة الجنرال داماس من المنصورة يوم ٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة صباحا ، فقلت السفن قسما من الجنود وسار القسم الآخر براً محاذياً المراكب ثم عرجت على بحر أشمون (البحر الصغير) الذى كان يتفرع من النيل على مقربة من المنصورة (١)

وصف الجنرال لوجييه Laugier أحد قواد هذه التجريدة فى يومياته تفاصيل هذه الحملة ، قال يصف البلاد التى مر بها :

« دخلت السفن ترعة أشمون ، وهذه الترعة واسعة وعميقة جداً ، على أنها تضيق كلما اقتربت من مصبها ببحيرة المنزلة ، وهى تخترق بلاداً غنية فى الخصوبة ، وعلى شاطئيها غرست أشجار الجميز الباسقة وأشجار أخرى تدانيها فى العلو ، ولم نجد فى القطر المصرى جهة كثيرة الشبه بفرنسا مثل هذه الجهة ، فبعثت فينا هذه المشابهة الشجو والحنين إلى الوطن ، والمسافة بين المنصورة والمنزلة تبلغ عشرين فرسخا عددنا بها خمسا وأربعين قرية كلها آهلة بالسكان »

---

(١) الآن يتفرع من ترعة المنصورية

سارت الكتيبة حتى وصلت الى منية محلة دمنة ولم تلق فى طريقها مقاومة تذكر لأن القسوة التى استعملها الجنرال داماس فى حملته الاولى وما أصاب أهالى الجمالية من الخسائر قد أضعف روح المقاومة ومال بهم إلى الاخلاد ودفع الضرائب المطلوبة منهم ، فكانت كل قرية دفعت ما عليها من الضريبة ترسل من أهلها رجلا يحمل الوصل بالدفع فينتظر مرور الحملة فاذا أقبلت رأت هذا الرجل واقفاً لا يتحرك وقد جعل الوصل فى رأس « نبوت » رفعه لهم يبروه ، والقرية التى لم تدفع ما عليها تبادر إلى الدفع

ثم وصلت الحملة الى أشمون[1] فى منتصف الساعة السابعة مساء فعسكرت ليلها ، وفى اليوم التالى ( ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ) قبل شروق الشمس تابعت سيرها بعد أن أرجع الجنرال داماس الى المنصورة تسعة من مراكبه الكبيرة التى لم تستطع مواصلة السير لان الترعة بدأت من هذه النقطة تضيق ويقل عمقها ويتعذر سير المراكب فيها ، ثم وصلت الى ( الكردى ) ، وهناك جاء وفد من المنزلة يقصد مقابلة قائد الحملة للمفاوضة مع الفرنسيين ويطلب ضماناً بأن لا يعاملهم الجيش الفرنسى معاملة الأعداء ، ويظهر أن هذا الوفد جاء بايعاز من الشيخ حسن طوبار لما استيقن بأنه هو المقصود بهذه الحملة العسكرية ، وبالرغم من أن الوفد يعلم مبلغ كراهية الفرنسيين لحسن طوبار فإنه لما سئل عن مقاصده أثنوا عليه أحسن الثناء ، وقد كتب لهم الجنرال داماس تصريحاً بضمانة أرواح الاهالى اذا سلكوا مع الجيش مسلك الولاء

قال الجنرال لوجييه فى يومياته « فى كل جهة مررنا بها من المنصورة الى المنزلة كنا نسمع ثناء الأهالى على حسن طوبار وهو محبوب منهم حباً شديداً وهو غنى تقدر ثروته بالملايين ( من الفرنكات ) يملك الأراضى الواسعة ومصانع نسج القطن ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة »

## احتلال المنزلة

وفى يوم ٦ أكتوبر سمع جنود الحملة قبيل الفجر أصوات طلقات البنادق آتية

(١) من بلاد مركز دكرنس ومعروفة الآن بأشمون الرمان

من مدى بعيد ، وتبين لهم من اتجاه الصوت أن معركة نشبت على مقربة من دمياط، فسارعت الحملة إلى المنزلة (١) فوصلت تجاهها الساعة العاشرة صباحاً ، وكان الاهالى ومعهم حسن طوبار قد اخلوها ولم يبق بها الا الشيوخ الذين لايقدرون على السير والعجائز من النساء فدخل الجنود المدينة دون مقاومة وجابوا طرقتها وأزقتها ، واستوقف نظارهم منازل حسن طوبار التى كانت تسترعى النظر لسعتها وجمال منظرها و بنائها على الطراز الشرقى وكانت مقفلة الابواب خالية من السكان ، وقد أراد بعض الضباط ومنهم الجنرال لوجييه ان يدخلوها فقيل لهم من الاهالى إن مفاتيح الابواب غير موجودة ففتحوا مدخل أحدها ولكنهم لاحظوا أن انتهاك حرمة مساكن حسن طوبار يثير غضب الاهالى فانسحبوا منها(٢) واحتلوا دارا جعلوها المعسكر العام للحملة، و بالرغم من الضمانة التى كتبها الجنرال داماس لوفد المنزلة فان الجنود قد نهبوا البيوت واشتد الصخب وعلت الشكوى ، فاضطر الجنرال داماس إلى إصدار أوامره المشددة لمنع النهب ورد الجنود الى النظام ، و بذلك تم للجنرال داماس احتلال المنزلة

أما أسطول الجنرال أندريوسى فقد أخفق فى مهمته إخفاقا شديداً ، ذلك أن مراكبه أقلعت من دمياط يوم ١٣ اكتوبر قبيل الفجر تقل جنوده المجهزين بالأسلحة والمدافع وكان عدد هذه المراكب ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية

خرجت السفن من بوغاز دمياط ثم عرجت على فم الديبة فمرت منه الى بحيرة المنزلة وقطعت هذه المرحلة فى ثمانى ساعات ، ثم اتجه الجنرال اندريوسى بقوته صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا فى نحو الساعة الثالثة مساء أسطولا من المراكب الشراعية متجها نحو الشرق تحجبه عن القوة الفرنسية الجزائر التى فى البحيرة ، فواصلت سفن الجنرال اندريوسى المسير حتى قتربت من المطرية ، وقبل

(١) يبلغ عدد سكان المنزلة فى ذلك العصر نحو الفى نسمة كما قدرهم الجنرال اندريوسى فى تقريره الذى قدمه الى المجمع العلمى وذكر عنها أن بها مصانع لنسيج الحرير والكريشة والملايات وبها بعض مصانع الاقمشة

(٢) يوميات الجنرال لوجييه

أن تصل إليها خرجت مراكب الأهالى فجأة من خلف الجزر التى تحجبها وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها وإغراقها ، فأدرك الجنرال اندريوسى خطورة الموقف وخشي عواقب الاصطدام لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مركب ، فنكص راجعاً الى دمياط وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية ، فأجابت هذه باطلاق الرصاص من البنادق والمدافع التى بها ، وأخذت فى الوقت نفسه تتراجع تفاديا من الاصطدام بمراكب الأهالى ، وكانت هذه تتعقب السفن الفرنسية قاصدة احتلال دمياط ورست بالقرب من « المنية » [1] ، لكن القوة الفرنسية أطلقت النار عليها فتنبهت الدوريات الفرنسية التى كانت تتولى حراسة ضواحى دمياط ، فأقبلت لنجدة الجنرال اندريوسى وظل بحارة المراكب الأهلية يناوشون السفن الفرنسية إلى أن انسحبوا فى نصف الليل وتركوا سفينة تراقب حركات الفرنسيين ، وظلت هذه السفينة على مرأى من سكان دمياط طول يوم ١٤ اكتوبر ، وفى يوم ١٨ اكتوبر أعادت المراكب الأهلية كرة الهجوم على دمياط ولكن نار المدفعية الفرنسية والسفن الحربية ردتها عن المدينة

كانت حركة المراكب المصرية خطيرة واسعة المدى وكادت تكون وخيمة العواقب على الفرنسيين لو لم يحبطها احتلال الجنرال داماس لمدينة المنزلة ، فقد كانت الخطة الموضوعة بالاتفاق بين أهالى المطرية والمنزلة أن يحتلوا دمياط بحرا بطريق بحيرة المنزلة ، والظاهر أن المائة سفينة التى شاهدها الجنرال اندريوسى فى البحيرة كانت تحمل المتطوعين من الأهالى لهذا الغرض ، لكن القوة الفرنسية ردتهم عن دمياط ثم جاء احتلال الفرنسيين للمنزلة فأحبط خطة الحملة البحرية التى نظمها أهالى المنزلة والمطرية ، وقد كان الفرنسيون جادين فى احتلال هاتين المدينتين لأنهما يضمنان لمن يستولى عليهما السيادة فى البحيرة ، فالمطرية بأسطولها المؤلف من المراكب الشراعية والمنزلة بقوة حسن طوبار ونفوذه كانتا مفتاح هذه السيادة ، فسقوط المنزلة فى يد الفرنسيين شل خطة المقاومة التى وضعها حسن طوبار وأشياعه ، على أن هذه الخطة

---

(١) جنوب دمياط بغرب

كانت محكمة التدبير لدرجة أن الجنرال أندريوسي كتب عنها كثيرا فى رسائله لنابليون ومما قاله فى هذا الصدد : « إن استبسال العدو فى الهجوم على دمياط يثبت أهمية هذا الموقع ، ويظهر أن الأنباء التى كانت وصلتنا عن قرب هجوم أهل المطرية والمنزلة على دمياط وانتظار حسن طوبار المدد من سوريا لم تكن بعيدة عن الحقيقة لأنى لا أعتقد أن الهجوم الذى فوجئنا به فى البحيرة يستطيع أن يقوم به جماعة من الصيادين فلا يمكن لمثل هؤلاء أن ينظموا مثل هذا الهجوم ويحكموه بمثل الحالة التى شاهدناها(١) »

احتلال المطرية

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة سقطت المطرية فى أيديهم واحتلتها قوة الكولونل جازلاس Gazlas ، ثم وصلت إليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد أن أخلاها أهلها وغادروها على ظهر مراكبهم

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التى كان يديرها حسن طوبار ، فلم يجد أمامه سوى الهجرة الى غزة ، وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى ، التى أقلقت بال الفرنسيين زمناً ، وطويت صحيفة مقاومة ذلك الرجل الذى أزعج قواد الجيش الفرنسي وتردد اسمه فى تقاريرهم ورسائلهم ، وورد اسمه غير مرة فى رسائل نابليون الخالدة كعنوان للمقاومة الأهلية القوية ، وقد ظل بعد هجرته الى غزة مصدر قلق للفرنسيين ، وخشوا أن يفكر فى الرجوع الى شواطىء دمياط وبحيرة المنزلة ويستأنف مقاومته ، وجاءتهم أنباء بأنه يعد فعلا قوة من المشاة فى غزة عزم على نقلها فى خمسين سفينة يحتل بها دمياط ، ولكن لم يتحقق شيء من هذا العزم ، كتب الجنرال دوجا الى نابليون فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ينقل اليه هذه الأخبار ، ولكن نابليون لم يعرها اهتماماً وكتب الى الجنرال دوجا يقول له :

« أما عن مشروع حسن طوبار فى الاقلاع بسفنه لاحتلال دمياط فمن المستبعد أن يفكر فى إنفاذ هذا المشروع بسفنه ورجله المشاة دون فرسان ولا مدفعية ، وإذا

---

(١) رسالة الجنرال اندريوسى الى نابليون و ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٨

أقدم على ذلك فهذا هو الطيش بعينه »

وقد عاد حسن طوبار الى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية على سوريا ، وتعهد بالتزام السكينة والهدوء فى منطقته [1] ، ولكن يؤخذ من رسائل الجنرال كليبر أن السلطات الفرنسية لم تكن تثق به ولا تطمئن اليه ، وكان كليبر فى عهد قيادته العامة يوصى الجنرال فرديه Verdier بمداراته ومراقبة حركاته [2] إلى أن مات سنة ١٨٠٠ ونشرت جريدة ( كوربيه دليجبت ) نبأ وفاته فى العدد ٧٥ الصادر فى ٩ ترميدور من السنة الثامنة ( ٢٨ يوليه سنة ١٨٠٠ ) وقالت عنه ما خلاصته « فى ١٠ مسيدور ( ٢٩ يونيه ) مات فجأة حسن طوبار كبير مشايخ اقليم المنزلة مصاباً بالسكتة القلبية ، وكان هذا الرجل عظيم المكانة لأصله العريق وغناه الواسع ، وقد هاجر من بلاده فى الأشهر الاولى من الحملة وعاد إليها بعد الزحف على سوريا ، وأذن له الجنرال بونابرت فى الرجوع الى مصر ، فأذعن من يومئذ وأخلد للسكون ، وقد خلفه فى شياخة أقليم المنزلة أخوه شلبى طوبار »

هذا ولا يزال حسن طوبار يذكره كبار السن الى الآن فى جهات البحر الصغير والمنزلة ويسمونه « حسن طوبار الكبير الذى حارب الفرنسيس »

---

(١) جاء فى جريدة ( كوربيه دليجبت ) وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية بالعدد الصادر فى ٢٦ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية ( يوليه سنة ١٧٩٩ ) انحسن طوبار قدم خضوعه فى أوائل شهر مسيدور (يونيه) وأبقى ابنه رهينة لدى الفرنسيين ليضمن إذعانه ، وجاء فى رسالة نابليون الى الجنرال كليبر ( حاكم منطقة دمياط وقتئذ ) بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ انحسن طوبار ترك ابنه بالقاهرة فى مساء ذلك اليوم رهينة على أن يسافر هو الى دمياط

(٢) رسائل كليبر الى الجنرال فرديه بتاريخ ٢٤ اكتوبر سنة ١٧٩٩ و ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠

## تحصين منطقة دمياط

عنى الفرنسيون بتحصين منطقة دمياط فانشأوا قلعة بعزبة البرج [١] ، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقا وغربا ، وأقاموا كذلك طابية بالديبة على مدخل بحيرة المنزلة غربى اشتوم الجميل ، وأخرى على فتحة ام مفرج من فتحات البحيرة ، وطابية ببوغاز البرلس

ويظهر لنا أن قلاع عزبة البرج والبوغاز أقامها الفرنسيون على أنقاض القلاع القديمة التى كانت بها ، فقد ذكر الرحالة فانسليب Vansleb أنه لما جاء إلى مصر ونزل بدمياط سنة ١٦٧٢ شاهد عند مدخل البوغاز قلعة قديمة مقامة بالبر الشرقى للنيل كانت فى حالة تهدم وأبراجها متخربة وفيها بعض المدافع لحمايه البوغاز وأن هذه القلعة على بضع خطوات من بلدة سماها فانسليب قرية البوغاز ، وحقيقة اسمها قرية ( عزبة البرج ) لأنه يقول إن هذه البلدة يسكنها قباطين السفن والبحارة الذين يصحبون المراكب فى دخولها النيل أو خروجها منه ، والمعروف أن هذه البلدة هى عزبة البرج ، ويقول فانسليب أيضاً إنه شاهد فى هذه القرية أساس قلعة لم تتم ، وشاهد بالبر الغربى قلعة أخرى لحماية البوغاز [٢] ، وفى خريطة المسيو بول لوكاس Paul Lucas التى خططها سنة ١٧١٧ رسم حصنين قائمين على جانبى بوغز دمياط شرقا وغربا [٣] ، وقال السائح الفرنسى جرانجيه Granger الذى جاء مصر سنة ١٧٣٠ إنه شاهد هذين الحصنين فى تلك السنة [٤] ، وتكلم عنهما المسيو تيبودو Thibaudeau فى كتابه فقال إنهما كانا موجودين قبل الحملة الفرنسية ورممهما الفرنسيون ونصبوا

---

(١) الواقعة بالبر الشرقى للنيل تجاه رأس البر الآن

(٢) رحلة فى مصر للرحالة فانسليب

(٣) رحلات المسيو بول لوكاس فى مصر

(٤) رحلة فى مصر للمسيو جرانجيه

فيهما المدافع (١) وكذلك يقول الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية (٢) إنهما كانا قائمين قبل الحملة و يقول عنهما « إن هذين الحصنين أعدا لحماية مدخل البوغاز وان الغرض من قلعة عزبة البرج منع السفن من دخول النيل ومنع العدو من التقدم الى دمياط براً إذا رسى على البر الشرقى »

واليك ما ذكره العلامة على باشا مبارك عن هذه الحصون والاستحكامات وما زاد عليها فى عهد محمد على باشا وعباس باشا الأول واسماعيل باشا :

« قد أنشأ المرحوم عباس باشا سكة عسكرية من المدينة ( دمياط ) إلى البوغاز عرضها اثنا عشر مترا فى طول ستة عشر ألف متر تمر فى وسط المزارع على جملة قرى منها عزبة الخياطة وعزبة اللحم والحملة وعزبة الشيخ ضرغام حتى تصل الى قلعة البوغاز الكبرى التى أنشئت زمن دخول الفرنساوية أرض مصر فى القرية القديمة المسماة بقرية البرج التى هدمها بنوبارت سر عسكر الفرنساوية لقيام أهلها ليلا على عساكره وذبحوا منهم جملة ، و بنى بأنقاضها تلك القلعة ، ولم يبق من آثارها الا الجامع الذى بوسطها ومنزل صغير به الآن حكمدارها ، ومن إنشاء المرحوم عباس باشا أيضا القشلاق الكبير الذى هناك على شاطىء النيل وجملة مخازن للبارود والمهمات العسكرية وصهريج كاف لشرب العساكر المرابطين بتلك القلعة مع أهل عزبة البرج الجديدة التى في شمال القلعة ، ومن انشائه أيضاً عمارة الكرنتينة ومحل الجمرك فى جنوب القلعة على شاطىء النيل، وفى جهتى البوغاز شرقا وغرباً قلعتان أنشئتا فى زمن الفرنساوية بصورة الاستحكامات الدائمة الموافقة لأسلحة ذلك الوقت القريبة المرمى الضعيفة التأثير ، وكانت قلعة الغرب مبنية بشكل سور مستدير محيط بالبرج القديم المستدير الذى به مقام الشيخ يوسف فى محل يعرف برأس البر ، ثم ان ساحل البر من بوغاز دمياط الى بورت سعيد لم يكن به قلاع سوى قلعة ( الديبة ) القديمة التى بنيت فى

(١) تاريخ نابليون بونابرت ، حملة مصر الجزء الثانى طبع سنة ١٨٢٨
(٢) فى كتابه ( مصر بعد معركة عين شمس )

زمن الفرنساوية بشكل بلانقة مربعة وفى وسطها برج مربع شاهق يرى من مسافة بعيدة ، وبينها و بين بوغاز دمياط اثنان وثلاثون الف متر ، وكانت على شريط الساحل القليل العرض الفاصل بين المالح وبحيرة المنزلة للحماية من دخول المراكب من أشتوم الديبة القديم ، وكذا الساحل الغربى من بوغاز دمياط لبوغاز بحيرة البرلس لم يكن به قلاع سوى قلعة بوغاز البرلس الغربيـة المحاذية لسراية طبوز اغلى حاكم البرلس سابقاً ، وهى أيضاً أنشئت فى زمن الفرنساوية بشكل بلانقة مربعة ذات أبراج مستديرة ، وكان إنشاؤها بمعرفة الامير (الجنرال) مينو الذى تقلد إمارة مصر بعد موت الامير (الجنرال) كليبر كما دلت عليه النقوش التى وجدت على بابها ، وقد حفظ مع أنقاضها التى وضعت فى بناء القلعة الجـديدة ، وكانت أماكن تلك القلاع قبل دخول الفرنساوية مراكز المرابطين للمدافعة ، فلما رأوا أن مواقعها هى أعظم النقط اللائقة للاستحكامات بنوا فيها تلك القلاع فمحيت معالمها القديمة ماعدا برج ولى الله الشيخ يوسف المرابط فانه لم يزل الى الآن ، وفى زمن المرحوم محمد على باشا قد رممت تلك القلاع وأجري فيها بعض عمارات ، وكذلك فى زمن المرحوم عباس باشا فانه أنشأ أربعة أبراج فى غربى بوغاز دمياط بينه و بين أشتوم الجمعة وهو مصب فرع بحر شبين ، وأنشأ أيضا برجا فوق أشتوم الجميل فى شرقى قلعة الديبة ، وجميع ذلك كان بمعرفة جليس بك مدير عموم الاستحكامات المصرية ، وفى زمن الخديوى اسماعيل باشا قد أوصلت السكة الحديد والتلغرافات الى السنانية وأنشئ بها جملة مبانٍ عسكرية ، منها قشلاق الفوريقة الجديدة المنشأة مع جملة فوريقات فى زمن العزيز محمد على باشا جعل لاقامة ألاى بيادة بعد ما أضاف اليه جملة مبانٍ كافية للوازمه ، ثم أنشأ قشلاقا آخر بجهة السنانية قريبا من محطة السكة الحديد ، وأنشأ فى غربيه اسبتالية للعسكر تسع خمسمائة سرير ، وأوصل خط التلغراف إلى قلعة العزبة الـكبرى وإلى قلاع البوغاز ، وأجرى بقلعة العزبة الـكبرى جملة عمـارات وترميمات بداخلها وخارجها مع تجديد استرات خنادقها و بناء خطوط نيرانها القديمة وتسميك دروانها

حسب أصلها حتى صارت تقاوم مقذوفات العدو ، وعمر الجامع القديم الذى فى وسطها والمنزل الذى هناك ، وأنشأ حول كل من القلاع القديمة والأبراج قلاعا حصينة أقوى من تلك القلاع القديمة بأوضاع مغايرة لها كما أنشأ جملة قلاع من هذا القبيل على عموم السواحل وجعلها من أعظم القلاع الحصينة لأجل مقاومة الأسلحة الجديدة البعيدة المرمى الشديدة التأثير، وجعل لها قشلاقات لاقامة العساكر المرابطين بها ، ومخازن عظيمة للبارود والجلل والمهمات ، ولزيادة تحصينها جعلها فى أسفل الدراوى السميكة بحيث تأمن من تأثير مقذوفات العدو ، كما أنه وضع فى جميع هـذه القلاع المدافع العظيمة الكافية ذات العيار الكبير والمرمى البعيد المعروفة باسم مخترعها (ارمسترنج) الانكليزى ، وجميع هذه الاستحكامات والعمائر جار على حسب التصميمات المعمولة بمعرفة أمير اللواء محمد باشا المرعشلى باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ »[1]

(١) الخطط التوفيقية للعلامة على باشا مبارك الجزء الحادى عشر

# الفصل السادس عشر

## المقاومة فى الوجه القبلى

فر مراد بك من معركة الاهرام منهزما أمام الجيش الفرنسى ، وكان نابليون يحسب لقوته حساباً كبيراً ، فعهد بعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة الى الجنرال ديزيه Desaix احتلال المنطقة الواقعة جنوبى الجيزة وإقامة الاستحكامات والمواقع اتقاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر فى الهجوم بل اتجه بفلول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيداً عن هجمات نابليون ، وقصد الى الفيوم واستقر عند ناحية البهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا ابراهيم بك فى فراره الى سوريا .

لم يفكر مراد بك فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جدية ، بل معظم ما لقى الفرنسيون فى الصعيد إنما نالهم من الاهالى الذين شدوا أزر المماليك فى مقاومة الجيش الفرنسى ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سمع للمماليك صوت ولا انبعثت لهم حركة بعد هزيمة امبابة .

اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذ رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومه المركزية ويكون مثابة المقاومة الأهلية ويعطل الملاحة فى النيل ويحبس الغلال عن الوجه البحرى فيستهدف سكان القاهرة والمدن وجنود الحملة للمجاعة ، وقد تعطلت الملاحة فى النيل فعلا فى الشهور الأولى من احتلال القاهرة ، وحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن المحملة غلالا الى القاهرة ، فعتزم نابليون احتلال الصعيد ، على أنه أراد قبل تجريد جيشه أن يسعى الى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا وما يليها الى الشلال ، ويكون تابعاً للحكومة الفرنسية فيؤدى الخراج الذى كان يخرج من هذه الجهات ، وكان المسيو روستى Rosetti قنصل

النمسا فى مصر رسول المفاوضة بينهما، فبعث اليه نابليون بتعليماته فى الرسالة الآتية :

« المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ ترميدور من السنة السادسة (أول اغسطس سنة ١٧٩٨)

« إلى المواطن روستى ، عليك أن تذهب سراً الى مراد بك ، وتخبره بأنك قدّمت لى الرسول الذى أوفده الىّ ، وأن هذا الرسول قد ترك فى نفسى أثراً سيئاً بثرثرته وأقواله الطائشة ، على أننى أدركت أنه قد يجيء الوقت الذى أرى فيه من مصلحتى أن أنتفع بخدمات مراد بك ، وأن أتخذه عضداً أميناً لى ، فلتخبره أنى أقبل اذا تم الاتفاق بيننا أن تبقى مديرية جرجا فى حيازته على أن ينسحب اليها فى مدى خمسة أيام وأن لا أرسل اليها من ناحيتى أيّا من الجنود ، وعليك أن تبلغه كذلك أنه اذا تم الاتفاق مبدئياً على هذه الشروط فمن المحتمل اذا ازددت معرفة به وثقة بمقاصده أن أعاهده على مزايا أكبر ، وعليك أن توقع واياه على معاهدة اتفاق تكتب باللغتين الفرنسية والعربية وتكون مؤلفة على وجه التقريب من الشروط الآتية

المادة الاولى — يستبقى مراد بك معه خمسمائة أو ستمائة من الفرسان تكون عدته فى حكم مديرية جرجا من شلال اسوان الى ما يلى جرجا شمالا بنصف فرسخ وعليه أن يجعلها فى مأمن من هجمات العرب

المادة الثانيـة — يعترف مراد بك بأن يكون فى حكم المديرية المذكورة تابعا لفرنسا وأن يدفع لخزانة الجيش الخراج الذى كان يجبى منها

المادة الثالثة — يتعهد القائد العام من ناحيته بأن لا تحتل جنوده أى جهة من مديرية جرجا وأن يترك ادارتها لمراد بك

المادة الرابعـة — على مراد بك أن يمضى برجاله الى ما وراء حدود مديرية جرجا فى مدى خمسة أيام ، ولا يسوغ لأحد من أتباعه أن يتخطى هذه الحدود الى مديرية أخرى الا باذن من القائد العام (١) »

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢١

تلك هى التعليمات التى عهد بها نابليون الى القنصل روستى ، ومنها يتبين أن نابليون كان راغباً فى الاتفاق مع مراد بك ، وهـذا ينافى ما أعلنه فى منشوراته و بياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لمحاربة المماليك وثل عرشهم وأنه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا اذا قضى على دولتهم ومحاهم من الوجود ، ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغة ، والمماليك بلغة أخرى ، ولعمرى ان اللغتين مشتقتان من نبعة واحدة، هى نبعة الفتح ولغة الاستعمار ، تلك اللغة التى مهما اختلفت أساليبها فانها تؤدى معنى واحداً لا يتغير وهو إخضاع مصر وجعلها مطية للمطامع الاستعمارية

وقد زوّد نابليون القنصل روستى بتفويض كتابى يخوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك، واليك نص التفويض :

« إن القائد العام مدفوعا بعواطف الانسانيـة التى كانت على الدوام رائده فى أعماله يخول للمواطن روستى سلطة المفاوضة مع مراد بك والاتفاق معـه على شروط معاهدة تنهى حالة الحرب بينهما والتوقيع على هذه المعاهدة (١) »

والظاهر أن مراد بك كان معتزاً بقوته معتقداً أنه باعتصامه فى الوجه القبلى لا يستطيع الفرنسيون أن ينالوا منـه منالا وبخاصة اذا وثق من معاضدة الاهالى وتأييدهم ، فرفض شروط الصلح أو بعبارة أخرى رفض التسليم ، فعزم نابليون على تجريد الجيش للقضاء على قوته من جهة وإخضاع سكان الوجه القبلى من جهة أخرى ، واذا تتبعت خطوات الجيش الفرنسى فى الحملة على الصعيد وجدت أنه أفلح فى القضاء على قوة مراد بك ، ولـكنه أخفق فى الغرض الثانى وهو إخضاع الاهالى

جعل نابليون الجنرال ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلى ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف (٢) من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين مزودين بالاسلحة

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٢

(٢) هذا الاحصاء مأخوذ من مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

والذخائر والمدافع الحديثة والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطا فى الجيزة يترقب الفرصة للبدء فى القتال ، فلما بلغ الفيضان حداً مناسباً صدرت له الاوامر بالزحف ، وكانت مهمته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه القبلى على أن المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى أنحائه كانت أشد ما أصاب الفرنسيين فى مصر، لان طبيعة البلاد فى الصعيد ، و بعد المسافات ، وصعوبة المواصلات ، وأخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة ، قال القومندان دى لاجونكيير فى هذا الصدد : « إن المقاومة التى لقيتها الجنود الفرنسية فى الوجه البحرى كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هى التى اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية (١) »

## تحرك الحملة — احتلال بنى سويف

أقلعت السفن بالحملة من مصر القديمة والجيزة فى أواخر اغسطس سنة ١٧٩٨ تحرسها بعض السفن المسلحة ، وسار جزء من الحملة على شاطىء النيل ، فوصلت الى (اطفيح) واستراحت قليلا وهناك انضمت اليها كتيبة الجنرال رامبون Rampon الذى كان يرابط باطفيح من قبل ، ثم أقلعت السفن من اطفيح ووصلت يوم ٣١ غسطس الى بنى سويف واحتلتها بدون مقاومة ، و بقى بها الجنرال ديزيه عدة أيام يستطلع أخبار المماليك و ينتظر وصول الذخائر والمؤونة من القاهرة ، وهناك علم أن مراد بك مرابط فى ناحية البهنسا بين بحر يوسف والجبل وأنه جمع أسطوله فى هذا لبحر يحمل زاده ومؤونته وذخيرته

وكان لابد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تمضى الحملة فى النيل إلى ديروط ، وهى مأخذ بحر يوسف (٢) ومن ثم تنحدر فيه إلى ن تلتقى بقوة المماليك ، فتحركت من بنى سويف يوم ٤ سبتمبر صباحاً ووصلت فى

---

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

(٢) يتفرع الآن بحر يوسف من الترعة الابراهيمية عند ديروط

مساء يوم ٥ تجاه ( أبو جرج ) ، وكانت أهم مدينة فى المديرية بعد بنى سويف (١)

## احتـلال البهنسا

عزم ديزيه على أن يكشف مواقع مراد بك وأن يفاجئه براً فى البهنسا ، فنزل إلى البر تجاه ( أبو جرج ) ومعه جزء من الجيش، وسارت القرة براً حتى وصلت الى البهنسا الواقعة على بحر يوسف ، وقبل أن تصل اليها شعر مراد بك باقترابها ، فأمر بانسحاب أسطوله الى أسيوط حتى لا يقع فى أيدى الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها ديزيه واستولى فيها على عدة مراكب للمماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأخذ ما بها من الذخيرة والغلال ، وعلم أن مراد بك انسحب إلى اللاهون (٢) ورابط بها ، وأن محمد بك الألفى برابط فى منتصف الطريق بين البهنسا واللاهون ، وأن أسطول مراد بك سار الى أسيوط

عادت فرقة الاستطلاع الى ( أبو جرج ) يوم ٧ سبتمبر ، ثم تحركت الحملة كلها صاعدة فى النيل ، ووصلت الى المنيا فى مساء ٩ سبتمبر ، وفى يوم ١٠ منه وصلت تجاه ملوى وتابعت طريقها حتى وصلت يوم ١٢ سبتمبر تجاه ديروط ، حيث يتفرع بحر يوسف .

## تعقب أسطول المماليك إلى أسيوط

عزم ديزيه أن يستمر جنوباً حتى أسيوط ليستولى على أسطول مراد بك ، وقد علم أن معظم بحارته من الأروام الذين يمكنه استمالتهم اليه ، فدس اليهم رسله لهذا الغرض (٣)

---

(١) كانت ( أبو جرج ) تتبع مديرية بنى سويف، وهى الآن من بلاد مركز بنى مزار بمديرية المنيا

(٢) عند مدخل مديرية الفيوم حيث القناطر المنشأة باسمها عند فتحة الجبل التى يمر منها بحر يوسف

(٣) رسالة ديزيه الى نابليون فى ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ترك الجنرال ديزيه قسما من قوته فى ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحة فى النيل وانتظار الكتيبة التى استولت على مراكب المماليك فى بحر يوسف ، ومضى الى الجنوب ومعه جزء من جيشه فى السفن قاصداً الى أسيوط

فوصل اليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم يجد أسطول المماليك ، ولم يوفق الى الاستيلاء عليه ، إذ تمكن قبل وصول ديزيه من الافلات قاصداً جرجا ، ولم ير ديزيه من الصواب أن يمضى فى زحفه ، مخافة أن يبتعد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف .

## رجوع ديزيه إلى الفيوم

عزم ديزيه على أن يرجع الى ديروط ، فكانت رحلته الأسيوطية عقيمة لأنه لم يظفر بأسطول المماليك ولا واجه قوتهم ، وأضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية أيام اغتنمها مراد بك ليقوى صفوفه فى الفيوم ، وانحاز اليه عدد كبير من الأهالى وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم فى اللاهون

ثم وصل ديزيه الى ديروط يوم ٢١ سبتمبر و بقى بها ثلاثة أيام ينظم الحملة على الفيوم ، وألقت السفن الفرنسية مراسيها فى النيل ولم تستطع السير فى بحر يوسف ، وأخذت سفينتان منها تتبعان فى النيل عن بعد سير الحملة الفرنسية فى بحر يوسف الى بنى سويف ، و بقيت السفن الأخرى تجوب النيل ما بين منفلوط وملوى والمنيا لتراقب تصدير الغلال من هذه البلاد الى القاهرة

لم تكن الحملة على الفيوم سهلة التنفيذ ، فان الملاحة فى بحر يوسف كانت شاقة لضيق البحر ، فضلا عن استهداف المراكب الفرنسية من الجانبين لهجمات الأهالى والمماليك

وقد بدأت المراكب الفرنسية تسير فى بحر يوسف يوم ٢٤ سبتمبر قبيل شروق الشمس ، وكان سيرها محفوفاً بالمصاعب لكثرة تعاريج بحر يوسف ، ولهبوب الرياح من الصحراء ، وقلة غور المياه فيه ، فكان الجنود يضطرون الى جر المراكب بالحبال

وصلت فرقة الجنرال ديزيه الى البهنسا يوم أول أكتوبر ، وهناك علموا أن مراد بك مرابط بجهة اللاهون ، فتابعت السفن سيرها حتى اشتبكت بطلائع المماليك والأهالى فى ٣ اكتوبر بناحية (القايات) ، وكانت هذه الطلائع مكونة من ١٥٠ من العرب و ١٥٠ من المماليك ، فاضطر الجنرال ديزيه إلى إنزال كتيبة من جنوده الى الشاطىء ، ونزل هو بنفسه لمحاربة المهاجمين وتشتيتهم ، ثم أخذت الكتيبة تسير على الشاطىء حذاء السفن لحراستها

وفى اليوم التالى كانت قوة من الأهالى والمماليك تترقب السفن على شاطىء البحر لتطلق عليها النار ، ولم يستطع الجنرال ديزيه إنزال جنوده إلى الشاطىء لأن مياه الفيضان كانت تغمر الارض هناك ، فاضطر إلى التراجع على مسافة نصف فرسخ ، ليتمكن من اختيار مكان ينزل به جنود الفرقة جميعها ، وسارت الفرقة بطريق البر بعيداً عن الشاطىء ، واتجهت صوب المماليك والأهالى ، فانسحب هؤلاء وكانوا تحت قيادة محمد بك الألفى

## واقعة سدمنت

٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ .

واصلت الفرقة سيرها براً فى اليوم التالى — ٥ اكتوبر — فشهد الجنرال ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطا فى المرتفعات المشرفة على بحر يوسف ، فأراد أن يهاجمه ، لكن مراد بك تقهقر شمالا ، وتعقبه ديزيه طول النهار فلم يستطع اللحاق به إذ كان جنوده قد أنهكهم التعب من سيرهم فى رمال الصحراء

وفى يوم ٦ اكتوبر بدأ الاهالى والمماليك يناوشون طلائع الجيش الفرنسى ، فقبل الجيش يهجم عليهم ولكنهم انسحبوا ليرابطوا فى مواقع حصينة ، وفى صباح اليوم التالى (٧ اكتوبر) أخذت الفرقة تتابع سيرها حتى اقتربت من « سدمنت » وهى بلدة صغيرة واقعة غربى بحر يوسف [١] وهناك التقى الجمعان على مقربة من هذا البلد

---

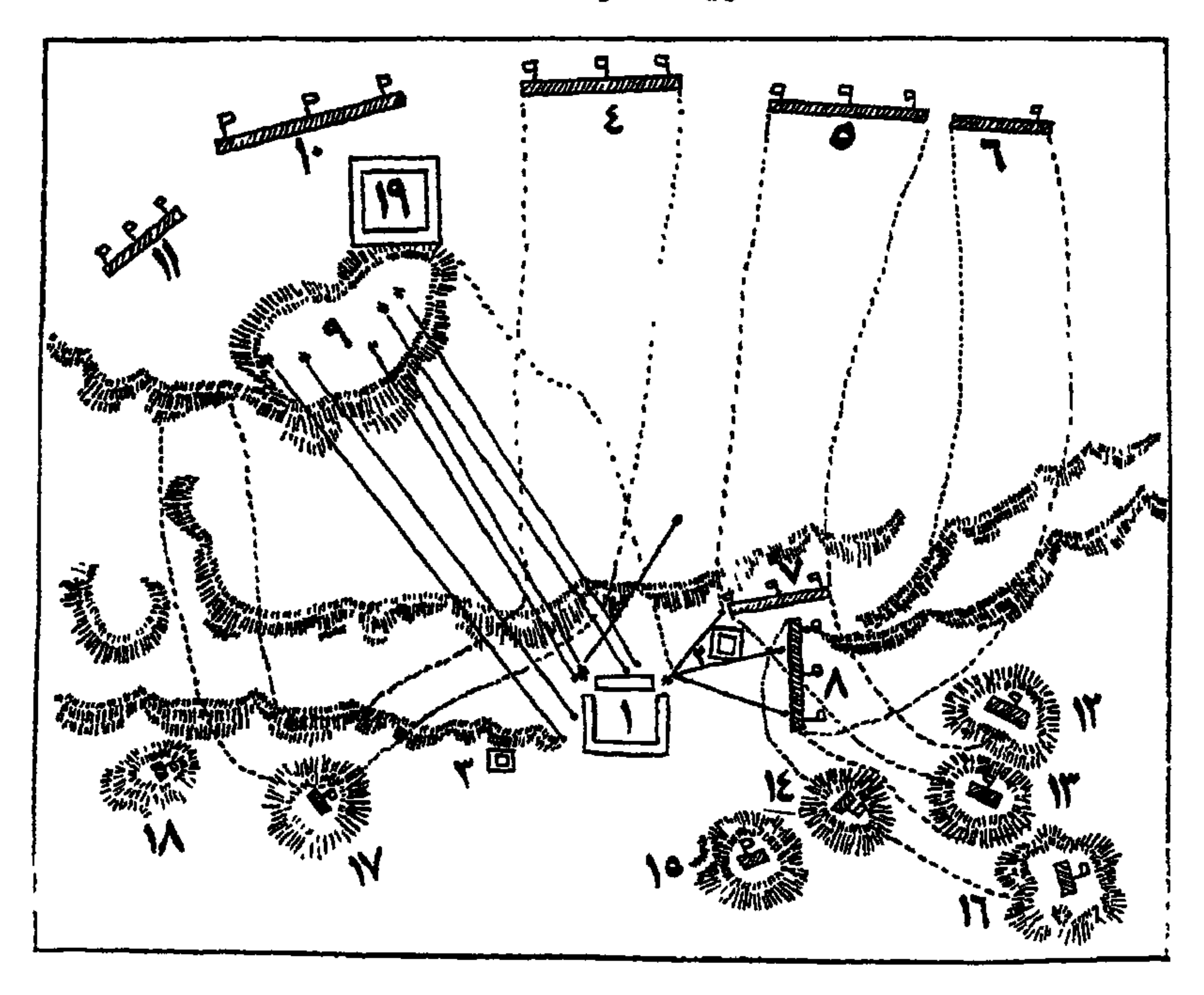
(١) فى الجنوب الغربى للاهون وهى متصلة بالجبل الغربى وتابعة الآن لمركز بنى سويف وتسمى (سدمنت الجبل)

ودارت معركة من أشد المعارك هولا كادت تسحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم فرساناً ومشاة وتحصن فى آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم وقوى أملهم فى سحق الجيش الفرنسى لقلة عدد جنوده بالنسبة اليهم ولمغامرته فى الصحراء وفى بلاد معادية بعيداً عن قواعده الحربية

كان عدد المماليك والمصريين فى هذه الموقعة يزيد عن ضعف الجيش الفرنسى، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة ، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربى وكفاية القيادة وقوة المدفعية وكثرة الذخيرة ، فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الاهالى والمماليك منحدرين من المرتفعات التى كانوا يعتصمون بها ، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف الى خمسة آلاف فارس هجموا على قرع الطبول بحماسة عظيمة وأحاطوا بجيش الجنرال ديزيه من كل صوب وكانوا أكثر عدداً وأشد حماسة من الاعداء ، لكن نار المدافع الفرنسية فتكت بهم فتكا ذريعاً وكسرت هجمتهم ، فأعادوا الكرة ثانية وثالثة بمثل الحمية التى هجموا بها أول مرة ، ودامت الموقعة عدة ساعات لا تخمد حماسة المهاجمين ولا يضعف أملهم فى النصر ، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع أخذت تطلق النار على الجنود الفرنسية فأوقعت بهم خسائر جسيمة ، وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسى لولا أن أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر فهجم جنوده على موقع المدافع وانقضوا على رجالها وقتلوا بعضهم وأجلوا البعض الآخر ، وهجمت جموع الاهالى والمماليك مرة أخرى على الجيش الفرنسى وأنزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة ، لكنهم اضطروا الى التقهقر بعد ما أفنت نيران المدافع والبنادق عدداً كبيراً منهم وتركوا فى الميدان أربعة مدافع غنمها الفرنسيون ، وانتهت الواقعة بانتصار الجنرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين كما قدرهم الجنرال برتييه Berthier ٣٤٠ قتيلا و١٥٠ جريحاً ويقدر الجنرال ديزيه خسائر المصريين بأربعمائة قتيل

خريطة معركة سدمنت




نقلا عن خريطة قديمة مودعة فى محفوظات وزارة الحربيه الفرنسية منذ سنة ١٨٠٠
نشرها القومندان دى لاجونكيير سنة ١٨٩٩

(١) موقف جيش الجنرال ديزيه عند التأهب للقتال

(٢ و ٣) طلائع جيش ديزيه

(٤ و ٥ و ٦ ، موقف جيش مراد بك عند تأهبه للهجوم

(٧ و ٨ ) هجوم جيش مراد بك على طلائع الميمنة

(٩ ) مدافع مراد بك

(١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ ) هجوم جيش مراد بك على الجيش الفرنسى

(١٩ ) موقف جيش ديزيه بعد استيلائه على مدافع المماليك وانسحاب قوات مراد بك .



معركة سدمنت — ٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ — كما رسمها المسيو فيفان دينون فى حينها ، وهذه الصورة تمثل هجوم الفرنسيين على الاكمة التى هاجمها مرادبك واخترقهم الوادى الذى يفصل بين الجيشين وتركهم جرحاهم على الاكمة التى كانوا رابطون بها ، وهجوم المصريين على تلك الاكمة ، وترى فى الصورة جرحى الفرنسيين وقد تولاهم الرعب لاقتراب الفرسان المصريين من الاكمة ، وأحد الجرحى يحاول عبثا أن يحمل زميلا جريحا ، وآخر يغطى وجهه بسترته حتى لا يشهد هجوم الفرسان المصريين ولا يرى الموت بعينه

سميت هذه المعركة واقعة « سدمنت » وهى تعد فى تاريخ الحملة الفرنسية من المعارك الهمة التى كان لها أثر كبير فى سير القتال وتطور الاحوال ، وهى تلى واقعة الاهرام فى الاهمية ، لانها قضت على آمال مراد بك فى أن ينتصر فى معركة منظمة وفتحت أمام ديزيه اقليم الفيوم الغنى بمزروعاته .

تغير وجه القتال بعد هذه المعركة فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعاً للاحوال والمفاجئات ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسى من المعارك المنظمة

قال ريبو يصف هذا التطور « إن مراد بك قد أخذ عن العرب حرب المناوشات والمعارك المتفرقة ، فلم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد بل كانوا هدفا للمفاجئات والمعارك غير المنتظرة

وكان هذا النوع من الحرب أشد خطراً على الفرنسيين من المعارك المنظمة لانهم فقدوا الراحة والطمأنينة ، واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات والرحلات المنهكة للقوى ، دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لاينال »

انسحب مراد بك وحلفاؤه غرباً ، وأوغلوا فى الصحراء حتى استقروا وراء بركة « الغرق » وهى بركة كبيرة واقعة جنوب الفيوم بغرب [1] ، واحتل ديزيه فى اليوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون متاعب شاقة فى هذه المعركة ، وأضنهم السير فى الرمال ، وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، فلم يفكر ديزيه فى اللحاق بمراد بك ، وعزم على إراحة جنوده من الأهوال التى كابدوها . وسار بهم إلى اللاهون وقر هناك ينتظر الفرصة ليعاود كرة الهجوم على الأهلى والمماليك

وعسكر هو وجنوده فى اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واستراحوا فى خلالها ، وأرسل الجرحى منهم الى القاهرة ، ثم سار قاصداً مدينة الفيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها إلا بضعة أيام ، ثم أخلاها خوفاً على

(١) فى الجنوب الغربى لقرية (الغرق السلطانى) بمركز اطسا الآن



منظر آخر لمعركة سدمنت — ٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ( نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون)
منظر الاكمة التى اضطر الفرنسيون أن يخلوها و يتركوا بها جرحاهم ليهجموا على مواقع مراد بك، وترى فى الصورة أحد الجنود الفرنسيين يترك زميله جريحاً وقد تعلق بسترته فخلعها لينجو بنفسه من الموت، وترى عن بعد موقع الاكمة التى بها مراد بك

مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيراً عن النيل ، ولأنه علم أن المماليك والعرب لما تحققوا وجوده فى مدينة الفيوم ، عزموا على الرجوع الى معقلهم الأول فى سدمنت على بحر يوسف و بذلك يتهددون مواصلات الجيش الفرنسي ، فعاد ديزيه الى اللاهون يوم ١٦ أكتوبر ، واعتزم أن يعاود تعقب المماليك والأهالى ، لكنه وجد صعوبة كبرى فى تعقبهم لأن ماء الفيضان كان فى ذلك الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤن والزاد قد نقصت والأمراض فتكت بالجنود ولا سيما الرمد

فتك الرمد بالجنود

فتك الرمد بعدد كبير من الجنود ، وكانت مياه بحر يوسف ورداءة الطقس والمتاعب التى قاسيها الجنود من السير فى الرمال أهم الأسباب فى انتشار هذا المرض بينهم ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وأصيب به لأول مره ثمانمائة جندي ضربة واحدة ، وأخذ يستفحل حتى أصبح خطراً على الجيش الفرنسى أعظم من خطر المعارك والحروب ، كتب الجنرال ديزيه الى نابليون فى رسالة له من اللاهون بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول ·

« إن أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتنى الانتفاع بألف وأربعمائة من رجالى ، واضطررت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماماً ، ولا يمكننى أن أتعقب مراد بك إلا إذا سد النقص فى صفوف جيشى وبلغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد أنشأت هنا مستشفى لثلثمائة مريض ، وأرسلت الى النيل أربعمائة مريض آخرين ، ومن الواجب الاسراع فى سد النقص كيما أستطيع تعقب مراد بك ، ون بحر يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحاً للملاحة إذ تجف المياه فيه ، وإن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التى أقودها على ضفاف النيل لهان الامر ، ولكنى أحارب فى الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل النقل حتى ولا للجنود المرضى » ، وبقى ديزيه فى اللاهون ينتظر تعليمات نابليون

## الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين فى واقعة سدمنت ليوطد مركزهم فى الوجه القبلى ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات ، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم ، وهزم مراد بك هزيمة كبرى ، فان الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالى ، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الاحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والجياد ، فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال ، وفى أثناء حملته النيلية الى أسيوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها ، وعين نابليون الجنرال (زايونشك) قومندانا لمديرية بنى سويف فى أوائل اكتوبر ، وأرسل معه كتيبة من الجنود وكلفه تنظيم هذه المديرية ، وكلف الجنرال ديزيه تنظيم مديريتى المنيا والفيوم

أما فى المنيا فكانت الحالة أكثر اضطراباً وأقل استقراراً ، وكانت سفينة فرنسية حربية تجوب هذه الجهات وتحمى القوة التى بالشاطىء من هجمات الاهالى ، ونزلت بالمنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه ، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية ، وكاد يستشرى الهياج لولا الحكمة من سكان البندر ، وأصدر الجنرال ديزيه لمناسبة هذه الحادثة أمراً مشدداً بقمع كل نهب يقع من الجنود ، وإحالة كل من يثبت عليه أنه اغتصب شيئاً من الأهالى على مجلس عسكرى لمحاكمته طبقاً للقوانين العسكرية

ولم تكن حملة الجنرال ديزيه فى بحر يوسف على اتصال بالسفن الفرنسية التى بقيت فى النيل ، فقد انقطعت المواصلات بينهما منذ نزل الفرنسيون بسفنهم من ديروط ، ولم تتصل إلا بعد أن استقرت الحملة فى اللاهون حيث شرع الجنرال ديزيه فى إيجاد الصلة بالنيل ليتمكن من إرسال الجرحى والمرضى إلى القاهرة ، ومن تلقى المدد والمؤن والذخائر ، وليستطع الاتصال بالقوات الفرنسية فى بنى سويف والمنيا

وكان نابليون شديد الرغبة فى أن يتعقب ديزيه قوات الأهالى والمماليك للقضاء عليها ، وقد حمل ياوره ديروك Duroc أمره الى ديزيه بأن يهاجم مراد بك ويقضى على جيشه قبل نهاية الفيضان ، لكن ثورة القاهرة التى نشبت فى ٢١ أكتوبر حالت دون سفر ديروك ، وفى خلال ذلك وصلت رسالة ديزيه المؤرخة ٢٠ اكتوبر ، فأدرك نابليون مبلغ ما عاناه الجنود الفرنسيون من المتاعب والمشاق وحاجتهم الى الراحة ، فأرسل اليه يطلب منه اختيار موقع صالح ليعسكر فيه الجنود ، وكلفه إخضاع مديريات بنى سويف والمنيا والفيوم

وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة ، لأن المماليك والأهالى قد رابطوا فى الصحراء فلا تستطيع القوات الفرنسية أن تحيط بهم ، وكان الاهالى لا ينفكون يناوشون هذه القوات فى اللاهون

فتكت المعارك والأمراض بالجنود الفرنسية فتكا ذريعاً ، فنزل عددهم الى الألفين ، ولم يكن فى استطاعة ديزيه أن يخضع بنى سويف والمنيا والفيوم بهذا العدد لبعد المسافات بين البلاد ، وما غمر الارض من الفيضان ، فلا يسهل أن ينتقل الجنود من بلد إلى بلد ، ولأن الجنود قد أنهكهم التعب ، فاختار مدينة الفيوم ليستقر فيها مع فرقته

## احتلال مدينة الفيوم

### و إخماد الثورة فى القرى المجاورة

انتقلت فرقة الجنرال ديزيه الى مدينة الفيوم فى أواخر اكتوبر سنة ١٧٩٨ طلباً للراحة من عناء المعارك والمناوشات (١) وعسكر الجنود فى حديقة كبيرة شمال

---

(١) كانت مدينة الفيوم كما هى الآن من أمهات مدن القطر ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر خمسة آلاف نسمة ، ويقول كلوت بك إن عدد سكانها فى عصر محمد على بلغ ١٢٠٠٠ واشتهرت بنسج الصوف والقطن والكتان ،

المدينــة ، وأقاموا على بحر يوسف جسراً من المراكب المتلاصقة لانتقال الجنود بين الشاطئين

وأخذ الجنرال ديزيه ينتظر المدد من نابليون ويسـتعد لاستئناف الهجوم على مراد بك ، وشرع يُنَظِّم الادارة فى مديرية الفيوم ويجمع الخيول من القرى ، لان الحملة كانت تنقصها قوة الفرسان ، لـكن مياه الفيضان كانت تعطل حركات الجنود فى هذه المديرية فلقى ديزيه عنتاً شديداً فى تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول من القرى ، وزاد فى متاعبه أن معظم القرى قد أمسك أهلها فلم يبذلوا شيئاً مما كان يطلب منهم ، وأحس ديزيه روح التمرد والعصيان ، فعزم على تجريد حملة عسكرية لاخضاع القرى وإكراهها على تسليم مايفرض عليها ، وقد عزا الفرنسيون هذه الحالة الثورية الى تحريض مراد بك ، وقال الجنرال دونزلو Donzelot فى رسالته الى الجنرال برتييه (١) إنه تحقق أن مراد بك أوفد على كاشف ومعه ١٥٠ من المماليك لتحريض البـلاد على الثورة وتنظيم المقاومة ، وسواء أصحت رواية دنزلو وكان التحريض أو كانت البلاد مستعدة للمقاومة من تلقاء نفسها فمما لا جدال فيـه أن روح الثورة قد سرت فى القرى ، والأقرب الى الواقع أن هذه الروح طبيعية ولولاها لمـا وجد المماليك ذلك العدد الجمّ من الاهالى يدأبون على مناوشة الحملة الفرنسية والـكيد لها

ولما بدأت مياه الفيضان تنحسر عن البلاد وأرْخَتْ عن حركات الجنود اعتزم ديزيه أن يجرد حملة على القرى الثائرة فترك فى مدينة الفيوم كتيبة من الجنود تقوم على حراسة معسكر الفرقة وسار بباقى العسكر يوم ٦ نوفمبر لاخماد حركات الهياج

---

وامتازت بجودة صوفها الابيض وتفوقت به فى صناعة شيلان الصوف البيضاء التى كانت ترسل منها كميات كبيرة الى القاهرة والوجه البحرى ، ويقول المسيو جومار Jomard أحد مهندسى الحملة الفرنسية إن القوافل التى كانت تسير من الفيوم الى القاهرة كانت تحمل معها كل اسبوع ألفى شال مما يصنع فى مدينـة الفيوم .

(١) رسالة دنزلو الى برتييه فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

والثورة ، فأخضع فى طريقه (مطرطاس)[١] و(سيله)[٢] و(سرسنا)[٣]، ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة من أهالى سرسنا فقد تأهبوا للقتال وعلى رأسهم على كاشف ولكنهم لم يجدوا القوة على مقاومة نيران الفرنسيين فانسحبوا من القرية واستولى الفرنسيون عليها وتجمع الاهالى بعيداً عنها على مرمى المدفع وانضم اليهم جماعة من العرب ، فأمر الجنرال ديزيه باطلاق النار عليهم فشتت جمعهم وتبادل الفريقان الضرب وأطلق الاهالى بنادقهم فجاوبهم الفرنسيون بضرب المدافع فانسحبوا وأوغلوا فى الصحراء ونهب الفرنسيون القرية وأضرموا فيها النار[٤] ثم تابعت الحملة سيرها فوصلت تجاه قرية الروضة[٥] وكان الليل قد أقبل فعسكرت الحملة بالقرب من الروبيات[٦]

أذعنت هذه القرى وسلمت الاتاوات المطلوبة منها ولكن الأهالى والمماليك رأوا انشغال الفرنسيين باخضاع هذه القرى فهاجموا مدينة الفيوم يوم ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ مهاجمة شديدة فاضطرت الحملة أن ترجع الى عاصمة المديرية

هجوم الثوار على مدينة الفيوم

وتفصيل هذا الهجوم أن الاهالى من الفلاحين والعرب ثاروا فى القرى وعزموا أن يستولوا على مدينة الفيوم ، ففى ٨ نوفمبر الساعة الثامنة صباحا ظهرت أمام المدينة طلائع الثوار وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبلت جموعهم وهجموا على معسكر الجنود فتأهبت القوة الفرنسية للقتال، وكان قائدها الجنرال روبان Robin مصابا بالرمد فأناب عنه الكولونل هبلر Happler وفى منتصف الساعة الثانية عشرة هجم الثوار على أسوار المدينة تتقدمهم طبول الحرب وعلى رأسهم قواد من المماليك ، وكانت الدوريات الفرنسية تحرس بعض مداخل المدينة فدافعت عنها دفاعاً شديداً ، لكنها انثنت على أعقابها الى الداخل واقتحم الثوار الشوارع يريدون منزل على كاشف وفيه الجنود

(١) و (٣) من بلاد مركز سنورس
(٢) بمركز الفيوم
(٤) رسالة دنزلو الى الجنرال برتييه فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨
(٥) و (٦) بمركز سنورس

الفرنسيون ، وكان عدد المهاجمين كثيراً قدرهم الجنرال ديزيه فى تقريره بثلاثة آلاف مقاتل ، ويقول ريبو (١) « إنهم خمسمائة من المماليك ومعهم فصيلة من فرسان العرب وألفان من الفلاحين » فلما وصلوا الى المنزل تقاذف الرصاص بين الفريقين وكان موقع الفرنسيين منيعاً لان هذا المنزل كان محكم التحصين ، فكان الجنود يطلقون النار من النوافذ ومن فوق الأسطحة وبذلك أصلوا المهاجمين ناراً شديدة ردتهم على أعقابهم فانسحبوا تاركين عدداً كبيراً من القتلى ثم جاءهم المدد فاستأنفوا الهجوم فى الساعة الرابعة بعد الظهر ولكنهم ارتدوا ثانية أمام نار الجنود الفرنسية وأخفق الهجوم وغطيت الشوارع بجثث القتلى والجرحى ، وبلغ عدد القتلى من الأهالى نحو مائتين وكان عدد الجرحى كبيراً ، أما المماليك فانهم لم يخسروا غير أربعة قتلى وعشرة جرحى ، وكانت خسائر الفرنسيين قليلة فانهم لزموا خطة الدفاع وكانوا متحصنين لا مكشوفين نخسروا أربعة قتلى و١٦ جريحاً

يتبين من هذه المقابلة أن الاهالى هم الذين تحملوا معظم الخسائر وكان منهم أكثر الضحايا ، فى حين أن المماليك لم يخسروا إلا عدداً ضئيلا جداً ، وقد ثبت من هذه الواقعة وغيرها أن هؤلاء المماليك كانوا يضنون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم فى ميدان الحرب والقتال (٢)

ولم تكن هذه المقاصد لتخفى على الأهالى فانهم أدركوا أن القوم لا يريدون إلا أن يتخذوهم مطية لقضاء لباناتهم فأسقطوا الثقة فيهم ، وكانت هذه الحالة النفسية من أهم الاسباب التى قضت على نفوذ المماليك وسلطتهم فى البلاد فلم تقم لهم بعد الحملة الفرنسية قائمة

## موقف ديزيه فى الوجه القبلى

رجع ديزيه الى مدينة الفيوم بعد أن أخفق هجوم الثوار عليها ، على أن هذا

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء فى تقرير الجنرال ديزيه عن هذه الواقعة « ان المماليك على جانب عظيم من الحذر والحرص فهم لا يستهدفون للقتل بل يعرضون غيرهم للخطر »

الهجوم كان دليلا على استهانة الثوار بالقوة الفرنسية وتجرئهم عليها ، فأدرك ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهم أسباب الحالة الثورية التى ذاعت فى البلاد ، ورأى أن لا سبيل الى المغامرة فى فتح الوجه القبلى إلا اذا جاءه المدد الكافى للقيام بهذه الحملة الطويلة المدى ، فآثر الانتظار ووضع الحاميات الكافية فى البلاد التى يحتلها لاخضاع وقمع الثورات التى عسى أن تشب فيها ، وكانت المعارك والامراض قد أفرغت من صفوفه فكان لابد له من سد هذا النقص الكبير

كان ديزيه يلح قبل هجوم الثوار على الفيوم فى طلب المدد من نابليون، فكلف نابليون الجنرال بليار الذى كان فى ذلك الحين قومندانا للجيزة أن يسير بقوته الى الفيوم وكان الجنرال أندريوسى قد عاد من مهمته بالمنزلة فجعله قومندانا للجيزة

وسار بليار من الجيزة بالقوة التى كانت معه فوصل يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ الى (الزاوية)(١) وهناك وصلته أنباء انتصار فرقة الجنرال ديزيه على القرى الثائرة فستراح فى الزاوية ينتظر تعليمات الجنرال ديزيه، فأمره أن يبقى فى بنى سويف ليعاون الجنرال زايونشك فى مهمته ، ذلك أن ديزيه قد تلقى من بنى سويف أنباء تدل على أن فيها استعداداً لثورة كالثورة التى شبت فى الفيوم، فرأى من الحكمة أن يبقى الجنرال بليار فى بنى سويف لتوطيد سلطة الفرنسيين بها ، على أن مركزهم فى بنى سويف كان أقوى منه فى الفيوم لوجود السفن الفرنسية الحربية فى النيل

وكان ديزيه لا يفتأ يطلب المدد و مدفعية والذخائر والمهمات من نابليون ، وقد ألح فى طلب قوة كبيرة من الفرسان ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتغلب على قوات المقاومة فى الوجه القبلى ، وبدونها لا يزال يستطيع الاهلى والمماليك يفلتون من الجيش الفرنسى ، فلا يستطيع اللحوق بهم ولا تعقبهم فى الصحراء ، وتبقى قوتهم تتحين الفرص لمناوشة الفرنسيين و إرهاقهم وتكبيدهم ما يستطيعون من الخسائر، وكان إخضاع الصعيد من أهم المقاصد التى وجه اليها نابليون اهتمامه ، وبخاصة بعد أن شحت

---

(١) شمال بنى سويف

الغلال في القاهرة والوجه البحرى ، فان انقطاع المواصلات مع الصعيد منع ورود الغلال وكان سبباً فى ارتفاع أسعارها ارتفاعاً أدى الى تذمر الناس وهياج الخواطر فى مصر

كتب المسيو (بوسليج) مدير الشؤون المالية فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨ الى نابليون رسالة عن أزمة القمح فى القاهرة قال فيها : « من الضرورى إرسال المراكب إلى الصعيد لجلب القمح ، وأقل ما فى هذه الطريقة من الفوائد أنها تهدىء خواطر الجمهور ، لأن من الواجب أن لا تستهدف مدينة كبيرة مثل القاهرة لأزمة الأقوات وأن لا ترتفع فيها أسعار القمح ليستطيع الفقراء أن يعيشوا ويجدوا قوتهم » ، وكتب اليه المسيو (سوسى) مدير مهمات الجيش فى ١٤ نوفمبر يقترح جلب الغلال من مديرية بنى سويف الى أن يصل القمح من المديريات الأخرى فى الصعيد لأن حالة الهياج فيها قد تؤخر كثيراً ورود الغلال منها ، من أجل ذلك عنى نابليون بارسال المدد الى الجنرال ديزيه ، وعين الجنرال بليار قومنداناً لمديرية بنى سويف بدلا من الجنرال زايونشك الذى مرض وعاد الى القاهرة ، وأمر باتخاذ نقطة بنى سويف نقطة ارتكاز للجيش الفرنسى ، وأنشأ مستشفى للجنود بها وتحصينها لتكون بمنجاة من هجمات الاهالى والعرب (١)

اعتزم الجنرال ديزيه بعد إخماد ثورة الفيوم أن يعود الى بنى سويف والمنيا لقمع حركات الهياج فيها وجباية الضرائب من البلاد ، فانتقل بفرقته الى بنى سويف ووصل اليها فى ٢٢ نوفمبر ، حيث ضم اليه قوة الجنرال بليار ، وغادر مديرية الفيوم دون أن يصنع شيئاً فيها من جهة إدارتها أوتنظيمها ، واعترف فى رسالته لنابليون قبل أن يغادر الفيوم أنه لم ينشىء فيها « ديوانا » طبقا للتعليمات التى أصدرها نابليون لقواد المديريات لانه لم يترك فيها القوة الفرنسية الكافية لمراقبة هذا الديوان ، وأنه

---

(١) أمر نابليون فى ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨

ترك الحالة فيها كما كانت[١] وأنفذ اليها نابليون الادجودان جنرال بوييه Boyer ومعه كتيبة من الجنود لمراقبة الاحوال فى مديرية الفيوم وتنظيمها ، وجباية الخراج فيها

## تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلى

بقيت الفرقة فى بنى سويف نحو أربعة أسابيع فى انتظار المدد وإتمام الاستعداد لاستئناف الحملة على الصعيد ، وقد اضطر الجنرال ديزيه أن يقوم فى خلال هذه المدة[٢] إلى القاهرة ليتعجل النجدة ، وكان نابليون فى ذلك الحين منهمكا فى إعداد المعدات للحملة على سوريا[٣] ، على أنه قد أمده بقوة من ١٢٠٠ من الفرسان بقيادة الجنرال دافو Davout [٤] وبضع مئات من المشاة وزوده بالمدافع والذخائر وست سفن حربية منها السفينة (إيتاليا) سفينة نابليون الخاصة التى كان يركبها فى النيل

عاد الجنرال ديزيه من القاهرة مزوداً بهذا المدد وعازماً على أن يكتسح الصعيد بقوته ، فوصل الى بنى سويف يوم ٩ ديسمبر على ظهر السفينة « ايتاليا » ، وفى اليوم التالى وصلت قوة الفرسان بطريق البر ثم وصلت السفن التى تحمل مهمات الحملة وذخائرها ، وفى يوم ١٥ ديسمبر كانت الحملة على تمام الاستعداد للزحف ، فكان عددها أربعة آلاف مقاتل مزودين بالمدافع والذخائر ومعهم أسطول من السفن الحربية المسلحة بالمدافع الحديثة الطراز، وكان القائد العام لهذه الحملة الجنرال ديزيه ، ومن خيرة قوادها الجنرال فريان Friant والجنرال بليار Belliard والجنرال دافو Davout قائد الفرسان والكولونل لا تورنرى Latournerie قومندان المدفعية والادجودان جنرال دنزلو Donzelot والكولونل راباس Rabasse

---

(١) رسالة ديزيه الى نابليون فى ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٢) كان سفره يوم أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ وقد أناب عنه فى قيادة الفرقة الجنرال بليار

(٣) انظر الفصل الثانى من الجزء الثانى

(٤) الذى صار فيما بعد مارشالا واشتهر فى حروب الامبراطورية النابليونية

## سير الحملة من بنى سويف الى جرجا

تحركت الحملة من بنى سويف براً على الشاطىء الأيسر للنيل واتخذت المراكب سبيلها فى النهر حذاء الحملة تحمل الاقوات والذخائر والمهمات

وقد كان توغل الجنود فى الوجه القبلى محفوفا بالمتاعب والاخطار لأن الجيش كلما سار جنوبا ابتعد عن القاهرة التى كانت مركز القوة الفرنسيه وتغلغل فى بلاد مجهولة منه و بين أقوام يكرهونه و يتربصون به ريب المنون

قال الجنرال دافو فى مذكراته عن الحملة على الصعيد « اننا نستهدف لأخطار كثيرة كلما أوغلنا فى بلاد يحمل جميع أهلها السلاح »

سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن تركت فيها قوة من مائتى جندى و بعض السفن المسلحة لحراسة المواصلات مع القاهرة ووصلت ليلا الى ( البراقه ) على البر الغربى للنيل

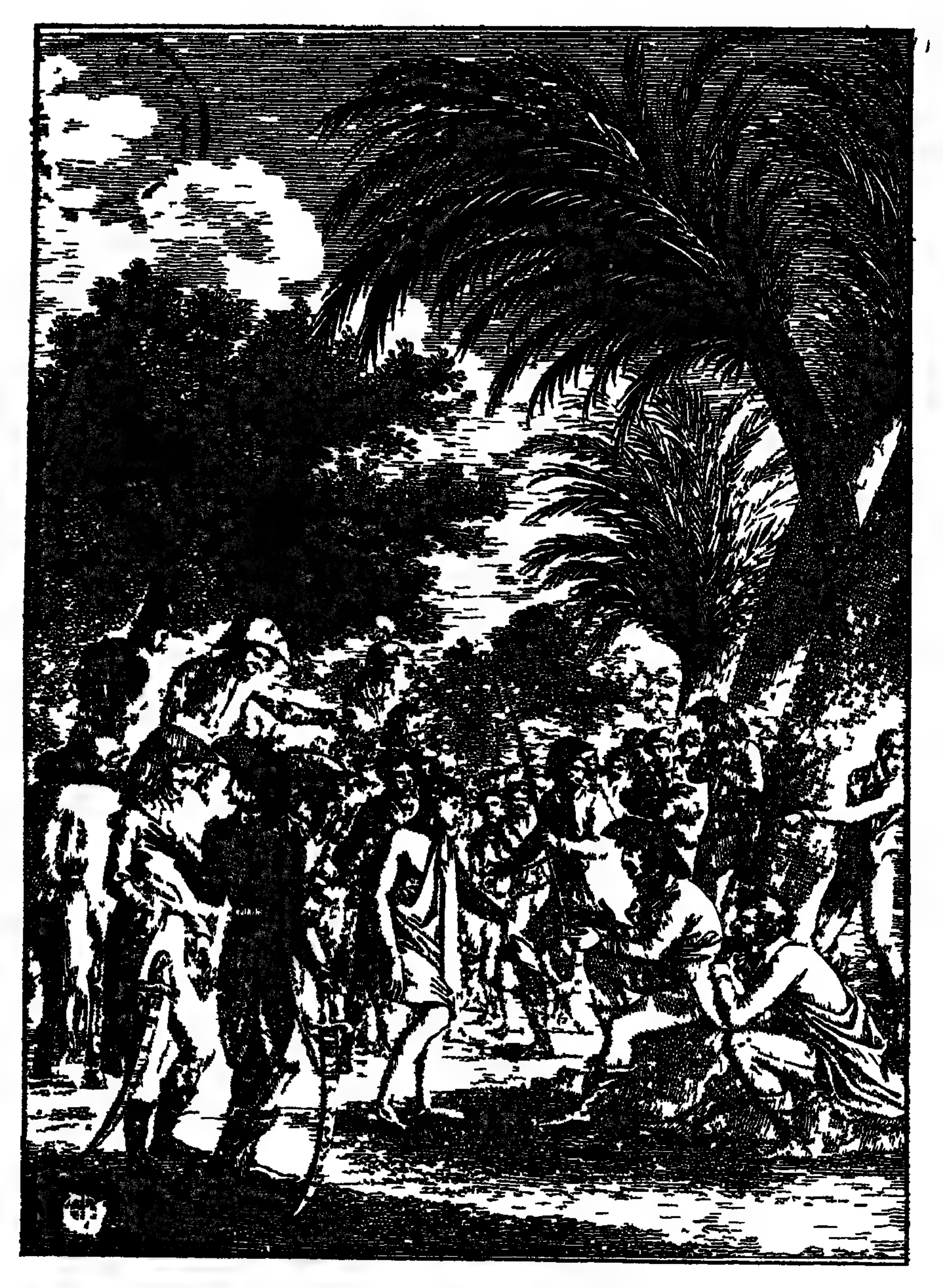
وفى الصباح استأنفت السير فبلغت ( ببا ) وسارت منها قاصدة (الفشن) وقبل أن تصل اليها استراحت لتنتظر قدوم المدفعيه وكانت طلائع الفرقه ترابط على مقربة من قرية (الفقاعى)(١)

## حادثة (الفقاعى)

وقد حدث بقرب ( الفقاعى) حادث دهش له الجنرال ديزيه وكبار الضباط الفرنسيين ، ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقيه الجيش تقدم أحد غلمان القرية وتغفل بعض جنود الدراجون فاستولى على بنادقهم ، فرآه جندى آخر وتعقبه وهو يعدو حاملا بندقية الى أن أدركه وضربه بالسيف على ذراعه وساقه جريحا الى الجنرال ديزيه للاقتصاص منه ، فسأله الجنرال عما دعاه الى ارتكاب هذا العمل ، فأجاب الغلام رابط الجأش ناظراً الى السماء : ان الله القادر على كل شىء قد أمره

---

(١) من بلاد مركز ببا بالبر الغربى للنيل



حدثة المقدعى ( كما رسمها فى حينها المسيو فيفان ديبون )
وترى الجنرال ديزيه جالساً تحت الشجرة يستجوب غلام القرية لمحاكمته
والغلام يجيبه بشجاعة ورباطة جأش

بذلك ، فسأله الجنرال عمن حرضه على فعلته ، فقال لم يحرضني أحد وانما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له في هدو وثبات: دونك رأسي فاقطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته واكتفى بأن يجلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطا ، ولم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة ، وقد قص الجنرال بليار حكايته في يومياته قائلا إن هذا الغلام إذا عني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروى المسيو فيفان دينون حكاية هذا الغلام في رحلته ، وهي تتفق في جوهرها مع رواية الجنرال بليار وان اختلفت في بعض التفاصيل ، غير أنه قال ان الجنرال ديزيه عفى عن الغلام ولم يأمر بعقابه ، ورواية الجنرال بليار في يومياته أدعى إلى الثقة لانها قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التي وردت في رواية المسيو دينون ، وقد رسم هذه الحادثة في كتابه (١) ونقلنا عنه هذا الرسم ( ص ٣٨٧ )

وصل الجيش الى (الفشن) يوم ١٧ ديسمبر ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطىء بحر يوسف يتعقب المماليك وحلفاءهم الاهالي ، لكن مراد بك استطاع أن يتراجع قبل أن يدركه الجيش الفرنسي ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة أيام يتنقل من قرية الى قرية دون أن يفوز منه بطائل ، فعاد الى شاطىء النيل ووصل الى المنيا يوم ٢٠ ديسمبر وكان المماليك قد غادروها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين بها سفنهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الاخرى بها بعض المدافع القديمة و بعض الاقوات والذخائر فغنمها الفرنسيون

ثم سار الجيش من المنيا مبتعداً قليلا عن النيل فمر ببني أحمد ، فريدة ، فكوم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل الى ( ساقية موسى ) ثم إلى (ملوى) وكانت كما هي الآن من أهم مدن الوجه القبلي وصفها الجنرال بليار في يومياته بأنها مدينة كبيرة وأنها أجمل ما رآه من المدن في رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة و بيوت منتظمة

---

(١) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت للمسيو فيفان دينون

وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية مدافع كان الاهالى يقذفون منها الجلل على المراكب الفرنسية حيث شرعوا فى تحصين المدينة و إقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع واستمر الجيش فى زحفه فمر بطوخ ، فقانوف ، فديروط ، فالقوصية

## احتلال أسيوط

وفى صباح يوم ٢٤ دسمبر قام الجيش من القوصية يريد أسيوط فاحتلها يوم ٢٥ ديسمبرسنة ١٧٩٨

كانت أسيوط ، ولم تزل، أهم مدن الوجه القبلى ، بها القصور المشيدة ، والأبنية الجميلة والقيساريات والمتاجر الواسعة ، وهى عاصمة مديرية أسيوط التى كان عدد سكانها فى ذلك الحين نحو مائتى الف نسمة [١] ، وكانت تبعد عن شاطىء النيل بنحو ١٢٠٠ متر وميناؤها (الحمراء) متصلة بها بجسر يعلو مياه الفيضان،وكن فى غربيها تلول عالية تقع بينها و بين الجبل وهى آثار مبان قديمة وعليها بيوت المماليك ، فكانت تلك البيوت مرتفعة عن المدينة تشرف عليها ، لذلك اختارها الفرنسيون لاقامة جنودهم واتخذها الجنرال ديزيه معسكراً للجيش ، وكان فى الجهة البحرية للمدينة حدائق ذات بهجة ، وقد اشتهرت أسيوط بنسيج أقمشة الكتان ومصنوعات الخشب والعاج والأبنوس والخرتيت والفخار وصناعة الجلد وعصير السيرج وتصدير النطرون ، وكانت مركزاً لتجارة السودان والواحات و بلاد المغرب، يرد اليها التبر و ريش النعام وسن الفيل والتمر الهندى والجلود وملح الصودا ، وتصل اليها فى كل سنة قفلة من دارفور على مسيرة أربعين يوما تشتمل على نحو الف وخمسمائة من الابل بأحمالها من بضائع تلك الجهات فيبيعونها ويستبدلونها من البضائع المصرية فيحصل بذلك رواج عظيم لأسيوط ، هذه نظرة عامة إلى المدينة وقت أن احتلها الجيش الفرنسى.

انسحب المماليك من أسيوط بعد أن أغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا

---

(١) الآن ٠٠٠ ر٩٨١ نسمة.

ست سفن أعجلهم عنها ما كانوا فيه فلم يأخذوها ولم يغرقوها فاستولى الفرنسيون عليها وعلى مافيها من الأقوات والذخائر، ثم سار الجيش من أسيوط يوم ٢٦ دسمبر وانقسم الى فرقتين، فرقة بقيادة الجنرال فريان أخذت طريق سفح الجبل ، والفرقة الأخرى المؤلفة من الفرسان ومن كتيبة الجنرال بليار أوغلت فى السهل ثم التقتا فى (الغنايم) فاحتلتها ونهبها الجنود (١)

غادر الجيش (الغنايم) ووصل فى زحفه الى (فزارة) وعسكر فى غابة على مقربة منها ، وفى يوم ٢٨ ديسمبر وصل الى (بلصفورة) وفى ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند (المنشاة) ثم مر بالخارقة، فالنويرات، فطوخ العسيرات، فأولاد حمزة إلى أن وصل إلى جرجا فى اليوم نفسه فعسكر حول المدينة وكان أسطول مراد بك قد غادرها قبل أن يصل الفرنسيون

وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من بني سويف إلى جرجا فى ثلاثة عشر يوماً ( من ١٦ الى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ) كان فى خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد الى بلد دون أن ينال منه منالا

حط الجيش الفرنسى أثقاله بجرجا ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التى

---

(١) قال الجنرال بليار فى يومياته عن الغنائم

« انها قرية كبيرة جداً تحيط بها غابة من النخيل وهى على مسيرة خمس دقائق من الترعة السوهاجية ، وقد نهبها الجنود نهبا تاماً ودافعهم الأهالى عن أنفسهم وقتلوا بعض الجنود ، وقد أرسلت قوة لاعادة النظام فى القرية فأطبق عليها الفلاحون واشتبك الفريقان فقتل واحد من الاهالى وجرح اثنان من الجنود »

وقال بليار عن قرى الوجه القبلى بمقارنتها بالوجه البحرى

« يظهر أن بلاد الوجه القبلى أكثر تنظيما من بلاد الوجه البحرى فالطرق معتنى بها وكذلك الترع ، وفى مفاوز الطرق أسبلة على مسافات معينة يقوم عليها بعض الأهالى يسقون الناس من مائها ، والقرى من المنيا الى ما بعد ملوى لاتكتنفها المزابل والقاذورات بمقدار مارأينا حول غيرها »

أنهكت قواهم ولينتظر وصول المراكب التى بها ذخائره ومهماته ومؤونته ، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه واختلاف الريح ، ومرض من الجنود نحو ٢٠٠ جندى وأمر الجنرال ديزيه بترحيل من لا يرجى شفاؤهم إلى القاهرة لكيلا يكونوا عالة على الجيش

ورأى ديزيه أن لا يغامر بجيشه فيما وراء جرجا لأنه أصبح بعيداً عن القاهرة ووجد فى جرجا مدينة كبيرة فى وسط مديرية خصبة تصلح لتموين الجيش فرأى من الحكمة أن يستقر بها حتى يصل أسطوله ويتأهب لاستئناف الإيغال فى الصعيد(١)

## الثورة فيما بين

## أسيوط وجرجا

كان ديزيه يتوقع قدوم أسطوله الى جرجا بعد أيام معدودات ، ولكنه تأخر فى الوصول، فاضطر أن يبقى بها مدة ثلاثة أسابيع دون أن يزحف أو يعمل عملا ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة فى البلاد التى لم يفتحها ، وسريان روح الثورة فى المدن التي فتحها ، فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة

شبت الثورة فى نحو أربعين بلداً وانضوى إلى علمها نحو سبعة آلاف من الاهالى، فانتهز مراد بك هذه الفرصة ليلم شعثه ويضم اليه الأعوان والأنصار من أهل البلاد، وأرسل يستنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجده وأنفذ رسله الى النوبة يستنفرون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وأرسل الى حسن بك الجداوى الذى كان مقيما فى اسنا وكان بينهما من قبل عداء قديم يعرض عليه الصلح ليتحدا على محاربة الفرنسيين ،

---

(١) كانت جرجا مع أنها أصغر من أسيوط تعتبر فى ذلك العصر عاصمة الصعيد لأنها قاعدة مديرية جرجا أكبر مديريات الوجه القبلى وكانت الغلال فيها وافرة والأسعار منخفضة وموقعها فى منتصف المسافة بين القاهرة واسوان يجعلها مركزاً تجاريا على جانب كبير من الأهمية

فلبى الجداوى دعوة الصلح وانضم الى خصمه القديم لمحاربة العدو الجديد

واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى ، ولكنهم عاجلوها قبل أن تجتمع قواها وتتحد عناصرها وغلبوا قواتها المبعثرة معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية و بنادقهم الحديثة ، فكانت المعارك التى نشبت بينهم و بين الاهالى أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بمجموع من الاهالى محرومين من النظام غير مزودين الا بأسلحة قديمة

## معركة سوهاج

### ٣ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه الجنرال دافو قمع هذه الثورة ، فقام من جرجا على رأس فرسانه ووصل الى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قدرهم الجنرال دافو بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزرهم سبعمائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ولكن الاهالى على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة فأصلتهم فرقة الفرسان ناراً حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال ديزيه ، وعاد الجنرال دافو الى جرجا

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الاهالى ، وكان طبيعيا أن تفضى الى إرهاب البلاد الأخرى وإخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تثنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين رجالا وركبانا من مديريات المنيا وبنى سويف والفيوم ، فكاف ديزيه الجنرال دافو التوجه ليهاجم هذه الجموع وليطمئن على الأسطول الفرنسى الذى انقطعت أخباره وتأخر وصوله الى جرجا ، وكان مركز هذا الأسطول محفوفاً بالمخاطر لأنه كان يتسحب فى النيل بين بلاد ثائرة وجموع هائجة

## معركة طهطا

### ٨ يناير سنة ١٧٩٩

سار (دافو) على رأس فرقة الفرسان فوصل تجاه طهطا يوم ٨ يناير ، فوجد عدداً من الاهالى يبلغون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين فاقترب منهم جيش الجنرال دافو يتحداهم للقتال ، فتقهقروا وأخلوا له الطريق ، فترجل الجنود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ثم استأنفوا سيرهم فتبعهم فرسان الاهالى عن بعد ، وأخذت جموع الثوار تخرج من القرى مشاة وركبانا وتنضم اليهم فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفى فارس كما يقدرهم الجنرال دافو ، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسى ، فأمر الجنرال دافو باطلاق النار عليهم ففتكت بهم فتكا ذريعاً وخسر الأهالى عدداً كبيراً من القتلى قدرهم الضابط راباس Rabasse [١] ١٥٠ قتيلا من الفرسان وثمانمائة من المشاة [٢] وانسحبوا من ميدان القتال وانتقم الفرنسيون انتقاما فظيعاً من القرى التى أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها [٣]

تابع الجنرال دافو سيره فوصل بفرسانه الى أسيوط يوم ١١ يناير ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة ولم تكن وصلت إلا صباح ذلك اليوم ثم قفل راجعاً إلى جرجا

وصل الاسطول إلى جرجا يوم ١٨ يناير حاملا الذخائر والاقوات لفرقة الجنرال

---

(١) رئيس أركان حرب الجنرال دافو

(٢) قدر نابليون فى رسالته الى الديركتوار خسائر المصريين فى معركتى سوهاج وطهطا بألفين من القتلى

(٣) رسالة دافو الى نابليون فى ١٢ يناير سنة ١٧٩٩

ديزيه ومدداً من ١٥٠ جندى فاعتزم ديزيه أن يسير بجنوده جنوبا ليشتبك مع مراد بك فى معركة فاصلة

## معركة سمهود

### ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مراد بك بانضمام الاهالى الثائرين اليه وقدوم عرب جدة وينبع الذين أتو من سواحل البحر الاحمر لنجدته ، وانضم اليه كذلك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى من البكوات المماليك ذوى النفوذ والعصبية

كان مع مراد بك من المقاتلة ١٥٠٠ مملوك والباقون من الاهالى الذين انضموا اليه من جميع البلاد ، ويقدر نابليون عددهم فى مذكراته سبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة،وألفين من عرب ينبع وجده بقيادة الشريف حسن، فجيش مراد بك كان اذن مؤلفاً من نحو ١٢٫٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لا يستهان بها لوكان لها قيادة صالحة مدبرة

علم ديزيه أن هذه القوة مرابطة فى سمهود(١) الواقعة على ترعة سحورة فانتقل اليها بجيشه وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة ، وهناك التقى بجيش مراد بك فى صبيحه يوم ٢٢ يناير ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استعد لها الجنرال ديزيه استعداداً عظيما ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب المشاة وجعل منهم مربعين تحميهما المدافع وتتألف منهما ميمنة الجيش وميسرته ، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال فريان والميسرة بقيادة الجنرال بليار (٢) وفرقة الفرسان فى القلب

---

(١) بلدة بمركز فرشوط بمديرية قنا واقعه بقرب الجبل الغربى

(٢) اختلفت رواية المراجع الفرنسية فى قائدى الميمنة والميسرة ، على اننا اعتمدنا على التقرير الذى كتبه الجنرال ديزيه عن المعركة وبعث به الى نابليون وفيه يقول انه جعل على الميمنة الجنرال فريان وعلى الميسرة الجنرال بليار ، وكذلك يقول نابليون فى رسالته الى الديركتوار عن واقعة سمهود



معركة سمهود ( ٢٢ يناير سنه ١٧٩٩ ) كما رسمها المسيو فيفان دينون وكان من شهودها

وترى فى الصورة الكتائب الثلاث التى يتألف منها الجيش الفرنسى تهاجم القريه على شكل مربعات تحميها المدافع من زواياها ، فالجناح الايمن بقيادة الجنرال فريان والجناح الأيسر بقيادة الجنرال لميار و بينهما كتيبه الفرسان بقيادة الجنرال دافو ، وجنود مراد بك يحاولون الاحاطة بالمربعات فتصدهم نيران المدافع الفرنسيه

على شكل مربع بقيادة الجنرال دافو، فهجمت المربعات الثلاثة تحميها المدافع من زواياها

بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عدداً ولكن ينقصها النظام والمدفعية ومقدرة القيادة ، فلا غرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بفلول جيشه جنوبا قاصداً فرشوط ، وترى فى الرسم ص ٢٩٥ صورة معركة سمهود كما رسمها المسيو فيفان دينون الذى شاهدها وتجد فى الصورة المربعات الثلاثة التى تتألف منها القوات الفرنسية تهاجم قرية سمهود حيث كان يرابط جيش مراد بك ، وهذه الصورة تمثل نظام جيش نابليون وطريقة هجومه فى معارك مصر

## الوصول إلى أسوان

### أول فبراير سنة ١٧٩٩

لا تقل واقعة سمهود شأنا عن معركة سدمنت ومعركة الاهرام فى كونها أكسبت الجيش الفرنسى النصر فى ميدان القتال وفتحت أمامه الطريق لاحتلال البلاد ، فاستطاع الجيش الفرنسى بعد هذه المعركة أن يستأنف زحفه جنوبا ، وأخذ يطارد جيش مراد بك حتى وصل الى فرشوط ، وهناك اضطر الى الوقوف قليلا حتى يستريح الجنود الذين أجهدهم السير ثم غادر (فرشوط) متابعاً سيره حتى وصل إلى (هو) ثم إلى (الوقف) وبلغ (دندره) فى ٢٤ يناير ومر قريباً من أطلالها وكان المسيو فيفان دينون (الذى نقلنا عنه بعض رسومه) يرافق الحملة فشاهد مع لفيف من ضباط الجيش آثار دندره القديمة، فبهرتهم عظمتها ووقفوا مبهوتين أمام جمالها وجلالها ، وفى ذلك يقول الكولونل لا تورنرى Latournerie قومندان المدفعية فى تلك الحملة بعد أن شاهد معبد دندره « من يوم ان قدمت الى مصر وأنا أعيش مريضا حزينا ، ولكن دندره قد شفتنى من سقامى ، والآن لا آسف على شىء وأنا فى مصر ، ومهما لقيت فيها منذ اليوم فان هذه المشاهد ترد إلىّ الحياة والسرور »

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقرى الواقعة على البر الغربى للنيل فلم تلق بها مقاومة

وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير فى (دنفيق) ثم وصلت إلى (طيبة) ذات الآثار الخالدة، التى أشاد بذكرها هومير وهيرودوت، وحدث عن جلالها سترابون Strabon وديودور الصقلى، وتغنى بعظمتها الشعراء والمؤرخون على تعاقب الأجيال والعصور، فشاهد ديزيه وأركان حربه والمسيو فيفان دينون آثار الفراعنة ومقابر الملوك الماثلة فيها دلائل عزمهم وعظمتهم والنيل ينساب وسط تلك الآثار الناطقة بما كان لبلادنا فى الزمن السالف من مدنية عظيمة ومجد أثيل

غادر الجيش طيبة وأسرع يتعقب المماليك، فوصل إلى (أرمنت) يوم ٢٦ يناير وغادرها فى اليوم التالى محاذيا النيل ووصل يوم ٢٧ يناير الى إسنا [١] وكان مراد بك قد غادرها قبل وصول الجيش الفرنسى فترك فيها ديزيه الجنرال فريان وكتيبة من الجنود لاخضاع البلاد وسار جنوبا حتى وصل الى (ادفو) يوم ٢٩ يناير ثم وصل يوم أول فبراير [٢] تجاه اسوان، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا الى البر الشرقى حيث توجد اسوان فاحتلوها واستولوا فيها على مراكب المماليك، وبذلك تم للجيش الفرنسى احتلال الصعيد بأكمله

لكن فلول جيش مراد بك أفلتت من تطويق الجيش وانسحبت الى ما وراء

---

(١) كانت اسنا من أهم مدن الصعيد تقصد إليها القوافل القادمة من السودان ودارفور وسنار وتتخذها سوقا لها ومحطة تنزل بها فاكتسبت بذلك مكانة كبيرة، وكان بها أكبر سوق للجمال، وكانت (ولم تزل) مركزا صناعيا لنسيج الصوف والقطن وصنع الملاآت وعصير الزيت وعمل الفخار، وكانت بسبب بعدها عن العاصمة كالملجأ للمماليك المغضوب عليهم من ولاة الأمور بالقاهرة وسكن بها وقتئذ حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن وصالح بك خصوم مراد بك القدماء، وكان بأقصى المدينة حديقة جميلة لحسن بك الجداوى اتخذها الفرنسيون مقرا لاجتماعاتهم كما اتخذوا منزل حسن بك الجداوى مقرا لاقامتهم

(٢) اعتمدنا فى بيان هذا التاريخ على تقرير الجنرال ديزيه عن حركات الجيش الفرنسى فى الصعيد

الشلال وعسكرت طلائعه على مسيرة أربعة فراسخ من اسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق الفرنسيين على سلطانهم فى الوجه القبلى فاعتزم الجنرال بليار مطاردتهم فى بلاد النوبة واقامة الحصون فى اسوان

لم يطل ديزيه مكثه فى اسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركا بها الجنرال بليار ووصل الى اسنا يوم ٩ فبراير وعزم على اتخاذها مؤقتا معسكراً لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلى

لم يكد الجنرال ديزيه يستقر فى اسنا حتى عاد جماعة من المماليك بقيادة عثمان بك حسن واستقروا على شاطىء النيل الشرقى فى منتصف المسافة بين اسوان واسنا ، وكاد وجودهم يهدد مواصلات الجيش الفرنسى ، فأرسل الجنرال بليار كتيبة من جنوده لمطاردتهم ، فاستقرت هذه الكتيبة فى ( دراو [١] ) بالبر الشرقى للنيل شمال اسوان ثم عادت الى اسوان بعد أن ابتعد رجال عثمان بك عن شاطىء النيل

كانت مهمة الجنرال بليار فى اسوان أن يمنع عودة المماليك من وراء الشلال ويضطرهم إلى البقاء فى بلاد النوبة حيث يتسرب اليأس إلى نفوسهم فى تلك البلاد النائية ، فظل بليار يرقب حركاتهم ، وبقيت فلول المماليك فى حالة ضنك شديد مشتتين بالقرب من النيل قريباً من الدر وابريم [٢] وعلى بعد نحو مائتى كيلومتر من جنوب اسوان

على أن طلائع المماليك أخذت تناوش المخافر الفرنسية على مقربة من اسوان فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده وتعقبهم حتى انسحبوا جنوب دهميت [٣] وأوغلوا ثانية فى بلاد النوبة ، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع المماليك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزا لمناوشة الفرنسيين،

---

(١) من بلاد مركز اسوان
(٢) من بلاد مركز الدر الآن بمديرية اسوان
(٣) بمركز اسوان

فاقتلع مزروعاتها ونهب مافيها من الماشية، واعتزم أيضاً احتلال جزيرة (أنس الوجود) والجزر الواقعة فى شلال اسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى

## المقاومة فى جزيرة فيله

فى ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار الى جزيرة فيله (أنس الوجود) فى كتيبة من مائتى جندى ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطىء الايمن للنيل ، ولما صارت تجاه جزيرة فيله أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إليها على مراكب الاهالى فلم يقبل أحد منهم أن يسلم فى مركبه ، وعاد بليار أدراجه الى اسوان ، وبعد بضعة أيام استأنف تحقيق عزمه فلقى مقاومة شديدة من النوبيين فى جزيرة فيله ( أنس الوجود ) وجزيرة الحساه ، قال الجنرال بليار فى يومياته يصف هذه المقاومة :

« حمل الاهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ويحثون التراب فى وجوهنا، أما الرجل فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر وكنت قد أحضرت معى مدفعاً لاخضاعهم فدعوتهم الى الصلح والسلام، فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاماً وأنهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك ، واستأنفوا اطلاق الرصاص ، فجرح ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مراكب نصل بها الى الجزيرة وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخل طوفاً ينقل الجنود ولكن المياه غمرته ، فاضطررنا أن نرجىء احتلال الجزيرة و بقيت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطىء النيل تجاه الجزيرة ، واستجلبت من اسوان بعض ألواح الخشب للعبور عليها

« وفى اليوم التالى وصلنا الى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص ولكن لم يصب أحد من الجنود ثم فروا تاركين مواشيهم ومؤونتهم واحتللنا الجزيرة

« وفى ٢١ فبراير احتللنا الجزر الاخرى المجاورة لجزيرة فيله والتى اشترك أهلها فى الثورة ، ثم عاد الجنود و بقيت فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الاهالى من التمر، وكانت نتيجة هذين اليومين أن قتل من الاهالى ثلاثون رجلا واستولينا على ٢٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشىء كثير من التمر واللحم والمؤونة »

تم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة فى شلال اسوان واطمأنوا على حدود مصر ، وأخذ الجنرال بليار يحصن اسوان وعزم على اقامة قلعة فيها

## تجدد القتال بين جرجا واسوان

كانت خطة الفرنسيين الحربيـة اتخاذ اسوان موقعا حصينا لقطع الطريق على المماليك اذا هموا بالخروج من مكنهم فى بلاد النوبة ومعاودة الهجوم على الجيش الفرنسى ، لـكن المماليك أحبطوا هذه الخطة باجتيازهم الصحراء غربا ومواصلة السير شمالا الى أن صاروا حذاء جرجا وأسيوط،واعتزموا الهجوم على الجيش الفرنسى هناك وتهديد المواصلات بين كتائب الجيش فيما بين أسيوط واسوان ، كما أن بعض فلول المماليك بقيادة حسن بك الجداوى ومحمد بك الألفى بعد أن فروا أمام حيش ديزيه لم يواصلوا السـير الى ما وراء الشلال وانفصـلوا فى الطريق ضاربين فى الصحراء يترقبون الفرص ليعودوا الى شاطىء النيل

علم الجنرال بليار بهذه الحركة فاعتزم أن ينعقب المماليـك فى البر الغربى، فأخلى اسوان ليلة ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وسار بجنوده بالبر الغربى للنيل يتعقب مراد بك ولـكنه لم يدركه لان المماليك كانوا أسرع منه فى السير

وصل بليار الى اسنا يوم ٢٨ فبراير ، وهناك تلقى تعليمات ديزيه لمواجهة هـذه الحركة الهجومية التى قام بها المماليـك ، وفيم كان ديزيه فى اسنا علم ان جماعات من عرب الحجاز جاؤا لنجـدة المصريين وأنهم ينوون احتـلال قنا لقطع مواصلات الجيش الفرنسى ، وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى ورحالهما تحركوا بالبر الشرقى قبالة (ادفو)، فعهد الى الجنرال فريان احتلال قنا للامتناع بها ومنع اتصال العرب بالنيل وجعله قومنـدانا لمديرية جرجا ، وأنفذ كذلك الجنرال دافو لمطاردة قوات حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن قبالة ادفو

## معركة الردسية

### ١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بالبر الشرقي قاصداً مهاجمة جموع الاهالى والمماليك الذين يقودهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن فالتقى بهم يوم ١١ فبراير بالردسية (١) واصطدم الفريقان وكلاهما من الفرسان فى معركة شديدة دامت ثلاث ساعات اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية استعمل فيها السلاح الأبيض فخسر الفرنسيون خسارة جسيمة وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلا من بينهم الضابط فونتت Fontette وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ كما قدرهم الادجودان جنرال دنزلو ،وكانت خسائر المماليك والاهالى لا تقل عن خسارة الفرنسيين وكان من جرحاهم عثمان بك حسن ، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك الى الصحراء فى طريق القصير واستطاع حسن بك الجداوى أن ينقذ رحاله ومؤونته من الوقوع فى قبضة الفرنسيين فلم يكن الفوز لاحد الفريقين على الآخر وبقيت قوة المماليك والاهالى سليمة تترقب الفرصة لمعاودة الكرة (٢)

## معركة قنا

### ١٢ فبراير سنه ١٧٩٩

أما فى جهة قنا فقد سار إليها الجنرال فريان قاصداً الامتناع بها لأن موقعها على جانب

---

(١) بلدة واقعة بالبر الشرقي للنيل جنوب ادفو تجاه قمة على البر الغربى

(٢) يقول ريبو ان هذه المعركة وقعت بالقرب من الاقصر يوم ١٢ فبراير ويسميها معركة الاقصر ،ويسميها دبزيه معركة طيبة ، ويقول أيضا انها وقعت يوم ١٢ فبراير وكذلك المسيو (شونى) فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ،على انه برجوعنا الى بيانات الجنرال دافو الذى قاد المعركة وبيانات الكولونل لاسال Lassale الذى اشترك فيها تبين لنا جليا ان المعركة وقعت بالردسية يوم ١١ فبراير

عظيم من الأهمية ، وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير ، وهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى إلى الحجاز أو التى ترد منه عن طريق القصير ، وقد سبقته إليها طلائع جنوده بقيادة الضابط كونرو Conroux وعددهم نحو خمسمائة مقاتل ، ولم يكد يعلم عرب الحجاز والاهالى باحتلال الفرنسيين لها حتى هجموا عليها قبيل منتصف ليلة ١٣ فبراير ولكن الفرنسيين ردوا هجومهم على المدينة وأوقعوا بهم خسارة جسيمة وجرح الضابط كونرو فى هذا القتال جرحا بليغاً فتنحى عن قيادة الجنود للضابط دورسن Drosen فناله ما نال صاحبه

وصل الجنرال فريان بعد انتهاء المعركة فأقام المخافر حول المدينة وعلى مداخل الطرق الموصلة الى النيل لمنع الثوار من استئناف هجومهم واستطاع الشريف حسن الذى كان يقود عرب الحجاز ان يلم شعثه وانضم اليه الاهالى المسلحون من سكان البر الشرقى للنيل فرابطوا بالقرب من (أبو مناع) (١)

## معركة ( أبو مناع)

### ١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تثنهم هزيمة ١٢ ــ ١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال فسار اليهم الجنرال فريان بجنوده فأدركهم فى قرية ( أبو مناع ) وهناك دارت معركة أخرى تغلبت فيها المدفعية على البنادق والاسلحة القديمة التى كان يستعملها الاهالى وعرب الحجاز ، فقتل عدد كبير منهم واستولى الفرنسيون على ( أبو مناع )وأضرموا النار فيها وفى القرى المجاورة لها ونهبوها

وقصد الجنرال فريان بعد هذه المعركة الى جرجا تنفيذاً لتعليمات الجنرال ديزيه فوصلها يوم ٢١ فبراير سنة ١٧٩٩

---

(١) شمال دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقى تبعد عن النيل مسيرة ساعة ونصف

## معركة إسنا

## ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفى غضون ذلك أخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على النيل ففى ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ أقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان وعدد حاشد من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية فى اسناء فاشتبك الفريقان فى معركة دامت ساعة من الزمن وانتهت بتقهقر مراد بك ورجاله الى (أرمنت)

# الفصل السابع عشر

## استمرار المقاومة

## فى الوجه القبلى

لم يتم للفرنسيين إخضاع الوجه القبلى على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه ، بل ظل مركزهم مضطربا ونفوذهم مزعزعا ، وتحرج موقفهم من الوجهة الحربية لأنهم بعد أن احتلوا مدن الصعيد أصبح جيشهم مبعثراً على طول النيل ولم يكن سلطانهم يتعدى المدن التى لهم بها حاميات ، ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسى اخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلى.

كانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن، فلم يكن الاهالى يدعون فرصة تمر دون أن يثوروا فى وجه السلطة الفرنسية ، وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية من حيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير ، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية فى المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسى فى النيل بمهاجمة السفن التى تحمل الجنود والذخائر والاقوات، ولذلك تحرج مركز الجيش الفرنسى وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت ، و بكل ذلك لم يستقر له قرار فى تلك الجهات

كان الجنرال ديزيه مقيما فى اسنا التى اتخذها معسكره العام من اليوم التاسع من شهر فبراير سنة ١٧٩٩ (١) وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات فى الصعيد ، ثم غادرها قاصداً الى (قوص) ، وقد شعر بحرج الموقف وأفضى الى نابليون قبل ارتحاله الى سوريا بالمصاعب التى تكتنفه وطلب منه المدد ليتمكن من إخضاع الوجه القبلى ، قال فى رسالة له كتبها فى قوص يصف دقة موقفه

---

(١) انظر ص ٣٩٨ الفصل السابق

« اننا نسير بلا انقطاع ، وتكثر شكايات حالة الجنود فى ملابسهم وأحذيتهم ولم نستطع للآن أن نجمع إلا النذر اليسير من أموال الميرى على الرغم من الجهود التى بذلناها ، وان دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم ، وان علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب القادمون من القصير ، والمماليك ، والاهالى ، فليس من السهل إخضاع هذه البلاد ، ومن الضرورى لنجاح الحملة على الوجه القبلى أن ترسلوا لنا أولا ذخيرة كبيرة من الرصاص وكثيراً من الاحذية وأرجو أن تنفذوا الى أسيوط القوات التى فى الفيوم وبنى سويف (١) مع ايجاد حامية مستديمة فى المنيا و بذلك يتم لنا احتلال أهم المواقع على النيل فلا يستطيع أعداؤنا ان يصلوا اليها ، ويضطرون الى الشرود فى الصحراء حيث لا يستطيعون العيش ، إننا هنا كأننا فى أقصى الدنيا ، وان حالتنا محزنة ، والملاحة فى النيل تكتنفها الاخطار ، وهاءنذا فى قوص أنتظر مراكب قامت من اسنا منذ ستة أيام ولم تستطع الوصول الى هنا ، ولو كان لدينا من السفن الحربية والذخائر أكثر مما عندنا لتحسنت حالتنا »

هذا ما كتبه ديزيه الى نابليون ، ومن قبل كتب اليه غير مرة يطالب المدد ، ولكن نابليون كان مشغولا بالحملة على سوريه فأخذ معه ما استطاع أخذه من القوات والذخائر ولم يرسل لديزيه الا النذر اليسير منها ، فاضطر ديزيه أن يكتفى بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القبلى ومواجهة الاضطرابات فيها ولم يجد ما يسد به النقص الذى وقع فى صفوفه من المعارك والأمراض

## موقف المماليك

بقى الجنرال ديزيه عدة أيام فى قوص يرسم الخطط التى تقتضيها ضرورات الموقف العسكرى ، وترك لكل من الجنرال بليار والجنرال فريان حرية العمل كل فى جهته

---

(١) أرسل دزلو الى الجنرال برتييه فى ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ من قوص ينصح بارسال حاميات جديدة الى الفيوم وبنى سويف لتحل محل الجنود التى ترسل الى أسيوط حتى لا تخلو هذه المواقع من جنود فيحتلها المماليك وحلفاؤهم (الاهالى)

لمواجهة الهجمات التى استهدفت لها جبهة القتال الطويلة ثم اعتزم أن يواصل سيره شمالا قاصداً إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الثورات التى ظهرت فيها ، وكان يعتقد أنه سيواجه قوات كبيرة من مماليك مراد بك ومحمد بك الألفى ، على أن المماليك كعادتهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسى وتركوا عبء القتال على عاتق الاهالى، فقد بقى مراد بك فى الواحة بعيداً عن ضربات ديزيه وجنوده وانسحب محمد بك الالفى الى أخميم ولحق به عثمان بك حسن ، وأخذ المماليك من أتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم فى القرى والمدن ، وباع كثير منهم سلاحهم للاهالى ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم إليهم ، وقد ذكر ريبو (١) حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن أحد مماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسى أن يأخذوه اليهم وحجته أنه قبل أن يكون مملوكا كان مجريا (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمسوى فأسره الأتراك فى بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، فقبل الفرنسيون خدمته وانضم الى صفوفهم ، ودخل آخرون فى الجيش الفرنسى زاعمين أنهم كانوا جنوداً فى الجيش النمسوى وأسرهم الأتراك وأرسلوا الى الاستانة ثم نقلوا الى مصر وصاروا فى عداد المماليك ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين قد قبلوهم فى صفوفهم وصاروا من رجالهم الأمناء الشجعان ! ! ويدخل فى هذا السياق أن نابليون جند فى صفوف الجيش الفرنسى جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال فى صفوفه

فمقاومة المماليك قد تلاشت اذن أمام الجيش الفرنسى وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخلق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الاهالى كانت أشد وأنكى وأعظم أثراً فى إضعاف مركز الفرنسيين فى الوجه القبلى

تحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ وانتقل الى الشاطىء الأيسر للنيل قاصداً أسيوط وضم الى جيشه فى الطريق الوحدات التى كانت موزعة على

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس

طول النهر وترك وراءه أسطول السفن الفرنسية بقيادة القومندان موراندى Morandi تتبعه عن بعد وتسير مبطئة لاختلاف الريح

ناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة إخضاع مصر العليا من قنا الى اسوان ، وطلب منه ابقاء خمسمائة جندى فى اسنا واتخاذها مركزاً عسكريا حصينا لمراقبة البلاد شمالا وجنوبا وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على النيل ، وكلفه التقدم الى قنا وجعلها مركزا حصيناً لمراقبة طريق القصير وطريق النيل

معركة ( الصوامعة )

٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه فى طريقه إلى أسيوط أن الاهالى ثاروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا، فعهد إلى الجنرال فريان مهاجمة الثائرين فالتقى بهم فى الصوامعة[1] يوم ٥ مارس وألفى نار الثورة مشتعلة بها ووجد نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ، فهجم على المدينة بجنوده واحتلها ودفع الثوار الى النيل فقُتل منهم عدد كبير قدرهم الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق

وصل ديزيه الى أسيوط يوم ٨ مارس بعد أن وزع قواته على طول النيل فى اسنا وقنا وفرشوط وجرجا وطهطا وأسيوط فاتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات الفرنسية ورتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لاخضاعها وقمع حركات الثورة التى تبدو فيها

كارثة السفن الفرنسية فى النيل

٣ مارس سنة ١٧٩٩

سبق الجنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل

---

١) الصوامعة جنوب طهطا وهى واردة بهذا الاسم فى تقرير الجنرال ديزيه معارك الوجه القبلى

ليلحق بالجيش فى أسيوط ، و بعدت الشقة بينهما ، فانتهز الاهالى هذه الفرصة لمهاجمة الاسطول وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤونته تتقدمها السفينة الحربية « ايتاليا »

هاجم الاهالى هذه السفن يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « بارود [1] » وأطلقوا عليها الرصاص فأجابت السفينة الحربية « ايتاليا » على هجمات الاهالى باطلاق المدافع فقتلت منهم عدداً كثيراً ، لكن الاهالى ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحنتها من الذخائر على شاطىء النيل ، ثم ركبوها وقصدوا الى السفينة الحربية « ايتاليا » للاستيلاء عليها وكان يقودها القومندان موراندى Morandi فضاعف اطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولكنه رأى رجال مدفعيته قد أثخنتهم الجراح على ظهر السفينة ورأى من جهة أخرى جموع الاهالى من الشاطىء الايسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر فى الانسحاب ولكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، واذ ذاك هرع اليها الاهالى والعرب من كل صوب وحدب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحدق به ، ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار فى مستودع البارود والتى هو ورجاله بأنفسهم فى اليم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفاً وتفجرت شظايا القنابل على الشاطىء فقتلت عدداً كثيراً من الأهالى ولكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم فمات مثخنا بجراحه وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « إيتاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهى أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى الحملة على الوجه القبلى

كانت السفينة « إيتاليا » قبل ان تستخدم فى الحملة على الوجه القبلى سفينة نابليون الخاصة التى كان يركبها فى النيل بالقاهرة ، وقد وصلت اليه أنباء هذه الكارثة

---

(١) على الشاطىء الشرقى للنيل جنوب قنا بالقرب من قوص وتسمى (نجع البارود)

وهو فى حملته على سوريا أثناء حصاره لعكا فحزن حزناً شديداً على ما أصاب الفرنسيين فيها ، ومما يؤثر عنه انه تشاءم من فقد السفينة « ايتاليا » وتوقع ان تكون هذه الكارثة نذيراً بتقلص ظل فرنسا عن البلاد الايتالية لتشابه الاسم فقال لمن حوله متأثراً « ان فرنسا قد فقدت ايتاليا ، ان شعورى لا يكذبنى »

## من اسوان الى قوص

كانت مهمة الجنرال بليار فى القطاع الذى كلف حمايته شاقة محفوفة بالمكاره ، فقد أخلى اسوان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ لاخضاع الحركات العدائية التى ظهرت على شاطىء النيل شمالا فوصل الى اسنا يوم ٢٨ فبراير ، و بعد أن تلقى تعليمات ديزيه سافر من إسنا يوم ٢ مارس بعد أن ترك بها قوة من أربعمائة جندى بقيادة الضابط ڤاليت Valette وكلفه تحصين منزل حسن بك الجداوى ليكون معقلا للحاميه الفرنسية

وكان يرافق بليار فى مسيره بعض السفن تحمل الأقوات والذخائر والجنود والجرحى والمرضى فوصل مساء ٢ مارس الى [illegible] (١)

وعسكر تلك الليلة هناك ، وفى اليوم التالى وصل الى ( أرمنت ) وعسكر بها الى اليوم السادس وفى هذا اليوم سار قاصداً الى قنا ليدفع عنها وثبات الأهالى على ضفة النيل ، وقد وصلته الانباء بأنهم يتجمعون على مقربة من بارود وأنه وصل الى قرية « قمولا » (٢) عبر النيل بجنوده وأخذ طريقه بالبر الشرقى ووصل الى قوص ) يوم ٨ مارس وهناك تحقق من الكارثة التى حلت بأسطول سفن الفرنسية بالبارود وعلم أن الاهالى وعرب الحجاز (والمماليك) يستعدون لملاقاته بعد أن تزودوا من الذخائر والمدافع التى استولوا عليها فى معركة بارود البنيان.

---

(١) جنوب أرمنت بغرب [illegible]

## معركة قفط

### ٨ مارس سنة ١٧٩٩

سار بليار قاصداً موقع الأهالى والعرب على مقربة من قفط وهناك التقى بجموعهم الذين كانوا يرابطون فى السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الاهالى وعرب الحجاز و٣٥٠ الى ٤٠٠ من المماليك ، والتقى الجمعان فى سهل قفط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ فكانت معركة حامية الوطيس اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه وانتهت بهزيمة الاهالى والعرب وانسحابهم الى أبنود

## معركة أبنود

### ٨ — ٩ — ١٠ مارس سنة ١٧٩٩

واصل الاهالى والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعا شديداً عن كل قرية وكل مكان ارتدوا اليه ، فلما وصلوا إلى أبنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى واقعة بارود النيلية ، وأخذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكا شديداً ، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليار لفوره ان موقفه أصبح محفوفا بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد المصريين ، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من أقوى سلاح كان فى يدهم

واشتد القتال بين الفريقين وانسحب الاهالى والعرب الى منازل القرية فتجدد القتال فى طرقاتها و بيوتها ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم الا بعد ان أضرموا النار فى منازل القرية كلها ، وأصبحت البلدة شعلة من الجحيم ، وتصاعد اللهب الى عنان السماء واستحالت القرية الى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الأهالى والعرب فى قصر حصين كان فيما مضى مقراً

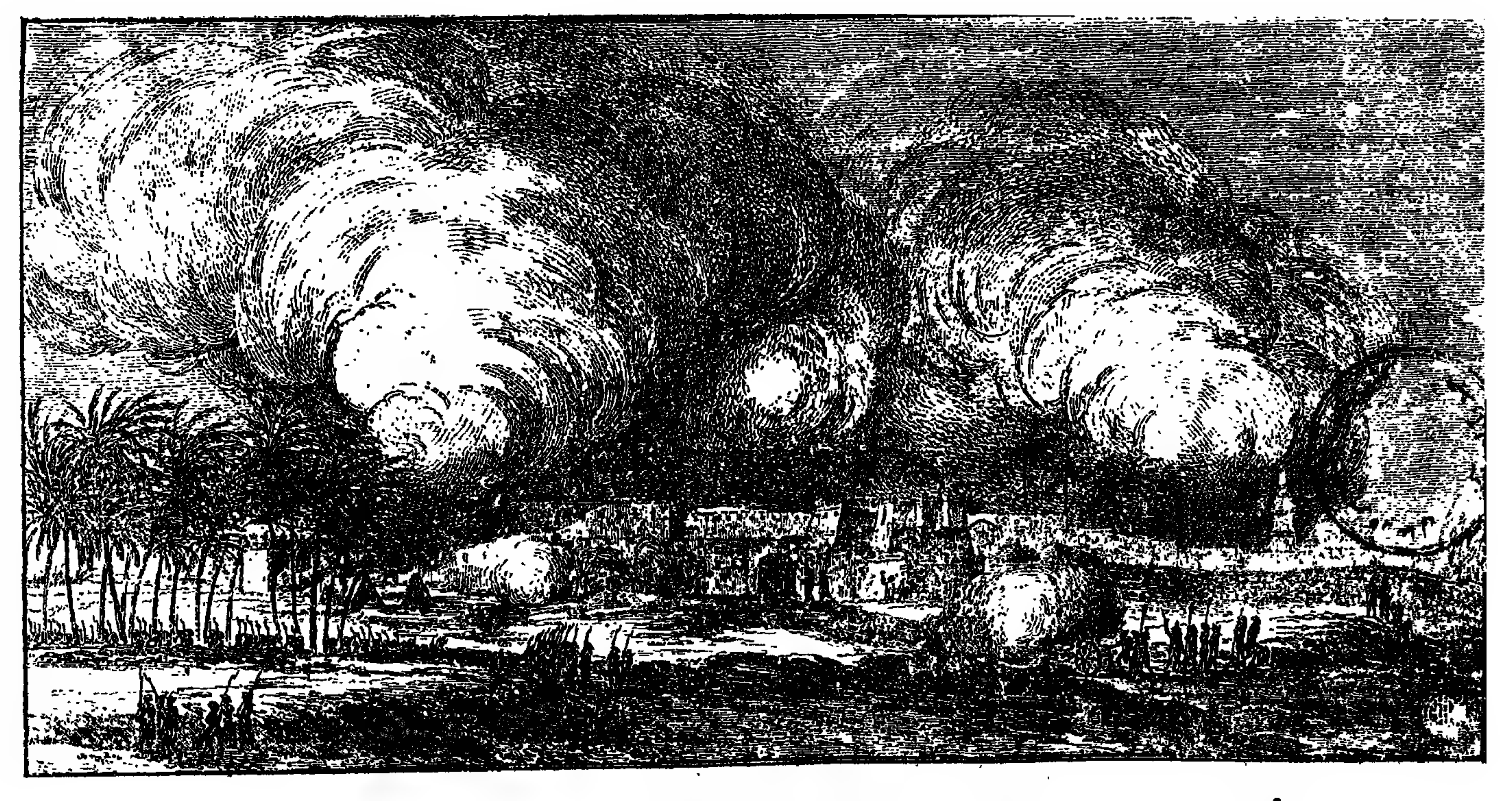
لكشاف المماليك ، وفى مسجد يجاوره جمعوا فيه الذخيرة التى غنموها من الفرنسيين ، فاشتد القتال حول هـذا المنزل والمسجد المجاور له وتبادل الفريقان اطلاق النار الى أن جن الليل وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد ان أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال فى اليوم التالى ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه ، أما المماليك فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيداً لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملا ما وعسكروا فى الصحراء ، ذلك كان شأنهم فى كل المعارك التى اشتد فيها القتال فكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون الاهالى فداء وضحية .

استؤنف القتال فى اليوم التالى ( يوم ٩ مارس ) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا أقبل مدد من الاهالى والمماليك لرفع الحصار عن هذا القصر ، فردهم الفرنسيون على أعقابهم وشددوا الحصار والضرب الى أن تمكنوا من دخول احدى ساحاته فأضرموا النار فى بنائه ليكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار فى غرف القصر وأوشك لهيبها ودخانها أن يخنق المحصورين فنزلوا الى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار فى رسالته الى الجنرال ديزيه الى أن جن الليل وكان قد قتل كثير منهم ، وتمكن بعضهم أن ينسلّوا تحت الظلام فأفلتوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة

وفى صباح اليوم الثالث للمعركة (يوم ١٠ مارس) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد أقعدهم الاعياء ونالتهم الجراح ومع ما كانوا فيه من الهلاك فانهم استمروا على المقاومة الى أن قتل الفرنسيون معظمهم

و بعد انتهاء المعركة تظاهر مماليك عثمان بك حسن بالرغبة فى القتال كذبا ودعوى وكانوا أثناء القتال جامدين ، فسار اليهم الجنرال بليار قاصداً مهاجمتهم وما أسرع ما فروا فى الصحراء فتركهم وعاد الى أبنود

وجد الفرنسيون فى القصر جانباً من الذخائر التى فقدوها فى معركة بارود النيلية وكان الاهالى والعربان استنفدوا جزءا منها ، وكذلك استرد الفرنسيون المدافع التى



معركة أبنود ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ ـ ( نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون )
والصورة توضح اضرام الفرنسيين النار فى أبنود أثناء المعركة ، وترى النار مشتعلة فى القصر الحصين الذى كان الثوار ممتنعين فيه وفى المسجد المجاور له بعد ان أحرق الفرنسيون بيوت القرية

كان الأهالى قد انتزعوها من السفن الفرنسية واستولوا على ست رايات منها اثنتان للحجازيين

وقدر بليار خسائر الاهالى وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة أو ستمائة قتيل وثمانية الى عشرة من المماليك وكثير من الجرحى ، وقدر خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيلا و ١٣٤ جريحاً ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها مدة فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية

وتجد صورة حريق ابنود ص٤١٢ كما رسمه المسيو دينون الذى شاهد المعركة

## حالة الشعب النفسية

بالرغم من انتصار الفرنسيين فى معركة أبنود فقد أنهكهم القتال ونالتهم الخسائر الجسيمة ونفدت ذخائرهم وأصبح من المتعذر على الجنرال بليار متابعة القتال لفداحة الخسائر ، ومما زاد موقفه حرجا الروح العدائية التى سادت الاهالى فى تلك الجهات بحيث كان الفرنسيون يشعرون أنهم محاطون بالاعداء من كل جانب وأن لاسبيل الى استبقاء سلطتهم إلا بقوة السيف والنار ، وقد شعر قواد الجيش بتلك الحالة النفسية وأفضوا بها الى القيادة العليا فى رسائلهم وتقاريرهم ، ودونوها فى مذكراتهم

قال الجنرال بليار فى يومياته « ان كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لانهم يخلون قراهم قبل أن نصل اليها »

وقال فى رسالة الى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود « اننا نعيش هنا عيشة ضنكا فان جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئاً من القوت ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالاخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أدرى السبب فى هذه الحالة ، على اننا مع ذلك لا نعمل عملا ضاراً فى البلاد التى نجتازها »

وقال ديزيه فى رسالة الى نابليون (١)

---

(١) رسالة ديزيه الى نابليون من أسيوط فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩

« ليس لدى معلومات ولا أخبار عن الجنرال بليار ولكنهم يؤكدون لى انه حارب الاهالى والمماليك وعرب مكة وهزمهم واسترد الذخائر والسفن التى اضطر جنودنا الى التخلى عنها ، ان البلاد فى ثورة ، وليس من السهل أن نتبادل الرسائل بسرعة ، وانى أطلب الذخائر من القاهرة فقد نفدت ذخائرنا ، وسأزحف على شاطىء النيل الايمن لاكتساحه وطرد المماليك وحلفائهم ، على أنى لا أكتمكم الحقيقة وهى أننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد لاننا اذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت الى حالتها القديمة »

وكتب الادجودان جنرال دنزلو الى الجنرال برتييه من أسيوط فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة يستعجل بها المدد قال فيها

« اذا لم تتفضلوا بارسال الأدوية الينا فان مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم سيموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لى أن أتساءل هل نحن فى منفى سحيق بالصعيد فلا يذكرنا أحد ؟ انى أكرر لكم اننا فى بلاد أصعب مراساً من مديرية المنصورة واذا سرنا الى جهة من الجهات ظهرت الثورات فى الاماكن التى يخليها الجنود ، فعلينا أن نكون دائما على أهبة الزحف والتدمير ، فمتى تنتهى هذه الحالة ؟ »

ورجع بليار بعد معركة أبنود قاصداً الى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ وأخذ فى تحصينها ، واختار منزلا كبيراً لاحد المماليك فاتخذه حصناً يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكراً للجنود وأخذ يبعث بالرسائل الى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعاً قتلهم الاهالى فى الطريق ولم ينج منهم إلا واحد بلغ أسيوط برسالته

## رجوع ديزيه الى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان فى أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التى أبطأت عليه كثيراً ، الى أن وصلته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة منه ينبئه فيها بكارثة السفن الفرنسية فى بارود ثم انتصار الفرنسيين فى معركة ابنود ، ولم يخفف هذا الانتصار

شيئا من عظم الكارثة النيلية فانها فضلا عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الأنفس والارواح قد أفقدتهم أعظم مستودع للذخيرة التى كانت تحملها السفن ، فأرسل ديزيه يستعجل المدد والذخيرة من القاهرة واعتزم أن يسير جنوبا الى قنا ليشد أزر الجنرال بليار ويقمع حركات الثورة التى ظهرت فى البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الأيمن للنيل

ترك ديزيه حامية فى أسيوط وغادرها يوم ١٨ مارس بجنوده وجعل طريقه على البر الشرقى ، وحمل مؤونته وذخيرته فى النيل وسارت الجنود على الشاطىء فوصل قبالة طهطا يوم ٢٠ مارس ، ثم الى اخميم يوم ٢١ ثم قبالة جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقى عدة أيام فى بلاد احد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ (عبد المنعم) للتنكيل به فأمر بقطع نخيله واضرام النار فى القرى التابعة له

ووصل يوم ٢٧ مارس الى قنا ولتقى فيها بالجنرال بليار وأخذا يُعدان العدّة لاستئناف القتال واخضاع البلاد

## معركة ( بئر عنبر )

### ٢ ابريل سنة ١٧٩٩

وصل ديزيه الى قنا فشدد وصوله عزائم الجنود وأخذ يتأهب سحق المقاومة التى كانت تقلق الفرنسيين .

ان انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد ولم تضع حداً للمقاومة الأهلية فان الأهالى وحلفاءهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى ثم يعودون لاستئناف المقاومة و ستئناف الهجوم، وكل معركة تترك لهم ثأراً على الفرنسيين ، وبذلك لاتنقضى معركة إلا وتليها معركة جديدة

كتب الجنرال ديزيه يصف هذا التطور « ان طبيعة الحرب فى الوجه القبلى قد تغيرت ، قد هزمنا الاعداء ( الاهالى وحلفاءهم ) فى كل مكان ، ولكننا لم نسحقهم ، ومن الواجب أن نصل الى هذا الغرض ، وللوصول اليه سأنظم وحدات متحركة

لأكره الاعداء على أن يظلوا منقطعين فى الصحراء المقفرة أو على الاقل نضطرهم لقطع مسافات شاسعة ليصلوا الى المناطق المزروعة »

شرع ديزيه يوجه قواته لسحق رجال حسن بك الجداوى الذين انسحبوا بعد معركة أبنود الى جهة (الجطة) فى طريق القصير، فجمع فى هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده واتجه جنوبا محاذيا البر الشرقى للنيل ضاربا فى الصحراء فوصلت الفرقة الى (كفراسما) وهى قرية صغيرة فى سفح الجبل ثم وصلت الى (بئر عنبر) وهى بلدة واقعة على الطريق الذاهب من قنا الى القصير ثم وصلت الى (المقربية)[1] وعسكرت تجاهها، وكان ديزيه يرمى الى قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى حتى لا يصلوا الى النيل بأحد الطريقين الموصلين اليه من (الجطة) وهما طريق بئر عنبر وطريق (حجازه)[2] الواقعة جنوب قوص بقرب الجبل الشرقى، فاحتل بئر عنبر وعهد الى بليار باحتلال حجازه فاحتلها، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأسى الطريقين الموصلين الى النيل، وأخذ الجنرال بليار وهو فى حجازه يستطلع حركات المماليك وحلفائهم الذين كانوا فى (الجطة) يتحفزون للتقدم يريدون النيل، فلما علم ديزيه بقصدهم سار بجنوده فى صباح يوم ٢ ابريل لمنازلتهم

فلما كان على مسيرة ساعة من (بئر عنبر) التقت طلائع جيشه من الفرسان بقوة المماليك والأهالى يقودهم حسن بك الجداوى ويعاونه عثمان بك حسن وكان عددهم نحو خمسمائة من المماليك وألف من الاهالى كما يقدرهم الجنرال ديفيرنوا Desvernois[3] فى مذكراته

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من (بئر عنبر) تلقت فيها كتيبة

---

(١) جنوب قفط

(٢) وهناك طريق ثالث يصل من الجطة الى الردسية ولكنه طريق بعيد الشقة وعر المسالك قليل الآبار

(٣) من ضباط جيش ديزيه



مقتل الكولونل دوبلسي في معركة بئر عنبر — ٢ ابريل سنة ١٧٩٩ — (نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيمان ديمون)
وترى في الصورة الكولونل دوبلسي يهجم على عثمان بك حسن وكلاهما راكبا جواده فعاجله أحد فرسان عثمان بك بطعنه رمح أودت بحياته

الفرسان صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وصعوبة السير فى الرمال، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال ديزيه يعاونه الجنرال دافو ، وقتل فى المعركة عدد من الضباط الفرنسيين منهم الكولونل دو بليسى Duplessis والضابط بوفاتييه Bouvatier وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتيلا و٢٠ جريحا وهى خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال فى تلك المعركة

ويقول الجنرال ديفرنوا فى مذكراته ان ديزيه قد استهدف للخطر وكاد يقضى عليه لولا أن افتداه الكولونل دو بليسى بحياته ، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك وحلفائهم الى (الجطة) فى طريق القصير بقيادة حسن بك الجداوى لكن حسن بك لم يبق بالجطة طويلا وارتدّ جنوبا قاصداً الى اسوان

وترى فى الرسم رقم ص٤١٧ صورة معركة ( بئر عنبر ) ومقتل الكولونيل دو بلسى كما رسمها المسيو فيفان دينون وكان من شهودها

أما الجنرال بليار فقد كان مرابطاً فى (حجازه) ليقطع طريق الانسحاب على المماليك وحلفائهم ولكن هؤلاء مضوا فى طريق الردسية يقصدون الى النيل، فتبعهم بليار بجنوده ووصل الى الردسية يوم ٨ ابريل غير أنه لم يدركهم وكانوا غادروها قبل قدومه قاصدين الى اسوان ، وهذه هى المرة الثانية التى انسحب فيها المماليك الى اسوان، وخشى بليار ان يغامر بمن معه من الجنود فى متابعتهم فى الصحراء فعدل عن اللحاق بهم واستدعاه الجنرال ديزيه ليرابط فى قنا التى كانت موقعاً عسكرياً على جانب عظيم من الأهمية

## تجدد الثورة بين قنا وجرجا

عاد بليار الى قنا بعد أن ترك حاميات من الجنود فى قوص واسنا ، وقبل أن يصل الى قنا غادرها الجنرال دافو الى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الحركات الثورية التى تجددت فيها ، ذلك ان الجنرال ديزيه قد وصلته الانباء أن الاهالى والمماليك قد انتهزوا فرصة خلو البلاد من القوات الكافية فاستأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا ، وأن جموع الثائرين من الأهالى وحلفائهم العرب والمماليك احتشدوا بالبر

الشرقى لقطع مواصلات الجيش الفرنسى فأنفذ الجنرال دافوا بفرسانه لاخضاع البلاد الثائرة فيما بين قنا وجرجا، وعهد إلى الكولونل موراند Morand قومندان مديرية جرجا باحتلال الأكمات المشرفة على النيل قبالة جرجا ليأخذ الطريق على الثائرين إذا أرادوا عبور النيل

## واقعة برديس

### ٦ إبريل سنة ١٧٩٩

تحرك الجنرال دافوا ووصل الى دشنا ، فشعر الأهالى بخطر الاحداق بهم فعبروا النيل شمالى برديس وصاروا بالبر الغربى ، فسار اليهم موراند والتقى بهم فى ٦ إبريل على مقربة من برديس وكانوا جموعاً كثيرة من الأهالى والعرب تجمعوا فى برديس متأهبين للقتال ، وانضم اليهم سكان القرى المجاورة ، فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص بشدة وهجم الأهالى والعرب على جنود موراند مرتين فعجز موراند عن اقتحام هذه الجموع وتقهقر الى جرجا ليحمى مواقع الفرنسيين بها

## واقعة جرجا

### ٧ ابريل سنة ١٧٩٩

شجع تقهقر موراند الاهالى والمماليك فتابعوا هجومهم ومضوا قاصدين احتلال جرجا ، وتضاعف عددهم فى الطريق بمن كان ينضم اليهم من سكان البلاد التى مروا بها ، فقدر الجنرال دافو عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين تجمعوا من القرى المجاورة يعاونهم جماعة من المماليك وعرب الحجاز ، وهجموا على جرجا يوم ٧ ابريل وتمكن فريق منهم من الدخول فيها ، لكن الحامية الفرنسية بقيادة موراند صدتهم عنها بعد قتال عنيف وخسر الأهالى جموعهم عدداً من القتلى قدره الجنرال دافو بمائة وخمسين قتيلا كما قدر خسائر الفرنسيين ستة من القتلى و١١ جريحاً

## واقعة جهينة

### ١٠ ابريل سنة ١٧٩٩

امتدت الثورة إلى طهطا فاستولى الثوار عليها ، وسرت الى القرى المجاورة فاقبل الضابط لاسال Lassale بجنوده قادما من أسيوط والتقى بالثوار يوم ١٠ ابريل فى جهينة (١) وحاصرها الفرنسيون وضربوها بالمدافع ، ودار قتال شديد داخل البلد وامتنع الثائرون فى دار حصينة بها اتخذوها معقلا وقاوموا بها عدة ساعات ، ثم اقتحم الفرنسيون تلك الدار واستولوا عليها وقتلوا من صادفوهم بها من الاهالى والعرب وقدر دافو عددهم بثلثمائة من القتلى

## الثورة فى بنى عدىّ

وصل الجنرال دافو الى جرجا ثم إلى طهطا وعلم بنبأ هاتين المعركتين فتابع سيره إلى أسيوط ووصلها يوم ١٦ إبريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت الى أسيوط وسرت اليها من فلول الأهالى والعرب الذين انهزموا فى جرجا وجهينة وانسحبوا شمالا يحميهم أهالى القرى التى فى طريقهم حتى وصلوا قريباً من أسيوط ومعهم نحو مائتين من المماليك ، فأخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم لقتال الفرنسيين ، وكانت خطتهم محكمة التدبير واسعة المدى كما اعترف بذلك ديزيه فى تقريره الى نابليون واتخذ الثوار ( بنى عدىّ ) معسكراً للثورة ، وهى بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غرب منفلوط وعلى طريق الواحة التى كان مراد بك لاجئاً اليها ، وكان لهذه البلدة أهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها وثروتها (٢) واشتهر أهلها من قديم

---

(١) جنوب طهطا ، ذكر المرحوم على باشا مبارك فى خططه التوفيقية موقعها فى مديرية جرجا وقال عنها « ان أهلها أكثر من عشرة آلاف نفس من عرب جهينة القبيلة المشهورة ولهم كرم زائد وشهامة وفصاحة لسان وذكاء وفطنة وثبات جنان » وهى واقعة على الترعة السوهاجية

(٢) يقول دافو فى رسالته الى الجنرال دوجا عن ( بنى عدى ) « انها من

الزمن بالقوة وشدة البأس فكانوا فى عهد المماليك يقاومون مظالمهم فاتخذها الثوار مركزاً لهم واجتمع بها ثلاثة آلاف من الأهالى المسلحين وانضم اليهم ٤٥٠ من العرب المصريين وثلثمائة من المماليك

كانت هذه القوة لا يستهان بها ، فسار دافو بجنوده قاصداً بنى عدى للاستيلاء عليها وقمع الثورة فيها ، فلما وصل اليها (يوم ١٨ ابريل سنة ١٧٩٩ ) ألفى أهلها جميعاً

---

أكبر بلاد الوجه القبلى سكانا وأغناها وأعظمها مكانة، وان الثورة عمت فيها من أقصاها الى أقصاها وان أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم الى شاطىء النيل لمهاجمة السفن الفرنسية » وذكر العلامة على باشا مبارك بنى عدى فى الجزء السابع من خططه فقال عنها « انها بلدة كبيرة من قسم ( مركز ) منفلوط بمحافة بساط الجبل غربى منفلوط وهى ثلاث قرى القبلية والوسطى والبحرية ، وأبنيتها بالآجر واللبن وبها جوامع كثيرة عامرة ، وهى طريق الواحات وعلى مسيرة ثلاثة أيام واليها ترد محصولاتها من التمر والارز والنيلة ومنها ترسل الى القاهرة وفيها تنسج أحرمة الصوف والاقمشة الصوفية الجيدة » وهى مشهورة الى اليوم بصناعة الاكلمة المتينة والاحرمة الجيدة، وقد اشتهر عن أهلها أنهم قوم كرام ذوو همم علية وذكاء وفطنه وفصاحة قيل انهم من قبيلة بنى عدى المشهورة القرشية، وهى أيضاً مشهورة بالعلماء من قديم الزمن والازهر لايخلو أبداً منهم ومنهم المدرسون والمؤلفون قديماً وحديثاً » وذكر من بينهم الشيخ على العدوى المالكى وأورد ترجمته نقلا عن الجبرتى فى وفيات سنة ١١٨٩ هجرية قال عنه الجبرتى « انه كان شديد الشكيمة يصدع بالحق ويأمر بالمعروف ويحب الاجتهاد فى طلب العلم ، وكان ينهى عن شرب الدخان ويمنع من شربه بحضرته ، وكان اذا دخل منزلا من منازل الامراء ورأى من يشرب الدخان نهره عن شربه فينتهى فى الحال، وشاع عنه ذلك حتى ترك الناس شربه بحضرته، ودخل يوماً على على بك الكبير (وهو على متعرف من سطوة وشدة بأس) فأخبروه قبل وصول الشيخ الى مجلسه فرفع الشبك من يده وأخفاه من وجهه ، ولما مات على بك الكبير واستقل بامارة مصر محمد بك أبو الذهب كان يعظمه ويحبه ولا يرد شفاعته »

يحملون السلاح و يتحفزون للوثبة والقتال ، وكان المماليك لم يزالوا فى الصحراء بعيداً عن بنى عدى ، فعهد دافو إلى الكولونل بينون Pinon باحتلال غابة تحصنت بها طلائع الأهالى ، فتمكن من إجلائهم عنها وارتدوا إلى المدينة ، فتعقبهم الكولونل بينون ولما اقترب من المدينة أطلق الأهالى الرصاص على الجنود من المنازل فاصيب بينون برصاصة أردته قتيلا ، فعين دافو الضابط راباس Rabasse بدلا عنه ، فاستمر الجنود بقيادة راباس يقاتلون الاهالى،وهنا حضر المماليك لنجدتهم ولكن لم يكد راباس يتحول اليهم ليمنع اتصالهم بالاهالى حتى ارتدوا لاول صدمة وانسحبوا راجعين الى الواحة التى قدموا منها وتركوا الأهالى وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسى ، فاشتبك الفريقان فى معركة حامية دارت رحاها فى طرقات بنى عدى وفى بيوتها التى حصنها الاهالى وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسى ببنى عدى من المقاومة ما لم يلق مثله فى كثير من البلاد

استمر القتال الى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة الاهالى ، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بنى عدى لجأوا الى وسيلة الحريق التى اتبعوها في أبنود وغيرها ، فأضرموا النار فيها فامتدت الى بيوتها كافة ، وأصبحت البلدة كأتون من نار، وبهذه الوسيلة غلب الجيش الفرنسى على مقاومة بنى عدى واحتلها الجنود وأمعنوا فى أهلها قتلا ونهباً

قال الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى مذكراته « أصبحت بني عدى أكواماً من الخرائب ، وتكدست القتلى فى شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولا مما حل ببنى عدى »

وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الاهالى بألفى قتيل ، ويقدرهم ديزيه فى تقريره الى نابليون بنحو ثلاثة آلاف ، والواقع ان معظمهم مات من الحريق الذى أضرمه الفرنسيون فى البلدة ، وقد احتل الجنود البيوت بحجة التفتيش عن الثائرين فنهبوا ما تصل اليه أيدى اللصوص ، وكانت بنى عدى مشهورة بما كان يأتيها من أموال القوافل القادمة اليها وما كان يحفظه فيها أعيان البلاد المجاورة من الودائع ، فنهبها

الفرنسيون واستولوا على صناديق كاملة مملوءة بالذهب والمال .

قال دافوعن النهب الذى وقع فى بنى عدى « ان الغنائم التى استولى عليها الجنود قد عوضتهم مافقدوه ، وكثيرمنهم كان نصيبه ١٥ الف فرنك و بعضهم ٢٠ الف فرنك ذهباً »

وقال ديزيه « ان غنيمة جنودنا كانت عظيمة وكثيرون استولى الواحد منهم على عدة آلاف ريال »

## رواية الجبرتى عن ثورة بنى عدى

وصلت أخبار فظائع الفرنسيين فى بنى عدى الى القاهرة ، فكتب عنها الجبرتى مايلى ( فى حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ )

« حضر الى مصر الا كثر من عسكر الفرنسيس الذين كانوا بالجهة القبلية، وضربوا فى حال رجوعهم بنى عدى بلدة من بلاد الصعيد مشهورة وكان أهلها ممتنعين عليهم فى دفع المال والكلف (الغرامات) ويرون فى أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة ، فخرجوا عليهم وقاتلوهم ، فملك عليهم الفرنسيس تلا عالياً وضربوا عليهم بالمدافع فاتلفوهم وأحرقوا جرونهم، ثم كبسوا عليهم وأسرفوا فى قتلهم ونهبهم، وأخذوا شيئاً كثيراً وأموالا عظيمة وودائع جسيمة للغز ( المماليك ) وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبلية لظن منعتهم ، وكذلك فعلوا بالميمون »

ولهذه المناسبة نقول ان الجبرتى لم يعن كثيراً بحوادث المقاومة فى الصعيد ولم يذكر عنها الا نبذاً ضئيلة متقطعة حكى فيها ما كان يسمعه من أفواه بعض المسافرين وهى ليست ذات قيمة وليس فيها الدقة والاستقراء اللذان امتاز بهما الجبرتى فى سرد حوادث القاهرة

على أنه لايفوتنا التنويه بأن الجبرتى فى إشارته الى موقف المماليك فى الوجه القبلى رماهم بالجبن وعدم الثبات فى ميدين القتال ، فقد ذكر فى حوادث شعبان سنة ١٢١٣ أن السفار (المسافرين) أخبروا « بأن مراد بك ومن معه ترفعوا ( ابتعدوا ) الى قبلى

ووصلوا الى عقبة الهواء ، وكلما قرب منهم عسكر الفرنساوية انتقلوا وقبلوا ، ولقد داخلهم من الفرنساوية خوف شديد ، ولم يقع بينهم ملاقاة ولا قتال » وذكر فى موطن آخر فى حوادث شعبان أيضاً « وركب الغز وحاربوا الفرنسيس فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا » وقال عن مراد بك « انه يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الاقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر فى حرب باشرها أبداً على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قال القائل أسد علىّ وفى الحروب نعامة (١) »

## فى المنيا وبنى سويف

امتدت الثورة إلى مديريتى المنيا وبنى سويف فسار دافو الى المنيا لاخمادها ومر الجيش فى طريقه ببعض القرى فكان الاهالى يمتنعون البتة عن مساعدته أو إمداده بالاقوات التى يطلبها ، فحدث ينكل بالقرى والبلاد بحجة أنها فى حالة ثورة ، وكان أكبرها استهدافا لانتقام الفرنسيين فى هذه الرحلة بلدة (أبوجرج)

## واقعة (أبوجرج)

وصل الجيش الى (أبو جرج) فأرسل الجنرال دافو من قبله رسولا الى أهلها ليقدموا المؤونة للجنود ، فرفض شيخ البلد (العمدة) أن يقدم شيئا ، فأرسل دافو رسولا آخر فرده الاهالى خائبا ، فأمر بمحاصرة البلدة وإضرام النار فيها انتقاما من أهلها أقبل الاهالى من القرى المجاورة يحملون السلاح لنجدة أبوجرج ، فامتلأت بهم المزارع وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص ، واستمر القتال ساعتين وأضرم الجنود النار فى البلدة فالتهمت مساكنها واحترق بها كثير من أهلها ، ويقدر الجنرال ديزيه عدد القتلى من أهالى أبوجرج بالف قتيل

## الثورة فى المنيا

كان الجنرال ديتريس (٢) قائداً للحامية الفرنسية فى المنيا ، وقبل أن يصل الجنرال دافو اليها ، عمت الثورة فى البلاد المجاورة لها فواجهها الجنرال ديتريس بالقوات

---

(١) خ‍. ‍ . ‍ . [illegible] (٢) من قواد فرقة الجنرال ديزيه

التي تحت قيادته ونشبت معارك ثلاث فى ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مدينة المنيا

اليوم الاول — ففى ٢٣ ابريل سنة ١٧٩٩ تجمهر نحو ٤٠٠ من الاهالى ومثلهم من عرب الحجازفى قرية( طهنشا ) (١) جنوب المنيا واستعدوا للهجوم على الحامية الفرنسية فى المنيا وأرسل زعيمهم الى شيخ بلد المنيا يطلب مظاهرتهم على عدوهم، فلما علم الجنرال ديتريس بنبأ هذا الهجوم عزم على أخذهم قبل أن يهاجموه فترك فى المنيا فصيلة صغيرة من العسكر وخرج بباقى الجنود وقصد الى معسكر الثائرين بالقرب من ( تله ) (٢) التى تبعد عن المنيا غربا بنحو ثلاثة كيلو مترات ، فلما اقترب منهم الجنرال ديتريس برزوا من معسكرهم لمقاتلته فدارت معركة بين الفريقين بدأت بالاحداق بالجنود الفرنسية ولكن الجنرال ديتريس جعل من قوته مربعاً على الطريقة الفرنسية وسلط مدافعه على جموع الثائرين واستمر القتال أربع ساعات ثم انسحب الفرنسيون فتعقبهم الثائرون قاصدين المنيا ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة وكان الليل قد أقبل فارتدوا الى ( تله ) وانتهز الجنرال ديتريس فرصة الليل فرتب مخافره واستعد لليوم الثانى

اليوم الثانى — وفى اليوم الثانى وقف الجنرال ديتريس بجنوده خارج المدينة فى موقع منيع تحميه المقابر والحدائق وأوقف الرماة خلف أكمات عالية وأقبل الثائرون يصيحون صيحات القتال ويتقدمون بشجاعة واقدام وكان عددهم قد زاد بمن انضم اليهم من سكان القرى الواقعة على شاطىء النيل ومن رهط من المماليك قدموا من الجنوب ، فامتلأ السهل المجاور للمدينة على مسافة فرسخ بالمقاتلين ودارت المعركة من جديد وكان الفرنسيون متخذين خطة الدفاع فاستمروا يدفعون الهجمات مدة ساعتين ولكن الفصيلة التى كانت تدافع عن الباب الشمالى للمدينة اضطرت تحت ضغط الثائرين الى الارتداد داخل البلد والالتجاء الى معسكر الحامية فاضطر الجنرال

---

(١) و(٢) من بلاد مركز المنيا

ديتريس الى اللحاق بهم وفى هـذا الوقت تمكن الثائرون من اقتحام باب آخر من أبواب المدينـة فدخلوها يتدفقون من كل صوب وملأوا الشوارع ، لكن الجنرال ديتريس جمع رجاله وأمرهم باطلاق النار وأرسل فصائله الى أهم شوارع المدينـة لاحتلالها فتمكن بذلك من ردّ الثائرين بعد أن حلت بهم الخسائر الجسيمة ، وفى نحو الساعة الاولى بعد الظهر عادت السلطة الى قبضة الفرنسيين وانسحب الثائرون

اليوم الثالث — ظن الفرنسيون أنهم أصبحوا فى مأمن من هجومهم ولكن فى صباح اليوم التالى (يوم ٢٥ ابريل) أقبـل أربعمائة فارس من العرب يظاهرهم جماعة من المماليك وهاجموا الفرنسيين وكادت تدور الدائرة عليهم لولا وصول الجنرال دافو بقواته فهزم الثوار وعادت السكينة الى المدينة

ومما ساعد الجنرال ديتريس على رد هجمات الثائرين ان معظم أهالى البندر ومشايخه لم ينضموا اليهم ، ويقول ديتريس فى رسالتـه الى الجنرال دوجا ان حامية المنيا سلمت من القتل بفضـل مشايخ البلد فى المنيا والفريق الاكبر من أهلها وانهم لو حملوا السلاح فى وجه الفرنسيين لما بقى منهم أحد(١) ويؤخذ من ذلك ان طائفـة من أهالى المنيا قد انضموا الى الثائرين وبقى الفريق الاكبر منهم على الحياد ، وقد أعلن الجنرال ديتريس مكافأة أهل المنيا بانقاص المال المفروض عليهم فى ذلك العام بمقدار الثلث وقرر حمل هذا الثلث على قرى ثلاث من البلاد التى اشتركت فى الثورة

## الثورة فى أطفيح

وصل الجنرال دافو بفرسانه الى المنيا كما قلنا وتابع سيره الى بنى سويف ، ومن هناك عزم على عبور النيل لقمع الثورة التى ظهرت فى مديرية اطفيح ، ولكن الجنرال دوجا أرسل يستدعيه على عجل الى القاهرة اذ بدأت الحالة تضطرب فيها من أجل حركات الهياج التى ظهرت فى بعض أنحاء الوجه البحرى (٢) وكانت القوات الفرنسية

---

(١) رسالة ديتريس الى الجنرال دوجا فى ٢٧ ابريل سنة ١٧٩٩

(٢) انظر الفصل الثالث من الجزء الثانى

قد نقص عددها فى القاهرة والوجه البحرى عامة لما أخذه معه نابليون من الجنود فى حملته على سوريا ، فاضطر دافو أن يعود من فوره الى القاهرة فأحدثت عودته نقصاً فى صفوف الجنود الفرنسية فى الصعيد

وأرسل الجنرال ديزيه الى الجنرال دوجا يشكو من عواقب استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إذ كان أكثر اعتماده فى قمع الحركات الثورية فى الصعيد على فرقة الفرسان هذه ، وقد نبهه فى رسالته الى الخطر الذى يتهدد الفرنسيين فى بنى سويف وان وجود الجنرال دافو ضرورى لهذه المديرية

## حركات الجنرال ديزيه

كان ديزيه مقيما فى قنا حينما أنفذ الجنرال دافو لقمع الثورة فى مديريات جرجا وأسيوط والمنيا ، فلما وصلته أنباء معركتى برديس وجرجا ورأى فيها خطورة الثورة عزم على مغادرة قنا واللحاق بدافو ليساعده فى مهمته ، فناط بالجنرال بليار قيادة الحركات العسكرية فى قنا وادارة مديرية طيبة (قنا) وغادر هو قنا يوم ١٣ ابريل سنة ١٧٩٩ فسار بجنوده براً ونقل المؤن والذخائر على السفن ومشت الفرقة منشدة لترافق السفن ولا تبتعد عنها ، ويظهر أن الجنرال ديزيه قد اعتبر بما حل بالسفن الفرنسية من قبل اذا هى تخلفت عن جنود البر فآثر ان يحاذيها بجنوده على الشاطىء ولم يصل جرجا الا يوم ١٧ ابريل مساء فأرسل منها تعلياته إلى الجنرال بليار كلفه فيها مواصلة العمل على سحق حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن ورجالهما ونصح اليه أن يجمع ثلثمائة هجين لنقل جنوده الى الجهات التى تظهر فيها الحركات الثورية وبذلك تطوى له المسافات طياً ، وأمره أن يحتل القصير ويوطد السلطة الفرنسية على سواحل البحر الاحمر وأن ينظم مديرية طيبة تنظيما بالغاً ويجمع أموال الميرى وينظم الشرطة بها ، وأوصاه بالصرامة والقسوة فى إخضاع الأهالى ، قال فى رسالته فى هذا الصدد « ان هذه هى الوسيلة التى نحصل بها على شىء من النفوذ والسلطة والطمأنينة ، وعليك أن تأمر بقطع رأس كل من لا يطيع أوامرك من مشايخ البلاد (العمد)

وقطع النخيل و إحراق القرى الثائرة وأن تتحرى وتبحث لمعرفة القرى التى اشتركت فى الهجوم على سفننا وفى المذبحة التى أودت برفاقنا التعساء ( فى بارود ) وان تعاقبوها بأشد ما يمكن من القسوة ، وأن تفرضوا عليها غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال »

### مشروع الحملة على القصير

وعنى ديزيه أشد العناية بالحملة على القصير فكتب عدة رسائل يستحث فيها الجنرال بليار لانفاذها اذ يرى فيها طريقة فعالة فى إرساخ قدم الفرنسيين فى الوجه القبلى ، فالقصير هو الثغر الوحيد الواقع على البحر الاحمر الذى يصل منه المدد الى بلاد الوجه القبلى فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالى فى مقاومة الفرنسيين ، وكان الانجليز يترددون من آن لآخر على هذا الثغر فانزعج الفرنسيون من هذه الحركات وعزم ديزيه على احتلال هذا الموقع لسد المدخل الى الوجه القبلى

### تنظيم البريد

ورأى ديزيه وهو فى جرجا أن ينظم البريد بين الحاميات الفرنسية ليجعل بينها اتصالا مستمراً يقيها المفاجآت وناط حمل البريد بفرسان مسلحين يقطعون مراحل محدودة ويتغيرون عند كل مرحلة الى أن تصل الرسائل الى الجهة المقصودة وأمر أن يسافر البريد كل يوم من جرجا حتى يصل الى قنا وقسم المسافة بين جرجا وقنا الى المراحل الآتية :

من جرجا الى برديس ، من برديس الى فرشوط ، من فرشوط الى هو ، من هو إلى دشنا ، من دشنا الى السمطا ، من السمطا الى قنا ، وطلب ديزيه من بليار أن ينظم البريد على هذه الطريقة من قنا إلى إسنا ، وكلفه أن يأمر ( قائمقام ) كل بندر أن يكون معداً لنقل البريد يومياً فى منطقته .

### اعتقال الرهائن

سار ديزيه من جرجا يوم ١٨ ابريل قاصداً إلى أسيوط فمر بالمنشاة فسوهاج

فطهطا فالقنايم وقضى أياماً يتفقد أحوال تلك البلاد و يدبر الوسائل لاخضاعها ثم وصل يوم ١٥ مايو الى أسيوط فاتخذها مركزاً لقيادته وقضى عدة أسابيع فى إعداد الوسائل والتدابير لاخضاع البلاد وتنظيم قوات الشرطة ، وقد رأى فى رحلته الأخيرة بمديريتى جرجا وأسيوط أن الحاميات الفرنسية لا قبل لها باخضاع الاهالى فلجأ الى اعتقال بعض الاعيان بصفة رهائن من كل بلد ليكونوا مسؤولين عن الحوادث والاضطرابات فى بلادهم و بلغ عدد هؤلاء الرهائن الذين اعتقلهم من جرجا وما يليها الى أسيوط مائتى رجل من الأعيان أبقاهم أسرى فى أسيوط وكتب الى الجنرال بليار يوصيه باعتقال الرهائن من منطقته وأن يكون عددهم أكثر مايبلغه الامكان

وقد كان لدى ديزيه من التدابير الحربية الهامة احتلال القصير وتجريد حملة من الهجانة لمحاربة مراد بك وكان لا يزال مرابطاً فى الصحراء ، ومطاردة مماليك حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن فى جهات اسوان ، ومع أن مراد بك لم يكن معه من فلول المماليك سوى عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة مملوك فان ديزيه لم يجد لديه القوة الكافية لغزوه فى معقله وكان استدعاء الجنرال دافو وفرسانه الى القاهرة قد أضعف قوة الجيش الفرنسى فى الصعيد وآل بها الي النقص

## واقعة اسوان

## ١٦ مايو سنة ١٧٩٩

انسحبت فلول حسن بك الجداوى بعد معركه بئر عنبر[١] جنوباً الى ما وراء الشلال ولما آنست من الجنود الفرنسية ضعفاً اقتربت من اسوان مترقبة الفرصة لاحتلالها ومناوشة الحاميات الفرنسية على النيل . وكان الضابط إبلر Eppler مرابطاً فى اسنا بكتيبة من خمسمائة جندى يراقب حركات حسن بك الجداوى ويمنع عودته من وراء الشلال على أن حسن بك تقدم برجاله واحتلوا اسوان وامتنعوا به وتقدمت طلائعهم شمالا فوصلوا الى ( دراو ) فسار اليهم الكابتن رينو

(١) انظر ص ٤١٨

من ادفو بكتيبة من الجنود ولكنه لم يدركهم بدراو فتعقبهم الى أن التقى Renaud
بهم على بعد فرسخين الى جنوب اسوان فنشبت بين الفريقين يوم ١٦ مايو معركة
شديدة جرح فيها حسن بك الجداوى جرحاً بالغاً وأصيب عثمان بك حسن وانتهت
المعركة بهزيمة المماليك بعد ان فقدوا خمسين قتيلا وستين جريحا وفاز الفرنسيون عليهم
فوزاً عظيما وصفه نابليون في مذكراته التى أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين
بأنه « أجمل انتصار فى حملة مصر » ويقول نابليون ان الفرنسيين قد حاربوا فى هذه
المعركة جمعاً مؤلفاً من ١٨٠ من المماليك و٢٠٠ من العرب و٣٠٠ من الاهالى ،
ويقول الجنرال بليار فى رسالة عن هذه المعركة ان الفرنسيين خسروا فيها ثلاثة
قتلى و١٥ جريحاً

انسحبت فلول المماليك بعد هذه المعركة الى ما وراء اسوان على مسيرة يومين
مضعضعة القوى ، وهذه هى المرة الثالثة التى انسحب فيها المماليك الى ما وراء الشلال
منذ ابتداء الحملة على الوجه القبلى ، ولم يبق من رؤساء المماليك بعد هذه الهزيمة
سوى مراد بك وحده بلا حول ولا قوة معتصما بالواحة الخارجة التى تبعد عن أسيوط
ثلاثة أيام .

## احتلال القصير

## ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩

اطمأن الفرنسيون بعد هذه المعركة على موقفهم الحربى فانتهز الجنرال بليار هذه
الفرصة لتجريد حملة على القصير بعد أن أعدّ لها المعدات الكافية ، فسار من قنا
يوم ٢٦ مايو ومعه الجنود والمدافع والجمال لنقل الجنود والمؤونة والذخائر فوصلت الحملة
الى القصير واحتلتها يوم ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٣) واحتلت
قلعتها بدون مقاومة (١)

---

(١) كتب الجنرال بليار من القصير الى الجنرال ديزيه رسالة بتاريخ ٣٠ مايو
سنة ١٧٨٩ عن احتلال القصير قال فيها « ان القصير واقعة على البحر الاحمر وعلى

غادر الجنرال بليار القصير يوم أول يونية وترك بها الجنرال دنزلو Donzelot ومعه قوة من الجنود فى عتادهم من المدفعية والذخائر وعاد هو الى قنا

وقد طرب الفرنسيون لاحتلال ميناء القصير التى تعد مفتاح الوجه القبلى من طريق البحر الاحمر واعتبروا احتلالها ختام الحركات الحربية التى تم بها فتح الصعيد، وكافأ نابليون كلا من الجنرال ديزيه والجنرال بليار والجنرال فريان على حسن بلائهم فى الحملة على الصعيد فأهدى الجنرال ديزيه سيفا جميلا مكتوباً على صفحته « فتح مصر العليا »

وأهدى الجنرال بليار سيفاً مكتوباً عليه « معركة أبنود ـ فتح القصير »

وأهدى الجنرال فريان سيفاً آخر، وعزم ديزيه أن يجرد حملة من أسيوط على الواحة التى كان مراد بك مرابطاً بها لكن مراد بك غادرها مخترقا الصحراء شمالا عازماً على اللحاق بالمهدى فى البحيرة لما علم بانتصاراته الاولى (١) فعدل ديزيه عن تجريد حملة على الواحة واطمأن على سلطته فى الصعيد

الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة وكان الاهالى متحفزين للانتقاض على الحاميات الفرنسية كلما سنحت لهم الفرصة بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية

---

طرف الصحراء وهى قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها من اربعمائة الى خمسمائة نسمة، وقد قابلنا بها مشايخ البلد وكان من بين سكانها من اشترك فى واقعة ابنود ففروا الى الصحراء، أما قلعة القصير فهى لا بأس بها وهى متسلطة على البلدة وبعيدة عن البحر بحيث لاتصل اليها مدافع البوارج الانجليزية التى تستطيع أن ترسو تجاهها والقلعة محتاجة إلى مايصلحها وقد تكفل بذلك الجنرال دنزلو وسيبذل فى القصير غاية جهده لجعلها موقعا حصينا فى مأمن من الطوارىء »

(١) انظر الفصل الثالث من الجزء الثانى

فى تلك الاصقاع بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده وبالرغم من وسائل القسوة والارهاب التى اتبعوها فى اخضاع البلاد

كتب نابليون الى حكومة الديركتوار تقريراً عن الحملة على الوجه القبلى أرسله من القاهرة بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ عقب عودته من سوريا قال فيه :

« ان احتلال القصير والسويس والعريش قد أقفل طريق الوصول الى مصر من جهة البحر الاحمر وسوريا اقفالا محكما ، كما أن تحصين الاسكندرية ورشيد ودمياط يحبط كل هجوم من البحر الابيض ويضمن الى ماشاءالله للجمهورية الفرنسية امتلاك مصر تلك البقعة الجميلة فى العالم التى سيكون للحضارة أكبر أثر فى انهاضها واحياء عظمتها القومية ، ولاغرو فهى أقدم بلاد عرفها التاريخ ، لقد انسحب مراد بك مع البقية الباقية من رجاله الى الواحة ، وسنطرده من هناك ، وحسن بك الجداوى هو الآن على مسيرة ١٥ يوماً جنوب الشلال ، وقدأخضعنا معظم القبائل وأخذنا منها الرهائن وبدأ الفلاحون يدركون الحقائق ولايستمعون لتحريض أعدائنا ، على أن القلاع العديدة التى أنشأناها مابين مرحلة وأخرى كفيلة باخضاعهم اذا تنكرت منهم النية أوساءت مقاصدهم »

فنابليون يعترف فى تقريره بأن القوة المسلحة هى الأداة التى يعتمد عليها فى توطيد السلطة الفرنسية فى تلك الاصقاع ، وهذا ينطبق تماما على رأى الجنرال ديزيه فى رسائله الى نابليون والى الجنرال دوجا فقد كتب الى نابليون يقول « اننا دائما محاطون بالاعداء، وان صعوبة المواصلات المهددة غالباً بالانقطاع و بعد المسافات تمنعنى من أن أكتب لك عن أخبارنا بمقدار ما أرغب، اننا فى حاجة الى الجنود لأن فرقتى قد أنهكها التعب واجتاحتها الامراض وبخاصة الرمد الذى انتشر بين الجنود انتشاراً فظيعاً ، وان من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا الا بمتاعب وحملات شاقة لاهوادة فيها ، والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة اذا بدر منا ضعف أو تراجع ، وانى مضطر الى إرهاق الجنود وجعلهم دائما على سفر لانهم الوسيلة التى نستطيع بها تحصيل الضرائب »

وكتب الى الجنرال دوجا[١] يقول « ان الحالة لم تتغير ، والبلاد من اسنا الى أسيوط هى فى الوقت الحاضر هادئة ، ولكنى لم أبلغ هذا الهدوء الا من وسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المنهكة للقوى ، وسأجوب البلاد من أسيوط الى المنيا وأجمع ما انكسر من الضرائب ، وأنتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت فى مديريتى أسيوط وجرجا ، ولا يدخلنى الشك فى أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما الدعامتان اللتان قامتا بالهدوء الحالى »

فالقوة المسلحة ، والقسوة ، والارهاب ، والفظائع ، هى الوسائل التى تذرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة فى الصعيد ، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لاعداد لها ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال ، وصار ديزيه يحارب حربا لانهاية لها فى ميدان واسع مترامى الاطراف يمتد من الجيزه شمالا الى اسوان جنوبا ومن القصير شرقا الى واحات الصحراء الكبرى غربا دون أن يصل الى إخضاع البلاد إخضاعا تاما أو إقرار السلطة الفرنسية فيها

والآن ، وقد انتهينا من الكلام على المقاومة فى الوجه القبلى ، فلننتقل الى القاهرة والوجه البحرى لنتبين الحوادث التى وقعت بعد اخماد ثورة القاهرة الاولى[٢] ، وموعدنا الجزء الثانى من الكتاب

---

(١) رسالة ديزيه الى دوجا من أسيوط فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٩

(٢) عبرنا عنها بالاولى تمييزا لها عن ثورة القاهرة الثانية التى شبت فى مارس سنة ١٨٠٠ والتى بسطنا الكلام عنها فى الفصل التاسع من الجزء الثانى

# الفصل الثامن عشر

## وثائق تاريخية

### وثيقة رقم ١

### أعضاء لجنة العلوم والفنون

### الذين استصحبهم نابليون فى مصر

### احصاؤهم وبيان أسمائهم ( أنظر ص ٧٩ )

#### علماء الرياضيات

المسيو مونج Monge ، فورييه Fourier ، كوستاز Costaz ، مالوس Malus ، ساى Say ، شاربو Charbaud ، مورى Moret ، كورانسز Corancez ، فوزو Fuzeau ، برنجيه Bringuet ، بوشار Bouchard

#### الفلك

نوى Nouet ، بوشان Beauchamp ، كينو Quesnot ، ميشين الصغير Mechain fils

#### الميكانيكا والطيران

كونتى Conté ، كوتل Coutelle ، هاسنفرتز Hassenfratz ، لومون L'Homont ، أدنيس الكبير Adnès père ، أدنيس الصغير Adnès fils ، سيرو Sirop ، كوفرور Couvreur ، أيمى Aimé ، كولان Collin ، هيرو Hérault ، بلازانيه Plazanet

#### الكيمياء

برتوليه Berthollet ، ديكوتيل Descotils ، شامبى الكبير Champy père ،

صامويل برنار Samuel Bernard، بوتييه Potier، شامبي الصغير Champy fils رينو Regnault .

## طبقات الارض والمعادن

دلوميو Dolomieu ، كوردييه Cordier ، روزيير Rozières ، فكتور ديبوى Victor Dupuy

## النباتات

نكتو Necloux ، دليل Delile ، كوكبير Coquebert

## حياة الحيوان

جوفروا سانت هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، سافيني Savigny ، جيرار Gérard .

## الطب والجراحة

ديبوا Dubois ، بوكفيل Pouqueville ، لا بات Labate ، لاسيبير Lacipière ، ديبوا الصغير Dubois fils، بسيير Bessières، دابيرون Daburon دويفر Dewèvre (١)

## الصيدلة

روييه Royer ، بوديه Boudet ، روجن Roguin

---

(١) لم يرد فى هذا البيان بعض الاطباء الذين ذكرهم الدكتور دينيت كبير أطباء الحملة فى كتابه (التاريخ الطبي لجيش الشرق) وهم بروبان Bruant، سيريزول Ceresole . باربيس Barbès ، رناتى Renati ، سافاريزى Savaresi ، فوتيه Vautier فرنك Frank ، سالز Salze ، بونييه Pugnet

الاقتصاد السياسى

بوريين Bourienne ، دانجلى D'angely جلوتييه Gloutier ، تاليان Tallien

العاديات والآثار

بورليه Pourlier ، ريبول Ripault ، بانوزن Panuzen ،

هندسة المعمار

بروتان Protain ، نورى Norry ، بالزاك Balzac ، لوبير Le Pere ،

ديمولان Demoulin

التصوير

ريجو Rigo ، ردوتيه Redoute ، جولى Joly.



سراى قاسم بك بالناصرية

حيث كان يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون

الرسم

فيفان دينون Vivant Denon ، دوترتر Duterire ، بورتال Porlal ، كا كى Caquet بيرى Peré

هندسة الرى والقناطر والطرق

لو بير الكبير Le Père aîné جيرار ، Girard (والاثنان كبيرا المهندسين) فاى Faye ، جالوا Jallois ، جراتيان لو بير Gratien Le Père ، سان جنيس Saint Genis ، لانكرى Lancret ، فيفر Fèvre شابرول ، Chabrol ، رافينو دليل



المجمع العلمى بالقاهرة سنة ١٧٩٨
(سراي حسن كاشف شركس بالناصرية حيث المدرسة السنية الآن)
وترى نابليون واقفاً فى قاعة الجلسات يحيط به لفيف من أعضاء المجمع

ديبوا ايمى Raffeneau Delile ، ارنوليه Arnolet ، ڤافييه Favier ، Dubois - Aymé ، دفيلييه Devilliers ، مولين Moline ، مارتان Martin ، بودار Bodard ، ديفال Duval ، تيفينو Thevenot

المندسة الجغرافية

تستفيود Testevuide (كبير المهندسين الجغرافيين) ، جا كوتان Jacotin ، سيمونل Simonel ، شوانى Schouani ، لاتويل Lathuille ، لفياد Lefeuillade ، برتر Bertre لسين Lecesne ، بورجوا Bourgeois ، لدوك Le Duc ، دليون Dulion ، فورى Faurie ، ليفيك L'Evèque ، لاروش Laroche ، جومار Jomard ، كورابوف Coraboeuf

المهندسة البحرية

بوشيه Boucher ، شومون Chaumont ، جرسليه Greslé ، ڤانسان Vincent ، بونجان Bonjean

المهندسة الميكانيكية البحرية

سيسيل Cecile

هندسة الآلات الرياضية

لنوار الصغير Lenoir fils

صناعة الساعات

لومتر Lemaître

النقش

كاستى Casteix

الحفر

فوكيه Fouquet

الآداب

برسفال دجرانميزون Parseval De Grandmaison عضو الاكاديمية الفرنسية ، أرنو Arnault عضو الاكاديمية الفرنسية (١) ، لروج Lerouge ، بنابن Bénaben

الموسيقى

فيلوتو Villoteau ، ريجيل Rigel

طلبة مدرسة الهندسة (٢)

كارستى Caristie ، دشانوا Duchanoy ، بوتيه Pottier ، جومار الصغير Jomard jeune ، فانسان Vincent ، فيار Viard ، اليبير Alibert

الترجمة

فانتور Venture ، ماجالون Magallon ، لوماكا L'Homaca ، أميدى جوبير Amedée Jaubert ، دلابورت De Laporte (والاثنان من تلاميذ مدرسة العلوم الشرقية بباريس) ريج Raige ، براسرفيتش Bracevich ، بلتيت Belleteste

الطباعة العربية والفرنسية

مارسل Marcel مدير المطبعة ، بونتيس Puntis . جالان Galland . بودوان Bouduin ، بسون Besson من موظفى المطبعة (٣)

وقد اعتمدنا فى هذا البيان على إحصاء المسيو (ريبو) فى كتابه التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية بعد أن أضفنا اليه اسم (لومتر) فى صناعة الساعات ، فصار عدد الاعضاء ١٤٦ عضواً ، ولم يدخل فى هذا البيان بعض رجال العلوم ممن شغلوا

---

(١) تخلف فى الطريق ولم يحضر الى مصر

(٢) انتظم بعض طلبة مدرسة الهندسة فى سلك لجنة العلوم والفنون ونال بعضهم الاجازة النهائية للمدرسة وهم فى مصر بعد أن أدوا الامتحان أمام لجنة ألفها نابليون فى القاهرة لهذا الغرض من العلماء مونج ، وبرتوليه ، وفوربيه

(٣) عدا نحو ١٨ عاملا من جامعى الحروف

مناصب فى جيش الحملة كالمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ، والمسيو استيف مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية والدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة ، والدكتور لارى كبير الجراحين ، وقد أوردنا ترجمة طائفة من هؤلاء الاعضاء بالفصل الرابع (١)

وثمّ احصاء آخر يزيد عن الاحصاء المتقدم ورد فى « يوميات » المسيو دفيلييه أحد مهندسى الحملة (٢) ، ذلك انه أضاف الى الاعضاء المتقدم ذكرهم نحو ثلاثين من القواد والضباط الذين اشتركوا فى العمل مع أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان بعضهم أعضاء فى المجمع العلمى ، وبحسب احصاء المسيو دفيلييه يبلغ عدد الاعضاء ١٧٥ عضواً وذلك عدا العمال الفنيين

## وثيقة رقم ٢

### شكر (الديوان) للمسيو (لوبير) كبير المهندسين على تعمير مقياس الروضة

( انظر ص ١٢٥ )

« من محفل الديوان العالى بمصر المحروسة »

« خطاباً الى حضرة الستويان(٣) الخواجا لوبر رئيس المهندسين وفقه الله تعالى الى الخير آمين

« أما بعد الدعاء لكم بخير انه بلغ الناس حسن صنيعكم وصواب تدبيركم واتقان هندستكم فى تشييد وتعمير مقياس النيل السعيد الذى يعم نفعه ويشمل خيره فى

---

(١) ص ١٢٣ وما بعدها

(٢) انظر ما كتبناه عنه ص ١٢٨

(٣) مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » كما بينا ذلك بهامش ص ١٠٢

القريب والبعيد ، فان اقليم مصر أجلّ الاقاليم وأبهج الاراضى أجمعين ، وخيره وزروعه تعم سائرالاقطار وينتفع بها الآدميون والمواشي والطيور والوحوش فى القفار ، ومعين خيره وأساس نعمته هذا النيل المبارك الذى هو أفضل البحار والانهار ، فقد هندستم وأتقنتم محل رحاله وأساس قياسه وبنيانه ، فكانت هذه مزية منكم وثمرة ونتيجة من نتائج أفكاركم العزيزة فرحت بها الناس أجمعين، وشكروا احسان حضرة سر العسكر الكبير (١) ، وعلموا كمال عقلكم بسبب ما اتقنتموه وأحكمتموه فى هذا المحل الشامل نفعه والمشهور فى سائر الاقطار ،شكر الله معروفكم والسلام ختام

| مسجل بالديوان | الفقير | الفقير |
| --- | --- | --- |
| فى ٧ شعبان | محمد المهدى | عبد الله الشرقاوى |
| سنة ١٢١٥ (٢) | كاتم سر الديوان | رئيس الديوان(٣) |

## وثيقة رقم ٣

### رسالة نابليون الى أبى بكر باشا والى مصر

### قبل رسو العمارة الفرنسية بالاسكندرية

( أنظر ص ١٧٨ )

« على ظهر البارجة ( أورين ) فى ١٢ مسيدور من السنة السادسة ( ٣٠ يونيه سنة ١٧٩٨ )

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية قد ضبطت غير مرة من المتاعب عقب

---

(١) الجنرال منو

(٢) يوافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ وهذا التاريخ يقع فى عهد قيادة الجنرال منو

(٣) نقلنا هذا الخطاب بنصه العربى عن كتاب ( تخطيط مصر ) الجزء الخامس عشر

بكوات مصر الذين كانوا يرهقون التجار الفرنسيين بمختلف أنواع الايذاء والاعتداء، وصرح الباب العالى بأن أولئك البكوات قد تمادوا فى أطماعهم وأهوائهم ، وتنكبوا سبيل العدالة والاستقامة ، وأنه لايقرهم على اساءة معاملة أصدقائه الفرنسيين الأوفياء ، ولا يراهم جديرين بعطفه وحمايته ، وعلى ذلك قد اعتزمت الجمهورية تجريد جيش جرّار للقضاء على مظالم البكوات المماليك ، كما اضطرت ان تجرد حملات فى خلال القرن الحالى على بكوات تونس والجزائر ، ويقينى أنك وأنت الذى يجب أن يكون حاكم البلاد ومع ذلك قد سلب منك البكوات كل حول ونفوذ وجعلوك فى القاهرة رهن إرادتهم لابد أن تقابل حضورى الى هنا بالسرور والارتياح ، ولعله قد وصل الى علمك أنى ما حضرت بنيات عدائية نحو القرآن أو نحو السلطان وانك تعلم ان الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى أوروبا ، فبادر الى مقابلتى واشترك معى فى استنزال اللعنات على طائفة المماليك الممقوتة بونابارت [١] »

## وثيقة رقم ٤

### رسالة نابليون

### الى ادريس بك قومندان السفينة التركية فى الاسكندرية

( أنظر ص ١٧٨ )

« على ظهر البارجة ( أوريان ) فى ١٣ مسدور من السنة السادسة ( أول يوليه سنة ١٧٩٨ )

« إن البكوات قد أرهقوا تجارنا بمختلف أنواع الايذاء والتعدى ، وقدجئت لاطلب منهم حسابا عما فعلوا

« وسأكون غداً فى الاسكندرية ، ولا يساورك أى قلق من حضورى فانك

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٩

تابع لصديقنا الكبير السلطان ، فعليك أن تسلك الخطة التى تتفق مع هذه الصداقة ، أما إذا أتيت عملا عدائيا ضد الجيش الفرنسى فسأعاملك معاملة الأعداء أعداءهم ، وهنالك تقع التبعة عليك وحدك لأن ذلك أبعد ما يكون عن رغبتى وعواطفى
بونابارت (١) »

## وثيقة رقم ٥

### منشور نابليون إلى الجنود

### قبل رسو العمارة الفرنسية

( أنظر ص ١٨١ )

« المعسكر العام على ظهر البارجة ( أوريان ) فى ٤ مسيدور من السنة السادسة ( ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ (٢) )

« أيها الجنود

« إنكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى فى حضارة العالم وتجارته ، وستنالون من انجلترا بضربة هى أشد ما يصيبها فى الصميم إلى أن تتمكنوا من ضربها الضربة القاتلة

« سنجتاز فى هذه البلاد رحلات متعبة ، وسنخوض فيها معارك عدّة ، على أن النصر سيكون حليفنا فى كل خطواتنا لأن العناية تلحظنا

«ولا تنقضى أيام معدودات على نزولنا الى البر حتى نمحق المماليك الذين يناصرون التجارة الانجليزية ويخصونها بالمساعدة و يرهقون تجارنا بمختلف الاتاوات والاهانات و يسومون سكان وادى النيل الظلم والاضطهاد

« إن الشعب الذى سنتصل به يدين بدين الاسلام وأول أركانه شهادة أن لا إله إلا الله

---

(١) مراسلات بونابارت الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢١

(٢) أذيع على الجنود يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨



جسر المراكب ( الكوبرى ) الذى أنشأه الفرنسيون بين القصر العينى والروضة (انظر ص١٤٩)

وأن محمداً رسول الله ، فلا تعارضوهم فى دينهم وعاملوهم كما عاملتم اليهود وكما عاملتم الايطاليين ، واحترموا مشايخهم ومفتيهم وأئمتهم كما احترمتم الربانيين والأحبار والقساوسة ، وليكن شعاركم فى معاملة المساجد والشعائر الدينية التى يأمر بها القرآن ذلك التسامح الذى كان رائدكم حيال الكنائس والصوامع والبيع والتعاليم الموسوية والمسيحية ، فان الجيوش الرومانية كانت تحمى الأديان كلها على السواء

« وستجدون هنا عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فعليكم أن تألفوها ، وإن الشعب الذى سنقيم بينه يعامل النساء على غير عاداتنا ، ولكن الاعتداء على أعراض النساء فى كل بلد جريمة لا يقدم عليها إلا الوحوش

« واعلموا أن النهب لا يعود بالنفع إلا على طائفة قليلة من الناس ولكنه يدنس شرفنا ويقضى على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التى تقضى مصلحتنا بأن نكسب ودها

« وإن أول بلدة ننزل بها قد بناها الاسكندر ، وسنجد عند كل خطوة نخطوها بها آثاراً مجيدة جديرة بأن تثير إعجاب الفرنسيين وغيرهم      بونابارت[1] »

## وثيقة رقم ٦

### خطبة نابليون بالازبكية

### فى الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية

### يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

( انظر ص ٢٧٢ )

أيها الجنود

نحتفل اليوم بمستهل السنة السابعة للجمهورية

منذ خمس سنوات خلت كان استقلال الشعب الفرنسى مهدداً ، ولكنكم

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٠



ميدان الأزبكية فى أواخر القرن الثامن عشر، وكانت مياه النيل تغمره فى أيام الفيضان فيصير لجة يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والليل ( انظر ص ٦٠ )

جاهدتم فاحتللتم ( طولون ) ، فكان هذا الاحتلال فاتحة انهيار صرح الاعداء
ولم ينقض عام حتى هزمتم النمسويين فى ( ديجو )
وفى السنة الثالثة رفعتم علم النصر فوق قمم جبال الالب
ومنذ عامين كنتم تهاجمون ( مانتو ) وحزتم ذلك النصر الباهر فى ( سان جورج )
وفى العام الماضى بلغتم منابع نهرى (الدراف) و(الايسونزو ) بعد أن انتصرتم فى المانيا ،
فمن كان يظن يومئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل فى بطن القارة القديمة

إن الشعوب شاخصة اليكم ترمقكم بأبصارها على اختلاف أجناسها ، يستوى فى ذلك الانجليزى الذى ثقفته التجارة والفنون والبدوى الذى يعيش عيشة الغلظة والوحشية

أيها الجنود

إن مستقبلكم مجيد لانكم جديرون بما قمتم به من جلائل الاعمال وبما حزتم من الثناء ، ولئن كتب عليكم الموت فستنالون موتاً شريفاً كدأب أولئك الابطال الذين نقشت أسماؤهم على هذا الهرم ، وإذا عدتم الى الوطن فكم ستعودون مكللين بتاج الفخار حائزين إعجاب الشعوب جميعاً

مضى علينا ستة أشهر مذ برحنا القارة الأوروبيه ومن يومئذ ونحن مغمورون على الدوام بسيل لا ينقطع من عواطف مواطنينا الذين ترمقهم أبصارهم فى كل آن ، فاليوم يشارككم فى هذا الاحتفال أربعون مليوناً من المواطنين يحتفلون باقامة الحكم الدستورى ويتجهون إليكم بأفكارهم وعواطفهم ، ويذكرون فى احتفالهم أنهم مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام ، والطمأنينة ، والرخاء ، والحرية الوطنية

بونابارت (١)

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٦٥

## وثيقة رقم ٧
## واقعة المنصورة
( انظر ص ٣٣٦ )

تنشر هنا نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ بفرض الغرامات على بعض البلاد وبخاصة المنصورة وأهلها

أمر

المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ فركتيدور من السنة السادسة ( ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ )

بونابارت القائد العام يأمر بما هو آت

المادة الأولى — توقف الغرامات التى ضربت على بلاد مديرية المنصورة

المادة الثانية — تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة آلاف ريال تفرض على الأغنياء من أهلها عقابا لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا

المادة الثالثة — يدفع السيد على الشناوى أحد أهالى المنصورة غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال ، وفى مقابل ذلك يُعطَى أمانا على نفسه وعلى أملاكه وأمواله

المادة الرابعة — تفرض غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال على أسوأ البلاد سلوكا فى مديرية المنصورة

المادة الخامسة — تفرض غرامة ٤٠٠٠ ريال بشكل سلفة على أغنياء التجار والأعيان فى المحلة الكبرى

المادة السادسة — تدفع هذه المبالغ الى أمين خزانة فرقة الجنرال دوجا وتكون تحت تصرف مدير مهمات الجيش وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش وادارتها واستئجار المراكب والنفقات المطلوبة للفرقة

المادة السابعة — على كبير المباشرين تنفيذ هذا الامر بونابارت(١)

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠١

هذاوقد بحثنا عن اسم (السيدعلىالشناوى)الوارد فى أمر نابليون وعن أسرته فتحققنا بعد الاطلاع على مستندات و وثائق خطية وحجج قديمة أنه الجد الثانى لعلى افندى حسن الشناوى أحد أعيان المنصورة الحاليين ، وقد أطلعناحضرته على (فرمان أمان) صادر لجده المذكور فى أوائل عهد محمد على باشا وممهور بختم محمدعلى (والى مصر) ومؤرخ ١٧ صفر سنة ١٢٢١ هجرية ، وهـذا التاريخ يوافق ٧ مايو سنة ١٨٠٦ ، أى ان السيد على الشناوى المذكور نال (عهد الامان) من نابليون ثم من محمد على والمدة بين العهدين لاتتجاوز ثمانى سنوات ، وقد آثرنا أن ننقل هنا عهد الأمان الصادر له من محمد على لأنه من مقـارنة تاريخ الوثيقتين يتبين أنه هو المقصود بأمر نابليون المؤرخ سنة ١٧٩٨ ، واليك نصـه بألفاظه وعباراته القديمة المألوفة فى ذلك العصر

« إعلاماً بها بالامان الكافى الى السيد على الشناوى بالمنصورة تحيطون علماً اننا قد عفونا عنكم وأعطينا كم الامان الكافى أمان الله تعالى وأمان رسوله الكريم ثم أماننا السعيد ولم تخش من شيء جملة كافيـة وتكون مشغول بأسبابك وأحوالك ولم لك من طرفنا ومن طرف خلافنا الاكل الحماية والصيانة ولم أحد يتعرض لك ولا يعارضك وتكون مطمئن القلب والخاطر اعلم واعتمده غايت الاعتماد

١٧ ص سنة ٢٢١ محمد على والى مصر (ختم) »

واطلعنا على حجج أوقاف قديمة ترجع الىعهد يقرب منتاريخ أمر نابليون و رد فيها اسم السيد على الشناوى المذكور موصوفا « بفخر الأشراف المعظمين السيد الحاج على الشناوى من أعيان التجار بالمنصورة »

# الفصل التاسع عشر

## مراجع البحث

وصلنا الى فصل من أهم فصول الكتاب وهو بيان مراجع البحث ، ونقصد منها المصادر الأصلية التى رجعنا إليها ، ونريد بالمصادر الأصلية الكتب والرسائل التى وضعها شهود العيان المعاصرون للحوادث التي أثبتناها ، وكذلك الوثائق التاريخية الخاصة بهذه الحوادث، وسنذكر هذه المصادر مرتبة بحسب ترتيب الحوادث والفصول فى الجزءين الأول والثانى من الكتاب لأن هذين الجزءين يؤلفان حلقة واحدة ولها مصادر واحدة

## عن نظام الحكم فى عهد المماليك

— تاريخ ابن إياس المعروف « ببدائع الزهور ووقائع الدهور » الجزء الثالث، وابن إياس قد شهد الفتح العثمانى والسنوات الاولى من حكم الأتراك

— « الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة » لمحمد بن ابى سرور البكرى الصديقى ويحتوى أخبار ولاة مصر فى عهد الحكم العثمانى الى سنة ١٠٥٤ هجرية ومن وليها من قضاة العسكر ، وقد أدرك المؤلف القرن السابع عشر وشهد الحكم التركى وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية ( ١٦٤٥ ميلادية )

— « عيون الاخبار ونزهة الابصار » له ، ويحتوى تاريخ مصر مع فذلكة من تاريخ الخليقة ، ونبذة من تاريخ الفرس والروم والخلفاء فالدول التى تعاقبت فى مصر الى انتهاء الدولة الجركسية

— « المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية » له فى تاريخ سلاطين آل عثمان الى غاية سنة ١٠٢٩ هجرية

## رحلات الافرنج

كذلك رجعنا الى رحلات الافرنج فى عهد الحكم العثمانى وما كتبوه فى وصف مصر ومعظمهم قد تكلم عما شهده من نظام الحكم فيها ، واليك أهم الرحلات التى رجعنا اليها و بيان تواريخها

— رحلة بيير بيلون Pierre Belon وهو طبيب فرنسى ساح فى مصر والشرق من سنة ١٥٤٦ الى ١٥٤٩ وهى أول رحلة بعد الفتح العثمانى طبعت سنة ١٥٥٣

Sıgularité et choses memorables trouvés en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays etranagers

— رحلة سيزار لامبرت Cesar Lambert وهو تاجر فرنسى هبط الى مصر سنة ١٦٢٧ و٢٨ و ٢٩ و ١٦٣٢ وقد وصف فى رحلته ما شهده فى الاسكندرية والقاهرة و بعض البلاد الاخرى وتكلم عن تجارة مصر ومالية الحكومة المصرية

— رحلة جاك البرت Jacques Albert سنة ١٦٣٤ ، نشرت فى كتابه (حالة مصر والحكومات التابعة لها)

Etat L'Egypte et des Gouvernements qui en dependent

— رحلة سانتوسيجويزى Sants Seguezzi سنة ١٦٣٥ وهو سائح ايطالى كتب عن (حالة مصر المالية وايراداتها) Etat des revenus De' LEgypte

— رحلة تيفنو Thevenot فى الشرق

· Relation d un voyage fait au Levant p. Thevenot

تتضمن مشاهداته فى الاستانة و بعض بلاد السلطنة العثمانية والديار المصرية وكانت زيارته لمصر سنة ١٦٥٧ ، ورحلته من أهم الرحلات وأدقها

— رحلة بروتى وشارل فرانسوادورليان Protais et Charles-François d'Orléans فى الصعيد سنة ١٦٦٨

— رحلة نيبور Niebhur وهو رحالة دانمركى جاء مصر سنة ١٦٧١ — ١٦٧٢

بأمر ملك الدانمرك وطبعت رحلته بعنوان — رحلة فى بلاد العرب و بعض البلاد المجاورة

— رحلة فانسليب Vansleb وهو سائح ألمانى المولد فرنسي التبعة زار مصر مرتين أهمهما سنة ١٦٧٢ — ١٦٧٣ Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte

— وصف مصر للمسيودى مايه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر، وهذا الكتاب ليس برحلة وإنما هو مجموع رسائل كتبها المسيودى مايه فى وصف مصر حينما كان قنصلا لفرنسا بها سنة ١٦٩٢ و بقى متوليا هذا المنصب ست عشرة سنة تعلم فى خلالها العربية ودرس أحوال البلاد واتصل بعلمائها وأعيانها وكتب رسائل عنها نشرها القس لوماسكرييه Le Mascrier طبعت سنة ١٧٣٥

— رحلات المسيو پول لوكاس Paul Lucas وهو رحالة فرنسى زار مصر ثلاث مرات وله فيها ثلاث رحلات وله خريطة دقيقة عن مصر رسمها سنة ١٧١٧ ، واثنتان من هذه الرحلات بأمر الملك لويس الرابع عشر

— رحلة السائح الفرنسى جرانجيه Granger فى مصر سنة ١٧٣٠

Relation d'un Voyage fait en Egypte

— رسائل الاب سيكار Père Sicard الجزء الثانى وهو قسيس أقام بمصر عدة سنين عضواً فى إحدى البعثات الدينية ومات بها سنة ١٧٢٦ وله خريطة عن مصر رسمها بالقاهرة سنة ١٧٢٢

— رحلة نوردن Norden فى مصر والنوبة Voyage d'Egypte et de Nubie وهو قبطان فى البحرية الدانمركية ساح في مصر من سنة ١٧٣٧ — ١٧٣٨ بأمر ملك الدانمرك وكتب عنها ثلاثة أجزاء ، وتعد رحلته من أهم الرحلات وأدقها وأوفاها ولها مصور ملحق بها فيه رسوم مدينة الاسكندرية والميناء الشرقيــة وقلعة قايتباي وقلعة (أبو قير) ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغيرها من مواقع مصر المهمة

— رحلة ريشار پوكوك Richard Pococke وهو رحالة انجليزى جاء مصر سنة ١٧٣٧ أثناء سياحة نوردن

— الجزء الرابع من ( مذكرات البارون دى توت عن الترك والتتار )
Memoires du baron de Tott sur les Turcs et les Tartares
وقد زار مصر موفدا من الحكومة الفرنسية لدرس أحوالها ، ووصفها فى الجزء الرابع من كتابه المذكور وفى هذا الجزء بيان رحلته الى مصر فى أوائل عهد مراد بك وابراهيم بك

— رحلة المسيو سونينى Sonnini سنة ١٧٧٧ وهو مهندس بالبحرية الفرنسية جاء مصر بأمر حكومة الملك لويس السادس عشر وطبعت رحلته بعنوان (رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى) Voyage dans la Haute et Basse Egypte

— رحلة المسيو سافارى المطبوعة باسم ( رسائل عن مصر ) Lettres sur L'Egypte par Savary فى ثلاثة أجزاء وهو سائح فرنسى زار مصر سنة ١٧٧٧ وقضى بها ثلاث سنوات

— رحلة فولني الكاتب الفرنسى الشهير ساح فى مصر وسورية سنوات ١٧٨٣ و١٧٨٤ و١٧٨٥ فى جزئين Voyage en Syrie et en Egypte par Volney

— كتاب تخطيط مصر — شهد علماء الحملة الفرنسية نظم الحكم فى عهد المماليك وأدركوا بعضها وهو قائم و بعضها فى دور الاحتضار وأمكنهم أن يحققوا هذه النظم بما درسوه من وثائقها ، وما تلقوه من أفواه الذين عرفوها ومارسوها ، ودونوا نتائج تحقيقهم ومباحثهم فى كتاب تخطيط مصر ( وسنعود الى الكلام عنه فيما يلى ) واليك مواضع هذه المباحث من أجزاء الكتاب المذكور

١ — نظام الضرائب العقارية فى أواخر عهد حكومة المماليك للمسيو لانكرى Lancret أحد مهندسى الحملة (الجزء الحادى عشر)

٢ — خلاصة تاريخ المماليك في مصر من عهد ظهورهم الى الحملة الفرنسية للمسيو دلابورت Delaporte أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ( الجزء الخامس عشر )

٣ — مالية مصر من عهد السلطان سليم الى الحملة الفرنسية للمسيو استيف Estève مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة الفرنسية (الجزء الثانى عشر)

٤— عادات سكان مصر الحاليين للمسيو شابرول Chabrol وفيه بحث عن نظام الحكومة (الجزء الثاني عشر)

— تاريخ مصر من الفتح العربي الى الحملة الفرنسية للمسيو مارسل احد علماء الحملة الفرنسية

## عهد الحملة الفرنسية

أول مرجع اعتمدنا عليه هو كتاب الجبرتى مؤرخ مصر فى ذلك العهد وهو الكتاب الفذ المسمى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) فى أربعة أجزاء، ولا يسعنا إلا أن نفرد للجبرتى وكتابه كلمة تنى بأهمية هذا الكتاب

## الجبرتى وتاريخه

هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بن الشيخ حسن الجبرتى ، وكلاهما من نوابغ علماء الازهر ، والشيخ حسن الجبرتى والد المترجم كان عالما بالعلوم الرياضية وما اليها فوق تبحره فى علوم الازهر ، وكانت اليه الرحلة من الاقطار البعيدة فى علم الفلك والعلوم الرياضية ،وقد كان لهذه العلوم أثر كبير فى تثقيف عقل الجبرتى، ولولاها لما وفق الى تأليف كتابه العظيم لان دراسة التاريخ وتدوين الحوادث من الامور التى لم تكن مألوفة فى ذلك العصر ولا يتجه اليها إلا عقل راصد قد ألف أن يرصد ويدون

والجبرتى من أسرة يرجع أصلها الى (جبرت) من بلاد زيلع بأراضى الحبشة ، ارتحل جده السابع « الشيخ عبد الرحمن » الى مصر أوائل القرن العاشر للهجرة وجاور بالازهر وتولى مشيخة رواق الجبرتية ، واستوطنت أسرة الجبرتى مصر من ذلك العهد واشتهرت بخدمة العلم فكان أبوه وأجداده من العلماء وتتابعوا على مشيخة رواق الجبرتية نحو ثلاثة قرون

ولد الجبرتى سنة ١١٦٨ هجرية (١٧٥٦ ميلادية) ، وهذا التاريخ مستفاد مما ذكره هو فى ترجمة أبيه ، فقد روى انه كان لابيه زوجة صالحة توفيت سنة ١١٨٢ هجرية وانه كان فى وقت وفاتها ابن أربع عشرة سنة وعلى ذلك يكون مولده سنة ١١٦٨

وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره من علماء عصره ، وحضر دروس السيد

مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، وكان الجبرتى على فطنة وذكاء وواعية كما يدل على ذلك تاريخه ويقول هو إنه وعى الحوادث فى سن التمييز ، وأخذ يدون كتابه وهو فى سن الاربعين ، وقد أدرك أواخر القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل الثالث عشر (النصف الثانى من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادى ) وهو العصر الذى روى وقائعه رواية معاينة ونظر ، والى ذلك يشير بقوله فى فاتحة كتابه « إنى كنت سوَّدت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها »

وقد مهد لذلك بنظرة عامة إجمالية فى تاريخ مصر بعد ضعف الخلافة العباسية وانفراد الحكام والولاة بنواحى المملكة ( بعد قتل المتوكل ) وألمع الى عهد الطولونيين فالاخشيديين فالفاطميين فالايوبيين فالمماليك البحرية فالمماليك الشراكسة ويسميهم ملوك الشراكسة

وبدأ بذكر حوادث مصر من ابتداء القرن الثانى عشر الهجرى (حوالى ١٦٨٩ ميلادية)، ولما كانت الحوادث التى وقعت فى النصف الاول من القرن الثانى عشر لم يدركها بنفسه فقد رجع فيها الى رواية من أدركهم ممن عاصروا تلك الحوادث ، وفى ذلك يقول «واستطردت فى ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الاعيان المشهورين ، من العلماء والامراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم »

وقد جمع ما دونه من الحوادث مرتبة على السنين والشهور والايام ، والى ذلك يشير بقوله « فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها فى أوراق متسقة النظام ، مرتبة على السنين والاعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ، ويستفيد ما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر إنما يتذكر أولو الالباب ، فإنها حوادث غريبة فى بابها ، متنوعة فى عجائبها ، وسميته « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار »

والحق أن الجبرتى عانى كثيراً فى جمع الحوادث وبخاصة التى وقعت من أوائل

القرن الثانى عشر الى الزمن الذى وعى فيه الحوادث لقلة المراجع ، ولم يجد كما يقول لتاريخ هذه المدة الطويلة سوى كتاب واحد لاحمد بن جلبى بن عبد الغنى ، يبتدىء من تاريخ الفتح العثمانى الى سنة ١١٥٠ هجرية ( ١٧٣٧ ميلادية ) ومع ذلك لم يستطع الرجوع اليه لضياع هذا الكتاب ، فاضطر أن يرجع الى النقل من أفواه الشيوخ المتقدمين فى السن وصكوك دفاتر الكتبة و المباشرين وما نقش على أحجار مقابر المتوفين من أول القرن الثانى عشر الى سنة ١١٧٠ ( أى من سنة ١٦٨٩ الى سنة ١٧٥٦ ميلادية ) ، وأما الحوادث التى وقعت من سنة ١١٧١ ( ١٧٥٧ ميلادية ) الى سنة ١١٩٠ ( ١٧٧٦ ميلادية ) فقد شهدها الجبرتى ، ودون وقائعها بعد حدوثها بعدة سنين ، وفى كل ذلك يقول « فرجعنا الى النقل من أفواه الشيخة المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أول القرن ( الثانى عشر ) إلى السبعين ، وما بعدها ( أى بعد سنة ١١٧٠ ) الى التسعين أمور شاهدناها ، ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها الى وقتنا أمور تعلقناها ، وقيدناها وسطرناها » وكذلك شهد الحوادث التى وقعت من سنة ١١٩١ الى ١٢٣٦ هجرية ( ١٧٧٧ — ١٨٢١ ميلادية ) ودونها فى كتابه

فالجبرتى اذن شاهد عيان للحوادث التى وقعت بمصر من سنة ١٧٥٧ ميلادية الى سنة ١٨٢١ وهى السنة التى ختم بها كتابه ، أما الحوادث التى سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع الى الوثائق المخطوطة

وتاريخ الجبرتى هو التاريخ الوحيد الذى يعول عليه لمعرفة أخبار مصر فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتى كتب عن هذه الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه ، اما رجال الحملة الفرنسية وعلماؤها فقد دونوا ما شهدوه من الحوادث ، لكن مشاهداتهم واقعة على فترة وجيزة من الزمن لا تتجاوز فى الارجح سنة واحدة ( وهى السنة التى قضاها نابليون فى مصر ) أو ثلاث سنوات على الاكثر ، ومع ذلك فكتاباتهم فى الغالب مقتضبة يرى القارىء عليها مسحة العجلة بخلاف الجبرتى فان كتابته تدل على الاستقراء والتمحيص ،

وقلما يوجد كتاب فرنسى فى تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع الى الجبرتى ولم ينقل عنه، فهو مرجع متفق على أهميته إجماعا ، وكتابه يسمى فى معظم الكتب الفرنسية « يوميات عبد الرحمن »

وفضيلة الرجل فى تدوينه للحوادث أنه كان يتحرى الدقة والصدق ويتوخى الحق، ولم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأى إنسان مهما عظم نفوذه ، وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتى من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه وبخاصة فى تراجمه فانك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ذاكراً لكل منهم ماله وما عليه، وقد صدق فى قوله عن كتابه « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للاخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى »

ويعد الجبرتى من كبار علماء الازهر النابهين ، لذلك اختاره الجنرال ( منو ) لعضوية الديوان ضمن الاعضاء التسعة الذين عينهم فى أواخر عهد الحملة الفرنسية كما بسطنا ذلك مفصلا فى الجزء الثانى ، وقد ورد اسمه صراحة ضمن هؤلاء الاعضاء التسعة فى الوثائق الرسمية للحملة ، وذكر الجبرتى اسمه فى كتابه محوطا بالابهام ضمن هؤلاء التسعة ، لانه عبر عن نفسه بقوله ( وكاتبه ) ، ومن هنا جاء الابهام ، ذلك أن عبارة ( وكاتبه ) ، وردت محشورة ضمن أسماء أعضاء الديوان وجاءت بعد اسم الصاوى ، مما يدعو الى الظن بأن المقصود كاتب الصاوى ، ولولا اننا رأينا اسم الجبرتى فى الوثائق الفرنسية للحملة لفاتنا أنه هو المقصود بكلمة ( كاتبه ) ، ولا ندرى هل اكتفى الجبرتى بالاشارة الى نفسه بقوله ( وكاتبه ) تواضعاً أم إبهاما ، ولو أراد الايضاح لقال ( وكاتب هذه السطور ) ، وقد رأينا توقيعه ضمن أسماء أعضاء الديوان فى عهد (منو) بذيل رسالة ودية بعثوا بها الى نابليون حينما كان قنصلا أول ونشرتها جريدة (الكوريبه دليجبت) فى العدد ٩١ الصادر فى ١٥ فريمير من السنة التاسعة ( ديسمبر سنة ١٨٠٠ ) ولم نر لهذه الرسالة أثراً فى كتاب الجبرتى

والمعروف أن الفرنسيين كانوا يختارون لعضوية الديوان أشهر العلماء وأنبههم فى مصر ليجعلوا له شيئاً من المكانة ، ولم تمنع الجبرتى عضويته للديوان أن يكتب باستقلال ونزاهة عن الفرنسيين وحكمهم ، ولو علموا أنه يقيد الحوادث والفظائع التى ارتكبها عمالهم ويدونها فى مسودات كتابه وأن هذا الكتاب سيكون أعظم مرجع فى وقائع الحملة الفرنسية لما فاتهم مصادرة هذه المسودات وإعدامها ، وظاهر من أسلوبه فى الكتاب أنه كان يكتب حسبما يملى عليه اعتقاده ، ولم يفته أن يذكر للفرنسيين ما فعلوه من خير، فقد مدح اعتدالهم وعدالتهم فى محاكمة قتلة كليبر ، وذكر الاصلاحات التى أحدثوها فى مصر ، وعدد مساوىء الحكم التركى كما ذكر مساوىء الحكم الفرنسى ولم يفته شىء من سيئات حكم الاتراك ، ويكفيك في بيانها ماذكره عن مظالمهم بقوله انها جعلت المصريين وخصوصاً الفلاحين يتمنون أحكام الفرنسيين

على ان من يتأمل فى كتاب الجبرتى لا يفوته ملاحظة أنه مع عدم تحيزه فى ذكر الحوادث يميل بعض الميل الى الامراء المماليك ، وهذه الميول تبدو من خلال بعض أقواله بالرغم من انه يحاول كتمانها ، ولعل هذه الميول البريئة ناشئة عن أنه كان على صلات من الود مع بعض البكوات المماليك ، وكان هو موضع احترامهم وإجلالهم ، وكان يسميهم «الامراء المصريين» وقد أدرك مذبحة المماليك فى القلعة سنة ١٨١١ وكان له بين القتلى أصدقاء اتصل بهم بروابط الود ، فكان لهذه المذبحة أثر أليم فى نفسه ، وكان من جهة أخرى صديقاً لمحمد بك الالفى أحد زعماء المماليك ومعجبا به ، وترى دلائل اعجابه فى ترجمته له ، ومحمد بك الالفى هو خصم محمد على الألد ، فكل هذه الاعتبارات كان لها أثرها فى حكم الجبرتى على أوائل عصر محمد على باشا ، على أن حكمه هذا لا يمكن أن يؤخذ حجة فى مجموعه ، لأن من شروط صحة الحكم على عصر من العصور أن يتناوله المؤرخ بأكمله ، والجبرتى لم يدرك إلا أوائل حكم محمد على

ورغم تلك الملاحظة فانه لا يسع من يدرس كتاب الجبرتى إلا الاعتقاد بنزاهته وبعده عن الهوى، وتحريه الصدق فيما دونه ، وهذه الفضيلة هى أعظم مميزات الجبرتى،

وميزته الثانية هي كفايته في تدوين الحوادث وما بذله من الجهد والصبر في البحث والاستقراء

وللجبرتي الفضل الاكبر في تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ولولاه لغابت عنا حوادث مصر في تلك الحقبة الطويلة من الزمن ولصرنا منها في ظلمة وحيرة

وليس كتابه مرجعا للحوادث التاريخية وحسب ، بل تجد في خلال عباراته ومشاهداته صورة حية لحالة مصر الاجتماعية في ذلك العصر ، ولولاه لكان مرجعنا في ذلك أقوال الافرنج الذين ساحوا في مصر في فترات مختلفة ، وهؤلاء لا يمكن التعويل على أقوالهم لانهم لم يدرسوا الوسط الذى كتبوا عنه ، وأغلب كتاباتهم مبنية على المشاهدات الفجة والآراء السطحية والروايات التي يلتقطونها من افواه التراجمة ، ولذلك نرى كتبهم مملوءة بالاغلاط والسخافات ، ولا يصح أن يقام لها وزن بجانب كتاب الجبرتي الذى نشأ وقضى حياته في مصر ودرس أحوالها وعرف دقائق الامور في حوادثها السياسية وأحوالها الاجتماعية ، وحسبك انه شاهد عيان لحوادث خمسين عاما أو نحوها، وانه استقرأ حوادثها في نحو خمسين عاما أخرى ، ولم يتوفر مثل هذا الاستقراء وهذه المشاهدة لعالم آخر ، ويكفيك أيضا أنك تستطيع أن تجد تراجم رجال مصر في العصر الذى كتب عنه الجبرتي ، وقلما تستطيع أن تقف على تراجم الوفيات بعد انتهاء كتابه ، ولو أن مؤرخا قام بعد الجبرتي ودون حوادث مصر وترجم لرجالها من سنة ١٨٢٢ لما انقطعت سلسلة التاريخ بعد وفاته ولكان لدينا صورة حية لحوادث مصر وأحوالها الاجتماعية وتاريخ رجالها من ذلك العهد الى نهضة الصحافة المصرية التي صارت بمثابة سجل لحوادث البلاد ، فهذا النقص الذى نشعر به هو من أعظم الأدلة على فضل الجبرتي على التاريخ المصرى

## أسلوب الجبرتي ولغته

يضربون المثل على انحطاط الكتابة في ذلك العصر باسلوب الجبرتي ولغته ،

على ان الجبرتى لا يزعم انه كاتب اديب ، وقد كانت الكتابة صناعة ادبية يقوم بها من توفروا على اسبابها من حفظ الرسائل والشعر وفنون الأدب المعروفة ، ومع ان الجبرتى من تلاميذ السيد مرتضى شارح القاموس فلم يفده السيد اكثر مما كان يفيده لو اعطاه كتاباً من امهات كتب اللغة ، فوقعت فى تاريخه الاغلاط الكثيرة فى المفردات وفى العبارة وفى الاسلوب ، ويرجع كل ذلك لى انه لم يفرغ للادب ولا مهر فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ثم عمد الى التاريخ ، فسبيله الدقة والتمحيص ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمعاناة ، والقيام أحسن القيام على تدوين الوقائع ، وذلك كله قد وفى الرجل به ، أما اللغة وتراكيبها وبدائعها فصناعة أخرى تحتاج الى مثل الوقت الذى ألف كتابه فيه ، وأكبر الظن أنه مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب ، فلو كان العمر قد امتد به لنقح وهذب ، وبحث وفتش ، وأضاف الى صناعة التاريخ صناعة الكتابة ، على أن الرجل لم يكن قليل البضاعة فى الادب ، فان عباراته فى بعض المواطن تدل على أنه ضرب بسهم فى اللغة وأوضاعها ، لكنه لم يعن بالانشاء والبلاغة ، فأسلوب الجبرتى اسلوب تقريرى لا شأن له بصناعة الترسل ولا بفنون الأدب ، وما يتفق فيه من محاسن اللغة والتعبير فمرجعه الى المصطلحات والالفاظ الشرعية الجارية فى الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الادب ، وهذه المراجع هى مادة العلم واللغة فى ذلك العصر ، وظاهر لمن يحقق النظر فى كتاب الجبرتى من الوجهة اللغوية أنه لولا العلوم الشرعية وما يجرى فيها من اللغة وأوضاعها لبادت الكتابة العربية فى ذلك العصر ولكان تاريخ الجبرتى قد جاءنا فى لغة لبس فيها من العربية إلا حروفها .

## ترجمة كتابه

وقد ترجم كتاب الجبرتى للفرنسية مرتين ، الاولى بقلم المسيو كاردان Cardin مترجم القنصلية الفرنسية بمصر المتوفى سنة ١٨٣٨ ، وهذه الترجمة قاصرة على

الجزء الخاص بالحملة الفرنسية وهى تحوى اغلاطا كثيرة ، وقد طبعت سنة ١٨٣٨ ،
اما الترجمة الصحيحة الوافية فهى لنخبة من أدباء مصر برآسة المرحوم شفيق بك
منصور ريكن وقد ظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٦
وترجم الجزء الخاص بالحملة الفرنسية ايضا الى التركية

## وفاة الجبرتى

اختلف الرواة فى تاريخ وفاة الجبرتى، ففى بعض الروايات انه توفى سنة ١٢٤١ هجرية ، على أن رواية المرحوم شفيق بك منصور يكن أقرب الى الثقة لانه حقق مسألة وفاته وتحرى عن ذريته لمناسبة ترجمة الكتاب الى اللغة الفرنسية ، فكتب فى مقدمة الترجمة أنه توفى يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هجرية (١٨ يونيه سنة ١٨٢٢) وقال عن ذريته « انه توفى تاركا غلاما وبنتا وان الغلام مات عقب وفاة والده بسنوات قليلة وأن البنت كانت لم تزل على قيد الحياة بالقاهرة حتى ظهور الترجمة الفرنسية للكتاب لكنها كانت تعيش نسيا منسيا » ولم يرو لنا أحد من معاصريها ماذا صارت اليه ، وهكذا درست عائلة الجبرتى بعد ما أحيا عميدها تاريخ مصر.

ويستفاد من رواية شفيق بك منصور يكن أن كتاب الجبرتى ينتهى عند حوادث سنة ١٨٢١ وأنه لا يوجد جزء خامس كما يروى البعض دون فيه حوادث السنوات التى أعقبت سنة ١٨٢١ اذ أن تاريخ وفاته سنة ١٨٢٢ يقرب الى الذهن أن ما دونه ينتهى بنهاية الجزء الرابع من الكتاب

* * *

— كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية » تأليف المعلم نقولا الترك من أدباء لبنان

ترجم المسيو ديجرانج Desgranges هذا الكتاب الى الفرنسية ونشر الاصل العربى مع الترجمة فى كتاب واحد طبع فى باريس سنة ١٨٣٩ ، وذكر المسيو ديجرانج أنه

قابل المعلم نقولا الترك المذكور وتعرف به وذكر عنه انه ولد فى دير القمر سنة ١٧٦٣ وتوفى بها سنة ١٨٢٨ وأبوه يوسف الترك وأصل عائلته من الاستانة وأنه كان فى خدمة الامير بشير الشهابى الذى أوفده الى مصر على عهد الحملة الفرنسية وقضى بها ثلاث سنوات شهد فى خلالها وقائع الحملة الى جلاء الفرنسيين وجمع مشاهداته التى ألف منها كتابه ، فروايته من هذه الناحية رواية شاهد عيان ، وقد نقلنا عنه بعض مشاهداته وملاحظاته

— ( تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين )

هى رسالة صغيرة ليس لها قيمة من الوجهة التاريخية ، وضعها الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان فى عهد الحملة الفرنسية ، و يقول فى مقدمتها عن سبب وضعها أنه لما حضر يوسف باشا الصدر الاعظم الى بلبيس فى شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه و بين طائفة الفرنساوية فى قلعة العريش « وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته طلب منى بعض الاخوان من أتباع ذلك الصدر الاعظم أن أجمع كتابا متضمناً لواقعة الحال المذكورة فأجبته الى ذلك » وليس فى الرسالة عن واقعة الحال المذكورة سوى صحائف قليلة لا تغنى شيئا ، وقد نقلنا عنها بعض فقرات مما شاهده الشيخ الشرقاوى بنفسه

الوثائق الفرنسية للحملة

— مراسلات نابليون Correspondances de Napoleon وهى مجموعة تحتوى جميع المراسلات والأوامر والقرارات والمنشورات والوثائق التى صدرت من نابليون فى جميع أدوار حياته ، وهى مرجع على جانب عظيم من الأهمية طبعت بأمر الأمبراطور نابليون الثالث فى اثنين وثلاثين مجلداً

— مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران Bertrand فى سانت هيلين ، القسم الخاص بمصر عنوانه ( حروب مصر وسوريا ) فى جزءين
Campagnes d'Egypte et de Syrie
طبعت هذه المذكرات سنة ١٨٤٧ ، وهى مصدر كبير القيمة يحتوى على معلومات

دقيقة عن حروب نابليون وسياسته ولكن فيها ملاحظة لا تفوت القارىء وهى انها كمذكرات العظماء ورجال السياسة لا تخلو من نقطة ضعف منشؤها أنهم فى بعض المواطن يكتبون ليدافعوا عن أنفسهم أمام التاريخ وأمام الأجيال المقبلة فيحرفون بعض الوقائع فى سبيل هذه الغاية ، فمذكراتهم من هذه الناحية يجب أن تقابل بالتحفظ وأن تكون رواية الوقائع فيها محلا للبحث والتحقيق

— مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال جورجو Gourgaud ، وهى مذكرات أخرى أملاها على الجنرال المذكور أحد رفقائه فى المنفى نشرت سنة ١٨٢٣ وفيها معلومات لم ترد فى مذكرات برتران لكن هذه أوفى بيانا

— ذكر حروب الجنرال بونابات فى مصر وسوريا

Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie

وهو كتاب للجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، ضمنه تاريخ المعارك والحوادث التى وقعت فى مصر وسوريا من يوم وصول الحملة الفرنسية إلى انتهاء معركة ( أبوقير ) البرية ، طبع قبل انتهاء الحملة الفرنسية ، والجنرال برتييه هو من رفاق نابليون فى حياته الحربية والسياسية وكان رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية فى ايطاليا ثم فى مصر ، وقد عاد إلى فرنسا صحبة نابليون بعد واقعة أبو قير البرية قبل انتهاء حوادث الحملة وتقلد وزارة الحربية عند ما صار نابليون قنصلا أول ولازمه فى حروبه وكان موضع ثقته ورقاه مارشالا ثم دوقا ثم أميراً لكنه تخلى عنه سنة ١٨١٤ بعد أن أفل نجمه ومات سنة ١٨١٥ ويقال إنه مات منتحراً

— مذكرات المارشال برتييه وهى مذكرات أكثر تفصيلا من كتابه

— تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر للمسيو مارتان فى جزءين طبع سنة ١٨١٥

Histoire de l'Expedition française en Egypte p. Martin

والمسيو مارتان هو أحد مهندسى الحملة الفرنسية وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون وممن اشتركوا فى وضع كتاب ( تخطيط مصر )

— مذكرات بوريين

Memoires de Bourienne sur Napoleon, le Consulat, l'Empire et la Restauration

وبوريين هو سكرتير نابليون الخاص ، نشر مذكراته سنة ١٨٣١ فى عشرة أجزاء [١] ، ومما يجدر ملاحظته أن هذه المذكرات مع أهميتها ودقة بياناتها يجب ان تقابل (فى بعض المواطن) بالتحفظ لأن المعروف عن بوريين أنه تنكر لنابليون لما أفل نجمه فى حروبه الأخيرة التى انتهت بأسره فى واقعة واترلو وانضم فى هذا العهد الى خصومه من الملكيين وكافأوه على تنكره لسيده

— مذكرات الجنرال كليبر Carnet du general Kleber

— يوميات الجنرال كليبر Journal du general Kleber

— مذكرات الجنرال موران عن أعمال كليبر

Notes du general Morand sur les operation de general Kleber

— مذكرات (ميو) عن تاريخ حملة مصر وسوريا

Memoires pour servir à l'histoire des expeditions en Egypte et en Syrie p. J Miot

وميو هذا كان قومسيراً فى ادارة مهمات الحملة

— مصر بعد واقعة عين شمس

L'Egypte après la bataille d'Heliopolis

تأليف الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية ، طبع سنة ١٨٠٢ ، وهذا الكتاب يحتوى تاريخ حوادث مصر من نقض معاهدة العريش إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وفيه فذلكة عن الحوادث التى وقعت فى عهد قيادة الجنرال كليبر ، فهو من هذه الجهة يعتبر مكملا لكتاب الجنرال رتييه ، لان كتاب رتييه ينتهى بآخر عهد نابليون فى مصر ، وبدراسة الكتابين تتمثل لديك مجموعة

---

(١) أعيد طبعها فى خمسة أجزاء كل جزء يتناول جزءين من الطبعة الأولى

حوادث الحملة الفرنسية كما يرويها قائدان من أهم قواد الحملة ، والمعروف عن الجنرال رينييه أنه كان خصماً لدوداً للجنرال منو Menou وكان بينهما خلاف شديد أشار اليه الجبرتى فى كتابه ، وقد أمر منو بطرده من الاسكندرية فى آخر عهد الحملة الفرنسية ( وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى الجزء الثانى ) فوضع رينييه كتابه ليدافع عن وجهة نظره وخططه الحربية التى عارض فيها منو ، على أن رينييه كان معتدلا فى شرح آرائه متحرياً الصدق فى سرد الوقائع معتمداً فى كتابه على الوثائق والبيانات الرسمية ، ويعتبر كتابه هذا من أهم وثائق الحملة الفرنسيه ، وقد مات الجنرال رينييه سنة ١٨٠٤ وأعيد طبع الكتاب سنة ١٨٢٧ باسم مذكرات رينييه

Memoires de Reynier

— جريدة ( كوريبه دليجبت) Courier de l'Egypte وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية وقد تكلمنا عنها ص ١٤٥

— جريدة ( لاديكاد اجيبسيين ) La Decade Egyptienne وقد تكلمنا عنها ص ١٤٥

— رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بونابارت، للمسيو فيفان دينون

Voyage dans La Basse et La Haute Egypte pendant les campagnes du general Bonaparte p. Vivant Denon

وقد تكلمنا عن هذا الكتاب ومؤلفه ص ١٣٩

— التاريخ الطبى لجيش الشرق للدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية

Histoire médicale de L'Armée d'Orient p. Desgenettes

— ذكريات ديجنيت Souvenirs de Desgenettes

— رسائل من مصر بقلم المسيو جوفروا سان هيلير أحد علماء الحملة وقد تكلمنا عنه ص ١٣١

Lettres ecrites d'Egypte p. Geoffroy Saint Hilaire

— مذكرات دفيلييه أحد مهندسى الحملة ( يوميات وذكريات عن حملة مصر ) Journal et Souvenirs sur l'Expedition d'Egypte وقد تكلمنا عنها ص ١٢٨

— مذكرات جالوا أحد مهندسى الحملة ( أنظر ص ١٢٨ )

Journal d'un ingenieur attaché à l'Expedition D'Egypte p. Jallois

— تاريخ حملة مصر Histoire de l'Expedition d'Egypte للمسيو نورى Norry أحد مهندسى الحملة وقد تكلمنا عنه وعن كتابه ص ١٣٠

— يوميات مالوس Agenda de Malus ( أنظر ص ١٣٧ ) وهو ضابط كبير فى جيش الحملة وعضو بالمجمع العلمى ، ومذكراته تتناول الحوادث من فبراير سنة ١٧٩٨ الى يوليه سنة ١٨٠١ لكنها طبعت سنة ١٨٩٢

— وللجنرال مارمون Marmont أحد قواد الحملة رحلة فى بعض بلاد أوروبا والشرق ، وكانت رحلته الى مصر فى عهد محمد على باشا وقد دون فيها مشاهداته وذكرياته عن الحملة الفرنسية طبعت باسم ( رحلة المارشال الدوق دى راجوز ) Voyage du Marechal duc de Raguse وهو بذاته الجنرال مارمون الذى رقاه نابليون الى لقب دوق فصار يعرف بالدوق دى راجوز ومنحه رتبة ما رشال ثم غدر بسيده لما أفل نجمه وانحاز الى أعدائه فعدّ عمله مضرب الأمثال فى الغدر ونقض العهد، وقد طبعت رحلته سنة ١٨٣٧

— مذكرات دى نيلو سارجى أحد ضباط الحملة ، مات سنة ١٨٠٢ ونشرت مذكراته سنة ١٨٢٥

Memoires secrets et inedits pour servir à l'histoire contemporaine sur l'Expedition d'Egypte p. De Niello —Sargy

— صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى للمسيو جالان

Tableau de l'Egypte pendant la séjour de l'armee française p. Galland

طبعت سنة ١٨٠٤ فى جزءين ، والمسيو جالان هو أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان أديباً وموظفاً فى جريدة ( الكوربيه دليجبت )

— جيش بونابارت فى مصر للقومندان جيترى
L'Armée de Bonaparte en Egypte p. Guitry

— بونابارت فى مصر للكابتن تورمان أحد ضباط الحملة
Bonaparte en Egypte p. Thurman

— يوميات الجنرال لوجييه Journal du Général Laugier

— يوميات الكونتر اميرال بلانكى دى شايلا أحد قواد العمارة الفرنسية
Journal du contre - Amiral Blanquet du Chayla

— يوميات الجنرال بليار
Journal du general Belliard

— مذكرات الجنرال ديفرنوا Memoires du general baron Desvernois

— مذكرات سلكوسكى Notes de Sulkowsky

— مذكرات حربية للكولونل فيجو روسيليون
Memoires militaires du colonel Vigo Roussillon

— مذكرات تاريخية عن حركات ومواقع فرقة الجنرال ديزيه للكابتن جاربيه من ضباط فرقة الهندسة
Memoires historiques des marches et positions de la division de general Desaix p. le capitaine de genie Garbé

— ذكريات عن حملة مصر للفارس بييرمييه
Souvenirs de la campagne d'Egypte p. le chasseur Pierre Millet

— يوميات فارس عن مصر ، وهو أحد ضباط الحملة الفرنسية لم يذكر اسمه فى كتابه
Journal d'un dragon d'Egypte

— تاريخ حملة مصر وسوريا للمسيو أدير ، وهو ليس بشاهد عيان لكن كتابه راجعه الجنرال بوفيه Beauvais رئيس أركان حرب الجنرال رينييه
Histoire de l'Expedition d'Egypte et de Syrie p. Ader

— مذكرات جديدة عن الجيش الفرنسى فى مصر وسوريا لريكاردو ، نشرت سنة ١٨٤٨ بعد عهد طويل من الحوادث التى دونت فيها

**Nouveaux memoires sur l'armée française en Egypte et en Syrie p. Richardo**

— مجموعة ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التى فاز فيها بونابارت فى ايطاليا ومصر

**Recueil de plans de batailles, attaques et combats gagnés p. Bonaparte en Italie et en Egypte**

وهو كتاب لاثنين من ضباط أركان حرب نابليون ممن شهدوا وقائعه ولم يذكرا اسميهما فى الكتاب

— يوميات سافارى **Carnet du chef d'escadron Savary** أحد ضباط الحملة الفرنسية ( وهو غير المسيو سافارى صاحب كتاب رسائل عن مصر ) ، والضابط سافارى هو الذى صار فى عهد الامبراطورية النابليونية الدوق روفيجو **Duc de Rovigo** وله مذكرات طبعت باسم مذكرات الدوق روفيجو

**Memoires du duc de Rovigo**

— يوميات عن الحملة الانجليزية فى مصر للكبتن ولش **Walsh** أحد ضباط تلك الحملة

**Journal of the late Campaign in Egypt**

يتضمن حوادث الحملة الانجليزية التى اشتركت مع الحملة العثمانية لاخراج الفرنسيين من مصر ، ويبدأ بسرد وقائع الحملة من يوم احتشاد الجيش الانجليزى فى جبل طارق ( نوفمبر سنة ١٨٠٠ ) الى جلاء الفرنسيين عن مصر وقد ترجم الكتاب للفرنسية

***

ولعلك تشعر معى بأسف عظيم عند ما تقارن بين ماتركه رجال السيف والقلم فى أوروبا من المذكرات والوثائق فى مختلف العصور وبين نقص تاريخنا من هذه الناحية ، ويزيدنا أسفا أن هذا النقص يلقى ظلاما حالكا على كثير من وقائع تاريخنا ويحول دون تعرف الحقائق فى كثير من أمهات الحوادث ، ولو عنى رجالنا بتدوين مذكراتهم

وخواطرهم ومشاهداتهم وجمع الوثائق والمخطوطات التى توفروا عليها وعنيت سلالتهم بالمحافظة عليها ونشرها كعناية القوم فى أوروبا لـكان فى ذلك أكبر خدمة لتاريخ مصر ولاكتسبت الآداب التاريخية فى بلادنا مادة تعد من أصول الفقه التاريخى

## كتاب تخطيط مصر

**Description De l'Egypte**

هو الـكتاب الخالد الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، يحتوى مجموعة أبحاثهم ومذكراتهم وخرائطهم ورسومهم واكتشافاتهم فى خلال السنوات الثلاث التى قضوها فى مصر ، وهو أعظم كتاب ظهر فى العصر الحديث عن تخطيط مصر أو هو دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة الى انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، يتناول تخطيط آثارها وبلدانها القديمة والحديثة وثغورها وسواحلها ونيلها وترعها ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماكها وحشراتها ومعادنها وأحجارها وزراعتها وصناعتها وتجارتها وعلومها وفنونها وأخلاقها وعاداتها ، وهو وان لم يكن تاريخا لوقائع الحملة الفرنسية لـكن بعض حوادثها وردت فيه خلال أبحاثه العلمية ، على أن الـكتاب لعظم قيمته لايمكن أن يستغنى عن دراسته كل من يريد الـكتابة فى تاريخ مصر من أى ناحية من نواحيه

بدأ علماء الحملة الفرنسية فى وضع هذا الـكتاب وتبويبه من عهد رجوعهم الى فرنسا فأخذوا يجمعون المباحث التى أتموها أثنـاء إقامتهم بمصر وينقحونها ويبنون عليها ، فقضوا فى تأليف الـكتاب سبعة عشر عاما ، ومات بعض مؤلفيه أثناء تأليفه

وكان وضع الـكتاب وطبعه بطلب من الحـكومة الفرنسية ، فقـد أمر نابليون بعـد عودة الحملة الفرنسـية من مصر أن تجمع الابحاث والخرائط والرسوم وجميع المذكرات الخاصة بالعلوم والفنون مما انتهى اليه علماء الحملة فى كتاب واحد يطبع بنفقة الحـكومة ، وألفت لجنة من ثمانية من أكبر علماء الحملة اختارهم جماعة المؤلفين لتبويب الـكتاب وجمع مواده واخراجه ، وأعضاء هذه اللجنة هم برتوليه Berthollet ومونج

Monge وكونتى Conté وكوستاز Costaz وديجنيت Desgenettes وفوريه Fourier وجيرار Girard ولانكرى Lancret ، وضم اليهم فى خلال العمل دليل Delile وديفيلييه Deviliers وجومار Jomard وجالو Jollais ، وتولى برتوليه رآسة اللجنة، وتداول سكرتاريتها على التعاقب المسيو لانكرى ثم جومار ثم جالوا

وكان للجنة قوميسير فنى مندوب عن الحكومة يتولى تنظيم العمل وانفاذه وهو المسيو كونتى Conté ، و بعد وفاته خلفه المسيو لانكرى، و بعد وفاة الاخير خلفه المسيو جومار الى أن تم ظهور الكتاب

وقد ظهرت الأجزاء الأولى من الكتاب سنة ١٨٠٩ واستمرت تظهر تباعاً إلى سنة ١٨٢٦ ، وأعيد طبع الكتاب من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٢٩ ، وهى الطبعة الثانية ، وقد درسنا الكتاب فى طبعته الثانية للمسيو بانكوك و بلغ عدد ما بها من الخرائط والرسوم الكبيرة والصغيرة ثلاثة آلاف

والكتاب ينقسم الى وضعين ، قسم النصوص وقسم الخرائط والرسوم ، فالأول يحتوى مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم و يقع فى ستة وعشرين مجلداً ، والقسم الثانى فى أحد عشر مجلداً كبيراً تحتوى رسوم الآثار القديمة ورسوم مصر الحديثة ومدنها ومبانيها وصناعاتها و زراعتها وطبقات سكانها ، وكذلك رسوم حيواناتها وطيورها وأسماكها وحشراتها ونباتها ومعادنها وأحجارها ، والخرائط الجغرافية عن مصر ومديرياتها وسواحلها وترعها و بحيراتها وصحاريها وجبالها ومدنها وثغورها وأسماء البلاد الكبيرة والصغيرة بالفرنسية والعربية

ويقسم من جهة الموضوعات الى ثلاثة أقسام

(١) وصف مصر القديمة الى عهد الفتح الاسلامى وفيه تخطيط دقيق مفصل لآثار مصر القديمة والبلاد القائمة بها تلك الآثار أو القريبة منها وحالتها القديمة والحديثة

(٢) وصف مصر الحديثة من الفتح الاسلامى الى مشاهداتهم خلال الحملة الفرنسية

(٣) التاريخ الطبيعى لمصر
ولا يسع المطلع على هذا الكتاب العظيم الا أن يقر بمقدرة علماء الحملة الفرنسية فى استيعاب الحقائق العلمية واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التى جمعوها فى الفترة القصيرة التى قضوها فى مصر ويعجب بما تذرعوا به من الصبر والجلد لاتمام عملهم الجليل

مؤلفات جامعة
مستندة الى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان

وثمّ كتب لم يكن أصحابها ممن شهدوا الوقائع التى دونوها ، إلا أنها أهم من كثير من المراجع المتقدمة ( عدا كتاب تخطيط مصر ) إذ كانت مستندة إلى وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة والى روايات شهود العيان
وإليك بيان هذه الكتب
— التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر ( فى عشرة أجزاء )
**Hhistoire scientifique et militaire de l'Expedition française en Egypte**
طبع من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٣٦
وهو كتاب جامع اشترك فى وضعه جماعة من علماء فرنسا بادارة المسيو مارسل Marcel أحد علماء الحملة الفرنسية والمسيو ريبو Reybaud أحد كتاب فرنسا السياسيين والمسيو سانتين Santine ، واستعانوا على وضعه بالوثائق والمستندات والمخطوطات والمذكرات التى جمعها لفيف من قواد الحملة الفرنسية وعلمائها ( وبعضهم ممن بقى على قيد الحياة حين وضع الكتاب ) كمذكرات الجنرال بليار ومراسلات الجنرال كليبر ، ووثائق المسيو دور D'Aure مدير مهمات الحملة ، ووثائق الطبيبين الشهيرين لارى Larrey وديجينت ، ومذكرات العالم جوفروا سان هيلير عن تاريخ مصر الطبيعى ، ومذكرات بعض قواد الحملة ، والمخطوطات التى جمعها المسيو مارسل ، ووثائق المسيو بيروس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر الخاص ، ووثائق المسيو

بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية فى عهد الحملة وغيرذلك، وكل هذه المصادر على جانب عظيم من الدقة والأهمية ، والكتاب فى عشرة أجزاء الجزء الاول خاص بمصر القديمة وقد تولى تحريره ريبو ومارسل والمركيز فورتيا دو ربان ، والجزء الثانى خاص بتاريخ مصر من عهد الفتح الاسلامى الى الحملة الفرنسية وتولى تحريره ريبو ومارسل ، والاجزاء الستة التالية خاصة بالحملة الفرنسية وقد تولى تحريرها ريبو وحده ، ولذلك جعلنا الاشارة فى كتابنا الى هذه الاجزاء بكلمة « ريبو » ، والجزءان التاسع والعاشر عن تاريخ مصر من جلاء الفرنسيين وتولى تحريرهما فولابل

وقد وضع ريبو مقدمة الكتاب وهو صاحب القسط الاكبر فيه فيصح أن ينسب اليه

والكتاب فضلا عن مكانته باعتباره أول وأكبر كتاب جامع لوقائع الحملة الفرنسية فانه مستند الى وثائق شهود العيان ، والمسيو مارسل أحد الذين اشتركوا فى تحريره كان فعلا شاهد عيان لحوادث الحملة، وقد قدم المسيو جوفروا سانهيلير الكتاب الى المجمع العلمى الفرنسى

— حملة مصر تأليف الكابتن (ثم القومندان) دى لاجونكيير

L'Expedition d'Egypte p. Le C. De La Jonquière

وهو فى خمسة مجلدات كبيرة نشر فيها المؤلف الوثائق الرسمية للحملة الفرنسية المودعة فى محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ووزارات البحرية والخارجية ، وهو من أهم مراجع هذا العصر ، لكنه قاصر على مدة اقامة نابليون فى مصر ، وينتهى الجزء الخامس منه برحيله الى فرنسا ، وقد ظهر الكتاب من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٧

ويوجد كتاب عن عهد الجنرال كليبر والجنرال منو إلى نهاية الحملة الفرنسية يصح أن يكون تكملة لكتاب القومندان دى لاجونكيير وهو

- كتاب « الجنرال عبدالله منو والفترة الأخيرة لحملة مصر» (١٧٩٩ - ١٨٠١) لمؤلفه المسيو جورج ريجو

Le general Abdallah Menou et la derniere phase de l'Expedition d'Egypte p. George Rigault

ظهر هذا الكتاب سنة ١٩١١ في جزء واحد واستند فيه مؤلفه إلى بعض الوثائق الرسمية وحاول أن يكون مكملا لكتاب القومندان دى لاجونكيير ، لكنه ليس بالتعمق ولا بالاسهاب اللذين نراهما فى كتاب دى لاجونكيير فضلا عن أنه ظاهر من أسلوب مؤلفه أنه كان يكتب مدفوعا بروح الانتصار لمنو والتحامل على كليبر فكتابه يعوزه الاعتدال الذى يكفل النَّصَفَةَ عند تحرى الحقائق

— كتاب الكونت باجول عن كلبر واسمه (كليبر — حياته ومراسلاته)

Kleber, sa vie, sa correspondance p. le general comte Pajol

— كليبر ومنو فى مصر للمسيو روسو

Kleber et Menou en Egypte p. Fr. Rousseau

وهو مجموعة من الوثائق الخاصة بعهد قيادة الجنرال كليبر والجنرال منو فى مصر

عن المدة التى انقضت بعد جلاء الفرنسيين

الى إسناد ولاية مصر الى محمد على باشا

(المراجع العربية)

— الجبرتى وهو أهم مرجع ويفوق فى دقته جميع المراجع الفرنسية ، وقد سبق الكلام عنه

(المراجع الاوربية)

— تاريخ مصر فى حكم محمد على لمسيو فيلكس مانجان

Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly p. Felix Mengin

والمسيو فيلكس مانجان هو شاهد عيان للحوادث التي دونها في كتابه من جلاء الفرنسيين الى سنة ١٨٣٨ وكان مقيما بمصر موظفاً سياسيا فى الوكالة الفرنسية بالقاهرة ، وكان صديقاً لمحمد على باشا واشترك فى بعض الحوادث التى دونها فى كتابه . وكتابه من هذه الوجهة له قيمة كبيرة وهو من أهم مراجع تلك الحقبة من الزمن ويقع فى

ثلاثة أجزاء سرد فى الأول والثانى حوادث مصر من جلاء الفرنسيين الى سنة ١٨٢٣ وهما اللذان يعتبران من مراجع الفترة التي بسطناها فى الجزء الثانى من كتابنا هذا ، أما الثالث من كتابه فجاء خاصا بالحوادث التى وقعت من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٣٨

— لمحة عامة الى مصر للدكتور كلوت بك

Aperçu general sur l'Eygpte p. Clot bey

فى جزءين وقد ترجم الكتاب الى اللغة العربية الاستاذ محمد مسعود بك

— ورجعنا كذلك فى بعض المواطن الى ( الخطط التوفيقية ) للعلامة على باشا مبارك فى عشرين جزءاً ، والى كتاب ( التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية ) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا طبع سنة ١٣١١ هجرية

## كلمة شكر

ولمناسبة مراجع البحث أرى واجباً علىّ أن أقدم جزيل شكرى لحضرات رجال دار الكتب الملكية بمصر على جميل الحفاوة وعظيم المساعدة والمعاونة التى لقيتها منهم فى البحث والمراجعة ، وأخص بالذكر منهم الاستاذ أسعد بك براده مدير دار الكتب ، والاستاذ توفيق بك اسكاروس رئيس القسم الافرنجى ، والأمين الأول الأستاذ على بك فكرى ، والاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبد الرسول رئيس القسم العربى ، ومساعده الأديب المهذب محمد أفندى جبر ، والأمينين الفاضلين خليفه أفندى قنديل وسيد أفندى عمر ، وأقدم مثل هذا الشكر الى الاستاذ الألمعى ، الشيخ أحمد أبى على ، أمين مكتبة الاسكندرية ، فلهم جميعاً منى عظيم الشكر والثناء

# تصحيح خطأ

| صحيفة | سطر | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|
| ١٩ | ٩ | واحضاعهم | وإخضاعهم |
| ٢٦ | ٢٣ | توره | تورده |
| ٣٤ | ١٣ | سواء | سوءا |
| ٦٤ | ٤ | Buanaparte | Buonaparte |
| ٧٨ | ٦ | Dessix | Desaix |
| ٨٥ | ١١ | طرق | طرف |
| ٨٧ | ١٢ | Juoverneront | gouverneront |
| ١٠٤ | ٧ | تمييز | تمييزاً |
| ١١٩ | ٥ | والجنرالين | وكل من الجنرالين |
| ١٣٣ | ٩ | فى عصر محمد على | فى عصر محمد على وعصر اسماعيل |
| ١٤٠ | ١ | القال | فقال |
| ١٤٠ | ٢ | فتركية | التركية |
| ٢٠٨ | ٢١ | عَرَضى | عُرْضى |
| ٣٢٧ | ٨ | (١) | (٢) |
| ٣٢٧ | ٢٢ | (١) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر | (١) تخطيط مصر الجزء السابع عشر (٢) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر |
| ٣٦٩ | ٤ | القرة | القوة |

# فهرست

صحيفة



## الفصل الثانى

## الفصل الرابع

## الفصل السادس



## الفصل السابع

صحيفة

## الفصل الثامن



## الفصل التاسع

## الفصل العاشر

## عودٌ الى البحيرة ورشيد



## الفصل الحادى عشر



## الفصل الثانى عشر

صحيفة



## الفصل الثالث عشر

## الفصل السادس عشر

## الفصل السابع عشر

## الفصل الثامن عشر

## الفصل التاسع عشر

# فهرست الخرائط والرسوم

# حقوق الشعب

هو كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ يتضمن شرح المبادىء والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الانسان ، تخيرنا فى وضعه أسلوب فريق من المؤلفين الغربيين الذين أفرغوا المبادىء السياسية والوطنية فى قالب محاضرات ومحاورات لتعليم الشعب حقوقه وواجباته

# نقابات التعاون الزراعية

## نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوربا

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته ونظمه فى أوروبا والثمرات التى عادت منه على البلاد الأوروبية ، وبحثنا فيه عن نشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ونقاباته ومنشآته ومزاياه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية ١٩١٤

# كتاب الجمعيات الوطنية

## صحيفة من تاريخ النهضات القومية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القوميه فى طائفه من البلدان مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها طبع سنة ١٩٢٢